

العناصر الاعترافية في أعمال السيرة الذاتية في العربية: تحليل نقدي حول النصوص المختارة

أطروحة قدمت إلى جامعة كاليكوت إتماما جزئيا لمتطلبات الحصول على
شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

قدّمها

عثمان م. ك.

تحت إشراف

د. سيد علوي س.

مشرف البحث، قسم الماجستير والبحوث في اللغة العربية وآدابها،
كلية فاروق (حكم ذاتي)، كاليكوت، كيرالا، الهند،
عميد كلية كي. أي. أج. أم. 'يونيتي' للفتيات (سابقا)، مانجيري، ملايرم، كيرالا.



جامعة كاليكوت، كيرالا، الهند.

٢٠٢٤ م



المحتويات

٥	مقدمة البحث.....
١٧	الباب الأول: السيرة الذاتية والاعتراف في التراث العربي.....
١٩	الفصل الأول: السيرة الذاتية في الأدب العربي.....
٣٦	الفصل الثاني: الاعتراف والسيرة الذاتية.....
٤٧	الفصل الثالث: الكتابة عن الذات والاعتراف في العربية عبر العصور.....
٦٨	الفصل الرابع: قضايا في السيرة الذاتية والاعتراف.....
٨٥	الباب الثاني: الأدب والتعبير عن الذات والثقافة العربية.....
٨٧	الفصل الأول: الحياة والتعبير عن الذات.....
١٠٢	الفصل الثاني: الأدب ووظيفته الاعترافية.....
١١٣	الفصل الثالث: الثقافة العربية وطبيعتها السردية.....
١٢٩	الباب الثالث: تحليل النصوص في العصر ما قبل الحديث: منظور اعترافي.....
١٣١	مقدمة الباب الثالث.....
١٣٣	الفصل الأول: 'المنقذ من الضلال والموصّل إلى ذي العزة والجلال' لأبي الحامد الغزالي.....
١٤٩	الفصل الثاني: 'التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا' لابن خلدون.....
١٦٦	الفصل الثالث: 'التحدث بنعمة الله' لجلال الدين السيوطي.....

١٨٣	الباب الرابع: تحليل النصوص في العصر الحديث: منظور اعترافي
١٨٥	مقدمة الباب الرابع
١٨٧	الفصل الأول: 'الأيام' لطفه حسين
٢١٢	الفصل الثاني: 'حياتي' لأحمد أمين
٢٣٨	الفصل الثالث: 'سبعون' لميخائيل نعيمة
٢٦٧	الفصل الرابع: 'الخبز الحافي' لمحمد شكري
٢٨٧	الفصل الخامس: 'رحلة جبلية رحلة صعبة' لفدوى طوقان
٣١٥	الباب الخامس: العناصر الاعترافية في السيرة الذاتية العربية: تحليل نقدي
٣١٧	الفصل الأول: العناصر المشتركة والاعتراف في النصوص في العصر ما قبل الحديث
٣٢٦	الفصل الثاني: العناصر المشتركة والاعتراف في النصوص في العصر الحديث
٣٤٠	الفصل الثالث: الاعتراف في السيرة الذاتية العربية: تحليل نقدي
٣٥٥	خاتمة البحث
٣٥٧	أهم نتائج البحث
٣٦٢	الاقتراحات والتوصيات
٣٦٣	قائمة المصادر والمراجع

مقدمة البحث

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله الذي خلق الإنسان، علمه البيان، والصلاة والسلام على رسوله الأمين وعلى آله وأصحابه أجمعين.

هذه هي أطروحة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها التي أعدها الباحث لتقديمها إلى جامعة كاليكوت، ولاية كيرالا، الهند. يدور هذا البحث حول العناصر الاعترافية في أعمال السيرة الذاتية العربية. كانت الكتابة عن الذات هي ممارسة متبعة في التراث العربي منذ العصر الإسلامي. ولكن 'السيرة الذاتية' بهذا الاسم المعين أصبحت جنسا أدبيا مستقلا في القرن الثامن عشر بمفهومها الحديث حيث يمكن للكاتب من خلاله أن يعبر عما وقع في مراحل حياته المختلفة من حوادث ملحوظة -الصعود والهبوط في حياته، وأفكاره ومعتقداته، وعواطفه وتحيزاته - بكل صراحة.

أما الاعتراف فهو نوع من السيرة الذاتية الذي ظهر في نفس السياق التاريخي تيارا خاصا حيث يركز تفكير الكاتب على الأخطاء والزلات وما إلى ذلك من دخائل نفسه الأكثر حميمة التي وقعت في مختلف مراحل حياته، فيقوم بمصارحتها والبوح بها للقراء.

تحليل العنوان

فهذا البحث المعنون ب'العناصر الاعترافية في أعمال السيرة الذاتية في العربية: تحليل نقدي حول النصوص المختارة' يحوي بعض الاصطلاحات المهمة، منها العناصر هي جمع لكلمة 'عنصر' معناه هنا جانب هام لأمر ما و'الاعتراف' في الأدب هو سيرة ذاتية، إما حقيقية أو خيالية، يتم فيها الكشف عن التفاصيل الحميمة والخفية في حياة الكاتب. أول مثال بارز لهذا

النوع في الأدب الغربي هو 'اعترافات' للقديس أوغسطينوس 'في القرن الرابع وتليها 'اعترافات' روسو في القرن الثامن عشر. ويمكن أن يتضمن الاعتراف عن عيوب الكاتب وخطاياهم ومزالقه، والحياة العاطفية للمؤلف، وتصوير ذاته الداخلية، وسلوكياته الخاصة المدمنة، والإفصاح عن الدوافع وردود الأفعال، وتحليل نفسي لشخصيته، وتجاربه الجنسية وما إلى ذلك من المكونات الداخلية أكثر حميمة للكاتب.

فالاعتراف هو أدب قائم على المكاشفة والتجرد. فالمقصود بالعناصر الاعترافية هي الجوانب الداخلية الخاصة الأكثر حميمة في حياة الفرد التي يشتهي أن يعترف والبوح بها في السيرة الذاتية من غير أقنعة، غالباً ما يتعارض مع الأعراف الاجتماعية.

والسيرة الذاتية هي نوع من الأدب حيث يقوم الكاتب بسرد حياته الحقيقية. فهو "سرد قصصي يتناول الكاتب نفسه ترجمة حياته الخاصة. ويحاول كاتب السيرة الذاتية أن يعرض حكاية مستمرة لما يعتبره أكثر أحداث حياته أهمية ودلالة".^٢ فهي تختلف كثيراً عن الأنواع الأدبية الأخرى من حيث تقنياتها السردية، لأن الكاتب هنا يسرد نفسه قصته الخاصة. وتعتبر المحاسبة الذاتية والتأملات عنها جزءاً لا يتجزأ من السيرة الذاتية الحديثة.

أما التحليل النقدي فهو شرح قطعة أدبية عن طريق التفاسير، الهدف منه توسيع وتعميق الفهم للعمل الأدبي. وفي عملية التحليل النقدي يقوم الباحث بالتعبير عن آرائه أو تقييمه للنص مستخدماً الوسائل الملائمة. فالنصوص المختارة هنا هي مؤلفات السيرة الذاتية التي اختارها الباحث على أساس المعايير المحددة للوصول إلى نتيجة مرجوة ومفترضة. وهي تضم ثمانية نماذج كل من عصري القديم والحديث.

¹ Britannica, The Editors of Encyclopaedia. "confession". *Encyclopaedia Britannica*, 17 Sep. 1999, <https://www.britannica.com/art/confession-literature>. Accessed 10 March 2021.

^٢ إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، التعاقدية العمالية للطباعة والنشر، الجمهورية التونسية، ١٩٨٦.

فالنصوص التي تمثل العصر ما قبل الحديث هي:

- المنقذ من الضلال والموصّل إلى ذي العزة والجلال- أبو حامد الغزالي (١٠٥٩ - ١١١١ م)
- التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا - ابن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦ م)
- التحدث بنعمة الله - جلال الدين السيوطي (١٤٤٥-١٥٠٥ م)

أما النصوص في العصر الحديث فهي:

- الأيام - طه حسين (١٨٨٩-١٩٧٣ م)
- حياتي - أحمد أمين (١٨٨٦-١٩٥٤ م)
- سبعون - ميخائيل نعيمة (١٨٨٩-١٩٨٨ م)
- الخبز الحافي - محمد شكري (١٩٣٥-٢٠٠٣ م)
- رحلة جبلية رحلة صعبة - فدوى طوقان (١٩١٧-٢٠٠٣ م)

وقد تم اختيار النصوص للبحث باعتبار مقاييس محددة، فهي تحوي كل من السياقات التاريخية والخلفيات الثقافية والفكرية والأدبية والبنية الفنية. كل قطعة أدبية نتاج سياق تاريخي معين. أما النصوص الثلاثة الأولى (المنقذ من الضلال - التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا - التحدث بنعمة الله) فهي مؤلفات نشرت قبل تأسيس السيرة الذاتية جنسا مستقلا في الأوساط الأدبية. فهي تنبثق ما بين القرن الثاني عشر والقرن الخامس عشر للميلادي. وعلى حين أن النصوص الخمسة الأخيرة (الأيام - حياتي - سبعون - الخبز الحافي - رحلة جبلية رحلة صعبة) فهي تم نشرها بعد أن أصبحت السيرة الذاتية جنسا معيناً في الأدب الغربي في القرن الثامن عشر.

فالجدير بالملاحظة هنا هو أن هذه المجموعة التمثيلية في العصر الحديث كلها قد تم نشرها ما بين العشرينات والتسعينات في القرن العشرين. وأما الفترة المعاصرة بعد التسعينات فهي تمثل نظاما عالميا معقدا حيث أصبحت العولمة ظاهرة مجسدة متأثرة بالنظريات الأدبية

والفنية مثل ما بعد الحداثة وما بعد الحقيقة. فالنصوص المنشورة في هذه الفترة تتطلب دراسة مركزة مستفيضة على وجه الخصوص.

أما الخلفيات الثقافية فهي عبارة جامعة شاملة تندرج تحتها كل من الدين والجنس والمعتقدات والمستوى الاجتماعي والاقتصادي والتربوي وما إلى ذلك. وقد تم الأخذ في الاعتبار بشكل رئيسي هنا هي الدين والجنس والمستوى الاجتماعي. علاوة على ذلك أن العوامل الفكرية والأدبية والبنية الفنية أيضا قد تم اعتبارها مقياسا لاختيار النصوص.

قام الباحث بجمع ودراسة أعمال السيرة الذاتية الرئيسية والدراسات عنها من الآداب المختلفة بشكل عام للوصول إلى نظرة شاملة في هذا الصدد، كما تم جمعها من الأدب العربي -الابتدائية والثانوية - ودراستها على وجه الخصوص، وخضعت النصوص المختارة للدراسة المركزة، كما قام الباحث بتطبيق بعض النظريات النفسية المتعلقة بالذات والتعبير عنها لدعم الحجج المقدمة في هذه الدراسة.

وبالاختصار، المقصود من عنوان البحث هو محاولة محايدة إلى دراسة في أعمال السيرة الذاتية العربية وتحليلها النقدي مفسرا عناصرها الاعترافية فيها على أساس النصوص التي اختارها الباحث للوصول إلى نتيجة مفترضة.

الدراسات السابقة

لم يجد الباحث دراسة تتطرق إلى العناصر الاعترافية الواردة في النصوص المختارة في هذا البحث. ولكن بعض الدراسات قد أجريت فيما يختص بالسيرة الذاتية العربية. ومن أهمها:

١. إحسان عباس، فن السيرة، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الأولى،

١٩٩٦

٢. إيهاب النجدي، أدب الاعتراف (مقاربات تحليلية من منظور سردي)، دار المعارف،

مصر، الطبعة الأولى، ٢٠١٥

٣. تهماني عبد الفتاح شاكر، السيرة الذاتية في الأدب العربي: فدوى طوقان وجبرا إبراهيم جبرا واحسان عباس نموذجاً، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢

٤. جورج ماي، السيرة الذاتية، تعريب: أ.د. محمد القاضي و أ.د. عبد الله صولة، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٧

٥. دوايت ف. رينولدز (تحرير)، ترجمة النفس: السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ترجمة: سعيد الغانمي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة)، أبو ظبي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩

٦. شوقي ضيف، الترجمة الشخصية، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة

٧. عبد العزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، مؤسسة الاسراء للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٢

٨. يحيى عبد الدائم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٤

ومن أهم الدراسة الجامعية التي أجريت داخل الهند وخارجها:

٩. تيتز رووكي، في طفولتي: دراسة في السيرة الذاتية العربية، جامعة ستكهولم، ١٩٩٧، ترجمة: طلعت الشايب، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢

١٠. زين الدين. م، تطور أدب السيرة الذاتية في مصر، في القرن العشرين، جامعة كيرالا، ٢٠١١

١١. سيف الله، السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث (١٩٥٠-٢٠١٠)، جامعة عليكرة الإسلامية، الهند، ٢٠١٩

١٢. محمد سليم. م. ت، تطور أدب السيرة الذاتية العربية الحديثة مع تركيز خاص بمصر، جامعة كاليكوت، ٢٠١٤

دوافع اختيار البحث وأهميته

كان قد اعتاد الباحث الاطلاع على الكتب المهمة بعلم النفس فيما يتعلق بتشكيل ذات الانسان وما فيها من خصلته المتميزة ونمط التفكير والمشاعر والسلوك لديه. حينئذ لاحظ الباحث ببعض الانتقادات ضد الثقافة العربية بمحافظتها وعدم جراتها بالصراحة والبوح والتعريه بتجارهم الحميمة في سيرهم الذاتية. فاطلع على بعض الدراسات القيمة حول السيرة الذاتية في التراث العربي المتوفرة في اللغتين العربية والانجليزية، واشتد فيه حرصه على التحري بحقيقة 'الاعتراف' ومناطقه المتباينة من منظورات مختلفة.

فهذا البحث هو محاولة متواضعة بدراسة أدب السيرة الذاتية في إطار التراث العربي من حيث مناحيها الاعترافية تحليلا نقديا. لأن الباحث يرى أن هذا الجانب المهم لهذا الفن لم يتعرض للإشكالية في البحوث ولم تتم أي دراسة تحليلية مركزه حوله. فيرى الباحث أيضا أنه يجب أن يستكشف المسوغات التي تسلط الضوء على الدوافع والأسباب الجذرية لعدم وجود كاف العناصر الاعترافية في السير الذاتية العربية من خلال دراسة مركزة معتمدة على طريقة علمية صحيحة.

فالباحث يقترب من موضوع 'الاعتراف' ليس من منطلق نظرية 'الفن للفن' التي تركز فقط على قيمة الجمال، دون أي اعتبار من القيم الإنسانية النبيلة الأخرى، بل من منطلق فلسفة أدبية هي 'الفن للمجتمع' حيث تتمركز على أهداف أخلاقية واجتماعية نبيلة، نظرا إلى أن الأدب يجب أن يكون مؤديا إلى تهذيب النفس الذاتية والاجتماعية.

أهداف البحث:

بناء على ما تقدم من التفاصيل فإنه قد تم تحديد أهداف هذا البحث على النحو التالي:

- القيام بتقدير كتابات السير الذاتية في التراث العربي قديما وحديثا وتقييم مدى

العناصر الذاتية المعبرة فيها

- معرفة كيفية تصوير كُتّاب السيرة الذاتية العربية ذواتهم في مؤلفاتهم في سياقات ثقافية وجغرافية مختلفة.
- التحري في مدى التأثير الثقافي والأيدولوجي في التعبير عن الذات في السير الذاتية بشكل عام وتأثير الفكر الإسلامي في السير الذاتية العربية على وجه الخصوص.
- تحليل طبيعة العناصر الاعترافية الواردة في السير الذاتية العربية بشكل عام واستقصاء نقدي فيها.

أسئلة البحث

ومن أهم المقاييس التي حددها علماء الغرب المهتمون بفن السيرة الذاتية الحديثة هو المواد الداخلية الحميمة للكاتب مع وصف علاقتها بالأحداث الخارجية المتعلقة بها باعتبارها جانبا مهما للغاية. ووضعها مقياسا هاما للغاية لأن تطلق عليها السيرة الذاتية الحقيقية. ومن هذا المنطلق قد لاحظ بعض العلماء المستشرقين والعرب أن السير الذاتية العربية مفتقرة إلى العناصر الاعترافية، والثقافة العربية تحافظ دائما على الكتمان ولا تجرؤ بالتجرد في الكشف عن ذواتها.

وعلى أساس هذا المنطلق، تم تركيز الباحث على ظاهرة 'الاعتراف' في السيرة الذاتية العربية وما يتعلق بها من تساؤلات، فهي كما يلي:

- هل كانت لدى الكتاب العرب معرفة عن فن السيرة الذاتية والاعتراف في العصر القديم كما كان لهم عليه في العصر الحديث؟ كيف كانت طبيعتها؟
- ما هي حقيقة الاعتراف؟ وماهي وظيفته في الحياة والأدب؟
- ماهي أهمية التعبير في حياة الإنسان؟ هل هناك العوامل المؤثرة في التعبير عنها في السرد الإبداعي؟
- كيف تختلف طبيعة التعبير عن الذات في كلتي الثقافة العربية الجاهلية والإسلامية؟

- هل هناك مقاييس محددة للسيرة الذاتية الفنية الحديثة؟ هل هي قابلة للتطبيق على جميع النصوص من هذا القبيل في السياقات التاريخية المختلفة؟
- ماهي أهم العناصر الاعترافية في أعمال السيرة الذاتية العربية؟
- هل تفتقر السير الذاتية العربية إلى العناصر الاعترافية بالمقارنة مع نظيرها الغربي؟

منهج البحث

إن مجرى هذه الدراسة مركز تماما على جوانبها الاعترافية فيما يتعلق بذوات سارديها. وقد تم إجراء البحث المقترح على المنهج الوصفي التحليلي حيث اعتمد الباحث على مقارنة انتقائية التي تهتم بجانبه النقدي على وجه الخصوص. فهي تركز بشكل أساسي على الجوانب التاريخية والنفسية لنصوص السيرة الذاتية فيما يتعلق بمناحيها الاعترافية. قام الباحث بتحليل النصوص المختارة بدقة للوصول إلى النتيجة المنشودة من البحث مفسرا معانيها وقيمها الثقافية والفنية. وذلك من خلال تحليل سياقاتها الثقافية والجوانب الأيديولوجية التي قد تؤثر على أنماط التعبير عن الذات وتصويرها، وجوانبها النفسية التي قد تدفع أصحابها إلى وضعها. وقد اتبع الباحث الخطوات التالية لتحقيق الأهداف المنشودة في البحث المقترح:

- ✓ جمع المواد من المصادر الأولية بما فيها من النصوص المختارة، وكذلك المصادر الثانوية المتعلقة بالبحث.
- ✓ الاطلاع على الدراسات السابقة فيما يتعلق بموضوع البحث.
- ✓ قراءة مستفيضة للمصادر للوصول إلى صورة ذهنية صحيحة مقدمة للموضوع المقترح.
- ✓ تحليل النصوص المختارة للبحث من حيث عناصرها المشتركة بالأعم، والعناصر الاعترافية فيها على وجه الخصوص.
- ✓ إثبات الافتراضيات التي وصل إليها الباحث بالحقائق العلمية الأكاديمية المسبقة.

- ✓ توثيق الاستشهادات بموجب الطريقة العلمية الصحيحة بذكر اسم المؤلف، واسم المرجع، والناشر ومكان النشر، والطبعة، والسنة المنشورة ورقم الصفحة على التوالي.
- ✓ تضمين أهم النتائج في خاتمة للبحث.

خطة البحث وتبويبه

وقد تم ترتيب خطة البحث بطريقة تحتوي على جميع جوانب الموضوع، كما تم تنظيمها في خمسة أبواب تسبقها مقدمة وتعقبها خاتمة. وكل باب مقسم إلى فصول وكل فصول إلى مباحث أيضا.

أما الباب الأول بعنوان 'السيرة الذاتية والاعتراف في التراث العربي' فهو يضم أربعة فصول. فالفصل الأول هو 'السيرة الذاتية في الأدب العربي' يتناول وجود السيرة الذاتية في الأدب العربي والغربي نوعا أدبيا وجوانبها المختلفة. والفصل الثاني تحت عنوان 'الاعتراف والسيرة الذاتية' يعالج مفهوم الاعتراف وجذوره في الديانات والأدب، وكذلك أهميته في حياة الانسان ووظيفته النفسية. أما الفصل الثالث عنوانه 'الكتابة عن الذات والاعتراف في العربية عبر العصور' فهو وصف موجز عن كتابة العرب الذاتية ومضات الاعتراف الواردة فيها وتطورها في العصور المختلفة. والفصل الرابع الأخير، بعنوان 'قضايا في السيرة الذاتية والاعتراف' يناقش فيه الباحث بعض القضايا فيما يتعلق بهما في أربعة مباحث.

فالبايب الثاني بعنوان 'الأدب والتعبير عن الذات والثقافة العربية' يتناول ثلاثة مواضيع مهمة فيما يتعلق بموضوع البحث في ثلاثة فصول، فهي كل من 'الحياة والتعبير عن الذات' والأدب ووظيفته الاعترافية' والثقافة العربية وطبيعتها السردية' على التوالي. ويتركز هذا الباب على أهمية التعبير عن الذات والسرد عنها في الحياة البشرية من أجل إقامة التوازن الطبيعي للحياة، كما يتمحور حول 'الأدب' كأداة فعالة للتنفيس، وكذلك يعالج ثقافة العرب وطبيعة أنماط التعبير عن الذات لديهم في الجاهلية والإسلام وما بعده من عصور، بما فيها من عوامل مؤثرة في التعبير عن الذات.

يتناول الباب الثالث تحت عنوان 'تحليل النصوص في العصر ما قبل الحديث: منظور اعترافي' تحليل النصوص المختارة في العصر القديم في ثلاثة فصول، فهي 'المنقذ من الضلال' لأبي الحامد الغزالي و'التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا' لابن خلدون، و'التحدث بنعمة الله' لجلال الدين السيوطي، على التوالي.

وفي حين أنّ الباب الرابع 'تحليل النصوص في العصر الحديث: منظور اعترافي' فهو مخصص لتحليل النصوص المختارة من العصر الحديث. فهي 'الأيام' لطفه حسين، و'حياتي' لأحمد أمين، و'سبعون' لميخائيل نعيمة و'الخبز الحافي' لمحمد شكري، و'رحلة جبلية رحلة صعبة' لفدوى طوقان. فقد كان تم تنظيمها في خمسة فصول على التوالي.

فالباقي الأخير تحت عنوان 'العناصر الاعترافية في السيرة الذاتية العربية: تحليل نقدي' يضم ثلاثة فصول. أما الفصلان الأولان تحت العناوين 'العناصر المشتركة والاعتراف في النصوص في العصر ما قبل الحديث' و'العناصر المشتركة والاعتراف في النصوص في العصر الحديث' يعالجان العناصر المشتركة والاعتراف في النصوص المختارة في عصري القديم والحديث على التوالي. أما الفصل الأخير فهو 'الاعتراف في السيرة الذاتية العربية: تحليل نقدي' مخصص لمعالجة بعض القضايا المتعلقة بموضوع البحث في ضوء النصوص المختارة التي قد تم التحليل عنها في هذا البحث.

فقد تلت الأبواب الخمسة خاتمة البحث وأهم نتائجه التي توصل إليها الباحث، كما أدرج الاقتراحات والتوصيات لمن يرغب في البحوث في الموضوع في المستقبل. وقد جاءت في نهاية البحث المصادر والمراجع التي اعتمدها الباحث لإثبات افتراضاته الموصلة في البحث.

الشكر والتقدير

بعون الله تعالى ونعمته الواسعة تم إعداد هذه الأطروحة على هذا الشكل بين يدي المجتمع الأكاديمي، والحمد لله على كل حال. وقد بذل الباحث ملكته العقلية قدر المستطاع من عنده،

لوصول إلى نتائج البحث التي دام عدة سنوات. وفي هذه الآونة ينتهز الباحث هذه الفرصة لأن يعبر جل الشكر والامتنان كل من مد يد العون والمساعدة لإتمام هذا البحث.

فالدكتور س. سيد علوي، مشرف البحث قد أشرف على هذا البحث بتزويد توجيهات قيمة. فيتقدم الباحث بجزيل الشكر له في هذا الصدد. جزاه الله خير الجزاء على إخلاصه وموقفه الموضوعي المحايد من الباحث وعملية البحث. ويشكر شكرا خالصا للدكتور على نوفل، الرئيس السابق، قسم البحوث والدراسات العربية، بكلية فاروق. كان مشرفا مساعدا لهذا البحث. ويعبر أيضا الشكر الخالص لرئيس القسم الحالي، الدكتور يونس سليم ولكل من ساعد وقدم التوجيهات والارشادات ذات القيمة من الأساتذة الكرام من قسم اللغة العربية بكلية فاروق، فالأخص منهم الدكتور محمد عابد. يو. بي، والدكتور عباس. ك.ب.، وكذلك أخص الشكر والامتنان لزوجتي الحميمة التي قامت بجانبني دوما مساندة نفسية، وأشكر أيضا لزميلي العزيز محمد شاه، أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية، كلية سنسكريتية الحكومية، بيتامي، وباحث في قسم اللغة العربية بكلية فاروق، على دوام المساندة في إتمام هذه الأطروحة، جزاهم الله خير الجزاء والله ولي التوفيق وهو المستعان.

الباب الأول: السيرة الذاتية والاعتراف في التراث العربي

الفصل الأول: السيرة الذاتية في الأدب العربي

المبحث الأول: السيرة الذاتية: لغة واصطلاحا

المبحث الثاني: السيرة الذاتية عند الغرب

المبحث الثالث: السيرة الذاتية عند العرب

المبحث الرابع: أنواع السيرة الذاتية والقضايا فيها

الفصل الثاني: الاعتراف والسيرة الذاتية

المبحث الأول: مفهوم الاعتراف

المبحث الثاني: جذور الاعتراف

المبحث الثالث: الغاية من الاعتراف

المبحث الرابع: الاعتراف والسيرة الذاتية

الفصل الثالث: الكتابة عن الذات والاعتراف في العربية عبر العصور

المبحث الأول: الممارسة الشعرية

المبحث الثاني: النصوص النثرية المبكرة

المبحث الثالث: العصر الحديث المبكر

المبحث الرابع: العصر الحديث اللاحق

المبحث الخامس: الاعتراف في التراث العربي القديم

المبحث السادس: الاعتراف في العصر الحديث

الفصل الرابع: قضايا في السيرة الذاتية والاعتراف

المبحث الأول: قضية في ظهور السيرة الذاتية والاعتراف

المبحث الثاني: مقاييس السيرة الذاتية

المبحث الثالث: قضية 'الاعتراف' في العربية

المبحث الرابع: الاعتراف والثقافة والهوية

الفصل الأول

السيرة الذاتية في الأدب العربي

المقدمة

السيرة الذاتية هي شكل من الأشكال الأدبية، حديثة النشأة بمفهومها الحديث التي يكشف فيها المؤلف حياته الحقيقية دون حجب وأقنعة. فهي تتميز عن الفنون الأخرى من الأدب لكونها حافلة بالتجارب الحقيقية للأفراد، حيث يصرح الكاتب بأن الأحداث الواردة فيها تصوير صادق لقصة حياته. ومن خلال الكتابة عن الذات تأخذ الحياة بُعدًا وصورًا محددة. فهي تقدم للقراء بصيرة حادة إلى أنماط الوعي الآخرين. وقد حظيت السيرة الذاتية باهتمام بالغ من قبل النقاد والباحثين بعد أن تطورت فنا مستقلا كوسيلة للتعبير عن الذات، الذي يستحق العناية والدراسة.

ويبدو أن طبيعة الإنسان هي أكثر ميلا وأشد حرصا على معرفة حياة الآخرين، واطلاع على مكونات ضمائرهم والأحداث الحميمة بهم. فصارت السيرة الذاتية مقبولة لدى القراء إذ "أنها ترضي الفضول الطبيعي حول طرق الناس. وإنه لمن الرائع الدخول في الحياة الخاصة لشخص آخر". وكل حياة سرد معقد وحكي فذ، منطلقا من الولادة وممتدا حتى الموت، حيث تحدث تقلبات صدفة وتغيرات غير متوقعة. فالسيرة الذاتية توفر مجالا مثاليا لإرضاء الرغبة البشرية، ومتطلباتها في تحقيق وجودها وبقائها الطبيعي والسعي والفضول تجاه الطبيعة البشرية. ويقول روي باسكال "أن السيرة الذاتية تقدم فرصة غير محدودة تقريبا لاستكشاف الشخصية، ليس فقط للمؤلف، ولكن أيضا للأشخاص الذين يتعامل معهم بشكل حميم"^٢

1. Pascal, R. (1960). Design and Truth in Autobiography (1st ed.). Routledge. P.1. <https://doi.org/10.4324/9781315674605>

المبحث الأول: السيرة الذاتية: لغة واصطلاحا

إن مصطلح 'السيرة الذاتية' مكون من كلمتين هما السيرة والذاتية. فا 'السيرة' هي كلمة مفردة جمعها 'سير' تدل على معان مثل: سنة، طريقة، مذهب، هيئة، الحالة يكون عليها الإنسان: «هو ذو سيرة صالحة»، سلوك، تصرف^٣. وهي مصدر لكلمة 'سار'، تدل على طريقة، سُنَّة، سلوك {كان ذا سيرة حسنة} حالة، هيئة {سَنَعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى}^٤.

أما 'الذات' فهي كلمة مفردة، جمعها 'ذوات' ومعناها 'نفس'^٥. فهي كلمة مؤنثة 'ذو' بمعنى صاحب «هي ذات مال»، وتدل أيضا على النفس والشخص^٦. إن ذات الانسان فهي كلية للأفكار والمعتقدات والعواطف والتحيزات والتطلعات، والتي تتشكل عقليا وعاطفيا.

فالسيرة في الاصطلاح "هو بحث يعرض فيه الكاتب حياة أحد المشاهير، فيسرد في صفحاته مراحل حياة صاحب السيرة، أو الترجمة، ويفصل المنجزات التي حققها وأدت إلى ذبوع شهرته وأهله لأن يكون موضوع دراسة. وفن السيرة هو نوع من الأدب يجمع بين التحري التاريخي والإمتاع القصصي، ويراد به درس حياة فرد من الأفراد ورسم صورة دقيقة لشخصيته"^٧.

والذاتية "هي التركيز على النفس وانشغال الشخص بنفسه أو الكاتب بمواده واغفاله الموضوعية. وتشير الذاتية إلى طريقة في الكتابة تضع في المحل الأول التعبير عن المشاعر والتجارب الشخصية. مثل الكثير من الأعمال التي تكاد أن تكون سيرة ذاتية..... وتشير أيضا إلى أفكار مشاعر الشخصيات الأدبية حيث يكون العنصر المركزي هو إفضاء الشخصية بعالمها الداخلي"^٨.

٣. جبران مسعود، معجم الرائد، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط ٧، ١٩٩٢، ص ٥٧

٤. أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، (المجلد الثاني)، عالم الكتب، ط ١، ٢٠٠٨، ص ١١٤٧

٥. المصدر السابق، ص ٨٠٠، بتصرف.

٦. إبراهيم أنيس، عبد الحليم منتصر، عطية الصوالحي، محمد خلف الله أحمد، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط ٤، ٢٠٠٤، ص ٣٠٧

٧. جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، لبنان، ط ١، ١٩٧٩، ص ١٤٣

٨. إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، التعااضدية العمالية للطباعة والنشر، الجمهورية التونسية، ١٩٨٦، ص ١٦٥

إن "السيرة الذاتية تعني حرفياً ترجمة حياة إنسان كما يراها"^٩. فهي سرد ذاتي لحياة صاحبها حيث يفسر السارد الأحداث والوقائع التي أحس بها عاطفياً، من وجهة نظر المخططات المعرفية لديه (Cognitive Schema).

وقد قام بمحاولات عدة من قبل النقاد والباحثين في وضع تعريفات للسيرة الذاتية الحقيقية، وشرح ماهيتها في العصور المتعاقبة منذ القرن التاسع عشر، وذلك لأسباب فيما يخص مكانتها بين الأنواع الأدبية الأخرى والمعايير الموضوعية لأن تطلق عليها سيرة ذاتية بمفهومها الحديث. لأن هناك أنواع أدبية أخرى التي تعالج جوانب الذات المختلفة للأفراد مثل المذكرات، واليوميات والذكريات، والاعترافات والروايات وغيرها. وإلى هذا يشير الدكتور إحسان عباس، و"أما إذا اقتصر الكاتب على تدوين مذكراته أو يومياته، أو وجه سيرته لتصوير أحداث أكثر من تصوير ذات فإن عمله يلتقي مفهوم السيرة الذاتية وليس هو"^{١٠}.

حسبما ورد في المعجم الأدبي أن السيرة الذاتية هي "نوع من الأدب يجمع بين التحري التاريخي والاتباع القصصي، ويراد به حياة فرد من الأفراد ورسم صورة دقيقة لشخصيته"^{١١}. فيوجد هنا أنه قد جمعت في هذا التعريف العناصر التاريخية والقصصية معاً. إن الشاعر الألماني فون غوته (Von Goethe) سمى سيرته الذاتية 'من حياتي: الشعر والحقيقة' على أنها تتضمن الحقيقة التاريخية وعامل قصصي أو خيالي، "ولذلك كان جوته محققاً - كما قال مورو - حين سمى سيرته 'الشعر والحقيقة' إشارة منه إلى أن حياة كل فرد إنما هي مزيج من الحقيقة والخيال"^{١٢}.

أكد روي باسكال على أهمية الذات الداخلية للأفراد كمركز اهتمام للسيرة الذاتية، وتفاعلها النشط بالعالم الخارجي، إذ يقول "إن السيرة الذاتية هي تشكيل للماضي. إنه يفرض نمطاً على

٩. عبد العزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، مؤسسة الاسراء للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٢٧.

١٠. إحسان عباس، فن السيرة، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط ١، ١٩٩٦، ص ٩٩.

١١. جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، لبنان، ط ٢، ١٩٨٤، ص ١٤٣.

١٢. إحسان عباس، فن السيرة، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط ١، ١٩٩٦، ص ١٠٦.

الحياة، ويبني منها قصة متماسكة. يحدد مراحل معينة في حياة الفرد، ويقيم روابط بينها، ويحدد، ضمناً أو صريحاً، اتساقاً معيناً للعلاقة بين الذات والعالم الخارجي^{١٣}. وعندما يلاحظ باسكال أنها تنطوي على إعادة بناء حركة الحياة، وفي حين أنه يقول أيضاً إن إعادة بناء الحياة مهمة مستحيلة^{١٤}.

الدكتور فيليب لوجون^{١٥} عرّف السيرة الذاتية بأنها "حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عند ما يركز على حياته الفردية أو على تاريخ شخصيته بصفة خاصة"^{١٦}. ويؤكد لوجون أن السيرة الذاتية هي فن نثري موضوعه تاريخ شخصية الفرد ويكون فيه الكاتب والشارد شخصاً واحداً.

فالدكتور يحيى عبد الدائم قدم تعريفاً شاملاً لها متضمنةً بجميع جوانبها لأن تصبح سيرة ذاتية حقيقية فنية إذ يقول "الترجمة الذاتية الفنية هي التي يسوغها صاحبها في صورة مترابطة، على أساس من الوحدة والاتساق في البناء والروح كما سلف وفي أسلوب أدبي قادر على أن ينقل إلينا محتوى وافياً كاملاً، عن تاريخه الشخصي، على نحو موجز، حافلاً بالتجارب والخبرات المنوعة الخصبة، وهذا الأسلوب يقوم على جمال العرض، وحسن التقسيم، وعدوبة العبارة، وحلاوة النص الأدبي، وبث الحياة والحركة في تصوير الوقائع والشخصيات، وفيما يتمثله من حوار مستعينا بعناصر ضئيلة من الخيال لربط أجزاء عمله، حتى تبدو ترجمته الذاتية في صورة متماسكة محكمة، على ألا يسترسل مع التخيل والتصوير حتى لا ينأى عن الترجمة الذاتية، خاصة إذا كان يكتب ترجمته في قالب روائي"^{١٧}.

13. Pascal, R. (1960). Design and Truth in Autobiography (1st ed.). Routledge. P. 9. <https://doi.org/10.4324/9781315674605>

١٤. المرجع السابق، ص ٩، بتصرف

١٥. هو أستاذ وكاتب فرنسي (ولد ١٩٣٨) صاحب كتاب 'السيرة الذاتية: الميثاق والتاريخ' وهو يعد المرجع الأول في دراسة السيرة الذاتية

١٦. فيليب لوجون، السيرة الذاتية، الميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمة عمر حلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٤، ص ٢٢.

١٧. يحيى عبد الدائم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، دار الاحياء والتراث العربي، بيروت، ١٩٧٤، ص ١٠.

المبحث الثاني: السيرة الذاتية عند الغرب

ويلاحظ أن الأمم في الحضارات القديمة مثل اليونان قد ندرت فيهم ممارسات ملحوظة في تسجيل حياة العلماء والعباقرة منهم ولم يكتبوا حتى أنفسهم عن ذواتهم. وأنهم كانوا أمة تتمتع بتخليد عظماءهم بنصب تماثيلهم. يقول الدكتور احسان عباس نقلا عن اشبنجلر، إن الإحساس بالتاريخ ضعيفة عند اليونان، حتى أن سقراط وأفلاطون لم يتحركا القلم في التحدث عن أنفسهم "فلم يحدثنا سقراط نفسه عن حياته الذاتية بشيء ذي قيمة، وليس عند أفلاطون تطور واع للأفكار والمبادئ"^{١٨}. على العكس مما كان عليه اليونان أن الرومان كانوا يحتفلون بالكتابة عن ذواتهم، و"الأدب الروماني كان أكثر احتفالا بالترجمة الذاتية"^{١٩}.

يستحق كتاب 'اعترافات' للقديس أوغسطينوس الذي ظهر إلى حيز الوجود في القرن الرابع للميلادي في الغرب المسيحي، أن يطلق عليه النموذج الأول للسيرة الذاتية الحديثة. وإلى هذا يشير باسكال "إنه من خلق الحضارة الأوروبية، ويبدأ حقا مع أوغسطينوس"^{٢٠}. فالأمر الذي يجعل هذا الكتاب فريدا من نوعه هو أنه يحوي على الاعتراف الصريح والصدق في الاستبطان في سبيل البحث عن الذات على شكل غير مسبوق به. وقد تم تأليف هذا الكتاب في اللغة اللاتينية، يتكون من ثلاثة عشر كتابا، وهو أيضا قصة انتقال من حياته الفوضى إلى الديانة المسيحية. ولكن تاريخ السيرة الذاتية الحقيقية بمفهومها الحديث. يقول بعض من النقاد، يبدأ تاريخها بعد القرن السادس عشر، ويشير هؤلاء إلى "أن الترجمة الذاتية بالمفهوم الحديث لم يكن لها وجود في الأدب الغربي قبل عام ١٦٠٠ م"^{٢١}.

١٨. إحسان عباس، فن السيرة، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط ١، ١٩٩٦، ص ٩

١٩. يحيى عبد الدايم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، دار الاحياء والتراث العربي، بيروت، ١٩٧٤، ص ١٢

20. Pascal, R. (1960). Design and Truth in Autobiography (1st ed.). Routledge. P 21. <https://doi.org/10.4324/9781315674605>

٢١. يحيى عبد الدايم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، دار الاحياء والتراث العربي، بيروت، ١٩٧٤، ص ١٢

ولم يوجد كتاب جدير بالملاحظة من هذا القبيل إلا في القرن الخامس عشر والسادس عشر الميلادي مع بداية عصر النهضة والعصور المتلاحقة به في الغرب المسيحي، "على الرغم من أن عمل أوغسطينوس كان قد مقروءا على نطاق واسع طوال العصور الوسطى، لم يكن له خلف مشابه لأكثر من ألف عام"^{٢٢}. فكتاب مارجريت كيمي (١٤٣٦) يعتبر كتابا ملحوظا في هذا المضمار. ظهرت كتابات السير الذاتية وفرة خلال فترة عصر النهضة حيث كان الناس في أوروبا مهتمين بالحرية الفردية وعلاقتهم بالثقافات الأخرى في العالم. وأصبحت ممارسة لكتابة المذكرات واليوميات والمفكرات اليومية وغيرها من الأنواع القريبة من السير الذاتية، شائعة في هذا العصر.

أما أوائل القرن الثامن عشر فكانت لها أهمية كبرى في تاريخ أوروبا لأنها كانت منعطفًا أو مرحلة انتقالية من عصر النهضة إلى عصر التنوير الذي يتميز بالرومانسية والاهتمام المتجدد بالفحص الذاتي. نشر في هذه المدة كتاب السيرة الذاتية لبنيامين فرانكلين (١٧٦٦) وهو يعتبر سير ذاتية علمانية ممتازة. ولم يتم تشكيل فن السيرة الذاتية على نحو شامل كنوع أدبي مفهوم واع إلا بعد نشر كتاب 'اعترافات' لجان جاك روسو (١٧٨١-١٧٨٨)^{٢٤}. ويعد هذا الكتاب سيرة ذاتية حقيقية من وجهة نظر علماني، في حين أن اعترافات القديس أوغسطين تعد اعترافات دينية. وتختص 'اعترافات روسو' بتحليل واعٍ للغاية لبعض الجوانب الحاسمة من حياة الكاتب وذاته الداخلية على الأخص، بشكل أثيرجي. هكذا أصبحت الاعترافات جنسا أدبيا مقررا في الأفق الأدبي.

تعد فترة ما بين أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن العشرين في تاريخ السيرة الذاتية، نقطة تحول حيث قام بعض من العلماء الباحثين بلفت انتباههم إلى دراسة حول هذا الفن، ليست فقط من الثقافة الغربية، بل من الثقافات خارج نطاق الغرب منذ أوائل العصور القديمة على

22. Pascal, R. (1960). Design and Truth in Autobiography (1st ed.). Routledge. P 23. <https://doi.org/10.4324/9781315674605>

٢٣. كانت مارجري كيمي (١٣٧٣ - ١٤٣٨) صوفيّة مسيحيّة إنجليزيّة، يعتبر 'كتاب مارجري كيمي' أول سيرة ذاتية باللغة الإنجليزية

٢٤. هو أديب فيلسوف وأديب وكاتب سويسري ولد في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي

نحو منظور شامل. وكان ممن قاموا بجمع كتب السير الذاتية العربية ودراستها كل من غوته، وهيردر، ودلتاي. واقترب هؤلاء من هذه المجموعة من النوع "صنفا واسعا من الإنتاج الادبي يضم كتابات تنتمي إلى حقب تاريخية سابقة وثقافات أخرى على السواء"^{٢٥}. ويبدو أن الدافع وراء كتابة السيرة الذاتية في هذه الأيام كانت أقوى من أي وقت سابق.

المبحث الثالث: السيرة الذاتية عند العرب

ومن المتضح أنه قد تم خلق الإنسان على طبيعة حيث لا يكون وجوده التثامي وبقاءه السليم ممكناً دون التعبير عن الذات. ويبدو أن العرب لديهم تراث عريق في الممارسة بالتعبير عن ذواتهم، على شكل إبداعي، خاصة من خلال الأشعار، " إن الشعر العربي قد تضمن في أعطافه بذور السيرة الذاتية قبل أن تستقل فنا من فنون القول"^{٢٦}. وذلك كما ذكر سابقا، كانت ممارسة شفوية التي تطورت تدريجيا من خلال بما تسمى بالأخبار المقرونة بالأنساب والقصائد في العصر ما قبل الإسلام والسيرة النبوية في العصر الإسلامي إلى ممارسة أدبية متطورة، التي تطلق عليها السيرة الذاتية في العصر الحديث.

كان العرب قد بدأوا الكتابات عن أنفسهم على شكل حيث يمتزج فيه النثر والشعر معا - بعد أن شاعت الكتابة ممارسة متبعة لديهم- في العصور التي تليتها كتابة السيرة في القرن الثاني والثالث الهجري. وهذه الكتابات الذاتية لم تكن تشكلت في هذه العصور تيارا خاصا ملحوظا أو فنا مستقلا على ما يسمى بالترجمة الذاتية أو السيرة الذاتية، فأن هذا المصطلح وليدة العصر

٢٥. دوايت ف. رينولدز (تحرير)، ترجمة النفس: السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ترجمة: سعيد الغانمي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة)، أبو ظبي، ط١، ٢٠٠٩، ص ٣٧

٢٦. عبد العزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، مؤسسة الاسراء للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٥١

الحديث" كان القدماء لم يعرفوا المصطلح الذي هو حديث النشأة، ليس في أدبنا العربي وحده، بل في الآداب الغربية أيضا"^{٢٧}

وقد لوحظت^{٢٨} أن كتابة السيرة الذاتية في التراث العربي بدأت تظهر منذ بواكير القرن الثاني عشر، وظهرت أمثلتها الأقدم في القرن التاسع الميلادي. وبين فترة القرن الثاني عشر والخامس عشر الميلادي شاعت بين العلماء ميول واتجاهات في أن يكتبوا عن أنفسهم كجزء من مؤلفاتهم في المواضيع المختلفة أو عملا قائما بذاته. ومن أهمها المنقذ من الضلال للغزالي في القرن الثاني عشر وكل من مؤلفات ابن خلدون ومعاصروه السخاوي والسيوطي وابن حجر العسقلاني (رفع الاصر عن قضاة مصر) في القرن الخامس عشر. وتلاها كتاب في هذا المنوال للصوفي الشهير الشعرائي. رغم كانت هناك كثرة الانتاجات من هذا النوع من الكتابات التي تضم مراحل مختلفة من حياة الكاتب بما فيها من تكوين عقلي وأساتذته ورحلاته العلمية والمؤلفات التي قام بتأليفه وأخرى ما تأثر به وغيرها من أحداث خارجية متعلقة به، لم تكن لها قيمة -إلى حد ما- من ناحية أدبية لأنها كانت ناقصة العنصر العاطفي. فهذا هو نفسه يعطي لقطعة كتابية فنيتهما.

بدأت باكورة المحاولات في دراسة السيرة الذاتية في التراث العربي من قبل المستشرق الألماني فرانز روزنتال^{٢٩} في النصف الأول من القرن العشرين. ثم تلتها محاولات أخرى تلوا بعد آخر بمرور الزمان. "لعل أولى هذه الدراسات التي عرضت للترجمة الذاتية في الادب العربي، هو البحث المختصر الذي كتبه المستشرق الألماني فرانز روزنتال في مجلة الدراسات الشرقية"^{٣٠}

٢٧. يحيى إبراهيم عبد الدائم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ١٩٧٤، ص ٣٢

٢٨. دوايت ف. رينولدز (تحرير)، ترجمة النفس: السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ترجمة: سعيد الغانمي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة)، أبو ظبي، ط١، ٢٠٠٩، ص ٢٠

٢٩. كان أستاذ اللغات السامية بجامعة بيل من ١٩٥٦ إلى ١٩٦٧، وأستاذ اللغة العربية الفخري بها فيما بعد

٣٠. يحيى إبراهيم عبد الدائم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ١٩٧٤، ص (مقدمة)

اختلف العلماء والباحثون حول بداية السيرة الذاتية في الأدب العربي ووجودها في العصر القديم. منهم من ينكر وجودها في الأدب العربي القديم ومنهم من يهر بكثرة عددها في الأدب العربي القديم بالمقارنة بنظيرها في الأدب الغربي. "ففي القرن الثاني عشر الميلادي كان كتاب الاعتبار للفارس العربي المسلم أسامة بن منقذ ٤٨٨-٥٨٤ هـ يعد نموذجاً عالياً للمذكرات والتراجم الذاتية قبل أن يكتب بيبس الإنجليزي وريتز الفرنسي مذكراتهما بقرون^{٣١} على الرغم من الوجود عدد غير قليل من كتابة الذات في الأدب العربي ما بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر للميلادي، لم تظهر مؤلفات السيرة الذاتية الملحوظة في الآداب الغربية إلا بعد عشرة قرون بعد نشر اعترافات للقديس أوغسطينوس.

السيرة الذاتية الحقيقية

وأما السبب المهم الذي يجعل الباحثين في الخلاف حول السيرة الذاتية الحقيقية فهو معاييرها التي حددها علماء الغرب يجب أن تطلق عليها السيرة الذاتية بمفهومها الحديث. تمتاز السيرة الذاتية بسرد الكاتب حياته نفسه. هنا حياة السارد هي محور الاهتمام في السيرة الذاتية. ومن الجدير أن كل حياة سرد لصاحبها، فهي سلسلة من حلقات الحوادث المختلفة من السعد والنحس. فملكة الفرد على تجميع هذه الحلقات المتناثرة بتوافق وانسجام تساعد على فهم تجاربه في حياته على بصيرة عاطفية. فالسيرة الذاتية بمفهومها الحديث، تفسير ذاتي لهذه التجارب الحقيقية للسارد. ومن جوانبها المهمة هي الذاتية والكشف عن الذات والاستبطان وإخفاء الذات.

وأما الذين يؤكدون بوجود أعمال سيرة ذاتية في التراث العربي فلديهم آراء مختلفة في تعيين الأولى منها. "يرى فرانز روزنتال أن بدايات السيرة الذاتية الروحية العربية تمكن في كتابات المحاسبي (ت

٣١. عبد العزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، مؤسسة الاسراء للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٤٧ (نقلا عن محمد عبد الغني الحسن، التراجم والسيرة)

٨٥٧م - ٢٤٣هـ)، ويرى أن أقدم سيرة ذاتية دنيوية تتمثل في سيرة حنين بن إسحق (ت ٨٧٣ أو ٨٧٧م - ٢٦٤هـ)، ويصرح أنور الجندي أن الغزالي (ت ١١١١م - ٥٠٥هـ) كان أول عربي كتب مذكراته، بينما يذكر مارشل ج. س. غوسن أن الغزالي هو كاتب سيرة الذاتية العربي الحقيقي الوحيد في حقبة ما قبل الحداثة، ويقول فيليب حيتي ونيكيثا إليسيف إن أسامة بن منقذ (١١٨٨م - ٥٧٣هـ) كان الأول. وفي حين يعتبر على عبد الواحد (وافي) وطه حسين أن ابن خلدون (ت ١٤٠٦ - ٨٠٨هـ) هو الأول^{٣٢}

يعد القرن التاسع عشر فترة انتقال من الجمود الفكري عند العرب إلى الثورة الفكرية المتطورة، ولم تقتصر هذه الثورة الفكرية في بلاد مصر فحسب، بل انتشرت إلى البلدان العربية برمتها، حيث انعكست شعلة التنوير في الفكر العربي نتيجة الاحتكاك بالثقافة الغربية وبدأت تظهر كذلك في الأدب العربي. والأمر الذي يجدر بالذكر، أنه لم يكن ينهض أحد من العلماء في أن يكتبوا أنفسهم في العهود المملوكي والعثماني حيث انعدمت إنتاجات أدبية ملحوظة، بل، أن ملوك هذه العهود لفت انتباههم بعلم التاريخ وأخرى من العلوم الإسلامية. ولم تظهر في العالم العربي مؤلفات ملحوظة في السيرة الذاتية بعد القرن الرابع والخامس عشر الميلادي. ومن أهم المؤلفات في هذين القرنين كل من 'التعريف' لابن خلدون ومن عاصره كل كن السخاوي والسيوطي.

وبعد أن هبت ريح النهضة الفكرية والصحة الأدبية في العالم العربي ظهرت بعض من مؤلفات من هذا القبيل. ففي كل من 'تخليص الإبريز في تلخيص باريز' لرفاعة الطهطاوي، و'علم الدين' لعلي مبارك، و'الساق على الساق' لأحمد فارس شدياق وأمثالها. بالرغم من أنها ترجمات ذاتية في خطوطها العريضة، وليست هي ترجمات ذاتية بالمعنى الفني الدقيق. علاوة على ذلك "رغم إفادتهم

٣٢. دوايت ف. رينولدز(تحرير)، ترجمة النفس: السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ترجمة: سعيد الغانمي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة)، أبو

اليسيرة من الآداب الغربية فإنهم حافظوا على الأسلوب العربي الموروث، المتأثر بأسلوب المقامة تأثراً كبيراً^{٣٣}. فأما السيرة الذاتية بمفهومها الحديث فهي ظهرت في العربية فقط بنشر 'الأيام' لظه حسين، ثم جاءت بعده عدة كتب في هذا القبيل.

تأثير اليونان والفرس

يشير دوايت ف. رينولدز، إلى تأثير اليونان والفرس في تطور السيرة الذاتية في الأدب العربي. وكان لدى العرب معرفة عن بعض أعمال علماءها الشهيرة، وبالأخص أعمال الطبيب اليوناني جالينوس بيرغامون (توفي حوالي ٢٠٠) والطبيب الفارسي بورزويك، الذي عاش في القرن السادس الميلادي. "انتشرت الترجمات العربية لهذه النصوص على نطاق واسع في العصور الوسطى، وظهرت الإشارات إليها في العديد من السير الذاتية العربية المكتوبة بين القرنين العاشر والثاني عشر"^{٣٤}. فالدكتور شوقي ضيف يرى^{٣٥} أنها دخيلة إلى العرب بسبب احتكاكهم مع الثقافات الأجنبية الأخرى -خصوصاً اليونان- واطلاعهم على آثارها.

المبحث الرابع: أنواع السيرة الذاتية وقضاياها

وقد قام بمحاولات عدة من قبل النقاد والباحثين لتصنيف الأشكال المختلفة للسيرة الذاتية من حيث تطوراتها عبر العصور المختلفة انطلاقاً من بدايتها جداً في السنوات الماضية الأولى كشكل سردي حتى أصبحت نوعاً أدبياً مستقلاً بمفهومها الحديث. ويمكن إدراج تحت هذا التصنيف، تقريباً جميع أشكال السرد الذاتي، والتي كانت موجودة ليست في الأدب العربي فقط، بل في

^{٣٣}. يحيى إبراهيم عبد الدائم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ١٩٧٤، ص ٤٩

34. DWIGHT F. REYNOLDS (ed.): *Interpreting the self: autobiography in the Arabic literary tradition*. ix, 336 pp. Berkeley, Los Angeles and London: University of California Press, 2001, p. 45

^{٣٥}. شوقي ضيف، الترجمة الشخصية، دار المعارف، ط٤، ص ٥، بتصريف

الأداب الغربية الأخرى أيضا. وقد ورد في موسوعة بريطانيا³⁶ تصنيف السيرة الذاتية ضمن أربعة فئة عريضة جدًا، فهي الموضوعية، والدينية، والفكرية، والخيالية. وهناك تقسيمات أخرى³⁷ من حيث الأشكال السردية. فهي السيرة الذاتية غير الرسمية، والسيرة الذاتية الرسمية، وأشكال متخصصة من السيرة الذاتية.

الأصناف القريبة

وقد سبق الذكر بأن السيرة الذاتية الحديثة المعاصرة تشكلت بعد تطور تدريجي عبر العصور المختلفة. ومن خلال هذه العصور اتخذت السيرة الذاتية أشكالًا مختلفة مثل التاريخ والمذكرات واليوميات والاعترافات والرواية وغيرها. فجميع هذه الأشكال تضم روايات عن حياة جزئية للمؤلف ولكنها لا تتحقق معايير أن تصبح سيرة ذاتية بمفهومها الحديث. يقول عبد الدائم أن " الترجمة الذاتية، ليست هي تلك التي يكتبها صاحبها على شكل 'مذكرات' ويعنى فيها بتصوير الأحداث التاريخية، أكثر من عنايته بتصوير واقعه الذاتي. وليست هي التي تكتب على صورة 'ذكريات'، يعنى فيها صاحبها بتصوير البيئة والمجتمع والمشاهدات أكثر من عنايته بتصوير ذاته. وليست هي المكتوبة على شكل 'يوميات'، تبدو فيها الأحداث على نحو منقطع غير رتيب، وليست في آخر الأمر 'اعترافات' يخرج فيها صاحبها على نهج الاعتراف الصحيح. وليست هي الرواية الفنية التي تعتمد في أحداثها ومواقفها على الحياة الخاصة لكاتبها، فكل هذه الأشكال فيها ملامح من الترجمة الذاتية، وليست هي؛ لأنها تفتقر إلى الكثير من الأسس التي تعتمد عليها الترجمة الذاتية الفنية"³⁸.

36 Britannica, The Editors of Encyclopaedia. "autobiography". *Encyclopaedia Britannica*, 3 Apr. 2023, <https://www.britannica.com/art/autobiography-literature>. Accessed 28 May 2023.

37. Dr. Abhijeet Kumar Mishra, "Autobiography": Nature and History, *International Journal of Scientific Research in Science, Engineering and Technology (IJSRSET)*, Print ISSN: 2395-1990, Online ISSN: 2394-4099, Volume 3, Issue 6, pp.1124-1127, September-October-2017

38. يحيى عبد الدائم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، دار الاحياء والتراث العربي، بيروت، ١٩٧٤، ص ٣

السيرة الذاتية والتاريخ

تطورت السيرة جزءا من التاريخ، ليس فقط في الثقافة العربية، بل في الثقافات غير العربية المختلفة. فالتاريخ نفسه كان في البداية فقط تراجم أفراد مشهورين تقريبا في جميع الثقافات العالمية^{٣٩}. فالنقطة الفارقة بين السيرة الذاتية والتاريخ هي أن الأولى ذاتية طبيعتها وفي حين الأخير منهما موضوعية إلى حد ما. يرسم إحسان عباس الحد الفارق بين السيرة الذاتية والتاريخ في قوله "كلما كانت السيرة تعرض للفرد في نطاق المجتمع، وتعرض أعماله متصلة بالأحداث العامة أو منعكسة منها أو متأثرة بها فإن السيرة - في هذا الوضع - تحقق غاية تاريخية"^{٤٠}. وأما التاريخ فهو يستجيب فقط للأحداث الخارجية. وفي حين أن السيرة الذاتية تكشف النبض الدقيق للحياة البشرية في سياقات مختلفة من الزمن.

الاعترافات

إن الاعتراف هو نوع من السيرة الذاتية يتم فيها الكشف عن المواد الحميمة بالسارد غالبا ما تكون خارجة من أعراف المجتمع. جاء في موسوعة الأدب العالمي أن الاعترافات تتميز عن السيرة الذاتية من حيث الصراحة، أي، إلى أي مدى يرغب المؤلف في الكشف عن أموره الشخصية الداخلية للغاية. "فالسيرة الذاتية هي ما قد يقول الكاتب لأصدقائه؛ وتتوقف قيمته على شخصيته فيما يتعلق بالأشخاص الذين عرفهم والأشياء؛ وأما الاعترافات فهي ما لم يصرح به حتى لأصدقائه. وتنبع قيمته من شدة حياته الداخلية"^{٤١}. طبيعيا أن الاعترافات تكون الأحداث

٣٩. إحسان عباس، فن السيرة، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط ١، ص ١٥. بتصرف

٤٠. المرجع السابق، ص ١٢

41. Joseph T. Shipley (ed.), Dictionary of world literature: criticism – forms – technique, The philosophical library, New York, pp.118-119

الحميمة في حياة السارد التي لم يكن يصحح بها حتى لأصدقائه، تنبع قيمته من شدة حياته الداخلية.

الرواية

الرواية هي إحدى أنواع الأدب القصصي وأكثرها انتشاراً. فهي سرد نثري يدور حول سلسلة من الأحداث والأشخاص خيالية أم واقعية. وأما ما يفرق السيرة من الرواية فهو ما فيها من الخيال المقيد. أحياناً يعتمد الكاتب على سرد الرواية وسيلة لحكاية قصته إياه باستخدام ضمير 'هو' أو ما يماثله. وفي تلك الحالة -كما يلاحظ إحسان عباس^{٤٢}- تكون 'الأنا' الحقيقية تقتنع وراء الشخصيات فيها. وعلى حين أن روي بأسكل يرسم ما للسيرة الذاتية من امتياز من الرواية وإذ يقول "أن السيرة الذاتية تقدم أداة أفضل للتحري إلى حقيقة الشخصية والعلاقات الشخصية أكثر من الأدب الخيالي، ولا سيما الرواية. من المؤكد أن نطاق الخبرة الموصوف في السير الذاتية مذهل، وأحياناً يكون غريباً جداً بالنسبة للخيال"^{٤٣}

الخيال والصدق الخالص

تعتبر السيرة الذاتية نوع من أنواع الأدب غير القصصي، على أن الأدب القصصي يغلب عليها جانب الخيال وأما في السيرة الذاتية فتمتاز بغيرها من أنواع الأدب القصصي مما فيها من مصداقية في معظم الأحداث الواردة فيها. فتنهض فيها إشكالية مهمة فهو ما مدى الصدق فيما يورد من حقائق وأحداث في السيرة الذاتية، وهل يجوز وجود جانب الخيال فيها. ولن يقترب الأفراد بالضرورة من الأحداث في حياته على حقيقتها، لأن كل حياة - كما سبق القول - سرد ذاتي لصاحبها. وأنه يعطي تفسيراً ذاتياً من وجهة نظره إياه، فلعلها أن تكون صادقة أو صدق

٤٢. إحسان عباس، فن السيرة، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط ١، ص ٩١

43. Pascal, R. (1960). Design and Truth in Autobiography (1st ed.). Routledge. P.162. <https://doi.org/10.4324/9781315674605>

مشوه. ربما يسبب فيها النسيان أو غيره من أسباب يتعلق بنمط التفكير المختل عنده. على أساس هذه الأسباب أن تكون الحقيقة حقيقة على الدوام عند هذا الرجل غير مفترض. فالصدق يكون نسبيا دائما، "فالصدق الخالص أمر يلحق بالمستحيل، والحقيقة الذاتية صدق نسبي، ومهما يخلص صاحبها في نقلها على حالها، ولذلك كان الصدق في السير الذاتية محاولة لا أمرا متحققا"^{٤٤}.

وأما الشيء المدهش هنا فأن السيرة الذاتية أصبحت فنا شائعا بعد أن ظهرت دراسات حول الذات إلى حيز الوجود من قبل علماء النفس الغربيين أمثال سيغموند فرويد. عندما سئل عن كتابة سيرته الذاتية، كان جوابه أن 'هذا بالطبع اقتراح مستحيل الحدوث تماما'، وهو يقدم أسبابا مسوغة من عنده، "فمن ناحية، الاعتراف المعبر الكامل والأمين عن الحياة، يتطلب الكثير من التهور التائش للبوح الفضائح عن شخصي فضلا عن الآخرين من الأسرة والأصدقاء والأعداء، ومعظمهم لا يزال حيا، هذا أمر ببساطة، خارج المسألة بالنسبة إلي. ومن ناحية أخرى، الشيء الذي يجعل كل كتب السيرة الذاتية لا قيمة لها عندي، على أية حال، هو الكذب والزيغ والخداع ليس عندي رغبة في القيام بهذا"^{٤٥}. وإلى هذا يشير الدكتور يحيى عبد الدائم فهو أيضا على رأي أن الصدق الخالص هو امر مستحيل، ولو كان موصوفا بأنه أصدق الفنون إذ يقول "فالصدق المحض في الترجمة الذاتية - رغم أنها أصدق الفنون الأدبية تصويرا للإنسان - هو مجرد محاولة، وهو صدق نسبي، وليس شيئا متحققا"^{٤٦}، لأن الحياة نفسها كما يقول عبد الدائم نسيج خيوطها من حقيقة وخيال.

٤٤. إحسان عباس، فن السيرة، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط ١، ص ١٠٥

٤٥. دنيال مندليسون وآخرون، قضايا أدبية: نهاية الرواية وبداية السيرة الذاتية، ترجمة عربية حمد العيسى، الدار العربية للعلوم ناشرون ش م ل، ط ١، ٢٠١١، ص ١٣٩

٤٦. يحيى عبد الدائم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، دار الاحياء والتراث العربي، بيروت، ١٩٧٤، ص ٦

القلق الفني

إن السيرة الذاتية تتشكل من تجارب حياة الفرد، فلا يكون هذا التجارب ممكننا دون المرور، تقريبا، بجميع مراحل حياة الانسان. وإن من التساؤلات التي تطرح طبيعيا عن العمر الكافي لأن يكتب الشخص سيرته الذاتية. ومن الناس من يمر بتجارب قاسية في سنها المبكر، ومنهم من يبلغ هذا الحد بعد تجاوز أعمار الطويلة. وعلى أساس هذا أنه ليس من الممكن أن يحدد عمرا معيننا لكتابتها. ويبدو وضحا عند الاطلاع على المؤلفات الموجودة في السيرة الذاتية من مختلف الثقافات، أن قد تم كتاباتهم في أعمارهم المختلفة. "ليس لدى الكتاب من عمر محدود يقفون عنده لكتابة سيرهم، فإن نيتشه كتب سيرته وهو في الأربعين، وكتبها سلامى موسى حين بلغ الستين، وأحمد أمين حين تجاوز هذه السن أيضا، لكن لا ريب في أن الصراع إلى كتابة الترجمة الذاتية في سن مبكرة، يفوت على كاتبها أمورا كثيرة"^{٤٧}.

كل حياة حافلة بشتى التجارب الحقيقية. إنما موقفه تجاه هذه التجارب فيحدد عواقبها الإيجابية أو السلبية. ومتى يصبح المرء على دراية تامة وبصيرة عاطفية بجوانب مختلفة لتجاربه فيتمكن له الوصول إلى حالة حيث يتم التحقيق لذاته. وهذه الحالة نفسها ما يسمى بدور النضج عند إحسان عباس. "إن كل سيرة فإنما هي تجربة ذاتية لفرد من الأفراد، فإذا بلغت هذه التجربة دور النضج، وأصبحت في نفس صاحبها نوعا من القلق الفني، فإنه لا بد أن يكتبها"^{٤٨}.

وفي نفس الوقت، ليس من الممكن لأحد أن يكتب سيرته الذاتية، وحتى لو تم ارتقاءه إلى مرحلة النضج، لأن القدرة على الكتابة تحتاج إلى شروط وكفاءة معينة. فهي قدرته على التصور لجوانب مختلفة لهذه التجارب على صورة مكتملة إذ يقول إنه "هو اكتمال التصور لأطراف هذه التجربة

٤٧. إحسان عباس، فن السيرة، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط١، ص ١٠٠-١٠١.

٤٨. المرجع السابق، ص ٩٥.

ورؤيتها عند التطلع إلى الماضي، على أساس من نظرة ذاتية خاصة، لولا هذا الشرط لكان كل انسان قادرا على أن يكتب سيرة حياته"^{٤٩}.

يشير إلى هذا روي باسكال أنه لا يتم الكتابة عند أحد أنفسه إلا إذا بلغ هذه المرحلة حيث يمكن له أن يحلل حياته الماضية ببصيرة ويتخذ موقفا ووجهة نظر ذات مغزى في حياته. "يعني هذا التماسك أن الكاتب يتخذ وجهة نظر معينة، وجهة نظر اللحظة التي يراجع فيها حياته ويفسر حياته منها. قد تكون وجهة النظر هي الموقف الاجتماعي الفعلي للكاتب، وإنجازته المعترف به في أي مجال، وفلسفته الحالية؛ في كل حالة، فإن وضعه الحالي هو الذي يمكنه من رؤية حياته كشيء من الوحدة، شيء قد يتم تقييده إلى النظام"^{٥٠}. ويضيف باسكال "هذا هو السبب في أن السير الذاتية للرجال الأصغر سنا نادرا ما تكون مرضية"^{٥١}. اشترط إحسان عباس^{٥٢} في كتابة السيرة عند أحد أنه يتمكن له ان يبلغ حد التصور بكل وضوح يتصف بوحدة متكاملة وأن يكون هذا التصور مبنيا على قاعدة فلسفية يتمكن له أن يرى من خلالها حياته الماضية المملوءة بالتجارب.

الخاتمة

حقيقة إن السيرة الذاتية هي تمثيل الذات على شكل سردي. وهذا النوع من الأدب كان قد تمرس به الكُتّاب في الثقافات المختلفة بما فيها العربية. ولكنه تم تأسييه فنا أدبيا بهذا الاسم فقط في القرن الثامن عشر في الغرب. ومن هذا المنطلق يمكن أن يقال إنها شكل متطور من أشكال الكتابة الذاتية التي اتبعها الكُتّاب في العصور الماضية المتلاحقة.

٤٩. المرجع السابق، ص ٩٥

50. Pascal, R. (1960). Design and Truth in Autobiography (1st ed.). Routledge. P. 9. <https://doi.org/10.4324/9781315674605>

٥١. المرجع السابق، ص ٩

٥٢. إحسان عباس، فن السيرة، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط ١، ص ٩٥

الفصل الثاني

الاعتراف والسيرة الذاتية

المبحث الأول: مفهوم 'الاعتراف'

إن كلمة 'اعتراف' مصدر لـ 'اعترف' وجمعه 'اعترافات' وهي تستعمل في اللغة لمعان عدة. حسب ما وردت معناها في لسان العرب لابن منظور إن كلمة 'اعترف' من الجذر اللغوي (عرف) ويدور المعنى اللغوي لهذا الجذر باشتقاقته على معان: العلم، والمعرفة. والتوضيح والاقرار الذي صحبته المعرفة".^١

وقد جاء في معجم المعاني الجامع^٢ معانيها المختلفة وهي: إقرار (اسم) الجمع: اعترافات: (القانون) إقرار المدعي عليه أو التهم صراحة أو ضمنا بصحة الوقائع المنسوبة إليه أو المطلوبة منه – كان اعتراف الجاني مفاجأة للمحكمة – الاعتراف سيّد الأدلة: اعتراف الجاني بجريمته أقوى دليل – الاعتراف بالواقع: (السياسة) اعتراف حكومة بحكومة ناشئة اعترافا مؤقتا بالأمر الواقع دون أن ينشأ عنه تبادل التمثيل بين الدولتين – إقرار بالذنب: سر من أسرار البيعة عند النصرى وهو الإقرار للكاهن بالخطايا والحصول على غفرانها.

ويتضح مما تقدم أن 'الاعتراف' كلمة تدل على معنيين رئيسيين هما الإخبار والاقرار. فالمعنى المراد هنا الإقرار بجميع ما حدث في الحياة من خبايا نفسية بكل صراحة.

١. إبراهيم شهاب وعلى محمد، الاعتراف بالذنب في ضوء القرآن، التجديد، المجلد الرابع والعشرون، العدد السابع والأربعون ١٤٤١هـ - ٢٠٢٠ (نقلا عن لسان العرب لابن منظور)

٢. اعتراف، معجم المعاني الجامع، رابط على موقع الانترنت: / اعتراف/ar-ar/dict/ar-ar/، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢١\٠٧\١٧

الكتابات الاعترافية

أما بالنسبة لكتابات اعترافية فهي أداة أو تقنية أدبية يكشف فيها الراوي أو بطل الرواية عن أعمق أسراره أو أفعاله المذنبية. إنه شكل من أشكال الكشف عن الذات يسمح للشخصية بالتخلص من أعباء نفسها أو البحث عن الخلاص. "فإن أدب الاعتراف يعني بالنفس وأطوارها الداخلية، وأسرارها الكامنة، وثوراتها واضطراباتها وهمومها الغالبة، ويهتم كذلك بنواحي الضعف في الانسان أمام الذات، وجوانب الضعة والقصور، حتى ينتهي الأمر إلى ذكر المساوي والسقطات مع تحليل الدوافع وذكر المحرضات على اقرار الآثام"^٣

يمكن أن تتخذ الاعترافات أشكالاً مختلفة في الأدب، مثل اليوميات أو الرسائل أو المونولوج أو السيرة الذاتية أو السيرة الذاتية الروائية أو الشعر أو الحوار مع شخصية أخرى. غالبًا ما توفر نظرة ثاقبة لنفسية الشخصية ودوافعها وصراعاتها الداخلية، مما يجعلها أداة قوية لتطوير الشخصية وإضافة عمق للسرد. وبشكل عام، يقدم الاعتراف في الأدب ومضة عن الأفكار والعواطف الداخلية للشخصيات، مما يوفر فهمًا أعمق لأفعالهم والمعضلات الأخلاقية التي يواجهونها. إنها بمثابة أداة أدبية قوية لإشراك القراء وإثارة التعاطف واستكشاف موضوعات معقدة مثل الذنب والفداء والطبيعة البشرية الحقيقية.

المبحث الثاني: جذور الاعتراف

أما الاعتراف فهو ليس شيئًا استحدثه أدباء العصر الحديث، ولكنه ظاهرة طبيعية التي تقترن بحياة الانسان العاطفية. فيمكن العثور على جذوره في جوهر جميع الأديان وبالأخص في الممارسة الاعترافية في الكاثوليكية كعمل ديني عام. وكذلك في نظريات علم النفس المختلفة فيما يتعلق

٣. أحمد حسين الطماوي، أدب الاعتراف بين الرفض والقبول، الهلال، يونيو ٢٠٠٤، ص ١٥٩-١٦٠

بمعالجة الأمراض العصبية، خصوصاً مدرسة التحليل النفسي لسيغموند فرويد وتوجهاته النظرية المختلفة حيث تستخدم قيمة الاعتراف أداة في تقنية 'التداعي الطليق' (free association). وهي تساعد الفرد على تعميق فهمه لذاته من خلال النظر إلى أي أفكار أو كلمات أو صور تتبادر إلى ذهنه بحرية. يتم فيها المكاشفة والتجرد. وكذلك توجد جذوره في الممارسات الأدبية في السياقات المختلفة في التاريخ، لأن الأدب صورة صادقة للحياة والتعبير عنها. فالأدب "في لبه" وصميمه قائم على الاعتراف بأساليب مختلفة وطرائق متباينة". فمن الحقائق التي لا جدال فيها أن الاعتراف يلعب دوراً حاسماً في جميع التعبيرات المتعلقة بالخطاب الإنساني.

الاعتراف في الديانات °

إن الاعتراف يلعب دوراً مهماً في العديد من التقاليد الدينية، ومن طبيعة الإنسان المتأصلة هي ميله إلى ارتكاب الذنوب والأخطاء والزلات. أما الاعتراف بهذه المعاصي والاقرار بها والتوبة التي تليه، من غير الإصرار فيها، فتلك هي كلها تعتبر فضيلة من فضائل المهمة في الديانات المختلفة في العالم، سواء أكانت ديانات سماوية أو الديانات الأخرى. ويعتبر الاعتراف عملية تطهيرية لدى الإنسان ومن خلاله يصل إلى حالة فطرية خالصة.

وأما فكرة الذنب والاعتراف به فلها تاريخ قديم قدم ظهور التاريخ البشري على ظهر الأرض. وتشير قصة آدم وزوجه حواء عليهما السلام في نصوص قدسية للديانات السماوية مثل اليهودية والمسيحية والإسلام إلى ارتكابهما بالزلة واعترافهما وتوبتهما إلى الله تعالى. فيبدو أن الاعتراف والتوبة أداة رئيسية وظاهرة قوية للتطهير والتنقيح الوجداني في معظم الديانة في العالم.

٤ . علي أدهم، الاعتراف والمعترفون، الهلال، مايو، ١٩٤٣، ص ٢٤٣

٥ . اعتراف، ويكيبيديا الحرة، رابط على شبكة الانترنت: [https://en.wikipedia.org/wiki/Confession_\(religion\)](https://en.wikipedia.org/wiki/Confession_(religion))، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢١\٠٧\٢٠ بتصرف

وفي الديانة المسيحية^٦، غالبًا ما يرتبط الاعتراف بسر المصالحة أو التوبة. فيعترف المرء بخطاياهم أمام الكاهن الذي هو يعتبر ممثل عن الله، فيتم الحصول على الغفران أو المغفرة. فعملية الاعتراف هي وسيلة مهمة للتخلص من الأفكار بالذنب والخطأ فالسعي للمصالحة مع الله والحصول على الشفاء الروحي والنعمة.

أما في الديانة اليهودية فيعتبر الاعتراف جزءا لا يتجزأ من الأيام المقدسة العليا، وخاصة يوم الغفران، يوم الكفارة حيث ينخرط اليهود في التأمل الذاتي والاستبطان والاعتراف بالخطايا التي ارتكبوها خلال العام الماضي. فيستغفرون الله ويصلحون الذين ظلموا. فالاعتراف هو فرصة للتوبة، وتحسين الذات، والتجديد الروحي.

وفي الديانات اليهودية والمسيحية أن الاعتراف هو أمر لازم كما يوجد في الإسلام للتخلص من الزلات والخطيئات "الاعتراف هو الذي يُطلق عليه أيضًا المصالحة أو الكفارة في التقليد اليهودي المسيحي، الاعتراف بالخطيئة في الأماكن العامة أو الخاصة، يعتبر ضروريًا للحصول على المسامحة الإلهية^٧

ومن المعروف أن الاعتراف في الإسلام يعرف بمصطلح 'التوبة'. فهي عملية قام بتشجيعها المسلمين على الاعتراف بخطاياهم مباشرة إلى الله وطلب المغفرة منه. تتضمن التوبة الصادقة، الاعتراف بالخطأ والشعور بالندم والالتزام بالأمر إلى تلك المعاصي حتى يتغير سلوكه. ومن

٦. سر التوبة، راجع المقال الإنجليزي على ويكيبيديا الحر: https://en.wikipedia.org/wiki/Sacrament_of_Penance، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٣\٠٨\١٦، بتصرف

٧ Britannica, The Editors of Encyclopedia. "confession". *Encyclopedia Britannica*, 9 Aug. 2023, <https://www.britannica.com/topic/confession-religion>. Accessed 4 September 2023.

خلال الاعتراف أو التوبة يتمكن له تطهير الروح وطلب الرحمة من الله واستعادة العلاقة معه وتشبيدها.

أما قصة آدم عليه السلام وزوجته حواء التي ذكرت في الكتب المقدسة للديانات السماوية مثل اليهود والمسيحية والإسلام فتربط بالزلة. كما ورد في القرآن الكريم أن آدم وحواء عليهما السلام إذ صرفهما الشيطان عما كانا عليه من الطاعة إلى المعصية وارتكاب بالزلة فاعترفا بمعصيتهما وتابا إلى الله توبة نصوحا و" قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين"^٨

بالنسبة إلى الديانة البوذية، أن الاعتراف^٩ هو جزء من عملية التطهير. فالبوذيون ينخرطون في التأمل الذاتي، والاعتراف بأفعالهم وأفكارهم ونواياهم غير الصحية. فالاعتراف هو إحدى الوسائل المهمة لتنقية العقل، والتخلي عن مجموع من تصرفاته السلبية، وتنمية الصفات الإيجابية مثل الرحمة واليقظة. وفي الثقافة الهندوسية، يعرف الاعتراف بـ 'برايا شجيتا'. وعلى حد اعتقادهم أنه يتمكن لهم التخلص من الحالات الآثام والمعاصي من خلال الأشكال المختلفة من التأمل الذاتي، والاعتراف بالأخطاء، وطلب المغفرة من الآلهة، كما يتخلصون منها من خلال طقوس متنوعة، مثل الاستحمام في الأنهار المقدسة أو أداء صلوات معينة، لتطهير أنفسهم وطلب المغفرة لخطاياهم.

وبالجملة إن الاعتراف عملية مهمة في جميع الأديان هو وسيلة للاعتراف بأوجه القصور عند الانسان ومعالجتها، والسعي إلى المغفرة والمصالحة، وتعزيز النمو والتحول الروحي. يمكن أن يوفر للأفراد إحساسًا بالمسؤولية والوثام الداخلي وطريقًا إلى القربان الإلهي. على الرغم من اختلاف

٨ . القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآية ٢٣

٩ . الاعتراف في البوذية، راجع المقال الإنجليزي على رابط الانترنت: <https://quangduc.com/a57733/chapter-6>، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٣\٠٧\٨، بتصرف

الطقوس والممارسات، إلا أنه يمكن الملاحظة أن جميع الأديان تتوخى إلى الاعتراف والرفاهية الروحية التي تتولد منه.

الاعتراف في الأدب

طبقاً لما ورد في موسوعة بريطانيا إن مفهوم الاعتراف في الأدب هو سيرة ذاتية، إما حقيقية أو خيالية، يتم فيها الكشف عن التفاصيل الحميمة والخفية لحياة الشخص. كان أول مثال بارز على هذا النوع هو اعترافات القديس أوغسطينوس (٤٠٠م).^{١٠} وفي حين، جاء في معجم المصطلحات الأدبية أن "كلمة 'الاعتراف' تعني اقراراً وبوحاً وافصاحاً وافضاءً ولا تعني في الادب اعترافاً باثم أو جريمة وأمثلة الاعتراف اعترافات القديس أجوستين. وهي تشبه سيرة ذاتية تبتعد عن قصص 'الاعترافات' السوقية المبتدلة في مجلات الاثارة وان تضمنت تفصيلات من السيرة الذاتية لا يفصح عنها عادة. فأدب الاعترافات يعبر في المحل الأول عن أعمق أفكار ومعتقدات المؤلف."^{١١}

أما القاموس الموحد لمصطلح الآداب الحديثة فيُعرّف 'الاعتراف' بأنه ترجمة ذاتية تعرض مواقف نفسية وعاطفية بجرأة وصف يخترق الأعراف والأخلاق العامة على غرار الاعترافات ج. ج. روسو^{١٢}. فمعجم المصطلحات العربية يأتي بتحديد مشابه لما ورد أعلاه فهو "ذلك النوع من الترجمة الذاتية التي يروي فيها المؤلف مواقف نفسية أو عاطفية لا يعترف بها واضعو الترجمة الذاتية عادة"^{١٣}

10. Britannica, The Editors of Encyclopedia. "confession". *Encyclopedia Britannica*, 17 Sep. 1999, <https://www.britannica.com/art/confession-literature>. Accessed 17 July 2023

١١ . إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، تونس، ١٩٨٦، ص ٣٣

١٢ . القاموس الموحد لمصطلح الآداب الحديثة (الانجليزية - الفرنسية - العربية)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ٢٠١٥، ص ٣

١٣ . مجدي وهبة وكامل مهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤، ص ٤٩

فجميع التعريفات أعلاه تركز على المكونات النفسية الأكثر عاطفية للساد وجراته بالإفصاح عنها على شكل حيث يخترق أعراف المجتمع.

المبحث الثالث: الغاية من الاعتراف

فالاعتراف يقوم بوفاء وظيفة متعددة. ومنها التنفيس للشخصية، مما يسمح لهم بالإفراج عن شعورهم بالذنب أو العار، ومنها أيضا إثارة التشويق أو التوتر، حيث يتوقع القارئ الكشف عن سر الشخصية. كما أنه يخلق إحساسًا بالحميمية بين الشخصية والقارئ، حيث تصبح الشخصية ضعيفة وتشارك أفكارها وعواطفها العميقة. ومن الأمثلة الشهيرة للاعترافات في الأدب اعترافات جان جاك روسو في سيرته الذاتية 'اعترافات'، حيث يناقش بصراحة حياته الشخصية وتجاربه ومعضلاته الأخلاقية. "أما الهدف من السير الاعترافية فهو إظهار النفس في طبيعتها الأصلية، وإبراز ضعفها وعللها. والمعترف حين يفعل ذلك لا يصوغ هجاء مرا لنفسه، وإنما هو يناجي نفسه في أحوالها المتباينة"^{١٤}

يلاحظ عبد العزيز شرف أنه "فقد تكون السيرة الذاتية من قبيل الاعترافات، والدافع الرئيسي وراءها هو تخفيف عبء الشعور بالذنب الذي يثقل كاهل صاحبها. ومن أشهر أمثلة هذا الشكل اعترافات القديس أوغسطينوس (حوالي عام ٣٩٩)، والتي عرف بصفة عامة أنها أول مثال لسيرة ذاتية حقيقية، استحدثتها في الغالب الرغبة في سرد الخطايا تخفيفا للشعور بالذنب"^{١٥}.

١٤ . أحمد حسين الطماوي، أدب الاعتراف بين الرفض والقبول، الهلال، يونيو ٢٠٠٤، ص ١٦٠
١٥ . عبد العزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، مؤسسة الاسراء للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٤٥

وظيفة نفسية: يمكن أن يكون للاعتراف وظيفة نفسية^{١٦} كبيرة عسى أن تكون في الأفراد من أي منظور كان دينياً أو أدبياً. إن الاعتراف بالأحداث فيما يتعلق الأفكار أو المشاعر أو الأفعال يمكن أن يوفر إحساساً بالتححرر العاطفي. فالحفاظ على الأسرار أو التمسك بالذنب يمكن أن يخلق إرهاقاً عاطفياً، والاعتراف يسمح للأفراد بالتخلص من أعباء أنفسهم والشعور بالارتياح. فهو بمثابة شكل من أشكال التنفيس، مما يسمح للأفراد بالتعبير عن مشاعرهم أو ندمهم أو تصرفاتهم السابقة ومواجهتها. ومن خلال الاعتراف بأفكارهم وسلوكياتهم وقبولها، يمكن لهم اكتساب فهم أعمق لأنفسهم ودوافعهم، مما يؤدي إلى الشفاء العاطفي.

إن عملية الاعتراف تتطلب من الأفراد الانخراط في التأمل الذاتي والاستبطان والبصيرة. ويشجعهم على فحص أفكارهم وعواطفهم وسلوكياتهم، مما يؤدي إلى زيادة الوعي الذاتي والتبصر في دوافعهم وقيمهم ومعتقداتهم. هذه العملية يمكن أن تسهل التنمية الشخصية أيضاً.

غالبًا ما يتضمن الاعتراف تحمل المسؤولية عن أفعال الشخص والاعتراف بالعواقب التي قد تترتب على الآخرين. ومن خلال الاعتراف، يمكن للأفراد إظهار استعدادهم لتحمل المسؤولية عن سلوكهم، الأمر الذي يمكن أن يعزز الشعور بالنزاهة الشخصية والوعي الأخلاقي. وهو أيضا طريق للمصالحة والغفران، مع الذات ومع الآخرين. من خلال الاعتراف بالخطأ، والتعبير عن الندم، وطلب المغفرة، يمكن للأفراد إصلاح العلاقات المتضررة، واستعادة الثقة، وتجربة الشعور بالسلام الداخلي. يمكن للاعتراف أن يساعد في تخفيف مشاعر الذنب التي قد تنشأ من إخفاء الأسرار أو الانخراط في أفعال مشكوك فيها أخلاقياً. من خلال الاعتراف بهذه المشاعر ومعالجتها علناً، يمكن للأفراد العمل على مسامحة الذات وقبول الذات.

^{١٦}. رابط على مواقع الانترنت: <https://www.psychologists.com/the-psychology-of-confessions/>، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٤\٠٢\٢٧.

<https://www.psychologytoday.com/intl/blog/fulfillment-any-age/202202/why-it-feels-so-good-confess>، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٢\٠٣\٣١.

ومن المهم للملاحظة أن القيمة النفسية للاعتراف يمكن أن يتفاوت بين شخص وآخر باعتبار شدة المشكلة، وموقفه تجاه الأحداث في حياته والتجارب الفردية الذاتية الأخرى. في حين أن الاعتراف يمكن أن يكون مفيداً للعديد من الأفراد، إلا أنه ليس حلاً شاملاً وقد لا يؤدي دائماً إلى حل فوري أو سلامة نفسية. على كل حال، فمن الضروري جداً أن يكون هناك تهوية للمواد العاطفية المكبوتة.

المبحث الرابع: الاعتراف والسيرة الذاتية

بدأ مصطلح 'الاعتراف' يستعمل في الأدب بعد صدور كتاب الاعترافات للأوغسطينوس في القرن الرابع للميلادي واعترافات روسو في القرن الثامن عشر للميلادي. ولعل كتاب 'الاعترافات' للقديس أوريلينوس أوغسطينوس (٣٥٤ - ٤٣٠) أول سيرة ذاتية ذات طابع اعترافي. ويعتبر هذا الكتاب بداية السيرة الذاتية الحديثة في الآداب الغربية. وبين فيها قصة حياة الكاتب تفصيلاً انطلاقاً من مراحل الطفولة والمراهقة، حتى أحواله الأسرية وتعلمه في المدرسة. وبالأخص فهي مسيرة انتقاله الروحي والصعوبات التي عانى منها في سبيل سعيه في البحث عن الذات، والتي أوصلته إلى الإيمان بالديانة المسيحية. على الرغم من أن هذا الكتاب لاقى قبولا في الغرب المسيحي باعتباره قصة تحول الرجل الجريء إلى الديانة المسيحية، ولكن "لم يقدر له الانتشار في العصور الوسطى بسبب التزمّت الديني، فحراس الفضيلة كانوا بالمرصاد لكل من يجرؤ على البوح بدخيلة نفسه على رؤوس الأشهاد، فحتى الاعترافات الدينية كانت سرية ويحظر تدوينها"^{١٧}

ويمكن أن يقال إنه إذا كان السارد يكشف في سيرته الذاتية عن تفاصيل خاصة جداً عن نفسه، مثل التعبير عن عيوب الكاتب وخطاياهم ومزلقه وعيوبه، والحياة العاطفية للمؤلف، وتصوير

١٧. جودت هوشيار، تاريخ السيرة الذاتية وإشكالية الحديث عن الذات، راجع على موقع الانترنت: تاريخ-السيرة-الذاتية-وإشكالية-الحديث-عن-الذات

https://middle-east-online.com/، تاريخ النشر: ٢٠١٩\٠٨\٣١، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢١\٠٧\٢٠

ذاته الداخلية، سلوكياته الخاصة المدمنة، والإفصاح عن الدوافع وردود الأفعال، وتحليل نفسي لشخصيته، ودوافع الحب وتجاربه الجنسية والمعاناة النفسية والأمراض، وتجارب المخدرات، والدوافع الانتحارية أو مواد نفسية أخرى أكثر حميمة له، فيندرج هذا النوع من السيرة تحت فئة 'الاعتراف'. طبقا لما ورد في المعجم الأدب العالمي أن المواد النفسية التي يبوح بها الكاتب فهي تكون المواضيع الحميمة حيث لا يكشف عنها حتى لأصدقائه "السيرة الذاتية هي ما قد يقول لأصدقائه، تتوقف قيمته على شخصيته فيما يتعلق بالأشخاص الذين عرفهم والأشياء، وأما الاعترافات فما لم يصح به حتى لأصدقائه، تنبع قيمته من شدة حياته الداخلية"^{١٨}

يلاحظ سعيد الغانمي، مترجم كتاب ترجمة النفس: السيرة الذاتية في الأدب العربي لدوايت ف، رينولدز، في مقدمة هذا الكتاب نقلا عن مقالة نشرت في مجلة تقارن بين 'الاعترافات' لأوغسطينوس و'المنقذ من الضلال' للغزالي، بأن الثقافة الغربية المسيحية كانت أقرب إلى السيرة الذاتية من الثقافة العربية الإسلامية "لأن المسلمين لم يعرفوا أدب 'الاعتراف' بمعنى التفكير عن الخطايا بمجرد البوح بها. وللأسف، انتشرت هذه الفكرة بحيث صار أدب الاعتراف، إذا صح وجود أدب كهذا، أو مجرد طقس الاعتراف نفسه، نظيرا مطابقا لأدب السيرة الذاتية"^{١٩}. ويمكن أن يكون السبب الرئيسي لانتشار هذه الفكرة ذلك أن السيرة الذاتية أصبحت نوعا أدبيا مستقلا بعد صدور كتاب 'اعترافات' روسو في القرن الثامن عشر في الغرب المسيحي. علاوة على ذلك أن المصطلح الإنجليزي المقابل للسيرة الذاتية بدأ يستخدم فقط في سنة ١٨٠٩م^{٢٠}. وذلك كان بعد أن ظهر النموذج الأول لهذا النوع من الأدب من قبل روسو.

18 . Joseph T. Shipley (ed.), Dictionary of world literature: criticism – forms – technique, The philosophical library, New York, p.119

١٩ . دوايت ف. رينولدز(تحرير)، ترجمة النفس: السيرة الذاتية في الأدب العربي، ترجمة: سعيد الغانمي، كلمة، أبو ظبي، ط ١، ٢٠٠٩، ص ٧
٢٠ . سيرة ذاتية، ويكيبيديا الموسوعة الحرة، رابط على موقع الانترنت: سيرة ذاتية_ (أدب) / <https://ar.wikipedia.org/wiki/> ، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢١\٠٣\٠٨

أما روي باسكال، يأتي بالحد الفارق بين السيرة الذاتية والاعترافات المبكرة بأن تركيز أصحاب الاعترافات كان على تجاربهم الروحية الداخلية دون ربطها بعالمهم الخارجي، إذ يقول "إن معظم السير الذاتية الدينية في العصور الوسطى تفتقر إلى الدقة في مراقبة العالم الخارجي وتفشل في ربط الحدث الخارجي والتجربة الداخلية بشكل هادف"²¹. على أي حال أن أحد المقاييس الحديثة لأن يكون سيرة ذاتية حقيقة التي وضعها علماء الغرب، إنما هو لا بد أن تحتوي على تعبيرات عاطفية أكثر حميمة.

وأما بالنسبة إلى السيرة الذاتية في الأدب العربي، على الرغم من تعرضها لانتقادات بسبب افتقارها إلى ذاتية سارديها، أنه يمكن العثور على ومضات اعترافية بدرجات متفاوتة على حسب الاختلافات التاريخية والثقافية والفردية. يمكن أن تتطرق التعبيرات في السيرة الذاتية العربية مجموعة واسعة من المواضيع، بما في ذلك العلاقات الشخصية، أو ديناميكيات الأسرة، أو الاضطرابات السياسية، أو الصراعات الاجتماعية، أو التجارب الدينية، أو النمو والتحول الشخصي. ومن خلال مشاركة هذه التفاصيل الحميمة، يهدف السارد إلى خلق اتصال أعمق مع القارئ، مما يسمح له بفهم دوافع المؤلف وتحدياته وانتصاراته.

الخاتمة

فالاعتراف ليس بظاهرة حديثة التي استحدثتها أوروبا المسيحية، بل أنه صفة متأصلة في الفطرة البشرية للوصول إلى حالة متزنة قلبيا وروحيا وجسديا. بالنسبة إلى 'الاعتراف الديني' فإنه لا يزال موجودا في الثقافة الغربية والعربية معا. أما 'الاعتراف العلماني' بالرغم من أن ومضاته قد وردت في النصوص العربية كما وجد في النصوص الغربية، فهو نوع أدبي مستحدث ظهر في أوروبا المسيحية في القرن الثامن عشر.

²¹. Pascal, R. (1960). Design and Truth in Autobiography (1st ed.). Routledge. P.24. <https://doi.org/10.4324/9781315674605>

الفصل الثالث

الكتابة عن الذات والاعتراف في العربية عبر العصور

المقدمة

إن السيرة الذاتية الحديثة هي شكل متطور لما كان يكتبونها الكتاب عن أنفسهم في الفترات المختلفة من الزمن في الثقافات والحضارات في العالم. أما بالنسبة للتراث العربي كانت لديهم الأسبقية في ممارستها شعرا ونثرا. بما أن الشعر أسبق أنواع الأدب، كان مطية للعواطف البشرية وشكلا بديلا لسرد السيرة الذاتية قبل أن صار النثر وسيلة مهمة في التعبير الإبداعي للعواطف. فهذا الفصل مخصص للبيان أنه كيف قام العرب بالتعبير عن ذواتهم من خلال الابداعات في العصور المختلفة.

المبحث الأول: الممارسة الشعرية

يعتبر الشعر أقدم أنواع الأدب، وأقربها من الوجدان وأقربها بالطبيعة وأسهلها للسان تلفظا، بسبب ألحانه الموسيقية. وهو لغة النفس والوجدان. استخدمته المجتمعات البدائية القديمة مطية لنقل عواطفهم الحميمة ومشاعرهم المتميزة إلى من حوله في بيئته الاجتماعية. فحياة العرب الجاهلي بنواحيها المختلفة كانت مسجلة في أشعارهم، ولذلك أنه يقال إن الشعر ديوان العرب وسجل صادق للحياة الجاهلية. مارسه العرب في أول الأمر ممارسة شفوية، وقد تم نقله من شفة إلى شفة دون إضرار وتعديل. "وفي الثقافة الشفوية في جزيرة العرب الجاهلية، كان الشعر نمطا من الخطاب المرجعي الموثوق، في حين كان يزدرى النثر في الغالب بوصفه غير ثابت وبالتالي لا يوثق به. والشعر بسبب بنيته الشكلية في الوزن والقافية، أكثر استعصاء على التغير عندما ينقل شفويا، أما النثر بسبب افتقاره إلى البنية، فأكثر عرضة إلى التحريف"^١. وقد تم

١. دوايت ورنولدز، ترجمة النفس السيرة الذاتية في الأدب العربي، تعريب: سعيد الغانمي، كلمة، أبو ظبي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩، ص ١٤١-١٤٢

جمعه وتدوينه في العصر العباسي وهو مسجل في المجموعات الشعرية مثل المفضليات والأصمعيات وجمهرة أشعار العرب ودواوين الحماسة وأخرى من الكتب التاريخية والأدبية.

كل حياة تحتاج إلى السرد والحكاية عن تجاربها. وذلك من ضروريات للحياة المنسجمة. وكان الشعر في التراث الجاهلي الشفوي وسيلة مهمة في التعبير عن تجارب الحياة. وإنما الحياة بالعواطف والمشاعر. فإذا كانت الحياة كذلك، فالتعبير عنها أيضا تعبير عن المشاعر والعواطف. فالشاعر الجاهلي قام بالتعبير عن ذاته من خلال الأشعار. وقد انعكست فيها انفعالاته الشعورية مثل الحب الخالص والفرح والحزن والغضب والاشمئزاز والمفاجأة وغيرها من العواطف البشرية تتفاوت بين السطحية والعمق درجتها. ولذلك يعتبر الشعر العربي القديم شكلا مبكرا أو خطابا بديلا لكتابة السيرة الذاتية. فالشعر العربي القديم ليس فقط انعكاسا لحياة العرب الاجتماعية، ولكنه أيضا تعبير عميق عن حياتهم الذاتية والكشف عن مكنوناتها أكثر حميمة، خاصة لدى الشاعر الرومانسي الذي هو يركز على التعبير عن الذات والمشاعر العميقة.

الرومانسية في الشعر القديم

كان ظهور مذهب الرومانسية في الشعر الحديث تمردا على الكلاسيكية، وهو يركز على الالهام والذاتية وألوية الفردية كما هو يتسم بالخيال والعاطفة. وهذه النزعة موجودة في الانسان في جميع الأزمان، ولكنه لم يتطور كتيار قوي في الأدب في تلك العصور. يمكن أن توجد النزعة الرومانسية^٢ عند الشعراء في الجاهلية مثل امرؤ القيس وعنترة بن شداد. وكان يتجلى هذا الاتجاه في العديد من القصائد اللاحقة حتى في العصر الإسلامي. ومن أمثالهم عمر بن أبي ربيعة والقيس بن الملوح، وكذلك في العصر العباسي مثل بشار بن برد الملقب بإمام الشعراء المولدين. أما القصائد التي أطلقت على المعلقات فهي كلها تستهل بذكر أطلال حبيبات اصحابها. تتسم

٢. الرومانسية في الشعر العربي، مجلة الرائد، ندوة العلماء، لكتاؤه، الهند، ١٣ أبريل ٢٠٢١، رابط على موقع الانترنت:

https://alraid.in/april-2021-13/ تاريخ الاسترجاع: ١٥ أغسطس ٢٠٢١، بتصريف

المعلقات بالصدق والبساطة في التعبير والنزعة الوجدانية والخيال الرائع والاستطراد. فالخيال البعيد والعواطف العميقة والاستطراد كانت أكثر شيوعاً عند الشعراء الرومانسيين. ولكنه ليس معنى ذلك أن الشعراء الآخرين في الجاهلية الذين اتسمت أشعارهم بقريب الخيال وسطحية العاطفة والإيجاز أنها لا تكشف عن الذات، بل يمكن أنها تدل على قلة العواطف المكبوتة لديهم.

فالشاعر الرومانسي حريص على الحرية الكاملة من جميع القيود التي فرضت عليه القوى الخارجية خصوصاً المجتمع الذي يعيش فيه. فالشعراء الصعاليك أحسن مثالا على ذلك. وهم مطرودون إلى مثل هذه الحياة المتجولة بسبب الجوع والفقر أو الحياة غير الأخلاقية. وتجدر هنا الإشارة أيضا إلى أن السيرة الذاتية بالمفهوم الحديث قد تولدت في بيئة اجتماعية للرومانسية.

المبحث الثاني: الأنماط النثرية المبكرة

وبحلول القرن التاسع الميلادي بدأت الكتابة عن الذات نثرا تظهر في العربية في عزلة بعضها عن بعض. ثم تطورت هذه المحاولات الفردية إلى ممارسة راسخة متبعة في أشكال مختلفة في التراث العربي بعد أن كانت مقتصرة في الممارسة الشعرية على شكل شفوي. ويمكن اعتبارها -كما هو الحال في الظواهر الأخرى- تطورا تدريجيا في الاتجاه الايجابي بعد نزول القرآن وظهور فن نثري جديد المعروف بالسيرة.

وقد وردت في كتاب 'ترجمة النفس: السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث' الذي قام بتحريره دوايت. ف. رينولدز، أكثر من مائة وخمسين عملا عن سير ذاتية من القرن التاسع للميلادي حتى نشر كتاب 'الأيام' لطفه حسين في القرن العشرين. ومعنى ذلك أن الكتابة عن الذات مرت بعدة تطورات ملحوظة خلال هذه المدة الطويلة.

حوافز الكتابة وملامحه

إن وراء كل عمل بواعث وحوافز، إما أن تكون هذه تنبثق من العقل الواعي أو من العقل اللاواعي أو تحدث إما على المستوى الواعي أو اللاوعي. ومن الناحية النفسية، قد يكون جزءاً من تنظيم العواطف أو آليات الدفاع النفسية. إن "وراء كل سيرة ذاتية حافز يلح إلحاحاً على صاحبها أن يسجلها، وحين يبلغ هذا الإلحاح مستوى من النضج في نفس صاحبه لا يستطيع معه إلا أن يصور ما تردد في نفسه من أصداء الحياة القومية وتجاربها"^٣. فهذه الحالة التحفيزية تتولد من النقص أو الحاجة النفسية فيشعر بها صاحبها صراعاً داخلياً. وهي توجه السلوك وتنشطه لتقليل هذا الصراع النفسي وبالتالي يصل إلى حالة التوازن الداخلي ويتمكن به التكيف مع البيئة التي يتعامل معها.

وقد أدرج الدكتور يحيى إبراهيم ستة حوافز مهمة^٤ التي قادت كتاب العرب إلى الكتابة عن ذواتهم في العصر ما قبل الحديث. فهي 'التبريرية' و'الرغبة في اتخاذ موقف ذاتي من الحياة' و'التخفيف من ثورة أو الانفعال' و'تصوير الحياة المثالية' و'تصوير الحياة الفكرية' و'الرغبة في استرجاع الذكريات'. فالمؤلفات التي تندرج تحت هذه الفئات هي 'التعريف' لابن خلدون و'المنقذ من الضلال' لأبي حامد الغزالي ورسائل ذاتية لأبي العلاء المعري و'لطائف المنن' لعبد الوهاب الشعراني، كتب البيروني والرازي والسخاوي وكتاب 'طوق الحمامة' لابن حزم على التوالي.

وأما إحسان عباس، صاحب فن السيرة، فهو قام بتقسيمها حسب غايتها إلى "الصنف الإخباري المحض" و'صنف يكتب للتفسير والتعليل والاعتذار والتبرير' و'صنف يصور الصراع الروحي' و'صنف يقص قصة المغامرات في الحياة'^٥. رغم أن هذه هي الملامح الرئيسية لمؤلفات السير الذاتية في التراث العربي القديم، قد كان هناك أيضاً اتجاه اعترافي الذي يعده النقاد أبرز سمات

٣. يحيى عبد الدائم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٤ ص ٣٢.

٤. المرجع السابق، ص ٣٣-٣٥.

٥. إحسان عباس، فن السيرة، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ط ١٩٩٦، ص ١١٤-١٢٧.

السيرة الذاتية الحديثة. "وأبرز ملامح الترجمة الذاتية في الأدب القديم، أن القدماء عرفوا اليوميات والمذكرات والاعترافات التي نستعملها في الاصطلاح الحديث. ولكنهم -بطبيعة الحال- لم يعرفوا هذه الاسماء"^٦. وهذه هي دلالة واضحة على أن التعبير الاعترافي هو كان أيضا نمطا معروفا لدى الكتاب -على الرغم من أنه محدود العدد- في التقاليد العربية القديمة.

ممارسة متبعة

يبدو أن الكتابة عن الذات كانت قد تطورت تقليدا متبعا في الأدب العربي بحلول القرن الثالث عشر والرابع عشر وإن لم يكن يتطور كنوع مستقل من الأدب. ويتجلى هذا الأمر من أقوال السيوطي "ما زالت العلماء يكتبون لأنفسهم تراجم، ولهم في ذلك مقاصد حميدة، منها التحدث بنعمة الله شكرا، ومنها التعريف بأحوالهم ليقتدي بهم فيها ويستفيد من لا يعرفها، ويعتمد عليها من أراد ذكرهم في تاريخ أو طبقات... وقد اقتديت بهم فوضعت هذا الكتاب تحدثا بنعمة الله وشكرا، لا رياء ولا سمعة ولا فخرا"^٧.

وإنه يتضح مما تقدم أن الكتابة عن الذات كانت طريقة مقبولة ونمط متبعا التي من خلالها قاموا بالتعبير عن أنفسهم. وكانوا على قاعدة بأن الافصاح والكشف عن المواد الشخصية يجب أن يكون لأعمالهم المثالية وانجازاتهم المحمودة في حياتهم للانتفاع بها المتلقون اللاحقون والاقتراء بها. ولم تكن هذه الكتابات متضمنة بجميع حلقات حياتهم، بل كانت في الغالب فقط في أحجام متنوعة التي تتفاوت بين مجرد ورقتين وإلى مائتين أو أكثر.

وبالجملة أن ممارسة الكتابة عن الذات في العربية كانت على نمط سائد الذي سبق ذكره "حيث خضعت للروح العام الذي وجه الفكر العربي شأنها شأن معرفة الفنون الأخرى كالتاريخ والسير،

٦. يحيى عبد الدائم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٣٥
٧. جلال الدين السيوطي، التحدث بنعمة الله، تحقيق: اليزابث ماري سارتين، المكتبة العربية الحديثة، مصر، ص ٤-٣

ولكنها رغم ذلك، لم تستسلم لتلك الروح استسلاما تاماً^٨. ومعنى ذلك، أن العناصر الاعترافية أيضاً قد كان تم التعبير عنها تلك العصور خلافاً عن الروح السائد فيها أو خارجاً من الأفكار المقبولة لديهم. وأما بالنسبة إلى الشكل فهو كان ممزوجاً بالنثر والشعر معاً.

المبحث الثالث: العصر الحديث المبكر

بدأت النهضة في الأدب العربي بدخول نابليون مصر في أواخر القرن الثامن عشر وباحتكاك العرب بالفرنسيين والتعرف بأدابهم وتقاليدهم. وذلك بعد سنوات طويلة حيث أصبح الأدب العربي في حالة الجمود الفكري والاضمحلال دون انتاجات أدبية ملحوظة. وفي نفس الفترة التي احتلت نابليون مصر بدأت الرومانسية في أوروبا خصوصاً في فرنسا تمرداً على الثورة الصناعية والتنوير المعتمد على العلمية والعقلانية في جميع المجالات الثقافية والفنية. وبطبيعة الحال، شاعت هذه الأمواج في العالم الغربي إلى المجتمعات العربية أيضاً، بدءاً من مصر في القرن التاسع عشر. ونهضت الأمة العربية من سباتهم الفكري وجمودهم الأدبي.

وكان في ريادة حركة الصحوة الفكرية والأدبية فيها رفاة الطهطاوي (١٨٠٠-١٨٧٣). ويليه جمال الدين أفغاني (١٨٣٨-١٨٩٧) ولطفي السيد (١٨٧٢-١٩٦٣) وأمثال هؤلاء من مفكري العرب آنذاك. وهذا الوضع الجديد شق طريقاً غير مسبوق في جميع الميادين الفكرية والحضارية. وقد تم انعكاسه في الكتابة عن الذات أيضاً في الأدب العربي.

الأعمال المبكرة

في نفس الوقت الذي بدأت النهضة الفكرية والأدبية في العالم العربي في القرن التاسع عشر، تم ظهور النوع الأدبي الجديد الذي أطلق عليه السيرة الذاتية بمعناها الفني الحديث. وذلك كان بعد

٨. يحيى عبد الدائم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٣٦.

نشر كتاب اعترافات روسو سنة ١٧٨٢ الذي يعتبر أول سيرة ذاتية علمانية في العالم الغربي. بدأت تظهر المؤلفات في عداد الكتابة عن الذات أيضا - ولو لم تكن على منوال العصر الحديث - في أسلوب قديم خصوصا امتدادا لأسلوب المقامات. ومن الأعمال المبكرة من هذا القبيل في هذا العصر كل من 'تخليص الإبريز في تلخيص باريز' لرفاعة الطهطاوي و'علم الدين' لعلی مبارك و'الساق على الساق فيما هو الفاريق' لأحمد فارس الشدياق، ولكن هذه الكتب "ليست ترجمات ذاتية بالمعنى الفني الدقيق"^٩. لأن جميع هؤلاء الكتاب استقبلوا هذه التغيرات الفكرية الجديدة من الغرب مع الاحتفاظ الكامل بهويتهم العربية. ومعنى ذلك "رغم إفادتهم السيرة من الآداب الغربية فإنهم حافظو على الأسلوب العربي الموروث، المتأثر بأسلوب المقامة تأثرا كبيرا"^{١٠}. واجتمعت فيهم عوامل الثقافتين الغربية الجديدة والعربية الموروثة الراسخة. ويمكن القول أنه، إذ "كان القديم العربي والجديد الغربي باعثا لهم على الترجمة لأنفسهم"^{١١}

وأما رفاعة الطهطاوي، رائد التنوير والحركة الاصلاحية في العصر الحديث فهو سجّل تجاربه في رحلته إلى باريس في كتاب 'تخليص الإبريز في تلخيص باريس'. وكان رفاعة واحدا من علماء الأزهر الثلاثة الذين اصطحبوا بعثة علمية إلى فرنسا التي أرسلها حاكم مصر محمد على للقيام بدراسة العلوم والمعارف الانسانية الأخرى. واستطاع له التفاعل المباشر مع الثقافة الفرنسية وآدابها والتحلي بعناصر تقدمية التي قد يمكن تساعد على ترقية الأمة المصرية. وكتاب 'تخليص الإبريز في تاريخ باريز' وهو خلاصة ما تجرب الطهطاوي من بيئة حضارية متقدمة رائعة خلال إقامته في باريس. ويضم هذا الكتاب جميع ما شاهد وتجرب منذ أن بدأ سفره من مصر إلى أن رجع إلى بلده، وصفا دقيقا مفصلا للغاية حيث يتضح منه بأنه لم يترك حتى تجربة واحدة دون ذكرها. بالنسبة إلى مضمون الكتاب أنه قد تم تأليفه بطريقة يمكن تصنيفها كتاريخ أو تقرير رحلة، إلى

٩. يحيى عبد الدائم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٤٨.

١٠. المرجع السابق، ص ٤٩.

١١. د. عبد العزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، مؤسسة الاسراء للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٥٨.

جانبا هذا، يمكن اعتباره جزءاً من السيرة الذاتية كونه تعبيراً عن التجارب المهمة لإحدى مراحل حياته. وأما شكله فهو على أسلوب المقامة السائد في ذلك الحين. وهو يقول في مقصد الكتاب أنه "في مدة السفر من مصر إلى باريس، وما رأيناه من الغرائب في الطريق، أو مدة الإقامة في هذه المدينة العامرة بسائر العلوم الحكمية، والفنون والعدل العجيب، والإنصاف الغريب، الذي يحق أن يكون من باب أولى في ديار الإسلام وبلاد شريعة النبي صلعم."^{١٢} وقد تم تنظيم الكتاب في ست مقالات دون المقدمة والمقصد، وكل مقالة انقسمت إلى عدة فصول.

وإن محور هذا الكتاب يدور حول الأحداث الخارجية وكذلك القضايا السياسية والفكرية والاجتماعية. وقد عالجهما رفاة الطهطاوي على أساس آفاق فكرية جديدة متأثرة من الثقافة الغربية الحديثة فيما يتعلق بشتى القضايا الانسانية من حرية فردية ووعي ذاتي وهوية شخصية وغيرها من التساؤلات المثيرة. وعلى حين أن تصوير الذات الداخلية، التي هي المعيار الرئيسي للسيرة الذاتية الحديثة كان محتجبا تقريبا تماما فيه. ويبدو هنا جليا مدى تأثير العوامل الثقافية والأيدولوجية في تمثيل الذات وتصويرها. رغم أن هذا الكتاب مفتقر إلى العناصر الأدبية فهو ثري بالعوامل التاريخية بنواحيها المختلفة التي هي قادرة على تحفيز الأذهان البشرية في الاتجاه التقدمي الايجابي.

فكتاب 'علم الدين' لعلي مبارك أيضا يمكن تضمينه في فئة السيرة الذاتية الذي هو كتاب يلقي الضوء على الحياة العصرية المتطورة. وقد تم تأليفه على شكل الرواية حيث توجد فيه بطل خيالي المسمى بعلم الدين، وهو شيخ الأزهر. يدور محور الكتاب حوله وحول الرجل الإنجليزي الذي يجب أن يدرس اللغة العربية. ولقاءهما في رحلة إلى أوروبا ويتمحور النقاش على مقارنة بين الثقافة العربية والغربية. ومن خلال هذه المحاور الخيالية يفي الكتاب وظيفة تعليمية لأبناء مصر والأمة العربية جميعا حيث يلفت انظارهم إلى اهمية الاستفادة من النواحي التقدمية من

١٢. رفاة رافع الطهطاوي، تخلص الابريز في تلخيص باريز، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٠، ص ٣٥

الثقافة الغربية. وأما سبب تأليف الكتاب فقد ذكره علي مبارك في مقدمة الكتاب، إذ إن النفوس كثيرا ما تميل على السير والقصص وملح الكلام بخلاف الفنون البحتة والعلوم المحضة^{١٣}. ولذلك أنه تمت كتابته على شكل مسامرة للاجتذاب إليها اهتمام القراء. فهو يضم مائة وخمسة وعشرين مسامرة في أربع مجلدات. واجتمعت فيه شذرات من علوم التاريخ والأدب والسياسة وغيرها من المعارف العصرية أخرى على شكل خيالي. فشخصية الكاتب مقنعة طوال الكتاب.

فهذا الكتاب يختلف عن 'تخليص الإبريز' من حيث طبيعة عرض البطل فيهما. وفي تخليص الإبريز أن رفاة الطهطاوي شيخ أزهرى، وعلى حين، "إذ لم يكن علي مبارك شيئا أزهرى، فجعل من بطله شيئا أزهرى، وسماه بأول حرفين من اسمه والحرف الأول من اسم أبيه 'علم'، ثم أضاف الدين لكي يعطي الغطاء شكلا كاملا لبذرة الرواية التعليمية في الأدب المعاصر"^{١٤}. وبالنسبة إلى العرب لما أن لديهم تراث قصصي عريق، ولذا وليس من العسير لهم قبولية عرض العواطف والتفكير الذاتية على نحو غير مباشر أو الشكل الروائي. فربما يمكن أن يكون السبب لاختيار هذا لطريق من قبل الكاتب للعرض الأفكار والأمنيات الذاتية.

ومن المؤلفات الأخرى ذات الأهمية في هذا العصر هو كتاب 'الساق على الساق فيما هو الفاريق' لأحمد فارس الشدياق (١٨٠٤م-١٨٨٧م). وهذا الكتاب سيرة ذاتية للشدياق على شكل الرواية، ونشر في ١٨٥٥ في باريس. يقول الشدياق فيه عن قصة حياته مستخدما بضمير المتكلم 'أنا'. يعتبره النقاد والباحثون أول سيرة ذاتية في الأدب العربي الحديث كما أنه هو الرواية الأولى في التراث العربي. يقول الدكتور إحسان عباس "لعل أول سيرة ذاتية ظهرت في العصر الحديث هي 'كتاب الساق على الساق فيما هو الفاريق' للشيخ أحمد فارس الشدياق، وفيها حديث عن تنقلات الشدياق وبعض أحواله، ولكن كلها غارق في غمار الاستطرادات والمتراذفات اللغوية وفي

١٣. رحلة في كتاب علم الدين، رابط على موقع الانترنت: <https://www.alukah.net/culture/0/20483/>, تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٣.٠٦.١٢

١٤. إيهاب عطا، مدخل إلى الأدب العربي الحديث، قراءة في رواية علم الدين لعلي مبارك (مقال)، جامعة مصر الدولية. ينظر على موقع الانترنت:

قراءة في رواية علم الدين لعلي مبارك_١_40166758/١، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٣.٠٦.١٢

السخرية والمجون، وهما من أبرز خصائص الكتاب^{١٥}. أما رضوى عاشور فهي ساقَت الكثير من الأدلة التي ترجح كفة رواية الشدياق 'الساق على الساق' بأنها الرواية العربية الأولى على الإطلاق^{١٦}. أما اسم 'الفاريق' بطل هذا الكتاب، "فهو اسم منحوت من كلمتي 'فارس' و'الشدياق' بأخذ 'فار' من فارس و'ياق' من الشدياق"^{١٧}.

بالرغم من أن قد تم عرض الكتاب في أسلوب قديم معقد عندما يقارن بالأساليب الأوروبية الحديثة، كان له أهمية كبيرة في تاريخ السيرة الذاتية والرواية في العصر الحديث، لأن شخصية الشدياق فيه أوضح من غيره الكتب من هذا القبيل في ذلك العصر. على الرغم من ذلك، أنه "لم يستطع الشدياق أن يتحرر من طبيعة المقامة، رغم انه كان من رواد التجديد في الأدب وفي النثر الحديث"^{١٨}. فهو مجرد نزعة طبيعية يمكن ملاحظتها في أي مرحلة من مراحل الابتكار والحدث في أي ظاهرة كونية. ولكن، بحلول القرن العشرين تحول الأمر إلى مرحلة ملحوظة حيث بدأت عناصر الابتكار والحدث تنعكس بشكل أكثر وضوحاً في إبداعات الكتاب العرب تدريجياً.

المبحث الرابع: العصر الحديث اللاحق

يمثل النصف الأول من القرن العشرين مرحلة جديدة في تاريخ الأدب العربي الحديث حيث بدأت اتجاهات الحدث تتجلى في تعبيرات الشعوب العربية كأنما لم يسبق مثله. واشتدت فيهم حدة الوعي بالذات والاحساس بالفردية. وأخذوا يعبرون عنها في إبداعاتهم. ودخلت إبداعاتهم الذاتية إلى مستوى أعلى مما كان عليه من أوائل كتاب العرب للعصر الحديث في القرن الثامن والتاسع عشر. ورغم انه لم يتطور هذا الاتجاه إلى الصراحة والاعتراف في السيرة الذاتية المستقلة، أنهم

١٥. إحسان عباس، فن السيرة، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ط١، ص ١٣٠

١٦. أحمد فارس الشدياق، ينظر مقال على موقع الانترنت: أحمد_فارس_الشدياق/https://ar.wikipedia.org/wiki، تاريخ لاسترجاع: ٢٠٢٢/١٠/٢٣

١٧. رفيقة بوجنان، أحمد فارس الشدياق وجهوده المعجمية (أطروحة ماجستير)، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة أوبوكر بلقايد، الجزائر، ص ١٦، ٢٠

١٨. يحيى عبد الدائم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٧٠

اتخذوا الرواية وسيلة للتعبير عن ذواتهم. ويعتبر هذا الاتجاه تطوراً ملحوظاً بما أن كل تغيرات تسبق بها مراحل عديدة.

ومن مقدمة كُتِّبَ هذه المرحلة محمد المويلح في 'حديث عيسى بن هشام' وحافظ إبراهيم في 'ليالي سطوح'. وقد تم تأليف هذين الكتابين في شكل المقامة حيث اجتمعت فيه العناصر التراثية وجوانب الحداثة معاً. وقد اعتبر كتاب حديث عيسى بن هشام الرواية العربية التأسيسية لما أنه تغلب فيه عوامل الرواية الحديثة. أما رواية 'زينب' لمحمد حسين هيكل فهي تعتبر علامة فارقة في تاريخ الرواية العربية الحديثة والسيرة الذاتية أيضاً كتعبير عن ذاتية الكاتب. و"تأثر فيها بحياته الخاصة حين صور شخصية حامد وحيرته بين الطبقات الاجتماعية وثورته عليها، إذ هي تحول بينه وبين زواجه من زينب الفقيرة وبين زواجه من 'غزيرة' الثرية. وعبر من خلالها عن تأملاته وآراءه في الفلاحين والأسرة والزواج والحب وعن أشواقه الرومانسية"^{١٩}. وإن هذا الكتاب يعد أول رواية فنية في الأدب العربي الحديث الذي يضاهي الرواية الغربية بمفاهيمها الحديثة.

وأما الترجمة الذاتية على شكل الرواية في الأدب العربي الحديث المبكر "فتتمثل مع بعض التجاوز، فيما كتبه كل من مويلحي في 'حديث عيسى بن هشام' الذي أعار أفكاره وآراءه وخلاصة ملاحظاته حول اصلاح مجتمعه لشخصية 'عيسى بن هشام' وبعض الشخصيات الثانوية الأخرى، ثم احتذاه حافظ إبراهيم في 'ليالي سطوح' "^{٢٠}. وإن كلي الكتابين تم نشرهما في سنتين متتالية في ١٩٠٧ و ١٩٠٦ على التوالي. وأما رواية 'زينب' فبالرغم من أنها كتبت في عام ١٩١١ وهو كان يدرس الحقوق في فرنسا، ولم تكن تنشر إلى في عام ١٩١٤. وقد تم ذلك باسم مستعار من نفسه فهو 'فلاح مصري'، "قد يكون سبب ذلك أن هذا النوع من الكتابات يفتقد إلى الهيبة الشخصية"^{٢١}. فهذه الكتب الثلاث، عبر فيها كتابهم عما في نفوسهم من آمنيات وآراء وأفكار مقنعة هويتهم في

١٩. يحيى عبد الدائم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٨١.

٢٠. المرجع السابق، ص ٨٠.

٢١. زينب (رواية)، ينظر مقال على موقع الانترنت: زينب_(رواية)/ar.wikipedia.org/wiki/، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٣/١٠/٢.

شخصيات وأبطال فيها. وهذا يدل على أن المجتمع العربي، خصوصا الشعب المصري لم يصل إلى حالة حيث يتمكن له قبول مثل هذا النمط من التعبير الذي يتمحور على الذاتية.

السيرة الذاتية الروائية

وبحلول أواخر العقد الثاني من القرن العشرين كاد الأدب العربي الحديث يقترب من نظيره الأدب الغربي شكلا ومضمونا. وذلك حدث بنشر كتاب 'الأيام' لطله حسين الذي يعتبر السيرة الذاتية الروائية الأولى في تاريخ الأدب العربي. وكان الشعب العربي قد بلغ تقريبا إلى قمة النضج لهضم مستويات الثقافة الحديثة بنواحيها وأبعادها المختلفة. فالأمر الذي يثير اهتمام الباحث هو أن العام ١٨٨٩ الميلادي، الذي ولد فيه طه حسين تتميز بمولود عدد غير قليل من الأدباء والكتاب العرب. وإضافة إلى ذلك أن هؤلاء الكتاب، كان من الممكن لهم أن يعيشوا ويتحلوا بسياقات ثقافية مختلفة والاحتكاك والتفاعل مع الثقافات المختلفة واكتساب تجارب متناقضة على حد سواء تقريبا.

إن صدور رواية 'زينب' على شكل حقيقي يمكن اعتباره تلميحا لنمط التعبير الجديد الذي قد يتبناها الكتاب اللاحقون في العالم العربي. فحذا حذوه عديد من الكتاب المعاصرين واللاحقين حيث اتخذوا الرواية وسيلة مريحة ملائمة للتعبير عن صراعاتهم الداخلية. فبدأت تظهر السير الذاتية في قالب الرواية. ومن هؤلاء الكتاب^{٢٢} كل من ميخائيل نعيمة في 'مذكرات الارقش' و'مرداد' والمازني في ثنائيته 'إبراهيم الكاتب' و'إبراهيم الثاني' وتوفيق الحكيم في 'عودة الروح' و'عصفور من الشرق' و'يوميات نائب في الأرياف' والعقاد في 'سارة' وسهيل إدريس في 'الحي اللاتيني' وأمثالهم. فكل هذه الكتب تنعكس ذوات أصحابها بطريقة غير مباشرة.

وأما كتاب 'الأيام' لطله حسين فهو سيرة ذاتية روائية حيث يصرح كاتبه مباشرة على أنه هو قصة حياته الحقيقية، وذلك في صيغة الغائب متبنيا تقنيات الرواية. ثم جاء بعده عدد غير قليل من السير الذاتية على شكل مباشر، منها 'حياتي' لأحمد أمين و'سبعون' لميخائيل نعيمة و'الخبز

٢٢. يحيى عبد الدائم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٨١

الحافي' لمحمد شكري و' أنا' للعقاد و' رحلة جبلية ورحلة صعبة' و' الرحلة الأصعب' لعدوى طوقان وغيرها.

وقد لخص الدكتور يحيى عبد الدائم^{٢٣} أشكال السيرة الذاتية العربية الحديثة في ثلاثة قوالب. فهي قالب روائي، وقالب تفسيري تحليلي، وقالب يجمع بين التحليل والتصوير. وفي الشكل الأول أن الكاتب يصور قصته مفصحا في شكل روائي حيث يختلط فيه الحقيقة والخيال. فهذا الخيال هو الذي يميز الرواية عن الحقيقة التاريخية. وفي الشكل التفسيري التحليلي يعرض الكاتب الأحداث في حياته على صورة المقالة النثرية ويفسرها ويحللها دون تصويرها تصويرا دقيقا. والشكل الأخير هو موقف بين التصوير الروائي وبين الأسلوب التفسيري التحليلي. فأما معظم السير الذاتية العربية الحديثة كما يلاحظ عبد الدائم، فهي تقع في فئة التفسيري التحليلي.

فخلاصة القول إن الكتاب العرب في العصر الحديث اتخذوا طرقا إبداعية مختلفة للتعبير عن ذاتهم، وذلك إما شكلا مباشرا أو غير مباشر. وأما الشيء الذي يجدر بالملاحظة هنا أن الكتاب العرب يتمكن لهم تعبير صراعاتهم الداخلية مقنعة هويتهم من خلال فن الرواية على أنه وسيلة قوية يمكن أن تعبر الحياة بكمايتها تقريبا. ولا مبالغة في القول إن ذاتية الكتاب العرب متناثرة على شكل مفصل وراء الشخصيات في رواياتهم أو فيما يماثلها من إبداعات أخرى.

المبحث الخامس: الاعتراف في التراث العربي القديم

وفي استطاعة الباحث الأدبي العثور على بعض الأشعة الاعترافية في نصوص السيرة الذاتية في التراث القديم حتى لو أن الاتجاه الاعترافي لم يكن تيارا متطورا في تلك العصور. وقد وردت في النصوص البحثية عن السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم، أمثلة لا تُحَدَّ وجودها. وممن كتبوا عن أنفسهم في العصور القديمة المتفلسفون مثل ابن سينا وابن الهيثم، والأدباء والعلماء

٢٣. المرجع السابق، ص ٨٢.

مثل ابن الجوزي وأبو شامة المقدسي وابن حزم الاندلسي والامام السيوطي والمتصوفون مثل الغزالي ورجال الساسة مثل أسامة بن منقذ وابن خلدون وغيرهم.

فالدكتور إيهاب النجدي يقدم دالتين في هذا المنحى إذ يقول "ليس من العسير على الدارس الأدبي الظفر ببعض الصور الاعترافية من أدبنا القديم. يصاحب هذه الصور دالتان بينتان، الدلالة الأولى توضح مدى ما بلغته قيم مثل الصراحة والمكاشفة، ومواجهة الاخطاء، والصدق مع الذات في تلك الأزمان المتطاولة في المحافظة والكتمان، والعريقة في الاعتداد بالمجد الشخصي والفخر، والحفاظ على نقاء السيرة وطهارتها. وتمنح الدلالة الثانية أدب الاعتراف جذورا ممتدة في عروق الكتابة الذاتية العربية، فهي ليست ظاهرة مستحدثة تماما، أو انعكاسا محضا للآداب الأوروبية، كما يحسب بعضهم، ولا تتسع مساحة الدرس لعرض استقصائي لكل شواهد الاعتراف في الآداب العربي القديم، بقدر ما تتسع للأمثلة الدالة على الظاهرة وتطورها"^{٢٤}. يشير الاقتباس أعلاه إلى الطبيعة الشائعة للصور الاعترافية في العصور القديمة والاتجاه الاعترافي آنذاك. وبينما الشعب العربي مجتمع يلتزم بالمحافظة والكتمان فإن الاعتراف الصريح ليس ظاهرة مستحدثة تماما فيهم. وإنه فقط لم يتطور إلى اتجاه ملحوظ ليتم اعتباره نوعا جديدا من الأدب.

روح العصر

إن تاريخ الأدب - ليس فقط في العربية، بل في جميع اللغات في العالم - وتطور أنواعه يتشكل حسب متطلبات روح العصر السائد. فليس في إمكانية الباحث الوصول إلى افتراضية حتمية حول حالة الأدب وتياراته وأهميته في تلك الفترة الزمنية إلا بإخضاعه للتحليل الشامل وبمعنى آخر يجب أن يعتبر الروح العام في ذلك العصر. أما الآراء والتصريحات الخاطئة - إيجابية كانت أم

٢٤. د. إيهاب النجدي، أدب الاعتراف: مقارنة في النشأة والتطور، مجلة كلية دار العلوم، جامع القاهرة، العدد ٦٠، ٢٠١١، ص ٥٠٣، راجع على موقع الانترنت:

<https://search.mandumah.com/Record/148112> ، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٢٠٥\١٦

سلبية- والاتهامات الباطلة عن ظاهرة أدبية أو غيرها فهي نتيجة تقييم جزئي دون الاختراق إلى أجزاء دقيقة للوصول إلى شموليتها. وإلى روح تلك العصور القديمة يشير الدكتور يحيى عبد الدائم إذ يقول "صحيح، أن التراجم الذاتية فيما قبل العصر الحديث، كانت تخضع في مضمونها واتجاهها للروح العام الذي وجه الفكر العربي بعامه، شأنها في ذلك شأن التاريخ والسير والتراجم، فتأثرت بروح المحافظة على الأفكار السائدة، وبالخضوع للمثالية الغيبية. وهذا ما يفسر وجود ظاهرة التصوير لتجارب الكشف الصوفي وعالم المشاهدات والمواجد التي صورها بعض الصوفية ممن كتبوا عن أنفسهم، لكن لا نجد له مثيلا في التراجم الذاتية الحديثة"^{٢٥}

أما العصر ما قبل الحداثة فيتسم فيما يتعلق بالسيرة الذاتية، بروح المحافظة حيث يتردد الكاتب الخروج من الأفكار السائدة، كما يمتاز بالقيم المثالية حيث يلتزم الكاتب بها متأثرا بالسالفين والقدماء. "كذلك كان تأثر القدماء بالمثالية الخلقية، واضحا حين أطرح المترجمون لأنفسهم التصريح بالعيوب والمثالب الشخصية، حتى لا تجافي هذه الروح الخلقية الشائعة، ولذلك كان ترجماتهم الذاتية تلتزم جانب الحرص عند الكلام عن الأفكار الشائعة في المجتمعات العربية إذ ذاك، كما التزمت أيضا جانب المحافظة عند الكلام عن العيوب الشخصية. لكنها رغم ذلك، تميزت عن سائر ألوان المعرفة، وكانت لها سمات مقصورة عليها وحدها، مثل الخروج عن المؤلف من بعض الأفكار السائدة، والتصريح ببعض النقائص الشخصية، وتصوير ما عاناه بعض المترجمين الذاتيين من صراع نفسي أو صراع مع مجتمعه، على نحو ما نجده فيما كتبه كل من 'ابن الهيثم' و'الرازي' و'ابن خلدون'^{٢٦}.

وإن النمط الاعترافي الشائع في معظم الثقافات الماضية كان دينيا كما يوجد في اعترافات القديس أوغسطينوس في القرن الرابع في الأدب الغربي. ويوجد أيضا هذا الاتجاه عند المتصوفين في

٢٥ . يحيى عبد الدائم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٤، ص ١١٠.

٢٦. المرجع نفسه، ص ١١٠-١١١.

الثقافة العربية. وقاموا بمعالجة أزمة روحية وفكرية التي كانت تلح في نفوسهم، "تتمثل فيما كتبه المحاسبي في 'النصائح الدينية' والغزلي في 'المنقذ من الضلال' وكل من 'ابن الهيثم' و 'الرازي' في سيرته الشخصية"^{٢٧}. فيمكن أن يقال إن السيرة الذاتية الحديثة هي امتداد لهذا الاتجاه الديني الراسخ في شكله المتطور في العصر الحديث الذي تم بنهوضه في بيئة ملائمة نظريا وفلسفيا.

طوق الحمامة لابن حزم

ومن إحدى الكتب القوية التي تتضمن الاعتراف الصريح غير الاعترافات الروحية هو "طوق الحمامة" لابن حزم الأندلسي^{٢٨}. وهو يعترف عن حبه وأحواله النفسية الأخرى في هذا الكتاب وفي بعض مذكراته الأخرى باستبطان متعمق مع أنه متدين بتشدد بالغ. "ولم يكتب أحد في موضوع الحب كتابة قائمة على التجربة والمشاهدة، والاعتراف وبعض التعمق النفسي، مثل ما فعل ابن حزم الأندلسي"^{٢٩}. وهو يقول عن حبه "وعني أخبرك أنني أحببت في صباي جارية لي، شقراء الشعر، فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر، ولو أنه على الشمس أو على صورة الحسن نفسه، وإني لأجد هذا في أصل تركيب من ذلك الوقت."^{٣٠}

الاعتراف الديني عند الغزالي

الاعتراف الديني كان هو الاتجاه السائد في العصر القديم حيث يقوم السارد بالكشف عن تجاربه الروحية مثل ما يوجد في 'اعترافات' القديس أوغسطينوس في الثقافة الغربية وفي 'المنقذ' للغزالي في الثقافة الإسلامية. أما في التراث الإسلامي فالمتصوفون هم كانوا في مقدمة هذا الاتجاه، ولكنهم لم يتجاوزوا حدود التعري النفسي الصريح ولم يجرؤوا إلى البوح بأخطائهم كما يوجد في النصوص

٢٧. يحيى عبد الدائم: الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ص ٣٦.

٢٨. هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (٩٩٤-١٠٦٤) من أكبر علماء الإسلام. وهو فقيه ظاهري ومتكلم وأديب وشاعر وناقد وفيلسوف،

يرجى مراجعة المقال على موقع الانترنت: ابن_حزم_الأندلسي#حياة_ابن_حزم_الأندلسي/https://ar.wikipedia.org/wiki، تاريخ الاسترجاع: ٢٢/٦/١٨

٢٩. إحسان عباس: فن السيرة: دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ط ١، ١٩٩٦، ص ١١٢.

٣٠. المرجع السابق، ص ١١٢.

السير الذاتية الغربية في العصر الحديث. "وقلما اعترفوا بأخطائهم أو تحدثوا عن نقائصهم، ومع أنهم يطرفوننا أكثر من المتفلسفة والعلماء بوصفهم لتجارهم الدينية، إلا أنها تجارب محدودة بهذا المجال، ولا تخوض بنا في الحياة البشرية العامة بكل ما فيها من قبح وحسن ونقص وكمال، وضعف وقوة"^{٣١}. فالسبب الرئيسي لتلك الصراحة النفسية كان لاجتذاب الناس إلى طريقتهم الروحية التي كانت سائدة في تلك العصور. و"على حين عني بالمتصوفة بالحديث عن تجاربهم الروحية وكأنهم يريدون جذب الناس إلى طريقتهم وما فيه من مواجد ومشاعر ومقامات ومشاهدات، وقلما اعترفوا بأخطائهم أو تحدثوا عن نقائصهم"^{٣٢}. وتبدو العوامل الاعترافية في التراث العربي القديم كانت منحصرة في الكشف الصوفي فيما يتعلق بصراعاتهم الروحية. وذلك الاتجاه أيضا كان شائعا في الثقافات الأخرى في نفس العصور.

يعترف ابن الهيثم في سيرته "بأن الاقبال على علوم الديانات لم يفده شيئا، فاتجه إلى العلوم العقلية وهذه الشجاعة لا يوازئها إلا اعتراف الغزالي بأنه شك في كل شيء إلا في البديهيات"^{٣٣}. فالغزالي يصف في المنقذ رحلته المضنية في البحث عن الحقيقة المطلقة لحياة الانسان حيث قام بالتفكيك بجميع أزماته الروحية التي يعاني منها سنين وأوصله هذا المطاف إلى الطريقة الصوفية بعد أن أخضع جميع الخطابات الدينية والفكرية للتحليل الدقيق.

ابن سينا والاعتراف

أبو الحسن بن عبد الله بن سينا، العالم الكبير في الفلسفة وعلم الطب في القرن الحادي عشر، كتب عن نفسه الذي ورد في كتاب 'عيون الانباء في طبقات الأطباء' لابن أبي أصيبعة (ت ١٢٧٠-٦٦٨ هـ). يصف فيه عن طفولته وشبابه، فيعترف عن سلوكه الغريب حين يصف عن حياته

٣١. شوقي ضيف، الادب العربي المعاصر في مصر، دار المعارف، القاهرة، ط ٤، ص ٥

٣٢. عبد العزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، مؤسسة الاسراء للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٥٢

٣٣. إحسان عباس، فن السيرة، دار الشروق للنشر والتوزيع، الاردن، ط ١، ١٩٩٦، ص ١١٢.

العلمية، وذلك أنه كان يتردد إلى المسجد حينما يقع في حالة متحيرة حول عدة مسائل معقدة ويدعو الله ليفتح قلبه لحلها، وكذلك حينما يغلب عليه النوم أو يشعر بذهول نفسي وهو منغمس في القراءة والكتابة، كان يتناول قدحا من الشراب، حتى تستعاد قوته، إذ يقول " وكلما كنت أتحير في مسألة أو لم أكن أظفر بالحد الأوسط في قياس ترددت إلى الجامع وصليت وابتهدت إلى مبدع الكل، حتى فتح لي المغلق وتيسر المتعسر. وكنت أرجع إلى الليل إلى داري، وأضع السراج بين يديّ وأشغل بالقراءة والكتابة، فمهما غلبني النوم أو شعرت بضعف عدلت إلى شرب قدح من الشراب، ريثما تعود إلى قوتي ثم أرجع إلى القراءة، ومهما أخذني أدنى نوم أحلم بتلك المسائل بأعينها حتى إن كثيرا من المسائل اتضح لي وجوهها في المنام"^{٣٤}.

وعلى الرغم من أنه ليس من الأمر الرائع أن يجتمع أمران متناقضان في شخصية واحدة هما التردد إلى المسجد والدعاء إلى الله عند ما يواجه معضلة عقلية وكذلك تناول شراب النبيذ المحرم للتخلص من غلبة النوم أو النعاس، فبالنسبة إلى العوام أنه لن ينتظر مثل هذا التناقض من أعظم الشخصيات الإسلامية. أما بعض رجال الساسة مثل ابن خلدون فهم قد كتبوا تجاربهم الحربية أو السياسية في شكل مذكرات ووثائق تاريخية، فمعظمها تجارب خارجية طبيعتها. فالاعتراف هو سمة انسانية طبيعية، وكان يتجلى في كل التعبيرات البشرية في حياتهم الحقيقة والأدبية منذ هو أن كان على ظهر الأرض. وذلك يحدث إما بطريقة مكشوفة أو مقنعة.

المبحث السادس: الاعتراف في العصر الحديث

يمثل العصر الحديث وعيا أعمق للحالات النفسية البشرية المختلفة. فهو ثري بالتحري العميق عن مظاهر كونية بالنسبة إلى الانسان. وليكن إيجابيا أو سلبيا، لا خلاف في أن الوعي الذاتي لدى الانسان قد أصبح على ذروته كما لم يحدث من قبل. وإنه طبيعيا انعكست هذه الروح الجديدة

٣٤. شوقي ضيف، الادب العربي المعاصر في مصر، دار المعارف، القاهرة، ط ١٠، ص ٢٤

في المجالات الأدبية أيضا. "فإن الأدب - كما يلاحظ على أدهم - في لبه وصميمه قائم على الاعتراف بأساليب مختلفة وطرائق متباينة"^{٣٥}. وليس فقط الأدب، بل الحياة البشرية أيضا يقوم وجودها المنسجمة على الاعتراف. فهي تستلزم الاعتراف على شكل صحيح.

وقد سبق القول إن الاعتراف ليس ظاهرة حديثة اخترعها الثقافة الغربية، بل أنه أصبح تيارا خاصا في الأفق الأدبية في فنونها المختلفة كما صار نوعا أدبيا مستقلا في السيرة الذاتية في العصر الحديث. ومن الطبيعي أنه أن يشيع هذا التيار في الأدب العربي الحديث أيضا. وبالأخص بعد أن تغدت الثقافة العربية من تجارب الحداثة وترقى الإحساس بالذات والوعي بها لديها بدرجة حيث تمكن العرب تصوير ذواتهم من تلك البيئة الجديدة، بعد القرن العشرين.

وكان كتاب 'الأيام' نتيجة ذلك التيار الحديث. وتلاه عديد من الكتب في هذا القبيل. وعلى الرغم من ذلك، أن الأدب العربي لم يجتز إلى أقصى درجة من المكاشفة الفاضحة، بل لا يزال باقيا على محافظة أصالته إلى حد ما "وفي هذه الروح المحافظة على الحياء الطبيعي الذي فطر عليها الانسان يتبين لنا اتفاق الترجمة الذاتية الحديثة مع مثيلاتها في التراث في الخضوع للروح الخلقية تلك الروح التي لا تميل إلى المكاشفة الفاضحة، كما يتبين لنا في الوقت نفسه، عدم تأثر المترجمين لأنفسهم من كتابنا المحدثين بالأدب الغربية في هذا الاتجاه"^{٣٦}. فهذه الوسطية بين الأصالة والمعاصرة هي التي تجعل الأدب العربي متميزا عن الآداب الأخرى.

ومن المؤكد، أن كان قد وجدت بعض من المؤلفات التي وصلت إلى اعترافات صريحة فضيحة أمثال 'الخبز الحافي' لمحمد شكري. يلاحظ شوقي ضيف هكذا "رأينا الترجمة الشخصية عندنا تتطور تحت تأثير ما قرأ أدباءنا وكتابنا للغربيين من تراجم كاملة عن حياتهم، وقد وصفوها فيها

٣٥. إيهاب النجدي، أدب الاعتراف (مقاربات تحليلية من منظور سردي)، دار المعارف، مصر، ط ١، ٢٠١٥، ص ٨١

٣٦. يحيى عبد الدائم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٤، ص ١١٢

من جميع أطرافها، بعيوبها ومحاسنها، بل لقد تحولوا بها إلى اعترافات صريحة بدون أي تحرج وتصنع، وبذلك غدت الترجمة الشخصية عندهم ضرباً من القصص الحي البديع^{٣٧}.

ويضيف شوقي ضيف أيضاً أن الكتاب العرب في العصر الحديث وهم بلغوا أكثر مما بلغ الكتاب القدماء من حيث تعابيرهم عن الذات، وإذ يقول "لكن التراجم الذاتية الحديثة، تفتقر عن سابقها بالخروج على الكثير مما شاع في مجتمعاتنا العربية، منذ آحاد بعيدة من المسلمات والموروثات في عالم الفكر والأدب. وكثير من ألوان المعرفة. نتيجة للتيارات المعاصرة التي أثرت في أدياننا، وجعلت الكثيرين منهم يتخذون موقفاً ذاتياً لم يقصروا فيه على مجرد الخروج على الأفكار السائدة، في مجتمعاتهم ومعارضاتها على نحو ما فعل المترجمون الذاتيون القدماء"^{٣٨}.

الخاتمة

يتضح مما سبق لا يزال الكتاب العرب يضاھون في كتابة السير الذاتية على نظرائهم من الآداب الغربية، واتخذوا وسيلة مختلفة ونمطاً مغايراً للتعبير عن ذواتهم عبر العصور. وذلك كان وفقاً لما أنه كيفما تقتضيه السياقات التاريخية المعينة فيما يتعلق بتمثيل الذات. وكان ذلك يعتمد بشكل رئيسي على الإحساس بالذات لديهم والوعي بها والشعور بالفردية القائم في تلك الفترات من الزمن. وفي العصر الجاهلي وما قبله من عصور مجهولة، يمكن الافتراض أنه قدمت تمثيل الذات من خلال الأشعار أو ما يماثله من وسائل طبيعية أخرى. لأن الشعر لغة طبيعية تقترب من العاطفة والوجدان.

وفي العصر الإسلامي بدأ التصوير عنها في النصوص النثرية - مع التعبير من خلال الأشعار - وتجلت فيه انعكاسات وتأثير تعاليم الإسلام ومفاهيمه تجاه الإنسان والكون والخالق والعلاقات بينها. ويرى الإسلام الجنس البشري من نفس واحدة ويهتم بالوئام والانسجام بين أبنائه، ويتسم

٣٧. شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر في مصر، دار المعارف، القاهرة، ط ١٠، ص ٦

٣٨. المرجع السابق، ص ١١١

هذه الفترة بالمحافظة على الموضوعية في عرض الذات من خلال الإبداعات. وأما في العصر الحديث اتخذ الكتاب طرقاً متنوعة لتصوير الذات مباشرة أو غير مباشرة، إما مكشوفة ذاته أو مقنعة عنها. وعلى حين أن العصر المعاصر يمثل عالماً مفتوحاً معقداً حيث اشتدت حدة الوعي بالذات لدى الإنسان. واقتصرت عقلية الإنسان فقط على المصالح الفردية -حتى لو كانت مضرة للنسيج الاجتماعي بالإجمال- دون مراعات المصالح العامة. فطبيعة تعبير الذات المعاصرة أيضاً معقدة دراستها لأن المعاصر يمثل نظاماً عالمياً لما بعد الحقيقة.

أما بالنسبة للاعتراف في التراث العربي فكان لدى كتابهم مثل تلك النزعة. لكنهم -كما لاحظ يحيى عبد الدائم - يحافظون على الحياء الطبيعي الذي فطر عليه الإنسان، كما يحافظون أصالتهم من حيث تعبير الاعتراف الفاضح. وإنه ليس من علامات الأدب الرفيع أبداً اتباع الغرب شبرا بشبر في كتاباتهم. وفي الوقت نفسه، ليس هناك أي منازع على الإطلاق، أن الأمر الذي يرقى الأدب إلى السمو هو ما فيه من تعبير عاطفي صادق للساد.

الفصل الرابع

قضايا في السيرة الذاتية والاعتراف

المبحث الأول: قضية في ظهور السيرة الذاتية والاعتراف

ظهور المصطلح والفن

إن مصطلح 'Autobiography' في اللغة الإنجليزية "مركب من ثلاث كلمات يونانية، فهي 'auto' و 'bio' و 'graphia'، ومعناها 'ذات' و 'الحياة' و 'سجل أو السرد' على التوالي. فتشير هذه الكلمة إلى التاريخ المكتوب ذاتيا عن حياة شخص ما. استخدمت هذه الكلمة في اللغة الإنجليزية لأول مرة في عام ١٨٠٩م^١ بعد أن ظهرت النماذج الأولى للسيرة الذاتية من قبل القديس أوغسطينوس وروسو.

قد بدأت أولى محاولات في الدراسات حول السيرة الذاتية في الأدب الغربي منذ الأواخر القرن الثامن عشر حتى أوائل القرن العشرين حيث ظهر كتاب 'الاعترافات' لجون جاك روسو إلى حيز الوجود. رغم أنه قد تم تأليف هذا الكتاب في عام ١٧٦٩، لم يكن ينشر إلا عام ١٧٨٢ بسبب التزمّت الديني السائد آنذاك. وذلك كان بعد أربع سنوات من وفاته. فلا غرو أن تبدأ دراسات حولها من قبل النقاد والباحثين من نفس الخلفية الثقافية.

كان ممن هؤلاء هم غوته^٢ وهيردر^٣ ودلتاي^٤، واقتربوا منها صنفا شائعا للأدب من جميع الثقافات في سياقات تاريخية مختلفة. وسرعان ما انقلب الأمر حيث أعيد بناؤها على نحو درامي مثير واعتبر

١. ينظر على موقع الانترنت: <https://grammarist.com/usage/autobiography-vs-biography/>، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٠\٠٦\٧، بتصرف

٢. يوهان فولفغانغ فون غوته (١٧٤٩-١٨٣٢) هو عالم طبيعي وشاعر ألماني

٣. يوهان جوتفريد هرذر (١٧٤٤-١٨٠٣) هو عالم لاهوتي ألماني وكاتب وفيلسوف وشاعر وناقد.

٤. فيلهلم دلتاي (١٨٣٣-١٩١١) هو فيلسوف ألماني

هذا الفن نتاج الثقافة الغربية التي ينفرد بها^٥. وذلك بعد صدور مقالة لجورج غوسدورف سنة ١٩٥٦، حيث وصفت السيرة الذاتية صنفا أدبيا أوروبيا محضا تعبيرا عن الذات الأوروبية المتحضرة. وحذا حذوه الباحثون بعده مثل روي باسكال وجورج ماي وغيرهم. وهم رأوها - كما بين جورج غوسدورف في مقالته - صنفا لا يوجد خارج الثقافة الأوروبية. يقول روي باسكال "إنها من خلق الحضارة الأوروبية، وتبدأ حقاً مع أوغسطينوس"^٦

ويطرح رينولدز سببين رئيسيين لهذه الصياغة الأوروبية المحضة للسيرة الذاتية أنه "ربما غداها الانهيار العرضي لمواجهة الاستعمارية، وربما أيضا التهديد بالنسبية الثقافية"^٧. فالحرب العالمية الأولى قد تم تغيير النظام العالمي السائد واشتد في الشعوب الحرص على الحرية والديمقراطية والمساوات. وسببت هذه، ظهور الدول القومية الجديدة وحركات شعبية للاستقلال في مستعمرات أوربا. وقامت الدول الأوروبية لحماية مصالح إمبراطوريتهم وسيطرتهم على الصعد الذاتية والاجتماعية. كما خلقت اضطرابات في نفوس القوى المستعمرة قبولية الأفكار التي طرحت بها نظرية النسبية الثقافية ضد الأيديولوجيات العنصرية في العالم. "تشير النسبية الثقافية إلى فكرة أنه يجب فهم قيم ومعرفة وسلوك الناس ضمن سياقهم الثقافي الخاص..... أن كل الثقافات محترمة في حد ذاتها وهي كلها متساوية في القيمة"^٨

ومن الجدير بالملاحظة أنه يمكن اعتبار ظهور السيرة الذاتية كنوع أدبي خاص قد حدث في نقطة فريدة في التاريخ الفكري لأوروبا. تتميز هذه المرحلة باهتمامها بالسيطرة الثقافية على الثقافات الأخرى أكثر مما كان لها من سيطرة عسكرية، كما أنه اشتدت فيها دوافع لا تشبع للحرية المطلقة في جميع مناحي الحياة. وكان روسو ممن مؤيدي الدعوة إلى الحرية المطلقة. وهو يعتبر أحد

٥. دوايت ف. رينولدز، (ترجمة النفس: سيرة ذاتية في الأدب العربي، ترجمة: سعيد الغانمي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، ط١، ٢٠٠٩، ص٣٧، بتصرف
6. Roy Pascal (1960): Design and Truth in Autobiography, Routledge, London, 2016. p.21

٧. دوايت ف. رينولدز (تحرير)، ترجمة النفس: سيرة ذاتية في الأدب العربي، ترجمة: سعيد الغانمي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، ط١، ٢٠٠٩، ص ٣٧

٨. النسبية الثقافية، مقال عربي، رابط على موقع الانترنت: <https://www.alriyadh.com/1955351>، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٢\٠٧\١٢

مؤسسي الحركة الرومانسية في عصر التنوير. وتأثر به الكتاب الرومانسيون الذين جاء بعده. و"يتبنى العقد الاجتماعي لروسو المبادئ الديمقراطية ويبدأ بالعبارة الشهيرة 'يولد الإنسان حراً، وفي كل مكان يكون مقيداً بالسلاسل'. كان هذا البيان مهماً للرومانسية كما كان للثورة الفرنسية، وكان تأثير روسو على الكتاب الرومانسيين اللاحقين عميقاً"⁹. فاليقظة النشوية التي تشكلت في أوروبا، غرس في الشعوب حرصاً شديداً للحرية المطلقة. أما السلطة الكنسية في العصور الوسطى، وأفكار النهضة والتنوير التي اندلعت فيهم كاحتجاج قوي ضدها، فكل هذه أدت إلى مثل هذا الوضع الذي لم يكن موجوداً من قبل. وخلق هذا الوضع الفريد وعياً ذاتياً خاصاً للذوات الجماعية الغربية.

التغيرات الاجتماعية والوعي بالذات

ومن المعروف أنه أي فكرة اجتماعية ناشئة هي نتائج المحفزات من البيئة الاجتماعية السائدة في زمن ما. بعض من هذه الأفكار قد يؤدي إلى التغيرات الجذرية في القاعدة الاجتماعية وسيتم تأثرها تقريباً جميع الظواهر البشرية في المجتمع، خصوصاً الوعي الذاتي لدى الإنسان. وكان من مثل هذا، هو التغيير الذي حدث في أوروبا بعد العصور الوسطى المسماة بـ 'النهضة' وما بعده من عصر التنوير والرومانتيكية. وهي أعطت العقول الأوروبية إحساساً جديداً بالذات والوعي بها. وقد تم استحضار مفهوم الإنسانية الجديد المبني على الهوية الذاتية والحرية والديمقراطية والعقلانية وتقدير المصير وانحدرت هذه المفاهيم في أعماق نفوسهم وتسببت أصداء على جدران عقولهم مؤثراً بالظواهر الإنسانية برمتها تقريباً في جميع الحضارات في العالم.

⁹. نظرية أدبية والنقد، مقال في الإنجليزية، رابط على موقع الانترنت: <https://literariness.org/2017/11/29/romanticism-in-france/>, تاريخ الاسترجاع:

فترة الاضطرابات والانتاجات الأدبية

ومما لوحظ بأنه قد تم ظهور السير الذاتية بكثرة في فترة الانتقال بين العصرين حيث تتولد الآلام والهموم في نفوس الناس حينما يمرون بتجارب مضطربة، وهي تحفزهم للاستبطان والرجوع إلى الذكريات الماضية. أما الآلام والهموم فهي اسم المسافة بين الذات المثالية للشخص وبين الذات الحقيقية. كلما زادت هذه المسافة، زادت شدتها. يقول الدكتور عبد العزيز شرف "إن الاتجاه إلى كتابة السيرة الذاتية يقوي ويشد في عصور الانتقال وأوقات الاضطرابات والتقلقل، ذلك أن بعض النفوس الحساسة تشعر في مثل تلك الأزمان بأنها في حاجة إلى الملاءمة بينها وبين الظروف المحيطة بها، وهي تجاهد لتعرف نفسها، وتستقرئ دخالها وخفاياها"^{١٠}. ولوحظ أيضا أن فترات الحروب والاضطرابات أرض خصبة تنبت فيها الانتاجات الأدبية بكثرة خصوصا فنون الأدب ذات طابع ذاتي. وقد سجّل التاريخ عن مثل هذه الفترات التاريخية التي عجز فيها العالم عن معالجة مثل هذه الظروف إما بالحروب المضيئة أو المجاعة والأوبئة أو ما يماثله من الأحداث المؤسفة الأخرى.

غالبًا ما انتهت مثل هذه الفترات إلى طور جديد في التاريخ. فيتولد منها الصراع في نفوس الأفراد - حسب ما ذكر الدكتور إحسان عباس - "قد يكون نتيجة لفترات الاضطراب والحرب ومظاهر الاستبداد، والثورات، فهذه العهود مجال خصيب تظهر فيها السير الذاتية بغزارة. وقد دل الاستقصاء على أن فترة الحرب الثانية كانت خصبة وافرة الحظ من السير الذاتية، وأنه كانت لدى القراء رغبة للهرب من الحاضر إلى ذكريات الماضي"^{١١}.

١٠. عبد العزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، مؤسسة الاسراء للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٢، ص ١٧

١١. إحسان عباس، فن السيرة، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ط ١، ١٩٩٦، ص ٩٤

فالصراعات المتزايدة في تلك الفترات تمكن أن تكون بمثابة أداة فعالة لإنتاج الفنون الأدبية ذات طابع ذاتي. فالصراع الداخلي هو الذي نفسه يؤدي إلى الألم، فهذا الألم يخلق قلقا فنيا في النفوس الحساسة حتى يتولد منها إنتاجا أدبيا رائعا. "وفي العصور التي تزدهر فيها كتابة السيرة الذاتية، يصبح الألم دافعا إلى كتابتها من بين الدوافع المؤثرة، إذ أن الألم هو الذي يضطر الذات إلى أن تخلع على حياتها معنى. وما كتابة سيرة من السيرة الذاتية إلا بهدف أن يخلع الكاتب على حياته معنى. ولذلك ينسب كثير من الناس إلى الألم دورا هاما في صميم حياتهم، إذ تصبح التجارب الأليمة التي يعانها المرء ثروة باطنة تذررها الذات للمستقبل، وتتسلح بها ضد ما يستجد من الهجمات"^{١٢}.

السيرة الذاتية وحركة الرومانسية

ومما كانت إحدى مراحل الانتقال التاريخية عصر التنوير والرومانسية التي تلت به. رغم أن السيرة الذاتية على أشكال متنوعة كانت موجودة في الثقافات المختلفة في العالم بعد شيوع تقنية الكتابة، لم تكن قد ظهرت كفن أدبي متطور مستقل إلا في القرن الثامن عشر. وأما بالنسبة إلى العرب فالكتابة عن الذات كانت جزءا من تقاليدهم الأدبية على مقتضى النمط الثقافي السائد في ذلك العهد. فلها جذور راسخة في التقاليد العربية بمفهومها العريض. ولكنها هي وليدة العصر الحديث بمفهومها الحديث الذي أعتبر التعبير عن الذات الداخلية مقياسا رئيسيا لأن تكون سيرة ذاتية حقيقية. وعلى وجه الدقة وهي نتاج للحظة التاريخية المعينة. وذلك كانت استجابة للظروف الاجتماعية والسياسية المذكورة أعلاه في أوروبا في القرن الثامن عشر.

غالبا ما يقال العصور الوسطى بالعصور المظلمة في تاريخ أوروبا، بسبب الافتقار المفترض إلى التقدم العلمي والثقافي. وكان الاقطاع شائعا فيها وأصبح نظاما سياسيا مهما. أما الفترة مما بين أواخر القرن السابع إلى القرن الثامن عشر تعرف بعصر التنوير أو عصر العقل حيث التركيز

١٢. د. عبد العزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، مؤسسة الاسراء للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٢، ص ١٧

الرئيسي هو اكتشاف العلم والمعرفة والاعتماد على التفكير العقلاني. وذلك كان رد فعل لعقلانية العصور الوسطى حيث أصبح الدين المسيحي وما يتعلق به من خرافات قوة رئيسية تشمل جميع الظواهر البشرية. وكانت للحركة الرومانسية أهمية كبرى، وهي التي تم تركيزها على الذاتية والالهام والعواطف الانسانية وانعكست صداها في الأدب والفنون والموسيقى.

ويمكن أن يقال إن السيرة الذاتية بمفهومها الحديث حيزت على الوجود موازيا للرواية في أوروبا في نهاية القرن الثامن عشر، وذلك كانت نتيجة عن الحركة الرومانسية. وهي تتميز بشكل كبير بتركيزها على شدة العاطفة والفردية واللاعقلانية والخيالية كتعبير حقيقي للتجارب الجمالية. فحركة الرومانسية ظهرت رد فعل للكلاسيكية على شكل عام ونيو الكلاسيكية على وجه الخصوص، وما يطرحها من مبادئ النظام والوئام والتوازن والمثالية، وهي أيضاً إلى حد ما رد فعل ضد التنوير وضد عقلانية القرن الثامن عشر. أما كتاب 'الاعترافات' لجان جاك روسو فهو يعتبر شكلاً فنياً، أكثر حميمية للسيرة الذاتية العلمانية، يستكشف فيه عواطف الكاتب ومشاعره مفصلة للغاية وغير خاضعة للرقابة. وهو يدعى 'بأبي الرومانسية' بسبب هذا الكتاب في فترة التنوير.

ويمكن تلخيص مما ذكر سابقاً أن السيرة الذاتية رغم أن كانت موجودة في أشكالها المختلفة تقريبا في جميع الثقافات في العالم، لم تكن تتطور كفن أدبي خاص مثل الرواية أو المسرحية إلا في اللحظة المعينة في التاريخ التي اتصفت بالحرية المطلقة من كل القيود الاجتماعية مما يتعلق بالتعبيرات البشرية في الأدب والحياة. كما تتسم بتركيزها على التعبير عن الذات الفردية بغض النظر عن الأضرار أو التأثيرات التي قد تسبب بها للمجتمع برمته. فالسيرة الذاتية بمفهومها الحديث هي خلق متميز للوضع الاجتماعي الذي نتج عن البؤس والمعاناة التي خلفتها الحرب العالمية الأولى والنهضة الأوروبية التي حدثت احتجاجاً ضد النظام الاجتماعي المتمحور على الكنيسة في العصور الوسطى. فمن المفترض أن قطعة أدبية يجب أن تقيم من سياقاتها التاريخية الثقافية

ذاتها التي ولدت منها. وليس من المعقول مقارنتها بين نظرائها من السياقات الثقافية السالفة الاخرى.

المبحث الثاني: مقاييس السيرة الذاتية

المقدمة

وقد يكون من الصدفة في التاريخ أنه قد تم تأسيس السيرة الذاتية نوعاً أدبياً مستقلاً بهذا الاسم المعين التي كان الكتاب القدامى في ثقافات مختلفة يمارسونها على أشكال متنوعة دون تسمية محددة كنوع أدبي، وظهور الرومانتيكية كاتجاه أدبي شائع، ونشر كتاب 'الاعترافات' لروسو. وتلك هي كلها حدثت في لحظة معينة في أوروبا في القرن الثامن عشر. وقد أدى اقتران هذه الأمور الثلاثة - طبيعياً - إلى وضع عامل 'الاعتراف' في الكتابة الذاتية مقياساً رئيسياً لأن تطلق عليها سيرة ذاتية حقيقية.

لم يتوصل النقاد والباحثون إلى تعريف إجماعي للسيرة الذاتية الحقيقية المشتملة على جميع جوانبها. وكل واحد منهم اقتربوا من وجهات نظر مختلفة من عندهم ومعايير متباينة. لأن المفاهيم حول الذات والوعي بها تختلف من فترة زمنية وأخرى. ومن ثم فإن طبيعة التعبير عنها وأنماطها أيضاً ستكون مختلفة.

أول سيرة ذاتية عربية

أما بالنسبة إلى التراث العربي فلم يصلو حتماً بصدد كون وجودها بسبب اختلاف المعايير التي وضعوا لها، والأول منها إن وجدت. وقد "اعتبرت كتابات 'المحاسبي' -ت. ٨٥٧ م-، و'المنقذ' للغزالي -ت. ١١٨٨ م- أول سيرة روحية من قبل فرانس روزنتال وأنور الجندي على التوالي. بينما يذكر مارشال ج. س. غسن أن الغزالي هو كاتب السيرة الذاتية العربي الحقيقي الوحيد في حقبة ما قبل الحدائة. ويقول فيليب حيتي إن أسامة بن منقذ -ت. ١١٨٨ م- كان الأول، في حين يعتبر طه حسين

أن ابن خلدون -ت١٤٠٦م - هو الأول، بينما يرى عز الدين إسماعيل أن الأول هو طه حسن نفسه- ت١٩٧٣م-. أما توماس فيليب فيرى أن وجود سيرة ذاتية عربية سابقة على القرن العشرين أمر مستحيل"١٣.

ويمكن أن يقال إن جميع الآراء حول وجود السيرة الذاتية في التراث العربي وانكار وجودها، لها إمكانيات لقابليتها. لأن كل هؤلاء ينظرون إليها من وجهات النظر لديهم التي تعتمد على آراء خاصة متباينة لديهم حول المفاهيم والمعايير قابلة للتطبيق لها. فهناك فريقان، مؤيدوها ومعارضوها. "فالذين رأوا أنها من أقدم الفنون الأدبية نشأة، هم الذين عدّوا كل كتابة نثرية يتحدث فيها كاتبها عن ذاته سيرة ذاتية. وأما الذين عدّوها أحدث الفنون الأدبية، فهم الذين رأوا أن للسيرة الذاتية بناء خاصا، وهذا البناء لم تبدأ ملامحه بالظهور إلا في نهاية القرن الثامن عشر، ولكي يثبت أصحاب هذا الفريق آراءهم نجد أنهم يتغاضون عن الإرهاصات الأولى لنشأة السيرة الذاتية."١٤ وأما الذين يؤيدون وجودها فهم يروا أن لها تراث قديم الذي وجدت في معظم الثقافات في العالم. وهم عثروا على جذورها في الثقافة المصرية القديمة ثم حدثت تطورات تدرجية في فترات زمنية مختلفة حتى وجدت في شكل أحدث في العالم الغربي. وعلى حين أن المعارضين لوجودها يثبتون أنها أحدث الفنون الأدبية وليس لها شكل سالف.

وقد تطور اتجاه عام لدى النقاد - كلا من النقاد الغربيين والعرب - لتحديد أحدث السيرة الذاتية بوصفها سيرة ذاتية حقيقية بمفهومها الغربي الحديث. "ومن منظور منهجي فإن هذا الميل العام لا يخلو من تناقض: إذ حين يكثر الباحثون من فرض تعريفات حديثة على السيرة الذاتية 'الحقيقية'، فهم يضعون مزيدا من القيود التاريخية المتأخرة على النوع، وتجلياته الثقافية الملازمة

١٣. دوايت ف. رينولدز (تحرير)، ترجمة النفس: سيرة ذاتية في الأدب العربي، ترجمة: سعيد الغانمي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي،

ط١، ٢٠٠٩، ص ١٠٩-١١٠، بتصرف

١٤. تهاني عبد الفتاح شاكرا، السيرة الذاتية في الأدب العربي: فدوى طوقان وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عباس نموذجا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،

بيروت، الطبعة الأولى، ص ٢٧

المفترضة، بما فيها الهوية الفردية والوعي بالذات، وهذا التصنيف يجعل من السيرة الذاتية 'الحقيقية' ظاهرة متأخرة على نحو مفرط في كل من المجتمعين الغربي والاسلامي^{١٥}.

وعلى هذا المفهوم أن السيرة الذاتية خلق غربي جديد، وهي لا توجد في أي ثقافة سالفة. ومن المفترض أن الأمر الذي أوصل هؤلاء النقاد الغربيين إلى حكم فاصل على غيابها في التراث العربي فهو يمكن أن يكون باتجاه عقليتهم لتفضيل ثقافتهم على الأخرى أو المعيار الرئيسي التي وضعوا لها أن تطلق عليها سيرة ذاتية حقيقية. فالعلماء الغربيون وضعوا معايير خاصة لأن تكون السيرة الذاتية نوعاً أدبياً. ومن مقدمتها أنه يجب أن تتضمن مواد شخصية خفية أكثر حميماً بالسارد، أو يجب أن تكون السيرة الذاتية تكشف الجوانب الخفية من حياة السارد التي يخاف من اظهارها صراحة للقراء أو يكره الكشف عنها. وضعوا مصطلحات مثل الذات الداخلية، والذات الخاصة، والذات الشخصية معياراً لأن تكون سيرة ذاتية فنية حقيقية.

وعلى أساس هذا المعيار الموضوع لها قاموا بالبحث والدراسات في السيرة الذاتية في الثقافات في العالم بما فيها العربية، وزعموا أن السيرة الذاتية خارج نطاق الثقافة الغربية غير موجودة على الاطلاق وهي حديثة النشأة كتعبير عن ذوات غربية أكثر متحضرة. ووصفوا السيرة الذاتية العربية غير شخصية تماماً. إن "الجميع يضعون الاعترافات في الغرب مقياساً للحكم والنفي بعدم وجود اعترافات في الثقافة العربية! وهذه مغالاة في حد ذاتها، مُتناسين أن لكل ثقافة طبيعتها الخاصة، والأهم أن هذه المجتمعات الغربية التي كانت حاضنة لهذه الاعترافات على جراتها كانت ترفع شعار الحرية وهو الشعار الأهم الذي كان حافزاً للكتابة دون مواربة أو خشية سُلطة. ورغم هذه الحرية فإن بعض الكتابات صودرت بسبب جراتها أو لأنها خاضت في مسائل عقديّة وغيرها، والأمثلة التي تدل على ممارسات محاكم التفتيش كثيرة والتي أغلبها كان نتاج سلطة دينية متشددة أو عنصرية. وهذا ما يشير إلى أن خصوصية كل ثقافة عامل مؤثر في شيوع أجناس أدبية وغياب أخرى. وهو ما

١٥. ترجمة النفس: سيرة ذاتية في الأدب العربي/ تحرير دوايت ف. رينولدز، ترجمة: سعيد الغانمي، كلمة، أبو ظبي، ٢٠٠٩، ط ١، ص ١١٠

يظهر بصورة جلية عند الحديث عن غياب أجناس أدبيّة وظهور أخرى^{١٦}. على حد قول سلامي موسى^{١٧} أن عدم البوح في التعبير، وعدم التحليل عن الشخصية والثرثرة هي كلها من عيوب السيرة الذاتية الحديثة.

ويطرح رينولدز سؤالاً مهماً أنه هل من المحتمل أن تطبق المفاهيم الحديثة للنصوص القديمة من السيرة الذاتية؟، على حين أن المجتمع متغير باستمرار تماماً، ويتغير أيضاً التمثيل الأدبي للذات وفقاً للتغيرات فيما يتعلق بمفهوم الوعي الذاتي لدى الإنسان، فمعايير الفنون الأدبية ستتغير وفقاً لذلك. و"إذا كانت تصوراتنا عن المصطلحات مثل 'الذات الشخصية' و'الخاصة' و'الداخلية' تنطبق تماماً على نصوص ما قبل الحداثة، وما إذا كانت واضحة ولا تتغير، كما قد تبدو لدى الوهلة الأولى، نحن نعيش الآن في زمن يتسم بثنائية شديدة في تصور الذات وتقسيمها إلى عامة وخاصة، فهل يصح هذا على الحقب السابقة؟ وهل يصح على ثقافات أخرى؟"^{١٨}.

فيمكن الافتراض أن لكل لحظة من اللحظات التاريخية نمط خاص في التعبير عن الذات الداخلية لدى الانسان اعتماداً على الهوية الفردية والوعي الذاتي السائدة فيها. وليس من المعقول تطبيق مستوى المعرفة الموجود في فترة معينة أو المفاهيم حول أي ظاهرة بشرية على فترة تاريخية أخرى، خصوصاً النظام العالمي ما بعد الفريدي يختلف تماماً عما كان عليه قبله فيما يتعلق بالمعارف النفسية التي يتم إيلاء الاهتمام بالذات الداخلي والنشاطات العقل الباطني واللاوعي في حياة الانسان حيث يأتي النشاط الجنسي في مقدمته.

١٦. ممدوح فراج النابي، الاعتراف ممنوع حتى إشعار آخر، مجلة الجديد، ٣-١، ٢٠١٩، راجع على موقع الانترنت: الاعتراف-ممنوع-حتى-إشعار-آخر/ <https://aljadedmagazine.com/>، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٢\٧\٨

١٧. سلامي موسى: تربية سلامي موسى، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، ص ١٠

١٨. ترجمة النفس: سيرة ذاتية في الأدب العربي\تحرير دوايت ف. رينولدز، ترجمة: سعيد الغانمي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، ٢٠٠٩، ط ١، ص ١٢٠

المبحث الثالث: قضية 'الاعتراف' في العربية

وفي السيرة الذاتية يسرد الكاتب نفسه قصة حياته مبينا بكل صراحة على أنما يورد فيها هو صورة حقيقية لحياته. أما العناصر العاطفية المعبرة فيها فهي التي تجعل السيرة الذاتية قوية ومقبولة لدى القراء. ومن الملاحظة من قبل النقاد والباحثين أنّ السيرة الذاتية في العربية بالمقارنة بالأدب الغربي تفتقر إلى هذا العنصر إلى حد ما. فلا تزال الثقافة العربية تخضع للانتقادات والالتهامات لعدم تجرئها على مكاشفة المكونات النفسية والبوح بها في تصوير قصة الحياة في كتاباتهم الذاتية. حتى ارتفع الانتقاد إلى أن الثقافة العربية ليست لها هوية فذة وحررة منقحة من عديم الثقافة. فالسبب الرئيسي لهذه الادانات والانتقادات هو أن النصوص العربية من السيرة الذاتية عديمة العوامل الاعترافية بعد أن أصبح الاعتراف معيارا رئيسيا لان تكون سيرة ذاتية فنية حديثة. علاوة على ذلك أن حدثت نشأة السيرة الذاتية كشكل أدبي مستقل متطور في الأدب الغربي بعد نشر اعترافات القديس أوغسطينوس في القرن الرابع للميلاد واعترافات روسو في القرن الثامن عشر الميلادي. هذان الكتابان يعتبران أساسا للسيرة الذاتية الغربية. فالأول منهما هو اعترافات دينية وعلى حين أن الأخير هو اعترافات علمانية.

يقول الدكتور سعيد الغانمي عن مقالة التي نشرت في مجلة 'الكاتب المصري'، في السبعينات، يقارن فيها الكاتب بين 'اعترافات' القديس أوغسطينوس و'المنقذ من الضلال' للغزالي. وهذه المقالة تقرر أن الثقافة الغربية المسيحية كانت أقرب إلى السيرة الذاتية من الثقافة العربية الإسلامية، وأن المسلمين لم يعرفوا أدب الاعتراف بمعنى التفكير عن الخطايا بمجرد البوح بها. ولعبت هذه المقالة دورا هاما في ترسيخ فكرة بأن أدب الاعتراف نظير لأدب السيرة الذاتية. وللأسف، انتشرت هذه الفكرة بحيث صار أدب الاعتراف، إذا صح بوجود أدب كهذا، أو مجرد طقس الاعتراف نفسه، نظيرا مطابقا لأدب السيرة الذاتية. وكانت النتيجة الحط من قيمة السيرة الذاتية العربية باعتبارها سيرا ناقصة تفتقر إلى أدب البوح الذاتي الداخلي، وترتكز بالكامل على الاعلان

الأيدولوجي الصريح الذي يتطابق مع الهوية الاجتماعية^{١٩}. فسببت هذه الفكرة حط قدر السيرة الذاتية العربية على أنها هي ناقصة العامل الرئيسي الذي تشكل به سيرة ذاتية فنية في مفهومها الحديث. وحتى الثقافة العربية أدينت بها واعتبرت الذات في الثقافة العربية غير متحضرة تماما بالمقارنة بالذات الغربية.

أما فيما يتعلق بنمط التصوير عن الذات في الثقافة العربية القديمة فهي كانت مختلفا تماما عما كانت عليه الثقافة الغربية بعد القرن الثامن عشر. وذلك كما سبق الذكر عنه كان على شكل سائد في البيئة الثقافية الاجتماعية في تلك العصور. علاوة على ذلك، وكان هذا النمط نفسه خاصة سائدة في جميع الثقافات القديمة. "ولا نجانب الصواب إذا قلنا: ما من أمة اعتنت بأدب السيرة كما اعتنى بها العرب، ولكن على نحو غابت معه الخصوصية الفردية وشبكة التفاصيل الصغيرة، وتعاليت- في الآن نفسه- الغايات التعليمية والنزعة إلى توليد الاعتبار والوعظ الأخلاقي، نظراً لما تميزت به الثقافة العربية من ميل إلى البطولي الفردي الخارق إذا كان ذلك ممكناً، وإلا فإلى الجمعي العام الكاسح، إذا غاب نموذج البطل"^{٢٠}. وقد لوحظ أيضا أن لدى الثقافة العربية ممانعة ونفور لجعل 'الأنا' غير المنظورة مكشوفة للآخرين. وتقدم عدة أسباب لهذه النزعة. إما أن تكون خوفا من عدم العصمة أو سبيلا إلى الاقتداء بالقدوة الحسنة.

ويلاحظ احسان عباس^{٢١} أن الاحساس بالصراع وروح الثورة والتعري النفسي ليست من المميزات الواضحة للسيرة الذاتية العربية القديمة إلا ما يرى نادرة مثل الصراع الروحي في سيرة الإمام الغزالي والاعتراف الصريح في سيرة ابن حزم الاندلسي وغيرها. ومعظمها تتميز بالسطحية والفخر الفردي القائم على تعداد المآثر في الذات وملاحظة السيئات في الآخرين والعمق النفسي والتكأة

١٩- دوايت ف. رينولدز (تحرير)، ترجمة النفس: سيرة ذاتية في الأدب العربي، ترجمة: سعيد الغانمي، كلمة، أبو ظبي، ط ١، ٢٠٠٩، ص ٧.
٢٠- غسان عبد الخالق، النماذج التراثية والنزعة الوجودية في سيرة (فدوى طوقان) الذاتية، جامعة فيلاديلفيا، الأردن، ١٩٩٨، ص ٩٠. راجع على موقع الانترنت:

٢٠٢٣\٠٨\٢٣، تاريخ الاسترجاع: <https://repository.najah.edu/items/bcb318ba-8811-48c8-a477-4a10ab48891e>

٢١- إحسان عباس، فن السيرة، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ط ١، ١٩٩٦، ص ١١١-١١٤

الفلسفية للشخصية مفتقرة إليها. وقد لاحظ أيضا الدكتور يحيى عبد الدائم^{٢٢} على أن كتاب السيرة الذاتية في الأدب العربي لم يبلغوا على امتداد العصور مبلغ تعرية النفس والمكاشفة الفاضحة مثل ما يوجد عند الكتاب الغرب. كان شوقي ضيف أيضا على نفس الملاحظة في هذا الصدد، إذ يقول "إن التراجم في التراث العربي فقيرة في معالجة المواد النفسية وعمق الذات الداخلية، قلما وقف شخص منهم عند طفولته ونشأته والمؤثرات الخارجية المختلفة التي وقعت عليه وأثرت في حياته، ويظهر أنهم لم يفتنوا إلى ضرورة ذلك، ومن ثم كانت هذه التراجم فقيرة من حيث المادة النفسية والاجتماعية"^{٢٣}.

يقوم الدكتور علي أحمد سعيد إسبر، شاعر وناقد ومفكر المعروف بأدونيس بملاحظة مثيرة للاهتمام، وهو ينتقد كتاب السيرة الذاتية العربية الذين لا يجروون على البوح بالخطايا والذنب والكشف بالمكنونات النفسية، "ليس لدينا حتى الآن أدب الاعترافات، فالشخص العربي دائما يشاهد نفسه يولد ويكبر ويموت إنسانا معصوما من الخطأ"^{٢٤} ينعكس في هذه الملاحظة لأدونيس استهزاء قوي ضد الثقافة العربية، حتى يبدو كاتب العربي كأنما هو معصوم تماما من الزلات والخطايا.

كل رأي من الآراء - سديدا كان أو غير لائق - يمثل عقلية صاحبه، وأما العقلية فهي تتشكل من تجارب عاطفية لدى الأفراد. رغم أن النزعة الاعترافية في الكتابة عن الذات لم تكن موجودة في أية ثقافات في العالم بما فيها العربية، وقد وجد بعض من الومضات الاعترافية في النصوص العربية قديمة كما كان عليه ثقافات أخرى. وأما تمثيل الذات كما سبق القول فيعتمد على الشعور بالوعي بالذات لدى شعب ما، والنمط السائد في تمثيلها في لحظة معينة من الزمن. إضافة إلى ذلك، أن

٢٢. يحيى عبد الدائم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٤ ص ١١١-١١٢

٢٣. شوقي ضيف: الترجمة الشخصية، دار المعارف، القاهرة، ط ٤، ص ٥.

٢٤. عامر عبد زيد الوائلي، أدب الاعتراف ومسوغات الغياب، مجلة الجديد، العدد ٤٩، فبراير ٢٠١٩

مثل هذه النزعة في التعبير عن الذات لم تكن خاصة أو نمطا من الأنماط الشائعة في أي الثقافات الماضية في العالم على الاطلاق.

السيرة الذاتية والاعتراف

فالسيرة الذاتية بمفهومها الأوسع هي كل سرد ذات طابع ذاتي يتحدث فيها السارد عن 'الأنا' وتفاعلها بعالمها الخارجي. وعلى حين أن أدب الاعتراف هو شكل سردي يتركز اهتمام الكاتب فيه على اظهار الجوانب الخفية من حياته، وكشف المستور من صفاته الشخصية وتجلية الغامض من علاقته بالآخرين مستندا في ذلك على الحقيقة وحدها، وساعيا إلى التحليل والتنبيه إلى مواطن الخلل في الفرد والمجتمع. ويفرق إيهاب النجدي بين السيرة الذاتية والاعتراف. فيقول "الأولى منهما إعلام والآخر هو إفضاء. بينما السيرة الذاتية تتصل بالإشادة والمديح وسرد الإنجاز والنجاح، أن الاعتراف مقرون بالذنوب والسقوط وسرد الخبايا والأسرار"^{٢٥}. وفي الحالة الأولى يميل القارئ إلى قدوة كاتب السيرة على اعتقاده بعصمته، وأما الاعتراف فيعطي الراحة والتنفيس من أعباء الاضطرابات للكاتب والمتلقي معا. وذلك من خلال الميثاق الأتوبيوغرافي بينهما.

فالأمر الذي يجعل هذا الميثاق ممكنا هو الجوانب العاطفية المعبرة فيها. فهذه الجوانب العاطفية هي التي تعطي السيرة الذاتية قوتها الفنية. ولا يمكن التصوير الأدبي للذات إلا عندما يتم التعبير عن أي تجارب من حلقات الحياة بجوانبها العاطفية. وأما النمطان في التعبير عن الذات فيمثلان اتجاهين في العصرين القديم والحديث. وأن كل فترة من الزمن تخص بنمط معين في التعبير الإبداعي. وعلى الرغم من ذلك، أنه يجدر بالملاحظة أن الاتجاه الاعترافي في العصر الحديث - كما ذكر أعلاه - خلق الوضع الاجتماعي الفريد في الغرب حيث تمركزت النزعة الإنسانية على كسر جميع الأنظمة الاجتماعية الموضوعية لرفاهية المجتمع.

٢٥. إيهاب النجدي، أدب الاعتراف (مقاربات تحليلية من منظور سردي)، دار المعارف، مصر، ط١، ٢٠١٥، ص ٢١-٢١، بتصرف.

ولذلك يبقى السؤال المهم هنا هو، إلى أي مدى يكون هذا النمط الاعترافي ممكنا في نظام اجتماعي، خصوصا في المجتمع الجماعي حيث تتغلب رفاهية المجتمع على المصالح الفردية؟ أما بالنسبة إلى المجتمع الفردي، فيكون هذا النمط من التعبير الاعترافي المتطرف ممكناً إلى حد ما لأن الأولوية لديه للمصالح الفردية أكثر من المصالح الاجتماعية.

المبحث الرابع: الاعتراف والثقافة والهوية

إن المعترف الحق يستخدم النبرة الاعترافية الصادقة عند الحديث عن حياته الخاصة أكثر حميمة. ولا يتراجع أي مواد عاطفية أو المكونات النفسية لديه كما لا يخجل من معالجة المواضيع الأكثر حساسة مثل الجنس والادمان والأمراض والوظائف الجسدية وغيرها من تجارب بشرية. ويجرؤ على التمرد ضد أنماط المجتمع الذي يعيش فيه.

وبالرغم من ذلك، يعتمد الاعتراف الصريح على الحاضنة الاجتماعية التي يعيش فيها المعترف. "فيقترن أدب الاعتراف بالهوية، سواء أكانت هوية فردية أو جماعية، فلا يمكن انتزاع الكاتب من الحاضنة الاجتماعية والثقافية التي يشتبك بها، ذلك أن أدبه يقوم بمهمة تمثيلها، وبيان موقعه فيها، فلا يطرح موضوع الهوية في السرد، والاعتراف بها، إلا على خلفية مركبة من الأسئلة الشخصية والجماعية، وتبادل المواقف فيما بينهما، فالكاتب ينبثق من سياق ثقافي، وتجد الإشكاليات المثارة كافة في مجتمعه درجة من الحضور في مدونته السردية"^{٢٦}. فلا يمكن الاقتراب من الاعتراف إلا باعتبار الحاضنة الثقافية التي ينبثق منها على المستوى الفردي والاجتماعي معا.

رغم أن الثقافة الغربية كانت لها اتجاه المحافظة كما هي الحال في الثقافات الأخرى في العالم، أنها أكثر مرونة بالمقارنة بالثقافات الأخرى لأنها تعطي الأولوية لمصالح الفرد أكثر من اعتبار مصالح المجتمع كوحدة للبقاء المنسجم. فصفة هذه الفردية هي العامل الرئيسي الذي يمكنهم من التعبير

٢٦. عبد الله إبراهيم، السرد والاعتراف والهوية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ط١، ٢٠١١، ص ٥

عن أنفسهم بهذه الطريقة. وتجدر هنا الإشارة أيضاً إلى أن الممارسة الدينية المسيحية فيما يتعلق بالاعتراف تمنحهم حافزاً أكبر لمثل هذا التعبير. وأنهم يعترفون بالذنوب والخطايا أمام القاس أو الرهبان. وأما الثقافة العربية فهي تمثل مجتمعا جماعيا وتهتم بالكتمان أكثر من المكاشفة. وأن هذه الكتابة المغايرة للمزاج الوجداني للشعب العربي الذي يحب التورية ويكره المكاشفة والمصارحة حتى لو كان الهدف منها تطهير الذات والخلص النفسي، ولذلك فإن هذا الأدب المكشوف مازال مرفوضاً في المجتمعات العربية^{٢٧}. فالثقافة العربية الدينية تحث على كتمان الذنوب والخطايا أمام المخلوقات، بل تطلب منه الاعتراف بها أمام الخالق. فكل ثقافة معقدة بما تحتويه من عناصر ضمنية وصريحة. حتى داخل ثقافة واحدة أيضا توجد ثقافات أخرى متباينة. فكل ثقافة تختلف تماما عن الأخرى. وفي مثل هذه الثقافات التي تحب التورية وتكره المصارحة بالذنوب، أن جرأة الكاتب على المكاشفة والتجرد في التعبير تعتبر سلوك غير مقبول.

ثقافة العرب المحافظة

ومن الأسباب الرئيسية التي يتقدم بها النقاد لعدم الاتجاه الاعترافي في التراث العربي هو ثقافة العرب المحافظة وما يتعلق بها من تابوهات ومحظورات. حقيقة كل ثقافة قديمة -وإلى حد ما ثقافة حديث- ملفوفة بالقيود والتابوهات التي يلتزم بها شعب يتعلق بها. فيمكن القول إن كل ثقافة -في الحقيقة- محافظة طبيعتها. أما بالنسبة للسيرة الذاتية، فلم يكن لدى الغرب كمية كبيرة بالمقارنة بالتراث العربي في العصور قبل تأسيس السيرة الذاتية نوعا أدبيا خاصا في القرن الثامن عشر. علاوة على ذلك، يمكن العثور على أن السيرة الذاتية بمفهومها الحديث لم تكن موجودة في أي ثقافة في العالم. حتى 'اعترافات' روسو لم تنشر إلا بعد وفاته بسبب التزمّت الديني. فهذا هو أوضح دليل على أنه حتى الثقافة الغربية كانت محافظة دينية تماما.

٢٧. عامر عبد زيد الوائلي: أدب الاعتراف ومسوغات الغياب، مجلة الجديد، العدد ٤٩، فبراير ٢٠١٩.

ويلاحظ الدكتور إيهاب النجدي بأن "مرد هذه القلة إلى عوامل عديدة، منها طبيعة الثقافة العربية المحافظة، وطبيعة التلقي التي تجنح إلى المألوف والمكرر والمتواتر، كما يمكن أن تعود إلى حياة الأدياء أنفسهم وطبيعة وقائعهم، فثقافتها تعتمد بالكتمان والسر، وتتدثر بالستر، والأديب العربي يعيش في ظل أعراف وتقاليد ليس من السهل الخروج عليها، ولا يعيب أي ثقافة أن تتسم بسمة ما، تتميز بها عن غيرها، فلكل ثقافة خصائصها وأفاقها، والفضاء الذي تتحرك فيه الأفكار وتتولد، كما أن لها مرجعياتها القيمة التي تختلف في كثير أو قليل عن مرجعيات الثقافة الأخرى"^{٢٨}. فتأتي هنا ملائمة مفهوم النسبية الثقافية الأكثر قبولاً في العصر الحديث. وعلى حد هذه النظرية أن جميع الجوانب الثقافية من اعتقادات وعادات نسبية في رحابها. ولذلك، يجب تقييم كل منتج ثقافي من سياقه الاجتماعي. ولا سعة المجال لإدانة أو تفضيل ثقافة على الأخرى. وكأنه طريقة تعبير أو ممارسة أدبية مستحدثة التي تشكلت في بيئة اجتماعية-ثقافية معينة، يجب دراسة وتحليل أبعادها المختلفة ومناحيها المتنوعة التي قد تؤثر على النسيج الاجتماعي وتماسكه.

الخاتمة

خاتمة القول، رغم أن الكتابة عن الذات كانت ممارسة سائدة في التراث العربي، فهي بدأت تعتبر فناً أدبياً مستقلاً باسم 'السيرة الذاتية' و'الاعتراف' فقط في القرن الثامن عشر في الغرب. فلها قيمة أدبية في حاضنتها الثقافية التي تولدت فيها. فهذا لا يعني أبداً، أن الذات الغربية متحضرة، وكل ما عداها غير متحضرة تماماً. فلا يمكن تقييم أي ظاهرة أدبية والحكم عليها إلا باعتبار الحاضنة الثقافية على صعيدها الفردي والاجتماعي التي تولدت فيها.

٢٨. إيهاب النجدي، أدب الاعتراف: مقارنة في النشأة والتطور، مجلة كلية دار العلوم، جامع القاهرة، ص ٤٩٩-٤٥٠

الباب الثاني

الأدب والتعبير عن الذات والثقافة العربية

الفصل الأول: الحياة والتعبير عن الذات

المبحث الأول: الفطرة والذات

المبحث الثاني: التعبير عن الذات

المبحث الثالث: السرد عن الذات

الفصل الثاني: الأدب ووظيفته الاعترافية

المبحث الأول: الأدب والتعبير الوجداني

المبحث الثاني: وظيفة الأدب

المبحث الثالث: الحرية في التعبير

الفصل الثالث: الثقافة العربية وطبيعتها السردية

المبحث الأول: الثقافة

المبحث الثاني: التعبير عن الذات في الثقافات المختلفة

المبحث الثالث: الثقافة الجاهلية

المبحث الرابع: ثقافة العرب في الإسلام

المبحث الخامس: الثقافة الحديثة والمعاصرة

الفصل الأول

الحياة والتعبير عن الذات

المقدمة

إن حياة الانسان ظاهرة معقدة التي تتميز بطبيعتها الثنائية المتناقضة. وتلك هي متأصلة في فطرته. فقد تم خلقه على نمط أسمى، قادر على تنمية ذاته، وتطويرها وتعديلها وإصلاحها من خلال الملاحظة (Observation) والنمذجة (Modeling). أما ما يجعله ممكنا فيه فهو فطرته السليمة ودماغه من عال التطور. ومن خلال تجاربه الحسية من البيئة فهو "قادر على التفكير المجرد والنطق واستخدام اللغة والتفكير الذاتي الداخلي، وإيجاد حلولٍ للصعاب التي تعترضه، على خلاف باقي الحيوانات على سطح الكرة الأرضية"^١. فأصل بنية ذات الانسان هو الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وأما ذاته فهي تتشكل فيه فيما بعد، من خلال التفاعل مع بيئته. فهي التي تحدد مسار حياته.

المبحث الأول: الفطرة والذات

الفطرة

تعني كلمة 'الفطرة' في اللغة هي الخلقة أو الصبغة التي قد تم خلق الانسان عليها. وردت هذه الكلمة ومشتقاتها في القرآن الكريم لمعان مختلفة ومتشابهة. فالمقصود منها هو الحالة النقية في أول أمرها قبل أن يحدث لها التغيير. وإذ يشير إليها القرآن "فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها"^٢. فتدل هنا هذه الآية على حالة المولود في طبيعته النقية الخالصة،

١. شير محمد النجاب، مفهوم الإنسان بين الفكريين الغربي والعربي، المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية الاقتصادية والسياسية، الأردن، راجع على مقال منشور على موقع الانترنت: <https://democraticac.de/?p=54402>، تاريخ النشر: ٣١ مايو ٢٠١٨، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢١/١١/٣١

٢. سورة الروم، الآية ٣٠.

المتجردة من كل كدر ووصمة ومؤثرات خارجية. فقد روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة"^٣ وقد تم ذكرها على نفس الفكرة في مكان آخر في القرآن فيما يتعلق بخلق الكون، "إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً"^٤. وأما ما لدى الأفراد من خارج الفطرة فهي مكتسبة.

تتجلى من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المذكورة أعلاه والعلوم الطبيعية والاجتماعية، أن المخلوقات كلها تتساوى في طبيعتها الأولى النقية الخالصة بمفهومها العريض. والفطرة هي حالة قوية التي تنطوي فيها امكانيات التطوير والنمو وتتوق دائماً أن تتجاوب مع أشياء خارج ذات الانسان. ثمة مصطلحات فيما يتعلق بالفطرة التي تستخدم بشكل متداخل فهي الغريزة والانعكاسات. أما مصطلح الفطرة فهي كلمة شاملة عريضة تندرج تحتها الغريزة والانعكاسات. "الفطرة حالة نقية التي تتصف بشموليتها، لها جذور باطنية، إذ لا تحتاج إلى التعليم، ولا تخضع لتأثير العوامل الخارجية، كما تتصف بإمكانيتها لأن تضعف، ولكنها لا تتمكن من استئصالها والقضاء عليها بالمرة"^٥

يمكن انقسام السلوكيات الفطرية إلى العام والخاص. "أما السلوكيات الفطرية العامة فهي الرغبات والميول الحيوانية، كالرغبة إلى الطعام، والميل إلى الجنس، وغير ذلك، على حين أن الخاص منها هي الرغبات السامية الكامنة في وجود الإنسان، كميله بطبعه للأمر الأخلاقي، وميله للتحقيق والبحث وحب الاطلاع"^٦ وقد عرِّفت الفطرة إجرائياً من حيث منظورها العامة "بأنها النظام الأساسي للخلق المهياً للاستجابة للمنظومات الكونية المختلفة عبر الآليات الذاتية

٣. صحيح البخاري: رقم الحديث ١٣٨٥، صحيح مسلم: رقم الحديث ٢٦٥٨

٤. سورة الأنعام، الآية ٧٩

٥. الفطرة، مقال في العربية، راجع على موقع الانترنت: الفطرة: <https://ar.wikishia.net/w/index.php?title=الفطرة>، نقلا عن مرتضى مطهري، ترجمة:

عرفان محمود، التوحيد، دار الحوراء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٣، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢١\٢\٤

٦. المرجع السابق.

والبيئية. أما بالنسبة إلى الفطرة الانسانية فهي النظام الأساسي للمكونات الشخصية اللا-إرادية (الجسمية والنفسية والعرفية والاجتماعية والسلوكية) المهيأ للاستجابات التعلم والاكتساب في إطار المنظومة الكونية^٧. أما الغريزة أو السلوك الفطري فهي الإجراء الذي يحدث بشكل تلقائي. على العكس من ذلك، الفطرة هي العمل الذي يتعلمه الشخص من خلال الملاحظة أو التعليم أو الخبرة^٨. فالأمر الذي يميز الغريزة من الفطرة هي أن الغريزة هي سلوك فطري متأصل التي تحدث تلقائياً من غير حاجة إلى الممارسة، على حين أن الفطرة نظام داخلي بدائي، وبه يولد كل من أبناء البشر، والتي يمكن تطويرها بالتعلم والخبرة والممارسة. أما الانعكاسات تختلف عن الغريزة لما أنها سلوكيات يتخلق لإراديا كرد فعل، وتفتقد فيها الرغبة في حدوث فعل سلوكي.

الذات

إن كلمة الذات هي "عبارة عن مجموع كلي للفرد يتألف من جميع الصفات المميزة، واعية كانت أو غير واعية، وعقلية وجسدية"^٩. فالذات بناء معرفي (cognitive construct) يتشكل من الاحساسات والمشاعر والتصورات والتفكيريات. فهي نواة أساسية لشخصية الانسان. ويتم تشكيل الذات نتيجة التفاعل مع بيئته الاجتماعية. بالإضافة إلى معانيها الأساسية، فهي مصطلح يحتوي على معان واسعة النطاق في علم النفس.

وفقا لنظرية الديناميكية النفسية لسيغموند فرويد^{١٠}، أن الذات تتشكل من مكونات ثلاث ; 'الهُو' (The Id) و'الأنا' (The Ego) و'الانا العليا' (The Super Ego). فالذات هي تنتج عن التفاعل الديناميكي بين هذه الأنظمة الثلاثة. أما القلق النفسي أيضا فيتولد من بين دوافع هذه المكونات.

٧. هنادي عيسى مهنا، مجالات الفطرة: دراسة تحليلية في ضوء القرآن الكريم، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد السادس، م٣، يونيو ٢٠١٩ م

٨. الفرق بين الغريزة والفطرة، راجع المقال على موقع الانترنت: <https://www.almsral.com/post/322257> ، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢١\٢\١٠

٩. معجم علم النفس للجمعية الأمريكية لعلم النفس، رابط على موقع الانترنت: <https://dictionary.apa.org/self>، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢١\٠٢\١٢

١٠. مقال انجليزي، رابط على موقع الإنترنت: <https://opentextbc.ca/introductiontopsychology/chapter/11-2-the-origins-of-personality/#> تاريخ

الاسترجاع: ٢٠٢٢\٠٩\١١، بتصرف.

يرى كارل يونج أن الذات تتطور تدريجيًا من خلال عملية أطلق عليها بـ 'التفرد' (Individuation)^{١١}، وهو عملية مستمرة التي لا تكتمل إلا بعد بلوغ الرشد المتأخر. وتعتبر الذات مركزا للشخصية الكاملة التي تتكون من عدد من الأنظمة المتباينة ولكن المتفاعلة المترابطة. وفقا لنظريته أن "الذات هي توحيد الأنا (Ego) للفرد واللاوعي الشخصي والجماعي (Personal and collective unconscious)^{١٢}". فالذات عند كارل روجرز "هي العالم الداخلي للشخص الذي يُعبر عن أفكاره ومشاعره وتطلعاته وأهدافه وتخيلاته ونظراته"^{١٣}. فهي تتشكل وتنمو نتيجة التفاعل مع البيئة والتعلم منها. ويعتقد روجرز أن كل فرد يميل بالفطرة إلى النمو نحو تحقيق الذات من خلال تحقيق أهدافه ورغباته وتطلعاته في الحياة.

يأتي ميخائيل لويس^{١٤} بجانبين أساسيين فيما يتعلق بالذات، هما الذات الوجودية والذات القاطعة. "أما الذات الوجودية فهي الشعور بالانفصال والتميز عن الآخرين وإدراك ثبات الذات، فهو إدراك الطفل وجوده ككيان منفصل عن الآخرين، وعلى حين -أن الذات القاطعة تتضمن فهم الطفل بعد أن أدرك أنه موجود ككائن تجريبي منفصل، يدرك أيضًا أنه هو كائن فردي في العالم"^{١٥}. فيمكن أن يقال، أن الذات هي الجملة الكلية للتجارب التي اكتسبها الفرد من خلال حواسه الخمس وتفسير ذاتي تجاهها. فهي تتشكل نتيجة العمليات العقلية لدى الفرد باستخدام إمكاناته الفطرية. فهناك عدة عوامل داخلية وتأثيرات بيئية في تشكيل الذات الإنسانية.

١١. راجع على موقع الانترنت: /ما-هو-التفرد-أو-التمايز-الشخصي-عند-كارل/ <https://www.ibelieveinpsi.com/>، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢١\٠٦\١١

١٢. يونج وعملية التفرد، مقال انجليزي، رابط على موقع الانترنت: <https://journalpsyche.org/jung-and-his-individuation-process/>، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٢\٠٩\١١

١٣. أ. آلاء مصطفى، نظرية الذات في علم النفس لكارل روجرز، مقال على موقع الانترنت: <https://www.sanadkk.com/blog/post/50>، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٢\٠٩\٠٨

١٤. هو عالم نفس أمريكي المولود سنة ١٩٣٧

١٥. شاول ماكلويد، مفهوم الذات في علم النفس: التعريفات والأمثلة، مقال في الإنجليزية، رابط على موقع الانترنت:

<https://www.simplypsychology.org/self-concept.html>، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٣\١٢\٣٠، بتصرف

الصراع حول الذات

إن حياة الإنسان حافلة بالصراع الدائم مع الزمن، الذي هو متأصل في طبيعته. ويبدو أن التطورات والتغيرات والتقدم التي أنجزتها الأمة البشرية نتيجة للصراعات والضروريات التي تلتها عبر التاريخ. ويمكن ذلك، سر حكمة المقولة أن الضرورية أم الاختراعات. فالإنسان "هو الكائن الذي يشيع في الوجود الاضطراب والانقسام والشر والقلق والعدم"^{١٦} فيفترض ضروريا أن الصراع والتوازن الذي يتبعه جزء لا يتجزأ من الفطرة البشرية، "وأن القلق ليس شيئا دخيلا على الإنسان، وإنما هو كامن في صميم النسيج البشري"^{١٧}. ويتجلى من النظريات والمواقف فيما يتعلق بالذات البشرية التي سبق الذكر، أن الذات البشرية تميل وتوسع إلى أن تتحرك بشكل متواصل من النقصان إلى الكمال والصراع إلى التوازن.

وعلى أساس هذا يمكن القول إنما الصراع نفسه هو الحافز القوي الدافع وراء جميع التطورات التي أنجزتها الأمة البشرية حتى الوقت الراهن، وما قد ستنجزها في الأيام المقبلة. ولا يزال هذا الصراع قائما مهما تكن حياة الانسان موجودا على سطح الأرض، وهذا الصراع يحدث تلوا بعد آخر دون انقطاع، لأن "الانسان هو الكائن الذي يجد نفسه دائما على مبعدة من ذاته، فيعدو دائما وراء ذاته وينشد نفسه دائما دون أن يجدها يوما"^{١٨}. وكلما تزداد درجة الشدة في الصراع تزداد إمكانية إنتاجات جديدة. ويوجد هذا الصراع وراء أي إنتاجات أدبية على وجه العموم، بالنسبة إلى السيرة الذاتية على وجه الخصوص. فهذا الصراع نفسه يعطي لها فنيته، وهذه الطبيعة الفنية تجعل لها البقاء والخلود، لأن الصراع يخلق اضطرابا عاطفيا، والعاطفة عند الانسان عالمية طبيعتها. "ان حظ السيرة من البقاء منوط بحظ صاحبها نفسه من عمق الصراع

١٦. زكريا إبراهيم، مشكلة الانسان، دار مصر للطباعة، القاهرة، ص ٥-٦

١٧. المرجع السابق، ص ١١.

١٨. المرجع السابق، ص ٦.

الداخلي أو شدة الصراع الخارجي"^{١٩}. إذا كان هذا الصراع صراعاً داخلياً روحياً فيعمل حافظاً قوياً عنده لأن يكتب سيرته الذاتية، "فالتجارب الروحية من أشدها حثاً على كتابة السيرة الذاتية"^{٢٠}.

المبحث الثاني: التعبير عن الذات

إن كل ما في الكون من مخلوقات الله تعالى - حية كانت أم جامدة - تدوم في حركتها المستمرة بانسجام وتوافق. إنما حركتها تمكن وجودها وبقاءها الطبيعي. وأما بالنسبة إلى الإنسان فقدرتة على التعبير بما فيها من حركة جسدية والنطق والبيان هي التي تمكن الاتزان الطبيعي متكامل الجسد والقلب والروح معاً. وإلى هذا يشير القرآن الكريم "خلق الإنسان علمه البيان"^{٢١} فلا يتم البقاء ذو مغزى إلا بالبيان أو التعبير عما يتولد في ضميره من عواطف وأفكار وتطلعات وغيرها. وبعد ما خلق الله الإنسان أعطاه القدرة على تصورات الأشياء وتشكيل المفاهيم عن الظواهر الكونية. وقد تم خلق الإنسان على طبيعة حيث لا يتمكن أن يعيش إلا بالترابط والاعتماد المتبادل بين أبناءه. وهو حيوان اجتماعي، فحياته النفسية تبدأ بعلاقته بالكائنات الأخرى خارج ذاته أو بعلاقات شخصية مع مقدم الرعاية الأولية غالباً تكون والدته في البداية وتمتد هذه العلاقة إلى أعضاء المجتمع لاحقاً.

وقد ورد في القرآن فيما يتعلق خلق آدم عليه السلام وجعله خليفة في الأرض "وعلم آدم الأسماء كلها"^{٢٢}. وتدل هذه الآية على قدرته الموهوبة على تصورات الأشياء وتسميتها وتبادل المفاهيم والعواطف بينهم أمر ضروري جعلها عنصراً هاماً للحفاظ على الحياة المنسجمة. "فالتعبير عن

١٩. إحسان عباس، فن السيرة، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ط ١، ١٩٩٦، ص ٩٨

٢٠. المرجع السابق، ص ٩٥

٢١. سورة الرحمن ٣-٤

٢٢. سورة البقرة، الآية ٣١

الذات هو قدرة الشخص على خلق هوية خاصة به تميزه عن غيره يستطيع من خلالها ان يواجهها
لآخرين بكل ثقة وبعيدا عن الخوف والاضطراب النفسي وما الى هنالك^{٢٣}

هناك طرق متعددة للتعبير عن عواطف الانسان وانفعالاته مثل الحزن والفرح والسعادة واليأس
والغضب وغيرها من الحالات الانسانية مختلفة. ومن بينها التعبير من خلال النطق والكلام أو
الكتابة أو الرسم أو تعبيرات من خلال حركات الجسد مثل الرقص أو الإيماءات. فالجدير بالذكر
أنه يجب على الفرد أن يعبر -في أية طرق كانت - ما يريد تعبيره. فالعجز عن التعبير حيث يشعر
الفرد أن هناك شيئا غير معبر عنه، يجلب اضطرابات نفسية ويفشل اكتشاف ذاته أو تحقيقها.
فليس الانسان بالاكْتفاء بالتفكير أو الشعور اللاحقة به، بل يحتاج إلى التعبير عنها، لأن في
التعبير توازن ونمو وتطور وتقدم. فالإنسان "حيوان ناطق والنطق لا يعني مجرد التأمل والتفكير
بل يعني أيضا القول والتعبير وفي التعبير تجديد وتعديل وتغيير"^{٢٤}.

ولعل التعبيرات البشرية تحدث إما أن تكون على شكل طبيعي أو على صورة ابداعية من خلال
الآداب والفنون. إذا كانت التعبيرات إبداعية فهي تعطي للفرد الخلود. وقد وجدت هذه النزعة
الابداعية في جميع الحضارات السالفة حيث تجلت فيها الصنعة الابداعية والنقوش المدهشة
والنحت البديعة على الصخور أو على المواد الأخرى. "لعل أقدم صورة للترجمة الشخصية تلك
الكلمات التي كان ينقشها القدماء على شواهد قبورهم، فيعرفون بأنفسهم، وقد يذكرون ببعض
أعمالهم. واشتهر المصريون في عصور الفراعنة بكثرة ما نقشوا على قبورهم وأهراماتهم وفي
معابدهم وهياكلهم من تواريخهم وأفعالهم. وكانت تسري هذه الروح في الأمم القديمة من
حولهم"^{٢٥}

٢٣ . مفهوم عن الذات، راجع المقال على موقع الانترنت: <https://ahlla-3alm10.yoo7.com/t16-topic> ، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٢\٨\٨

٢٤ . د. زكريا إبراهيم، مشكلة الانسان، دار مصر للطباعة، القاهرة، ص ٣.

٢٥ . د. شوقي ضيف، الترجمة الشخصية، دار المعارف القاهرة، ط ٤، ص ٧

أما التعبير الابداعي فهو ظاهرة متأصلة في فطرة الانسان، وهو نفسه الذي يجعل انسانيته خالدة وجمالية إلى أن يكون موجودا على ظهر الأرض كما أنه يعطي له التوازن والأمان والراحة وقوة الإرادة في مواجهة الحياة، علاوة على ذلك فهو الذي يساعده على تحقيق ذاته. وهذا التحقيق للذات نفسه تتطلبه الفطرة الإنسانية. فجميع الفنون الجميلة يفى هذه الوظيفة لدى الإنسان. "فالفن عند الإنسان البدائي هو تعبير عميق وصادق عن نفسه، وترجمة لمشاعره واستجاباته الطبيعية للبيئة الاجتماعية التي يعيش فيها، وينبع من معتقداته وأحلامه ودوافعه الشعورية واللاشعورية لموجهة العالم الشاسع فهو بالنسبة له مصدر الراحة والأمان ووسيلة لتحقيق السعادة"^{٢٦}.

الصراع والتعبير والاتزان

فيمكن تلخيص ما تم البيان أعلاه هو أن حياة الانسان حافلة بالثنائيات المتناقضة، والتعبير الذي يحدث بينهما. إن الصراع والاتزان هما ثنائية قوية دافعة محركة في حياة الانسان. على حين أن التعبير أداة موضوعة فطرية من خلاله يتم الاتزان الطبيعي. فإنما الحياة البشرية تفاعل بين الثنائية هما الصراع والاتزان. ولا تتحقق حالة الاتزان إلا بالتعبيرات المناسبة الصحيحة الطبيعية. أما الصراع النفسي فهو نتيجة لعدم ضبط طبيعي على العواطف. "فالتعبير عن المشاعر يعد جزءاً لا يتجزأ من الأداء البشري التكيفي، والخلل في التعبير عنها يعد سببا أساسيا للعديد من أشكال علم النفس المرضي"^{٢٧}.

فمن الملاحظة أنه كلما تتم المعوقات والحواجز في التعبير عن الذات تتولد فيها الاضطرابات النفسية. ويبدو أن العلاج النفسي الديناميكي، أحد الأساليب المهمة في العلاج النفسي يركز

٢٦ . إيمان عبد الرازق، تأثير أسلوب حياة الانسان البدائي على السمات الفنية لرسومه التعبيرية، مجلة كلية التربية، جامعة بورسعيد. العدد التاسع، الجزء الأول، يناير ٢٠١١ م

٢٧. كريس ج. بورجن وآخرون، التواجد مع الآخرين والشعور بالسعادة: التعبير العاطفي في الحياة اليومية (مقالة بحثية في الانجليزية)، راجع على موقع

الانترنت: <https://www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC4803035/> ، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٢\٨\٩

رئيسيا على العواطف والمواد المكبوتة في منطقة اللاوعي للإنسان. فلب العلاج النفسي هو جعل المواد اللاوعي واعيا، لأن العواطف المكبوتة في نفس الانسان تحتاج إلى التهوية والتنفيس لأن يصبح الفرد في حالة نفسية صحيحة.

وبالجملة يمكن القول إن من النزعات الفطرية هي كل الحركات والتعبيرات التي تتولد من الكائنات، وهي التي تساعد على الوصول إلى حالة متزنة أو حالة فطرية خالصة. وأما بالنسبة إلى الانسان لازم التعبير عن طريق الحركة والنطق. فهذا التعبير يُمكن الاتزان لدي البشر جسديا ونفسيا وروحيا.

المبحث الثالث: السرد

وقد تم تعريف السرد في القواميس على أنه "حكاية الأحداث بحيث يتصل بعضها ببعض مع مراعاة التسلسل الزمني لحدوثها"^{٢٨}. وهو جزء لا يتجزأ لحياة الانسان لأن خَلَقَهُ قد تم على طبيعة حيث هو يحتاج إلى الاعتماد عليه من أجل البقاء بالانسجام والتوافق. فالسرد هو تمثيل حدث أو سلسلة للأحداث حقيقية أو متخيلة عن طريق اللغة التي ينظم حسب ترتيب زمني على حدوثها، ويعرض كحكاية منطوقة أو مكتوبة، وغالبا يكون عن طريق اللغة المكتوبة.

وقد وردت كلمة 'سرد' في القرآن الكريم بمعنى 'النسج' حين يذكر قصة داود عليه السلام "وقدر في السرد"^{٢٩} يعني به نسج الدروع"^{٣٠} كما وردت في الحديث النبوي عن "عائشة (ر) قولها: لم يكن النبي صلعم يسرد الحديث كسردكم" لأنه كان يورده متماسك الأجزاء، فلا يخل آخره بأوله، ولا تفسد نهايته بدايته، ويكون متنه محكم البناء وقصده"^{٣١}. فكلمة السرد في العربية تدل على

٢٨. سرد، عرب ديكنت، راجع على موقع الانترنت: عربي-عربي-سرد/ <https://www.arabdict.com/ar>، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٢\١١\١٠

٢٩. سورة سبأ، الآية ١١

٣٠. جلال الدين المحلي وجمال الدين السيوطي، تفسير الجلالين، دار الفكر، بيروت، ص ٥٦٧

٣١. عبد الله إبراهيم، موسوعة السرد العربي، قنديل للطباعة والنشر والتوزيع، دبي، دولة الإمارات المتحدة، ط ١، ص ١١.

الاتقان والبراعة في صياغة الأخبار والأحداث واجادة السبك في روايتها كما تدل على اتقان في صناعة نسج الاثواب وحياتها.

السرد في الحياة

ومن ميزة الانسان الطبيعية، هي قدرته على اعادة التجارب أو اعادة التشكيل للأحداث التي تجرب بها أو شاهدها أو سمع عنها عن طريق السرد أو الحكاية. وللسرد أهمية كبيرة في حياة الانسان. وهو أكثر اتجاها للسرد لأنه متأصل في فطرته. فيقوم ببناء حياته بسرد حلقات الحياة المتعددة التي حدثت في مراحل مختلفة من حياته وينسب تفسيراً ذاتياً لها.

فالسرد قصة أو رواية للأحداث الحقيقية أو الخيالية. وكل سرد للأحداث الحقيقية يمكن أن يوجد فيه عنصر الخيال حين يسردها. فهو عملية مستمرة تحدث في نفس الانسان. وهو يصنع تفسيراً من عنده لكل تجاربه وأحداثه في الحياة. وهو يساعده على بناء حياة ذات مغزى. ومن السرد مفيد صحي ومضر غير صحي. وإذا كان هناك سوء فهم أو تفسير خاطئ عن تجاربه الذاتية، فيمكن أن يؤدي إلى حالة نفسية مضطربة وغير صحية. فمنظورته الخاطئة تجاه الحياة التي تشكلت من أنماط تفكيره الغير الصحي فهي التي تسبب لسرد خاطئ للأحداث والمواقف في الحياة. وكلما كان السرد أكثر واقعيًا نحو اتجاه إيجابي، كانت الحياة أكثر صحيًا.

ويجدر بالذكر من أنه يوجد فيها خلاف بين الأحداث التي مر بها الشخص فعلا واعادة التشكيل عنها سرداً، "وقد يكون ثمة خلاف بين حياتي على نحو ما أرويه، وعلى حياتي على نحو ما عشتها. ولكن هذا الخلاف ليس إلى صورة من وصور الاختلاف القائم بين القول المسرود أو الحدث المروي من جهة، والخبرة المعاشة أو التجربة الحية من جهة أخرى"^{٣٢}. فالخلاف بينهما هو عندما يسرد

٣٢. إحسان عباس، فن السيرة، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ط١، ١٩٩٦، ص ٢

الشخص عن حياته الحقيقية، فيحدث ذلك من المخططات المعرفية (Cognitive Schema)^{٣٣} لديه، التي تتشكل من معرفته عن ذاته وبيئته الثقافية. أما المخططات المعرفية فهي مجموعة للقواعد المطردة، والأدوار الاجتماعية المتصورة، والقوالب النمطية (Stereotype)، ووجهات النظر العالمية لدى الشخص. والأمر الذي يجعل السرد عن الحياة مختلفا عن الحياة الحقيقية المعاشة، فهو ما فيه من خيالات وتقييم ذاتي للأحداث وتفسير لها.

السرد في الأدب

تطور مفهوم السرد اصطلاحا فيما يتعلق بالأدب، فمعناه "الطريقة التي يحكى بها العمل النثري أو القصة، وهي طريقة مرنة يمكن تغييرها حسب الحاجة الكاتب والعمل الأدبي وكيفية طرح الأفكار، بحيث يقوم بسرد جميع الأفكار والأحداث والمواقف، وذلك بأنماط وأشكال وأنواع مختلفة للسرد"^{٣٤}

فالسرد هو طريقة عرض القصة أو الحكى، ويمكن أن تعرض مواد القصة أو أحداثها في صورة متعددة. و"يقوم الحكى عامة على دعامتين أساسيتين: أولهما أن يحتوي على قصة ما، تضم أحداثا معينة، وثانيتهما أن يعين الطريقة التي تحكى بها تلك القصة، وتسمى هذه الطريقة سردا. ذلك أن قصة واحدة يمكن أن تحكى بطرق متعددة، ولهذا السبب فإن السرد هو الذي يعتمد عليه في تمييز أنماط الحكى بشكل أساسي"^{٣٥}. وتستمد المواد للقصة من أحداث الحياة الحقيقية والتجارب فيها أو يمكن أن تكون قد تخلق من خيالات الكاتب مما يشابه تجاربه.

٣٣. المخطط (Schema) في العلوم الاجتماعية، الهيكل العقلي الذي يستخدمه الفرد لتنظيم المعرفة وتوجيه العمليات والسلوك المعرفي، الموسوعة البريطانية، راجع على موقع الانترنت: <https://www.britannica.com/science/schema-cognition>، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٢\١١\١٠

٣٤. براءه النسور، أنواع السرد في الأدب، راجع على موقع الانترنت: أنواع السرد في الأدب/<https://mawdoo3.com>، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٢\٠٨\١١

٣٥. حميد لعمداني، بنية النص السردى، المركز الثقافى العربى للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٩١، ص ٤٥

السرد والسرد الذاتي

تبدأ رواية الاحداث في الانسان في وقت مبكر من حياته وهو كان طفلا صغيرا، حيث يسرد ما اختبره من محيطه، ويتم ذلك عندما يقتدر على محاكاة وممارسة النطق وأساليب التعبيرات المختلفة الشبيهة بالكبار. أما سرُّدُ الطفل لأمه عما حدث في اليوم الأول في حضناته ببعض من الدهشة والاعجاب، وسرد المؤرخ عن الاحداث ذات أهمية تاريخية، فكلاهما من المظاهر والأشكال المختلفة لسرد الاحداث. إما أن يكون السرد عن الأحداث الخارجية منعزلا عن ذاته أو سرد عن ذات نفسه مع علاقتها بالأحداث والمواقف الخارجية منعكسة منها أو متأثرة بها. وعلى كل حال يعرض السرد كقصة يوجد أن تكون فيها الأحداث والشخصيات، سواء كان سردا خياليا أو غير خيالي. "فكل السرد يعرض لنا قصة، وأن القصة هي تتابع أحداث تستلزم شخصيات. لذا فإن السرد وسيلة اتصال تعرض تتابع أحداث تسببت فيها أو جربت فيها الشخصيات"^{٣٦}

ويبدو جليا أن هذه الروايات والسرد عن الأحداث مقترنة بطبيعة الانسان قد وجدت على شكلي الطبيعي والابداعي. وهذا المنحى الفطري قديم قدم الحضارة الإنسانية. وبالنسبة إلى السارد - في كلتا الحالتين - يفي السرد وظيفته المهمة هي الاكتشاف عن الذات وتحقيقها. "وفي الحقيقة لقد بدأ السرد مع بدء تاريخ الجنس البشري، لا يوجد أي شعب في أي مكان بلا سرد، كل حالات التجمعات البشرية، كل الطبقات لها قصصها"^{٣٧}. أما السرديات الابداعية أو الأدبية فكانت شفوية في الأوقات التي سبقت ظهور الطباعة. وحتى قبل تطور الكتابة، كانت جميع الروايات تُنقل شفهيًا. وفي هذه الحالة ليس في استطاعة الرواة مخاطبة كل فرد في مجتمعهم، ولذا كان لا بد من إعادة سرد السرد، وفي كثير من الأحيان ليس ينقل بنفس الكلمات أو الأشكال، حتى بالمحتوى نفسه بالكامل. وهكذا كانت إعادة الرواية ضرورة إذا كان يجب الحفاظ على الحكايات التي تُروى شفهيًا. ولكن بعد ظهور الطباعة، يمكن طباعة قصة يرويها أو يكتبها شخص ما بشكل

٣٦. يان مانفريد، علم السرد: مدخل إلى نظرية السرد، ترجمة: أماني أبو رحمة، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، سوريا، ط ١، ٢٠١١، ص ٢١.

٣٧. المرجع السابق، ص ٥٥

متزامن قرأها آلاف الأشخاص، ليس فقط وقت النشر ولكن لاحقًا وإلى الأبد. "وينتهي السرد العربي القديم إلى نسق السرود الشفوية، فقد نشأ في ظل سيادة مطلقة للمشاهدة التي كانت تخيم على الثقافة العربية في العصر الجاهلي، والقرون الاسلامية الأولى، ولم يرقم التدوين، الذي عرف في وقت لاحق^{٣٨}"

هناك أنواع عديدة للسرديات الأدبية تتميز بما فيها من عنصر 'الخيال' وتبنى على إطارات فنية مختلفة حسب اختلاف أنواعها. وعلى الرغم من أن سر التخيلي أو الروائي يمتلك حرية الإشارة على أناس حقيقيين وأماكن وأحداث حقيقية، إلا أنه لا يوظف بوصفه دليلاً على ما حدث في العالم الحقيقي^{٣٩}. وأما السرديات غير الأدبية فهي تتضمن سرداً حقيقياً أو واقعياً، "فإن السرد الحقيقي يمكن توظيفه بوصفه دليلاً على ما حدث في عالم واقعي"^{٤٠} ومن أهمها السيرة الذاتية خالصة حيث الشخصيات والأحداث تكون من عالم حقيقي. وهناك أيضاً سيرة ذاتية تكتب على شكل قصصي مثل السيرة الذاتية الروائية.

السرد و اتزان القلب

للسرد قيمة تكميلية وانتعاشية وعلاجية، وعلى حين أن هذا السرد نفسه يمكن أن يؤدي إلى تطور حالة نفسية مضطربة، سواء كان ذلك في الأدب أو في الحياة. وإن العديد من الأهداف التي غالباً ما يُعتقد أنه من المستحيل إنجازها، وشتى التجارب المأساوية في الحياة التي قد تقعد الفرد، يتم تحقيقها جميعاً من خلال تقنيات فطرية منها سرد ما تلقى الفرد من خلال حواسه الخمس. وأما الأمر الذي يجعل السرد ذا قيمة تكميلية علاجية فإنه يفي وظيفة التنفيس حين يتم السرد عن الأحداث والمواقف في الحياة. فالسرد - كما سبق ذكره - هو محاولة صاحبه لإعادة التشكيل

٣٨. عبد الله إبراهيم، موسوعة السرد العربي (الجزء الأول)، قنديل للطباعة والنشر والتوزيع، دبي، دولة الإمارات المتحدة، ط ١، ص ٢٧.

٣٩. يان مانفريد، علم السرد: مدخل إلى نظرية السرد، ترجمة: أماني أبو رحمة، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، سوريا، ط ١، ٢٠١١، ص ٥

٤٠. المرجع السابق، ص ٥٧.

للأحداث الحقيقية مع تلفيفه بالعواطف والمشاعر التي تقترن بها، ويتم عرضها يكون بمساندة الخيال المترامي الاطراف.

إذا كان السرد ينبثق من مفهوم صحيح لدى الفرد وفكره الصحي في حالة واعية حقيقية نحو ذاته، فهو كان أكثر نفعا وأشد تأثيرا وأقوى عاملا فيما يتعلق بصحة النفس الانسانية. فالأمراض العقلية والاضطرابات النفسية تنبع وتتطور ليست فقط من وقوع الأحداث المأساوية في الحياة، بل من منظور سلبية لها أو من أنماط التفكير غير الصحي للإنسان فيما يتعلق بها. وعلى حد قول ايبكتيس (Epictetus) "الناس لا تحركهم الأشياء، ولكن يحركهم منظورهم للأشياء، وبعد ذلك كتب ماركوس أوريليوس (١٢١-١٨٠ الميلادي) لو أنك تأملت من أي شيء خارجي، فليس هذا الشيء هو الذي سبب لك الازعاج، ولكن حكمك عليه، وبمقدورك أن تزيل هذا الحكم الآن، كما كتب وليام شكسبير في هام ليت "ليس هناك شيء جيد، وآخر سيئ، ولكن التفكير هو الذي يجعله كذلك"^{٤١}.

ويتضح مما سبق ان السرد يؤدي وظيفة التنفيس في صورتين، وإما يكون بجعل المواد المكبوتة اللاواعي إلى السطح الواعي من خلال السرد كما يحدث في العلاج التحليل النفسي لسيغموند فرويد حيث يسمح للمرضى للتعبير عما يتبادر إلى أذهانهم بغض النظر عن لا معقوليته أو دناءته أو أشياء لا معنى لها، أو بإعادة تشكيل في سرد الأحداث بطريقة أكثر إيجابية كما يحدث في العلاج السردي الذي تم تطويره من قبل الأخصائي الاجتماعي الأسترالي مايكل وايت وديفيد إيبستون من نيوزيلندا. ويفترض العلاج السردي أن الأفراد هم في الأساس كائنات تصنع المعنى وهم المؤلفون اللغويون لحياتهم ويمكنهم إعادة صياغة قصص حياتهم من خلال تعلم تفكيكها، ورؤية

٤١. أس. ج. هوفمان، العلاج المعرفي السلوك المعاصر، ترجمة: د مراد على عيسى، دار الفجر للنشر والتوزيع، ٢٠١٢، ص ١٦

الأنماط في طرقهم في تفسير أحداث الحياة أو مشاكلها، ومن خلال إعادة شرح المشاكل أو الأحداث في ضوء أكثر إفادة^{٤٢}.

فهنا تحدث التغيرات والتعديلات في سلوك الانسان حين يتغير نمط التفكير عنده ويعيد تشكيل السرد عما يتعلق بتجارب حياته والاحداث والمواقف فيها. فالعلاج السردى "يرى الأشخاص على أنهم باعتبارهم خبراء في حياتهم الخاصة وينظرون إلى المشكلات على أنها منفصلة عن الشخص. ويفترض هذا النهج من العلاج أيضًا أن لدى الأشخاص العديد من المهارات والكفاءات والمعتقدات والقيم والالتزامات والقدرات التي ستساعدهم على تقليل تأثير المشكلات في حياتهم"^{٤٣}. فالتحليل النفسي الذي وضعه سيغموند فريد والتوجهات النظرية المختلفة القائمة عليه بشكل أساسي يركز على هذا العنصر اللاواعي وأهمية تجلياته السردية للحفاظ على الرفاهية النفسية. وهذا النهج نفسه هو الذي يقام بتطبيقه في تحليل النص الأدبي ونقده أيضا على أنه كل نص أدبي فعلا سرد للأحداث والتجارب في الحياة البشرية. فتتجلى جميع النصوص الأدبية بهذا المعنى مظهر من مظاهر العقل اللاواعي وتعبيرات عنها.

الخاتمة

إن التعبير عن الذات والسرد عنها عملية ضرورية لا بد القيام به لاستعادة التوازن من صراعات الحياة. فحياة الانسان تتطلب دائما الصراعات، وكذلك التعبير عنها، وبدونها لن يستعيد التوازن الداخلي، وتتجدد الحياة.

٤٢. العلاج السردى، قاموس علم النفس، هيئة علم النفس الأمريكي، راجع على الرابط: <https://dictionary.apa.org/narrative-therapy>، تاريخ الاسترجاع: ١

٢٠٢١\٠٢\٦

٤٣. أوليفيا جاي إيفانز، العلاج السردى: التعريف والتقنيات والتدخلات، مقال انجليزي، رابط على موقع الانترنت:

<https://www.simplypsychology.org/narrative-therapy.html>، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٣\١٠\١٠

الفصل الثاني

الأدب ووظيفته الاعترافية

المقدمة

تدل كلمة 'Literature' في اللغة الانجليزية على مجموعة من الأعمال المكتوبة بمعناها الأوسع. فهي في مفهومها الخاص أنها "القطع الكتابية التي يتم تقييمها على أنها أعمال فنية، خاصة الروايات والمسرحيات والقصائد - على عكس الكتب الفنية والصحف والمجلات وما إلى ذلك".^١ وأما فيما يتعلق بكلمة 'أدب' في العربية فهي استخدمت لمعان عدة في السياقات التاريخية المختلفة منذ العصر الجاهلي إلى العصر الحديث حيث تدل على مجموعة من النصوص الشعرية أو النثرية تعبيراً قويا عن مشاعر الإنسان وعواطفه مع خواطره وأفكاره التي سببت لها. فهو "حصيلة أو نتاج لحلقات التجارب المتنوعة لدى الكاتب وأفكاره وأمنيته وتطلعاته ومواقفه الإيجابية أو السلبية نحو ذاته والأخرين والعالم حوله".^٢

المبحث الأول: الأدب والتعبير الوجداني

الأدب إحدى الوسائل القوية للتعبيرات الانسانية الذي يمتاز بصياغتها السردية الابداعية، مادته الحياة البشرية وما يتعلق بها من تجارب بنواحيها المختلفة، لأن الحياة نفسها سرد ابداعي فيما يتعلق بصاحبها. ويمكن أن يقال أنه عملية إنشائية خيالية في استرجاع الحياة الماضية ومحاولة البحث المستمرة الدائمة في كمالية الحياة الناقصة، أو بمعنى آخر هو إعادة التشكيل للحياة أو إعادة البناء الخيالي لواقع اجتماعي للإنسان حيث يرتبط فيها تجارب الماضي والواقع الحاضر وتطلعات نحو المستقبل، ويكشف عن حالات مختلفة من وعي الانسان التي يتشابك فيها

١. ينظر: الموقع الالكتروني: https://www.oxfordlearnersdictionaries.com/definition/american_english/literature تاريخ الاسترجاع ٢٠٢١\٠٦\١٠

٢. المرجع نفسه.

الفرد والمجتمع الذي يدور حوله حياته، "الأدب هو الكاشف الحافظ للقيم الثابتة في الانسان والأمة، الحامل الناقل لمفاتيح الوعي في شخصية الأمة والانسان... تلك الشخصية التي تتصل فيها حلقات الماضي والحاضر والمستقبل"^٣. فلا يمكن للأديب ألا يظهر ما احتل في نفسه من مواد خارجية بكل ما به من عواطف ملتفة. هذه الحقيقة تنعكس في قول طه حسين انه "من أظهر خصائص الأديب حرصه إلى أن يصل بين نفسه وبين الناس، فهو لا يحس شيئاً إلا أذاعه ولا يشعر بشيء إلا أعلنه"^٤.

فالأديب يتميز عن غيره بقدرته على تعبير الحياة في صياغة فذة متميزة حيث يؤثر به انفعالات الانسان العاطفية. على حد قول الأوروبين أن الأدب "كل ما يثير فينا فضل خصائص صياغته احساسات جمالية، أو انفعالات عاطفية أو هما معا"^٥. فالأدب كلام غير عادي ينبثق من شخص مبدع حيث لازم أن تكون طريقة الأداء أو الاسلوب شيئاً مثيراً للعواطف. لأن الأداء -من خلال أية وسائل - مطية المعاني الملتفة بالعواطف والخيالات المتعلقة بها، وعن طريقه تنقل المعاني الثرية والعواطف المثيرة إلى القراء، كما لا يكون كل تعبيرات أدبا لأنها تفقد عناصره الرئيسية التي تجعله بوصفه أدبا، فهي الاحساسات الجمالية والانفعالات العاطفية.

فالأدب شكل مصغّر لحياة الانسان الحقيقية، تتجلى فيه عالم الكاتب الداخلي وعلاقته بالبيئة التي يعيش فيها. وليس هو حياة الانسان كما هي، ولكنه تعبير عن تجاربه فيها وتفسير الكاتب الذاتي من وجهة نظره إياه. "الأدب الخالص يدل على شخصية الأديب ويكشف عن صور الحياة ويعبر عن الخواطر والمشاعر النفسية، إنه صورة ناطقة لحياة الفرد والأمم"^٦. فيمكن القول إن

٣. توفيق الحكيم، فن الأدب، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٨٨، ص ١

٤. طه حسين، أديب، مؤسسة الهنداوي، المملكة المتحدة، ٢٠١٤، ص ٧

٥. محمد مندور، الأدب وفنونه، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٦، ص ٥٤

٦. حنا فاخوري، تاريخ الأدب العربي، المطبعة البوليسية، لبنان، ط ٢، ١٩٥٣، ص ٦٣٨

الأدب هو الحياة نفسها من ناحية، أو أن الأديب تستمد المواد الخام لقطعته الفنية الأدبية من حياته إياه وحياة الآخرين التي تجرب بها وتقوم بتشكيلها من تصوراته الذاتية نحو العالم حوله. فرؤية فرد ما تجاه حياته إياه لا يمكن بالضرورة أن تكون حياته الحقيقية كما هي، بل هي سرد ذاتي أو عرض ذاتي من زاوية تخص به. "إن الأدب تعبير عن الحياة وسيلته اللغة، كان علينا أن نفهم أن الأدب لا ينقل إلينا الحياة كما هي، ولكنه يعبر عنها، وقد يقال إنه يفسرها، وقيل أيضا أنه ينقدها"^٧

إن مما يقال عن الأدب أنه يتميز بثرائه (Richness) وقابليته للتفسير (Interpretability) والغموض (Ambiguity) فيه، وهذا حقيقي بالنسبة لجميع الظواهر الكونية بما فيها الحياة نفسها أيضا. لأنه يتم الجمال فيها في دوام السعي والبحث المستمر في تحقيق الكمال للحياة الناقصة والأدب كتعبير ذاتي عنها.

والجدير هنا بذكر المقولتين المأثورتين، وهما متناقضتان من ناحية، ومتسقتان من ناحية أخرى. صاحباهما الفيلسوفان الشهيران ديكارت^٨ ومين دي بيران^٩. إن الأول أكد على أهمية الأفكار في الحياة إذ قال ديكارت 'أنا أفكر، فإذا أنا موجود' واعتبر ديكارت الأفكار قطبا أساسيا لحياة الانسان، على حين أن مين دي بيران قام بانتباه على قطب آخر للحياة هو الفعل إذ قال 'أنا أفعل فإذا أنا موجود'^{١٠} فهاتان المقولتان تشيران إلى أن حياة الانسان بالأفكار والأفعال التي تلاحقها حيث تتجلى بالحركات الجسدية والنشاطات اللغوية. ولا يتم حياته فقط بهذين القطبين، بل هناك عنصر مهم بينهما هو العاطفة والشعور.

٧. عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه: دراسة ونقد، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠١٣، ص ١٣

٨. رينيه ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠)، فيلسوف وفيزيائي وعالم رياضي فرنسي، لقب بأبي الفلسفة الحديثة

٩. ماري فرانسوا بيار وغونيته دي بيران (١٧٦٦-١٨٢٤) مفكر وفيلسوف فرنسي.

١٠. د. عبد العزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، مؤسسة الاسراء للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٢، ص ١٠١، بتصرف

عندما يحاول الانسان أن يقوم بمسيرة من خلال حياته الماضية منذ مرحلة حيث في استطاعته استرجاع ذكرياته إلى ما هو عليه الآن من عمره، يشعر حياته بسرد أو حكاية تتشابك فيها الحقيقة والخيال، لأنه ليس من استطاعته أن يتصور حياته على حقيقتيه، بل تقوم تصوراتها وفهمه على ما من عقليته التي تشكلت متأثرة مما حوله من بيئته وظروفه الاجتماعية، فهو يمكن أن تكون مزيجا من الحقيقة والخيال. فالعاطفة والخيال مصحوبتان مقترنان بأفكاره وأفعاله التي تليها في سرد ذاتية لحياته الناقصة. فهذه كلها تدل على علاقة وثيقة بين الأدب والحياة. وتتألف القطعة الأدبية من تجارب ذاتية لصاحبها وقدرته على سردها ونسجها في صياغة ابداعية، وبالتالي يتقدم بها في أسلوب رائع حيث يؤثر عواطف متلقيا ومشاعرهم. وتضيف القطعة الأدبية مفاهيم ومعارف جدد والبصيرة التنويرية في مسيرة سعيه على انجاز غايته في الحياة، هي تحقيق الذات، وهو غاية رئيسية وحيدة في حياة الانسان، "فالعامل الادبي يرتاد بنا الحياة، ويخلق بيننا وبينه علاقات جديدة من الفهم والمعرفة وهي الغاية التي تسعى لها الانسانية في نشاطها الدائب"^{١١}

فعنصر العاطفة هي التي تخلد القطعة الأدبية وتعطي الأبدية لها بغض النظر إلى الحواجز الفارقة بين بني الانسان من ثقافات ولغات وحضارات وغيرها من المعايير التي تفرق بين فرد وآخر، وفوق كل هذه وهي توحد الانسانية برمتها على خيط معقود لآلئها من أيدي الأمة البشرية جمعاء، والتي يقوم بإضافتها وتعديلها وتجميلها الاجيال التي تليها.

١١. عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه: دراسة ونقد، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠١٣، ص ١٦

العاطفة في الحياة والأدب

العاطفة هي عنصر أساسي في طبيعة الانسان، ومركزية لتجاربه. فلها قيمة إيجابية لأنها تمكن الفرد عيشة طبيعية حيث يتعامل ويتفاعل مع المجتمع الذي يعيش فيه على شكل طبيعي. وهي عنصر مهم في الحياة والأدب. أما لفارق الرئيسي بين الحياة والأدب هو أن الأول حياة حقيقية لمن يتجرب بها وأما الثاني فهو سرد وتفسير ذاتي لبعض من جوانب الحياة الحقيقية لصاحبه. فهي التي تمكن الأدب الازلية والابدية حين يتعاطف متلقيها بالعواطف الوجدانية المعبرة بالكاتب. لأن العاطفة عالمية طبيعتها. إنما الحياة بالعاطفة، و "بدونها تكون الحياة كئيبة، باردة، آلية، لا حراك فيها"^{١٢}. فيتم نجاح الفرد وسعادته في تنظيم عواطفه وتعبيره في صورة صحيحة، وإلا يمكن أن تضر حياة الفرد في بعض من جوانبها، فتكون سلبية إلى حد ما.

فجملة القول إن الأبدية في قطعة انشائية تعتمد غالبا على ما فيها من عنصر العاطفة. وكلما كانت العاطفة أشد وأقوى أصبحت القطعة الادبية أكثر خلودا وأبقى استقبالا من متلقيها، لأن الأدب تبادل عاطفي بين الكاتب والمتلقي حيث يتعاطف القارئ مع العواطف الوجدانية المعرضة فيها من قبل الكاتب. وإذا كانت القطعة الادبية سيرة ذاتية فيكون الميثاق بينهما أقوى فيها وأكثر قابلية لدى القراء.

المبحث الثاني: وظيفة الأدب

الوظيفة "هي النتيجة أو النتائج التي تترتب على نشاط أو سلوك اجتماعي. وترتبط الوظيفة في العلوم الاجتماعية بالأنماط الثقافية والبناءات الاجتماعية والاتجاهات"^{١٣}. وكل وظيفة تجلب

١٢. د. طلعت منصور وآخرون، أسس علم النفس العام، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ١٤٣

١٣. عبد العزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، مكتبة لبنان، مصر، ط١، ١٩٩٢، ص ٦٠

آثاراً إيجابية وسلبية أيضاً. بالنسبة للمرسل فهو يحاول دائماً تحقيق هذا العامل الإيجابي. وأما عاملها السلبي لها فهي تحدث طبيعياً دون الهدف إلى تحقيقها.

إن كل تعبيرات في الحياة تؤدي وظيفة التي تمكن الفرد أن يعيش بانسجام. فالأدب أحد الوسائل الإبداعية للتعبير الإنساني على شكل سردي. أما الإبداعات فتقوم بتأثيرات في المرسل أو السارد والمتلقي أو القارئ معاً أكثر من أن تؤديها التعبيرات غير الإبداعية. فيصير الأدب بمثابة "تفاعل وجداني بين الفنان والمتلقي، يسبقه تفاعل بين الفنان والمجتمع، وينتج عنه تفاعل بين المتلقي والمجتمع. وهو بهذا الوضع ضرورة من ضروريات الحياة"^{١٤}. فالأدب يفي وظيفة عدة في السارد والمتلقي ومنها التسلية والترفيه والتجارب الوجدانية من خلال التعبير عن مشاعره اللذة والألم وتنشيط الروح البشرية واستعادة التجارب الماضية بما فيها من انفعالات ومشاعر وإثارة الغرائز وترقيتها، فوق كل هذه فهو يقوم بتشديد أواصر الاجتماعية بين بني الإنسان.

أبرهام ماسلو، عالم النفس الأمريكي، أحد مؤيدي علم النفس الإنساني، الذي يركز على جوانب إيجابية متأصلة في الطبيعة الإنسانية مثل الحرية والمسؤولية والاختيار والامكانية، قام بوضع نظرية فيما يتعلق بالدافعية الإنسانية وأهميتها في تنشيط السلوكيات البشرية. وتم ترتيبها وتنظيمها تدريجياً متصاعداً من الدوافع الأولية الغريزية إلى الدافع النهائي هو تحقيق الذات، غاية إنسانية نهائية. وكلما يشبع الفرد الدوافع الدنيا يتصاعد تدريجياً إلى الدوافع العليا. "إن للإنسان عدداً من الدوافع الأولية الغريزية تتراوح فيما بين الدوافع الدنيا والدوافع العليا. فهذه تنتظم في ترتيب هرمي يقابل المستوى التطوري المفترض للدافع. أول المستويات هو الدوافع الفسيولوجية مثل الجوع، ثم دوافع الأمن مثل الخوف، ثم دوافع الحب، ودوافع التقدير،

١٤. أحمد عبد العظيم محمد، نقد الأدب، قراءة في مفهوم الأدب ووظيفته، رابط على شبكة الانترنت:

https://www.academia.edu/18935816/مفهومه_ووظيفته

وأخيرا الدافع إلى تحقيق الذات، كلما انخفض مستوى الدافع ازدادت أهميته لبقاء الكائن الحي"^{١٥}.

تأسيسا على هذه النظرية أن على الانسان أن يشبع دافعه الأولية من الهرم قبل الحصول على دافعة نهائية على قمة الهرم هو تحقيق الذات، وإلا، فيفشل في أن يصل إلى المرتبة العليا أو الحصول على سعادة حقيقية. فهو اكتمال الذات عند أبرهام ماسلو. وبالنسبة للأدب أن ما فيه من تعبيرات انسانية التي هي غير المعبر عنها في الحياة الحقيقية فهو أداة مهمة وضرورية في سبيل عملية التنفيس عند الانسان للوصول إلى الاتزان الانفعالي، وبالتالي يصل إلى حالة طبيعية متزنة. وكلما يكشف عن ذاته فهو يقترب إلى غايته النهائية هي تحقيق الذات. فيمكن القول إن وظيفة الأدب النهائية هي تحقيق الذات عند كل من الكاتب والقارئ معا.

الأدب كأداة للتنفيس

التنفيس (Catharsis) هو عملية تطهير المشاعر المكبوتة القوية والتخلص منها، بإعطائها الطريق إلى الخارج والتهوية لها. وبالتالي يشعر الفرد بالراحة ويصل إلى حالة متزنة نفسيا. فهو "الإفراج عن الطاقة العاطفية المتعلقة بالصراعات اللاواعي"^{١٦}. فكلمة التنفيس ترجع أصلها إلى اللغة اليونانية بمعنى التطهير حيث استعملت الكلمة دلالة على "تنقية وتطهير العواطف من خلال الفن الدرامي، واستخدمها في الأصل أرسطو في كتابه 'الشعرية'، حيث قارن آثار المأساة على عقل المشاهدين بتأثير التنفيس على الجسم"^{١٧}.

١٥. إدوارد ج. موارى، الدافعية والانفعال، ترجمة: أحمد عبد العزيز سلامة، دار الشروق، القاهرة، ط ١، ١٩٩٨، ص ٢١٣

١٦. بنيامين ب. لاهي: علم النفس: مقدمة، جامعة شيكاغو، ط ١١، ص ٥٠٢

١٧. تطهير (أرسطو)، ويكيبيديا، راجع موقع انترنت: تطهير_ (أرسطو) / <https://ar.wikipedia.org/wiki/>، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٢\٠٨\٠٥

استخدم كلمة التنفيس أولاً أرسطو فيما يتعلق بالمشرح اليوناني. التنفيس هو كلمة مستعارة من المصطلحات الطبية. استعارها أرسطو لوصف وظيفة المأساة التي تتمثل في تطهير مشاعر الشفقة والخوف لدى الجمهور. وعند رؤية مأساة، يزيل الجمهور أعباء المشاعر المقيدة التي تمنع فهم حياتهم. ولم يستخدم أرسطو هذا المصطلح بنفس الطريقة التي يستخدم بها في مجال الطب. كان المشرح اليوناني القديم دينياً طبيعته، حيث كانت المسرحيات تؤدي عادةً خلال المهرجانات الدينية عندما اعتاد الإغريق على التواصل مع الآلهة والأجداد. أثرت مشاعر شديدة أثناء عبادة الآلهة والأجداد. وهذه المشاعر هي أساس القيمة الجمالية للتنفيس في المأساة اليونانية. التنفيس هو مصطلح يقصد به الارتياح العاطفي الذي يشعر به الجمهور عند مشاهدة دراما مأساوية، والذي تفعله المسرحية من خلال إثارة شعوري 'الشفقة' و 'الخوف'. يعتبر التنفيس الهدف الرئيسي للمسرحية المأساوية.

يعرف قاموس كامبريدج للغة الانجليزية التنفيس بأنه "عملية إطلاق العواطف القوية من خلال نشاط أو تجربة معينة، مثل الكتابة أو المسرح، بطريقة تساعدك على فهم تلك المشاعر، أو وهو تجربة التعبير عن المشاعر القوية التي تم حظرها سابقاً"^{١٨} شرع يستخدم مصطلح التنفيس في علم النفس فيما يتعلق بعلاج التحليل النفسي "تم استخدام المصطلح لأول مرة في سياق نفسي من قبل جوزيف بروير، زميل ومعلم سيغموند فرويد، الذي استخدم التنويم المغناطيسي لبحث الناس على إعادة تمثيل الأحداث المؤلمة"^{١٩}

وفقاً لنظرية التحليل النفسي، وضعه سيغموند فرويد، أن هذا التحرر العاطفي يرتبط بالحاجة إلى تخفيف الصراعات اللاواعي، وبه تصبح المشاعر المكبوتة اللاواعي واعية، ويتحرر الفرد من

١٨. التنفيس، قاموس كامبريدج الانجليزي، راجع موقع انترنت: <https://dictionary.cambridge.org/dictionary/english/catharsis>, تاريخ الاسترجاع:

٢٠٢٢٠٧١٢

١٩. التنفيس، مقال انجليزي، راجع على موقع الانترنت: <https://www.goodtherapy.org/blog/psychpedia/catharsis>, تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٢٠٧١١

اضطراباته النفسية. "في نظرية التحليل النفسي، يؤثر تفرغ المكبوتات سابقًا على الأحداث المؤلمة الصادمة التي تحدث عندما يتم إعادة هذه الأحداث إلى الوعي وإعادة تجربتها. وبشكل عام، هو الإفراج عن المشاعر القوية المكبوتة"^{٢٠}

للتنفيس قيمة علاجية حيث يؤثر الجانب العاطفي والمعرفي والسلوكي للإنسان، ويمكن الاتزان الانفعالي ويخلق عند الفرد بصيرة تنويرية، "يتضمن التنفيس عنصرًا عاطفيًا قويًا يتم فيه الشعور بالمشاعر القوية والتعبير عنها، بالإضافة إلى مكون معرفي يكتسب فيه الفرد رؤى جديدة"^{٢١}. فجميع التعبيرات البشرية نوع من التنفيس من المشاعر المكبوتة القوية، لأن جميع العمليات المعرفية والسلوكية والأحداث الصدفية يمكن أن تكون ملتفة بالمشاعر والانفعالات المتعلقة بها. ومن هذه الناحية، أن القطعة الأدبية بالنسبة إلى صاحبها أداة قوية للتنفيس الوجداني. "إن إنتاجا أدبيا ما هو بالنسبة للمبدع، قبل كل شيء، لون من 'التنفيس'، فالمبدع هو ذات تجمعت لديها خلال مسيرة حياتها مشاعر لم تستطع أن تجد وسيلة لتوظيفها في صورة عملة، وهذه المشاعر تلتف حول الروح وتضغط عليها حتى تجد وسيلة للانفجار، وعندما تمر بها لحظة الحاجة القوية للتحري، ينبثق عنها العمل الأدبي، مع قوة تكاد عفوية والعمل الفني بالنسبة للفنان من هذه الزاوية هو وسيلة تعبير"^{٢٢}. فتتضح مما ذكر أعلاه في هذا الفصل وفي الفصل السابق أن فكرة الانسان وعواطفه تحتاج دائما إلى التنفيس، فهذا يتمكن من خلال التعبيرات الانسانية من أية وسيلة من وسائل، إما أن تكون بالحركات الجسدية أم تعبيرا لغويا.

٢٠. قاموس علم النفس، هيئة علم النفس الأمريكي، راجع على موقع انترنت: <https://dictionary.apa.org/catharsis>، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٢\٠٧\١١

٢١. التنفيس في علم النفس، مقال إنجليزي، راجع على موقع الانترنت: <https://www.verywellmind.com/what-is-catharsis-2794968>، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٢\٠٧\١١

٢٢. أندريه مورو، فن التراجم والسير الذاتية، ترجمة أحمد درويش، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٧٧

فيمكن الافتراض أن القطعة الأدبية وظيفته النهائية هي التنفيس من جميع العواطف المكبوتة، وبالتالي الوصول إلى غايته، وهي تحقيق الذات.

المبحث الثالث: الحرية في التعبير

إن الحرية مزية موهوبة للإنسان. وهي في نفس الوقت قضية تتعلق بجميع جوانب الحياة البشرية في نطاقها الأوسع. وهي تمثل الشرف والكرامة كما أنها تمثل الأمانة والمسؤولية. وإن مسألة مطلقة الحرية وتقييدها لها جدارة بالأهمية في الأدب كما هو الحال في الحياة. ولا تزال مشكلة أداء الحرية قضية قابلة للنقاش التي تهتم بالبحث والتحري في مسائل إنسانية فيما يتعلق بالجانب المهم الذي يجعله بصفته الإنسان ويميزه عن سائر الكائنات، فهو قدرته على التفاعل والتواصل مع أفراد مجتمعه، وبالمشاكل التي يمكن أن تترتب عليه طبيعياً. وإنه من الطبيعي، أن تتعرض هذه القضية للنقاش والجدل في الأدب أيضاً، على أنه تعبير خيالي عن تجارب الحياة.

ولا يزال الفلاسفة ورجال الدين والطبيعيون والنقاد وأصحاب المذاهب والنظريات الأدبية لوضع مفاهيم للحرية البشرية من زوايا مختلفة، وهذه التعريفات والمفاهيم كلها تنبثق من منظورهم الذاتي تجاه الإنسان وحياته إياه على ظهر الأرض. فصفة الحرية في الكائنات الحية غير البشرية فيما يتعلق بسلوكياتها محددة ومحتومة طبيعتها. وتتم سلوكياتها حسب غرائزها المحددة، ولن يتمكن لها التغلب على هذه الغرائز الفطرية، أما بالنسبة للإنسان فيمكن أن يفعل ما يشتهي وألا يفعل، ويختار ويقوم بتقرير مصيره إياه إلى حد ما، حتى رغم أنه كان مما يضره ويهلكه. فالمسؤولية لعواقب أفعاله تعمد -طبيعياً- على عاتقه إياه. فيمكن الفهم، أن مفهوم الحرية تحمل في طيها على المعاني مثل المسؤولية والاختيار أيضاً. يأتي عباس محمود العقاد بقضية الفن والدين في كتابه 'فن الأدب' حيث يلاحظ "أن الدين والفن كلاهما يضيئ من مشكاة واحدة، هي ذلك القبس العلوي الذي يملأ قلب الإنسان بالراحة والصفاء والإيمان.. وإن مصدر الجمال في

الفن هو ذلك الشعور بالسمو الذي يغمر نفس الإنسان عند اتصاله بالأثر الفني من أجل هذا، كان لابد للفن أن يكون مثل الدين، قائماً على قواعد الأخلاق"^{٢٣}

ويمكن ان يقال إن جميع المطلقيات تجلب الفوضى والفساد، وأما الوسيطة في الأمور فهي التي تمكّن التعايش بين المخلوقات. فهو نفسه طريق طبيعي، ليس فقط في الكائنات الحية، بل حتى في الأشياء الجامدة أيضاً لإقامة وجودها المتناغم. وأما الفارق بين أبناء البشر وغيرهم من الكائنات الحية وغير الحية فيما يتعلق بإقامة التوازن فهو بميزة الحرية لدى الانسان وبالاحتمية الغريزية عند غيرهم من المخلوقات، هذا ما يراد بقوله تعالى "وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرها"^{٢٤}. تأسيساً على هذا الفهم، يمكن القول إن 'الحرية' تتطلب الاعتدال والوسطية في ممارستها، أي كانت في الحياة أم في الأدب. فإلا قد تجلب الفوضى الأخلاقية وبالتالي الأضرار بالنسيج الأخلاقي للمجتمع.

الخاتمة

بالاختصار، أن الأدب سرد إبداعي للتجارب البشرية. له وظيفة انتعاشية تطهيرية لدى السارد، وكذلك له قدرة على التأثير في نفوس متلقيه وإثارة عواطفه. فالحرية المطلقة في السرد الإبداعي ربما يمكن أن تضر النسيج الأخلاقي للمجتمع.

٢٣. توفيق الحكيم، فن الأدب، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٧٠.

٢٤. سورة آل عمران، الآية ٨٣.

الفصل الثالث

الثقافة العربية وطبيعتها السردية

المبحث الأول: الثقافة

يعرّف قاموس ميريام وبستر الثقافة بأنها "المعتقدات العرفية والأشكال الاجتماعية والسمات المادية لمجموعة عرقية أو دينية أو اجتماعية"^١. وقد عرفها كل من إ. ب. تايلر وعالمة أنثروبولوجيا الأمريكية مارجريت ميد^٢ وغيرهما. فهي تضم المواقف والقيم والأهداف والممارسات المشتركة من قبل مجموعة كبيرة نسبياً من الأشخاص. وتشير أيضاً إلى إيداع المعرفة التراكمي والخبرة والمعتقدات والمعاني ونظام الطبقي والدين ومفاهيم الوقت والأدوار والعلاقات المكانية ومفاهيم الكون والأشياء المادية والممتلكات التي اكتسبتها مجموعة من الناس في مسار الأجيال من خلال كفاحهم الفردي والجماعي. وكل هذه تنعكس جليا في أفعالهم وعلاقاتهم وأعمالهم الفنية. فيمكن القول إن جميع الأشياء مادية كانت أو معنوية التي تحتفظ بها مجموعة من الناس والانتاجات من قبلهم وكل ما يسرد الفرد عنه في المجتمع تندرج تحت مفهوم الثقافة. وهذه هي تتجلى في قول كلي فورد جيرتز بأن "الثقافة ببساطة هي مجموعة القصص التي نرويها لأنفسنا عن أنفسنا"^٤. فالثقافة كلمة كلية شاملة لجميع جوانبها المادية والمعنوية.

خصائص الثقافة

إن الثقافة هي ظاهرة معقدة على أنها تحوي عددا كبيرا من النظم والمركبات والأنساق والسمات الأخرى المختلفة، فيها عناصر صريحة وأخرى مخفية في نسيج ثقافة معينة. وتحوي في طيها أفكاره وأعماله وتعلمه للأشياء وحتى انسانيته. فالثقافة هي عملية متطورة

١. الثقافة، قاموس ميريام وبستر الإنجليزي، راجع على موقع الانترنت: <https://www.merriam-webster.com/dictionary/culture>، تاريخ الاسترجاع:

٢٠٢٢/١٠/١٨

٢. زيودين ساردار وبورين قانلون، الدراسات الثقافية ترجمة: وفاء عبد القادر، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٣، ص ٨.

٣. المرجع السابق، ص ٩

٤. المرجع السابق، ص ٩

ديناميكية التي تحدث وتتغير تدريجياً بشكل مستمر. ومما يجعل تعقدها هي بما فيها من العموميات من جانب التي تتجلى في كل أمة ومجتمع، والخصوصيات من جانب آخر التي هي تكون حصرية لمجتمع أو أمة معينة.

دراسات ثقافية

إن الدراسات الثقافية هي مجال متعدد التخصصات، حديثة النشأة حيث تنتمي بدايتها إلى بريطانيا في الستينات وتوسع بشكل سريع بعد التسعينات في القرن العشرين^٥. وهي تهتم بتحليل الثقافة من منظورات سياسية واجتماعية والبيئية. فهي "تخصص معرفي أو أكاديمي ومنهج تحليل للثقافة من منظور اجتماعي-سياسي أكثر مما هو جمالي"^٦. وقد أصبحت الدراسات الثقافية في هذه الأيام مجالاً مستقلاً للدراسة. فهي تقدم منهجين في دراستها أحدهما هو دراسة الأدب ضمن العلاقات المعقدة بين الأعمال الأدبية والبيئات الاجتماعية والمادية والتاريخية والأيدولوجية والبيئات التي كُتبت فيها. والطريقة الثانية، وهي تركز بجانب الدراسة التقليدية فقط للأعمال الكلاسيكية العظيمة، على دراسة جميع الأعمال بما فيها غير المكتوبة وغير الأدبية. فمفهومها الأساسي هو أن كل عملية إبداعية هي من صنع البيئة الثقافية التي تولدت فيها.

مظاهر الثقافة

كل شعب أو مجتمع يتمثل بمظاهره الثقافية ورموزه المتميزة كالمنتجات المتعلقة بالحرف والتقنية والطقوس التي يمارسها مثل الموسيقى والرقص وأنماط اللبس التقليدي التي يتخذها والأطباق التقليدية وأساليب العمارات وأشكال ومنتجات أدبية وفنية أخرى. وكل هذه تمثل مظهر من المظاهر التجسيدية لأنماط تعبيرية لشعب معين.

٥. راجع المقال على رابط الانترنت: https://en.wikipedia.org/wiki/Cultural_studies، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢١/٠٨/١٣.

٦. سايمون ديورنغ، الدراسات الثقافية: مقدمة نقدية، ترجمة: د. ممدوح يوسف عمران، عالم المعرفة، الكويت، ٢٠١٥، ص ٩.

المبحث الثاني: التعبير عن الذات في الثقافات المختلفة

إن جميع المخلوقات الحية في الكون تقوم بتعبيرات على أشكال مختلفة من أجل بقاءها على ظهر الأرض. فالإنسان - اختلافاً عن المخلوقات الحية الأخرى - يقوم بالوظيفة التعبيرية على شكل متطور، لما أن فيه قدرة موهوبة على توسيع أفاق العلوم والمعرفة عن نفسه وعن الكون الذي يعيش فيه وعماء وراءه أيضاً. كل ثقافة تتميز عن الأخرى من الثقافات بما لديها من عوامل ضمنية (Implicit) أو داخلية وصريحة (Explicit) أو خارجية التي تخص بها. فمن الطبيعي أن تحدث التغيرات والاختلافات في التعبير عن الذات في الثقافات المختلفة، لأن كل ثقافة دائمة التغير وتخص بمميزاتها الفذة.

العوامل المؤثرة في التعبير عن الذات

وقد ذكر ابن خلدون في مقدمته حينما يشير إلى فوائد فن التاريخ وغايته أنه كيف تؤثر الظروف السائدة في المجتمع على سلوك أفرادها، إذ يقول إن التاريخ "إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم"^٧. فإذا خضعت مكونات مختلفة للبيئة الثقافية المعينة للتحليل الدقيق يمكن العثور على عوامل عدة التي تؤثر التصوير عن الذات لدى الإنسان والتعبير عنها. ومن مقدمتها البيئة الثقافية - الاجتماعية السائدة في مجتمع معين وفي وقت معين، وأساليب الحياة التي تقترن بها. وتليها خصوصيات جغرافية ومناخية وطبيعة نظام المجتمع الفردي (Individual) والجماعي (Collective).

بيئة ثقافية - اجتماعية

فالثقافة - كما ذكرت سابقاً - تضم جميع العمليات المعرفية وما تترتب عليها من سلوكيات إنسانية وخطاباتها ونتاجاتها الفنية والأدبية وسائر المنتجات المادية والحضارية التي يلتزم بها ويمارسها المجتمع المعين في الفترة المعينة. فليس في استطاعة الباحثين والنقاد الوصول إلى مدركات صحيحة عن ظاهرة ما التي يمارسها مجتمع معين إلا باعتبار هذه العوامل بشكل صحيح. فنظرية النسبية الثقافية تقدم هذا المنحى.

٧. ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت، لبنان، ط ٤، ١٩٨١، ص ٩

وعلى حد هذه النظرية "أنه يجب فهم قيم ومعرفة وسلوك الناس ضمن سياقهم الثقافي الخاص"^٨. وعلى أساس هذا المفهوم، أنه يجب أن يكون الحكم على المنتج الأدبي أيضاً، مع مراعاة جميع خصوصيات تلك البيئة الثقافية على نحو مطلق. ومما يفترض أنه ليس من استطاعة الباحث أن ينتزع نتاجاً أدبياً -كتعبير عن الذات- من الحاضنة الثقافية -الاجتماعية التي يشتبك بها، لأن السارد ينبثق من نفس السياق الثقافي - الاجتماعي.

الايديولوجيات والديانات

ومن العوامل المهمة التي تندرج تحت مفهوم الثقافة الأيديولوجيات والديانات التي يعتبرها مجتمع ما فلسفة لحياتهم. فهي تمثل العلاقات بين الأفراد والطبيعة والخالق وأنها أيضاً الأقرب اقترانا بعواطفهم ومشاعرهم. وإنما العواطف فهي التي تحدد اتجاه الحياة والتعبيرات عنها. وتنبثق منها الطقوس والاعراف التي يمارسها مجتمع معين، وذلك مظهر من مظاهر التعبير عن الحياة. فكل تعبيرات بشرية مظاهر المخططات المعرفية (Cognitive Schema) وهي التي تساعدهم في تنظيم المعلومات وتفسيرها. ومنه تتولد المحظورات والتابوهات (Taboos) أيضاً. فالمخططات المعرفية لدى الانسان تتشكل من خلال المدخلات الدينية والثقافية.

بيئة سيكولوجية

فيمكن الملاحظة أن هناك نمطا مشتركا في التعبير عن الذات يتبعه مجتمع معين في فترة معينة كما توجد أيضا فروق فردية في التعبير عنها داخل نفس البيئة الاجتماعية الثقافية. أما النمط المشترك فهو ينتج عن البيئة الثقافية - الاجتماعية المعينة، وعلى حين أن الفروق الفردية في التعبير عنها تحدث نتيجة للخصائص النفسية الموجودة بدرجات متفاوتة لدى الأفراد. فالشخصية الداخلية لدى الفرد هي تنظيم ديناميكي (Dynamic Organisation) لنظام النفسي -الجسدي في داخله، وهي التي توجه سلوكه وتعبيراته الأخرى. فتبدو أن التجارب في أيام الطفولة تعمل كحافز حاسم في تكوين ذات الانسان وتنظيمها الديناميكي. وكذلك أنماط

٨. محمد الحمزة، النسبية الثقافية، جريدة الرياض، ٩ يونيو، ٢٠٢٢، راجع على موقع الانترنت: <https://www.alriyadh.com/1955351#>

، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٢\١٠\٩

تعبير العواطف بين الأعضاء في البيئة الأسرية والتواصل الاجتماعي بينهم على شكل طبيعي أيضا تعمل حوافز قوية في تحديد طبيعة التعبير عن الذات في حياة الانسان. ومن المستقر "أن التعبير المتمرد عن الذات لدى الانسان ينبع من انعدام الأمن العاطفي الذي يعود أصله إلى علاقة وظيفية غير مستقرة مع الوالدين وأفراد الأسرة الآخرين خلال سنوات الطفولة المبكرة"^٩. فالأمن العاطفي وانعدامه يحددان طبيعة التعبير عن الذات في الحياة المستقبلية.

خصوصيات جغرافية ومناخية

وتشير الدراسات إلى أن الخصائص الجغرافية للمنطقة ومناخها تحدد طبيعة سكانها الخلقية ومزاجهم النفسية وبالتالي تؤثر تعبيراتهم عن الذات. وقد لاحظ ابن خلدون العلاقة بين المناخ وأخلاق الانسان في مقدمته^{١٠}. وإذ يقول إن الذين يعيشون في مناطق ساحلية ومناطق حارة فتوجد في طبائعهم تأثير هذه العوامل، وتنعكس هذه في تعبير عواطفهم من الفرح والسرور والحزن وغيرها من عواطف بشرية أخرى.

طبيعة المجتمع: الجماعية والفردية

إن علماء النفس الاجتماعي يقوم بالمناقشة حول سمات الثقافة الجماعية والفردية. وفي علم النفس عبر الثقافات أن الثقافة الجماعية هي مجتمع يعطي الأولوية للمجموعة على الفرد. وهي تؤكد على السمات مثل التماسك والوئام والاعتماد المتبادل وتحقيق أهداف المجموعة وتجنب الصراع. وعلى حين أن الثقافة الفردية على النقيض من الجماعية تعطي الأولوية للفرد على المجموعة الجماعية. وهي تؤكد على القيم الثقافية الموجهة نحو الحقوق الفردية مثل التفرد واحترام الذات والتعبير عنها والخصوصية. وأما معظم الثقافات الغربية فهي أكثر ميلا إلى الفردية^{١١}. فيفترض أن تختلف طبيعة التعبير عن الذات في كلتي الثقافات الجماعية

٩. ويملا وبراكوان (محرر النص)، الشخصية: نظريات وتقييم (مادة دراسية لماجستير في علم النفس)، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة إندراغاندي

الوطنية المفتوحة، نيودلهي، ٢٠١٩، ص ١٢

١٠. عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت، لبنان، ط ٤، ١٩٨١، ص ٨٦

١١. ماهي الثقافة الجماعية، راجع على موقع انترنت: <https://www.verywellmind.com/what-are-collectivistic-cultures-2794962>، تاريخ الاسترجاع

ع: ٢٠٢٢\٠٨\٠٧

والفردية. ولذلك يجب مراعات جميع هذه المناحي عند الحكم على أي نوع أدبي كتعبير عن تجارب الحياة.

الثقافة والصراع

إن جميع الظواهر الكونية محفوفة بالثنائيات المتناقضة. فحياة الانسان أيضا لا تخلو منها. وهي نفسها تعطي للحياة الايقاع والجمال. وهي تمثل الحركة والتغيير والتنوع والتنمية والتطور وعدم الثبوت. وبدون هذه الثنائيات تكون الحياة جافة مملة. فالثقافة هي كلمة تشمل على جميع الأجزاء الدقيقة للحياة البشرية. فمن الطبيعي أن الثقافة لن تخلو من هذه الثنائيات المتناقضة مثل المحافظة والتحديث والرجعية والتقدمية والأصالة والمعاصرة. فيتولد منها الصراع الدائم. وهذا الصراع إيجابي فطريا لما أن فيه إمكانات التطور والنمو. فيمكن أن يقال إن الصراع هو نفسه أصل كل الصعود والهبوط والتقدم والانحدار للأمة البشرية. وهذا الصراع لا يزال يحدث داخل كل الثقافات كما يحدث داخل كل فرد من الأفراد.

المبحث الثالث: الثقافة الجاهلية

الثقافة الجاهلية

وكما توجد في الأفراد، يحمل كل مجتمعات عناصر مشتركة التي تعم بها وخصائص محددة فريدة تميز بها مجتمع عن أخرى. ويجب أن تتم دراسة أي مجتمع وثقافته باعتبار السياقات التاريخية والخصوصيات الجغرافية والمناخية ومجموعة نظامية من المفاهيم والأيدولوجيات التي بينت عليها الحياة عندهم. وهذا هو السبب أنه يقال إن الدراسة الثقافية تتم بمنظور تعدد التخصصات من علم النفس وعلم انثروبولوجيا والتاريخ وغيرها من العلوم. وعلى أساس هذا المفهوم أن الثقافة العربية أيضا يجب أن تدرس مع مراعات جميع هذه العناصر اللازمة.

مكونات الثقافة الجاهلية

رغم أن هناك شتى الملاحظات والآراء المتناقضة المتباينة حول الثقافة العربية من قبل النقاد والباحثين من المستشرقين وغيرهم من العرب والغرب، أن البحوث غير المتحيزة تؤكد، كما يلاحظ^{١٢} عباس محمود العقاد أن الثقافة العربية هي أقدم الثقافات الثلاث في العالم، هي العربية واليونانية والعبرية. وأما الثقافة الجاهلية فيقصد بها هنا هي بمعناها الاصطلاحي. وذلك أن مما يمكن أن يتبادر إلى الأذهان أن الجاهلية تشمل جميع الحقب والأزمنة قبل الإسلام، ولكنها حقبة زمنية منحصرة كما يحدد الدكتور شوقي ضيف إذ يقول "يقف بالعصر الجاهلي عند هذه الفترة المحدودة أي عند مائة وخمسين عاما قبل الاسلام، وما وراء ذلك يمكن تسميته بالجاهلية الأولى، وهو يخرج عن هذا العصر الذي ورثنا عنه الشعر الجاهلي واللغة الجاهلية، والذي تكامل فيه نشوء الخط العربي وتشكله تشكلا تاما"^{١٣}. لأن التاريخ المعروف للشعر العربي يبدأ بقصائد امرؤ القيس كما ذكر الجاحظ^{١٤} في كتابه الحيوان. وتاريخه ما قبل ذلك تقريبا مجهول.

فمكونات الثقافة العربية في الجاهلية مركزة بالحياة البدوية الخشنة وما تخص بها من نظام اجتماعية. أما العربي البدوي فهو يتنقل من مكان إلى مكان وسيتعيب من خلال ترحاله بتجارب الحياة الحقيقية من الطبيعة. وتجري حياته على الفلسفة التي فرضت عليه الحياة القبلية والبيئة القاسية. والنظام الاجتماعي والقيم الإنسانية فيها كانت مبنية على المعتقدات الدينية البدائية وقوانين القبيلة والأعراف السائدة آنذاك. وكانت هناك أيضا مهام معينة للرجال والنساء التي قد تم تعيينها كما هو الحال في العديد من المجتمعات الأخرى. تتميز البداوة بأنماط الحياة غير المستقرة، فالتنقل أو الترحال هو جزء لا يتجزأ من حياتهم العملية. فكل هذه العوامل تنعكس أيضا، بالتأكيد في تعبيراتهم الذاتية.

١٢. عباس محمود العقاد، الثقافة العربية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٣ ص ٧

١٣. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي: العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ط ١١، ص ٣٩

١٤. المرجع السابق، ص ٣٨

النظام الاجتماعي

وبالنسبة إلى العرب البدو أنه كان النظام الاجتماعي السائد فيها نظام قبلي حيث يتبع كل فرد من القبيلة القوانين العرفية والتقاليد البدائية التي توجد في كل المجتمعات المبنية على النظم القبلية. أما القبائل فهي منقسمة إلى الجنوبية والشمالية، أو القحطانيون والعدنانيون على التوالي. فالقحطانيون كانت لهم حياة مستقرة، وهم المعروفون بالتحضر الذين منغمسين في الزراعة والحرف الأخرى، وعلى حين أن العدنانيين هم البدو يتسمون بالترحال والتنقل بحثا عن المعيشة. وكانت الحروب والصراعات دائمة بينهم التي نتجت عن التعصبية القبلية.

كما هو الحال في معظم الثقافات في العالم كانت سلطة الرجال على النساء فيها مسيطرة في ذلك الوقت. وقد اعتبرت المرأة أقل شأنًا من الرجال. فهن معطلات بحقوق كثيرة. شاعت بينهم وأد البنات خوفا من العار والبغي. كما كان الإرث محروما لهن. وقد حدثت الطلاق بلا حدود. على الرغم من ذلك توجد بينهم أيضا الحرية للنساء في بعض من الصعب - سمة عامة للحياة الشعبية البدائية- اللاتي يتمتعن بمزايا أخرى، منها مصاحبة الرجال في المعارك الحربية والمشاركة في التجارة والحق في اختيار أزواجهن.

القيم الانسانية

فحياة البدوي لم تكن خالية من القيم الإنسانية التي يحتاج إليها في الحياة الاجتماعية. بل اجتمعت فيه الصفات المتناقضة مثل اللين والخشونة في وقت واحد. كلتا الصفتين المتعارضتين كانا واضحين لدى العرب الجاهليين، ويرجع ذلك أساسًا إلى افتقارهم إلى رؤية للحياة التي تشمل جميع النواحي الدقيقة لحياة البشر كما تشمل جميع الأفراد في المجتمع بأجمعهم، فيتمكن بها تطبيق هذه الفضائل بشكل صحيح في الحياة الاجتماعية. ويمكن العثور على كثير من هذه الصفات الاجتماعية في الشعر الجاهلي ومنها الشجاعة والكرم وإجارة الضعيف وإغاثة الملهوف وصلة الرحم والوفاء بالعهود والصدق في التعبير والإخلاص في العمل وما يماثله من صفات محمودة.

وفي نفس الوقت تتجلى فيهم الصفات المعاكسة لها مثل العنف والظلم والبغي والتعصبية. فالسبب الجذري لهذا التناقض هو أن الفطرة البشرية مشتملة على هذه القيم الاجتماعية

المحمودة وإمكانية لتطوير صفات معاكسة لها معا. وذلك أيضا تحدث بما فيهم من طبيعة المغامرة والاقدام والتلقائية التي هي أهم الصفات المنطبعة في الفطرة البشرية. عندما تقام بتزكية هذه الصفات الفطرية من خلال رؤى أسمى باستخدام الصفات الموهوبة للإنسان هما الحرية والقدرة على التفكير، فإنها تصبح صفات إيجابية التي يستفاد منها الفرد والمجتمع معا. فجميع هذه القيم المحمودة عند البدوي كانت مطبقة ضمن دائرة التعصبية القبلية التي تشكلت من الفخر في الأنساب والاخلاص بوفاء الاحلاف مع قبائل أخرى. وكانت هذه الاحلاف دفاعية في جهة على أنها تدافع عن أموالهم وأنفسهم، وكذلك هجومية في جهة آخر على أنها تساعد على تحقيق أغراض هجومية.

فلسفة الحياة والمعتقدات الدينية

كما هو الحال في العديد من المجتمعات البدائية الفطرية أن العرب في الجاهلية وهم كانوا يعبدون شتى مظاهر الطبيعة مثل الكواكب والنجوم والحيوانات والطيور والأشجار حتى الجمادات. وكانوا أيضا يعبدون الأصنام والأوثان. فجميع هذه الأنواع من العبادات تنبثق من الخوف الشديد للأشياء مجهولة كيانها الحقيقي. ومن الأمر الذي يبهز الباحث هو أن العرب في الجزيرة العربية فيما يتعلق باعتقاداتهم الدينية كانت سطحية وعلاقتهم بالآلهة هي كانت أيضا مجرد علاقة دنيوية. "ويظهر أنه لم يكن عندهم فكرة عن أخروية وثواب وعقاب أخرويين...إنهم كانوا يذكرون المعبودات في كل عمل وكل مناسبة لشؤونهم المختلفة في الحياة الدنيا أي لضمان مطالبهم وقضاء حوائجهم وتحقيق آمالهم ودفع الشر والأذى عنهم وجلب الخير والنفع لأنفسهم"^{١٥}. وعلى حين أنه يقال بأن قد ظهرت في أواخر عصر الجاهلية طائفة تدعى باسم الحنفاء. وهم شكوا في الدين الوثني السائد آنذاك، ودعوا إلى دين أبيهم إبراهيم عليه السلام. وتؤكد بعض الأبيات لزهير بن أبي سلمى على وجود مثل هذا الاتجاه قبل الاسلام. علاوة على ذلك أن من المعروف أن الديانة اليهودية والمسيحية أيضا كانت منتشرة فيها.

١٥. الشيخ أحمد مغنية، تاريخ العرب القديم، دار الصفوة، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٩٤، ص ١٢٨

ويمكن العثور على دلائل على أن اعتقاداتهم كانت لمجرد فوائد دنيوية وبنيت على فلسفة الحياة الخالصة من بعض الأبيات من الأشعار الجاهلية كقول طرفة بن عبد في معلقته إذ يقول "فلولا ثلاث هن من لذة الفتى.....كميت متى ما تعل بالماء تزيد فطرفة بن عبد يرى لذة الانسان في الخمر وإكرام الضيف واللهم مع النساء، يريد أن يتمتع بهذه في الحياة لأنه لن يكون بعد الموت شيء من ذلك"^{١٦}. وكذلك يتجلى هذا الاتجاه في حياة امرؤ القيس عندما بلغ خبر مقتل أبيه من أيدي بني أسد. وذلك حدث ذلك بينما كان يتجول في الصحراء يعيش حياة غير أخلاقية فوصل بمكان يقال له 'دمون'. فقرر الثأر من قتلة والده حجر ثم "مر بمكان فيه صنم للعرب يعظمونه ويقال له (ذو الخلصة) فاستقسم عنده بقداح وهي ثلاثة: الأمر والناهي والمتربص فأجالها فخرج (الناهي) وأجالها ثانية فخرج (الناهي) وأجالها ثالثة فخرج (الناهي) فجمعها وكسرهما وضرب بها وجه الصنم وقال "مصصت بظر أمك لو أبوك قتل ما عقتني، ثم خرج فظفر ببني أسد"^{١٧}. وتشير جميع هذه الأحداث إلى أن فلسفة الحياة وعبادة الأوثان واصنام وغيرها من المظاهر الكونية كاعتقاد دينية كانت سطحية تقريبا تماما.

الأنماط التعبيرية والسردية

ومن المعروف أن التعبيرات الذاتية والجماعية عند كل شعب تكون على أساس النظام الاجتماعي والأنماط الثقافية القائمة في سياقات تاريخية معينة. وكل حياة صراع دائم بين الذات والبيئة التي يعيش فيها. وأما ذات الفرد فهي وليدة نفس البيئة التي يعيش فيها. فالحياة الصحراوية للبدوي ومواجهته لحقائق بيئته الخشنة، ومعنى الحياة عنده الذي يتشكل من هذه البيئة الثقافية الاجتماعية، فجميع هذه تؤثر تماما الأنماط التعبيرية والسردية لما عنده من تفكير وعاطفة وخيال.

أما الدراسة في حياة العرب الجاهليين وتقاليدهم الأدبية، وخاصة تقاليدهم الشعرية، فهي تدرك الباحث بأن تعبيرات العواطف والخيال والمعاني في السرد هناك كانت بشكل عام سطحية طبيعتها. لأن حياتهم مرتبطة تماما بالطبيعة الحقيقية حيث أصبح التعبير عن الذات

١٦. عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي (الجزء الأول)، ط ٤، ١٩٨١، ص ١٦٧-١٦٨

١٧. الشيخ أحمد مغنية، تاريخ العرب القديم، دار الصفوة، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٩٤، ص ٢٢٤.

طبيعيا تماما. فكلما تحدث التهوية والتنفيس طبيعيا، ستكون الحياة واقعية، فهذه الحياة الواقعية التي تحمل فلسفة سطحية تجاه الحياة لا تحتاج إلى التأمل والتفكير العميق. فالحياة الصحراوية للبدوي -كما يلاحظ حنا الفاخوري- " جعلت أفكاره ظاهرة جلية، ووجهة نفسه وجهة يقين لا وجهة شك، ولهذا صفت الفكرة في أدبه، وأوجز اللفظ، ولهذا ابتعد خياله عن الانفعالات الفسيح، فكان عقله واقعيا، يتحدث عن الطبيعة كما هي بصدق وإخلاص، ويصورها تصويرا يهتم لدقته اهتماما شديدا، كل ذلك بمنطق بسيط وخيال قريب وفلسفة سطحية، ولا عجب فكل ما أمامه واضح لا يحتاج التأمل، كما لا يحتاج إلى النظر الطويل والشك والحدس"^{١٨}. وربما تكون نتيجة هذا النمط في التفكير السطحي أنهم قدموا الأشياء أكثر إيجازا، وكذلك أصبح أسلوب الإيجاز في العرض شائعا فيهم.

إنّ الشعر كان أقدم انواع الأدب في جميع الثقافات القديمة في العالم. وكل شعب فطري قد تم تعبيراتهم العاطفية من خلال الأشعار. لأن الشعر "لغة النفس أو صور ظاهرة لحقائق غير ظاهرة"^{١٩}، وهو أيضا تدفق تلقائي طبيعي للعواطف والاحساسات. ولذلك أنه يعتبر من الآداب الرفيعة مثل الموسيقى. وعلى الرغم من أنه كانت أغراض الشعر عندهم تمتاز بسطحية العواطف وخالية من الخيالات البعيدة، أنهم رأوا الشعر مطية العواطف المكبوتة التي تحتاج إلى التهوية والتنفيس. فلا غرو أن أصبح الشعر وسيلة مهمة وحيدة للتعبير عن العواطف لدى العرب في الجاهلية لأنه أقرب إلى الفطرة البشرية. وهو كان أيضا صورة صادقة لروح العصر الجاهلي.

المبحث الرابع: ثقافة العرب في الاسلام

قام الاسلام بالتغيرات والتحويلات الثورية في الفرد والمجتمع، وتم تطور المجتمع القبلي المتعصب إلى المستوى الأعلى للإنسانية المسمى بالأمة حيث أصبح المجتمع مشتملا جميع الأفراد دون تفرقة طبقية غير بشرية. وتبدلت منظوراتهم وانماط التفكير لديهم تجاه ذاته وخالقه والكون الذي هو عليها. وغرس الاسلام فيهم فلسفة الحياة الشاملة حيث يتمكن

١٨. حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، ط ٢، ١٩٥٣، ص ٦٠.

١٩. جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ص ٦٥.

القيام والوجود المنسجم بين الانسان والكون وما فيها من مخلوقات على أساس القيم العليا مثل الأخوة والعدالة. خلافا عن الأديان التقليدية القائمة على الطقوس العمياء، تقدم الاسلام بفلسفة أسمى التي تحتوي على جميع جوانب الحياة البشرية. "فالإسلام دين وحركة في وقت واحد، ولقد عني الاسلام بهداية المسلمين وتزكية نفوسهم كما عني بإصلاح أحوالهم وتنظيم حياتهم العامة في الدولة وتنظيم حياتهم الخاصة في الأسرة"^{٢٠}. فالأمر الرائع الذي يثير الاهتمام بأن الإسلام قام بثورة غير مسبوقة فيما يتعلق بمفهوم عبادة الخالق، على أنه يتسم بالحركات، وهي أهم سمات الحياة البشرية وهي محتاجة إليها. كل حركة التي تساعد على القيام بأمانة الإنسان كخليفة على الأرض تندرج تحت مفهوم العبادة. وذلك تحدث حين تتناغم حركاته مع قوانين الكون والاطاعة لها. فلب العبادات بالمعنى الاصطلاحي مثل الصلاة والحج حتى الصوم والزكاة كلها الحركات التي هي محفوفة بذكر الله. "إن الاسلام هو كل حركة في الحياة تناسب خلافة الانسان في الأرض..... فكل حركة في الحياة تؤدي إلى عمارة الأرض فهي من العبادة"^{٢١} ومن الطبيعي أنه تنعكس فلسفة الاسلام ومنظوره الثوري نحو الفرد والكون، في جميع أنماط التعبيرات البشرية والانتاجات الأدبية والفنية.

مكونات الثقافة الاسلامية

إن الاسلام فلسفيا دين فطرة ونظام شمولي للحياة البشرية على الأرض. فالإنسان هو خليفة الله، وعليه أن يؤدي الأمانة التي تولى نفسه على حملها كما ذكرت في سورة الاحزاب 'فحملها الانسان'. فمحور الاسلام يدور حول الانسان وحياته المتناغمة مع الكون الذي يعيش فيها متبعا للقوانين الربانية. فالثقافة الاسلامية تضم الانسان والكون والخالق وما بينها من انسجام وتوافق.

فالإسلام يقدم النظرة الاجتماعية الشاملة والقيم الانسانية الكونية حتى يتمكن بها الانسان حياة منسجمة في الأرض. "فالثقافة الاسلامية تتسم بخصائص تميزها عن غيرها من الثقافات السائدة في الأرض، ومن أبرز هذه الخصائص هي الربانية وملاءمتها للفطرة الانسانية

٢٠. فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي (الجزء الأول)، ط ٤، ١٩٨١، ص ٢٣٩.

٢١. محمد متولي الشعراوي، هذا ديننا، دار الروضة للنشر والتوزيع، القاهرة، ص ١٨.

والإيجابية والشمول والكمال والتوازن والاعتدال والمثالية الواقعية وعالمية الآفاق والجمع بين التطور والثبات^{٢٢}. فعلى الإنسان أن يسعى أقصى جهده لإنجاز غايته النهائية فهي تحقيق الذات من خلال قيامه بأداء الأمانة على شكل صحيح تجاه خالقه وإخوانه من البشر وكل ما في الكون من مخلوقات الله تعالى الحية والجمادة.

الأنماط السردية

إن المقصود بشخصية الفرد هو نمط خاص فيما يتعلق بتفكيره ومشاعره وسلوكه. أما التفكير فهو الذي يحدد ويشكل نمط المشاعر والسلوك عنده. وإذا تحولت أنماط التفكير فتغير المخططات المعرفية لدى الانسان، وسيحدث تغيير في المشاعر والسلوك وفقا لذلك. وقد أحدث الاسلام تغييرات جذرية في تفكير الانسان ونظرته تجاه ذاته وخالقه والكون الذي يعيش فيه. حدثت هذه التغييرات ليست فقط على الصعيد الفردي، بل تطورت إلى سلوكيات جماعية حتى تشكل مجتمع مثالي مبني على الواقعية.

أما فيما يتعلق بتعبير المشاعر والعواطف والاحساسات وسرد تجربة الحياة فهو أيضا تطور وفقا لأنماط تلائم الرفاهة على الصعيد الفردي والمجتمعي معا بحيث لا يجعل التعبير عنها والسرد بتجارها أضرارا للنسيج الاجتماعي على الاطلاق. فغاية الاسلام فيما يتعلق بحياة الانسان على ظهر الأرض هي حفاظه على فطرته السليمة وتنمية الصفات الفطرية حيث يتمكن بها تحقيق مقاصد بعثته على الأرض كخليفة أو لأداء الأمانة على شكل صحيح.

أما الأنماط التعبيرية والسردية في الثقافة الاسلامية فهي تتميز عما كان في الجاهلية وغيرها من الثقافات الأخرى لما أنها أمكنت الصفات المتأصلة في الفطرة البشرية حفاظا على الانسجام الايقاعي بين الطبيعة والمخلوقات الأخرى بما فيها الانسان. وكان ذلك على أساس المعرفة اكتسبها من خلال الوحي السماوي. وعلى حين وهي كانت في الجاهلية مجرد تطبيق تلقائي أعنى للصفات الفطرية بثنائيتها دون تغذيتها بتفكير أسمى. فيجب أن تكون العواطف والخيالات كلها في الابداعات الأدبية أيضا مبنية على الواقعية. ويمكن هذا ما تعنيه الإشارة

٢٢. مصطفى مسلم والدكتور فتحي محمد الزعبي، لثقافة الاسلامية تعريفها مصادرها مجالاتها تحدياتها، إترء للنشر والتوزيع، عمان، أردن، ط ١،

القرآنية فيما يتعلق بالشعراء بأن "الشعراء يتبعهم الغاؤون، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون."^{٢٣}

المبحث الخامس: الثقافة الحديثة والمعاصرة

إن الثقافة الحديثة والمعاصرة تمتاز بتعقيدها (Complexity) وقابليتها للضعف (Vulnerability). على الرغم من أن العولمة تفتح إمكانيات غير المحدودة للإنسان، إلا أن أبعادها الثقافية والأخلاقية التي تجلبها لا يمكن التنبؤ بها. طبيعياً، فبدلاً من ترقية القيم الإنسانية التي توجد في الطبيعة البشرية، أنها قد يتأثر أكثر بما يطرحه من عدم القيم الثقافية ومعضلات أخلاقية وأزمة وجودية.

الأصالة والمعاصرة

وأما الأزمة التي لا تزال تعاني منها الأمة العربية المعاصرة هي أزمة الأصالة والمعاصرة. على الرغم من أن هذه الأزمة تبدو في جميع الثقافات في العالم، أن مدى شدتها قد تؤثر أكثر في الثقافة العربية لما أن لها من طبيعة محافظة أكثر من الثقافات الأخرى في العالم. كل فرص تقدم صراعات من جهة، وفي نفس الوقت، فهذه الصراعات ذاتها تعمل محفزاً قوياً للتقدم والانجازات. فلا يمكن الحفاظ على الإيقاعات الطبيعية إلا عندما يتم الاعتماد على الابتكارات مع الحفاظ على الأصالة لديها. وأما الوسطية فهو الطريق الصحيح الذي قد تتحلى لأي أمة من الأمم كما هو الحال في فرد من الأفراد.

الانماط السردية

إن الميزة الكبرى للثقافة الحديثة فهي الحرية الفردية والانفتاح المطلق (openness). وقد يبدو أن هذا الأمر مفيداً للفرد ولخصوصيته، لكنه في النهاية قد تسبب أضراراً على نطاق واسع، ليس فقط للفرد، بل للمجتمع برمتها. أما النظريات الأدبية والاجتماعية الحديثة مثل ما بعد الحداثة وما بعد الحقيقة وأمثالها تعبر جميع الحدود التي وضعت لرعاية الأمة البشرية

٢٣. سورة الشعراء، الآية ٢٢٤-٢٢٦

ورفاهيتها. فالسرد التي تنبثق من العقلية المنفتحة في الأيام المعاصرة تتعدد طبيعته وتنوع أساليبه. فلم يتم الكشف عن نطاقه وامتداده بعد.

الخاتمة

كل ظاهرة في الطبيعة قابل للتغير. فلا تخلو الثقافة من هذه الأطر. كلما اختلف مجرى ثقافة الأمة البشرية ومسيرتها، تختلف أنماط التعبير والسرد لديها. كل سياق تاريخي يمثل نمطا خاصا من التعبير، فهذا النمط أيضا يتفاوت باختلاف خصوصية أمة من الأمم. ومن المستحيل عزل المنتجات الأدبية عن سياقاتها التاريخية، حيث تتشابك عناصر تاريخية وأدبية وثقافية ودينية وما إلى ذلك. ومن ثم لا يمكن الحكم عليها بمعيار محدد الذي يمكن أن ينطبق على جميع العصور.

الباب الثالث

تحليل النصوص في العصر ما قبل الحديث: منظور اعترافي

المقدمة

الفصل الأول: 'المنقذ من الضلال والموصّل إلى ذي العزة والجلال' - أبو حامد الغزالي

المبحث الأول: المحاور الرئيسية والقيمة التاريخية والأدبية

المبحث الثاني: تصوير الذات في 'المنقذ من الضلال'

المبحث الثالث: الاعتراف في 'المنقذ من الضلال'

الفصل الثاني: 'التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا' - ابن خلدون

المبحث الأول: المحاور الرئيسية والقيمة التاريخية والأدبية

المبحث الثاني: تصوير الذات في 'التعريف بابن خلدون'

المبحث الثالث: الاعتراف في 'التعريف بابن خلدون'

المبحث الرابع: الاعتراف وخصلات الشخصية

الفصل الثالث: 'التحدث بنعمة الله' - جلال الدين السيوطي

المبحث الأول: المحاور الرئيسية والقيمة التاريخية والأدبية

المبحث الثاني: تصوير الذات في 'التحدث بنعمة الله'

المبحث الثالث: الاعتراف في 'التحدث بنعمة الله'

الباب الثالث

تحليل النصوص في العصر ما قبل الحديث: منظور اعترافي

المقدمة

كل قطعة أدبية تمثل صورة حقيقية للمجتمع حيث تعكس الأحوال السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية والاقتصادية وغيرها مما يشكل العقل الإنساني وأفكاره. وإن الذات البشرية وعقليتها إلى حد كبير نتاج التفاعل لما ترتبط به، وتتشكل نتيجة عن العلاقات الاجتماعية والخبرات المكتسبة منها. وعلى أساس هذا المفهوم يمكن أن يقال إن الانسان هو نتاج ثقافي، وعلى حين أن الأدب كتعبير عن هذه التجارب، فهو أيضا نتاج ثقافي للأنماط الاجتماعية القائمة في السياق الزمني الخاص الذي تتولد فيه القطعة الأدبية. فنصوص السير الذاتية التي ستعرض للتحليل في هذا الباب كلها مجموعة تمثيلية من سياقات ثقافية وتاريخية مختلفة في العصر ما قبل الحديث. يريد الباحث تحليل هذه النصوص فقط من منظور اعترافي.

وقد تم تنظيم هذه الكتب الثلاثة في ثلاثة فصول. أما النصوص فهي كل من كتاب 'المنقذ من الضلال' للغزالي و'التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا' لابن خلدون، و'التحدث بنعمة الله' للإمام السيوطي. كل فصل يحتوي على كتاب واحد من النصوص الثلاثة على التوالي. أما مقدمة كل فصل فيضم معلومات أساسية للكتاب وبيان موجز عن الكاتب بما فيه من خلفية اجتماعية وسياسية التي تولد فيها الكتاب. وقد تم اختيار النصوص باعتبار كل من سياقات تاريخية وطبيعة الكتاب وأهميته بين مجموعة من سرد السير الذاتية تلك الفترة التاريخية. ويعد القرن الثاني للهجرة خطوة حاسمة في تاريخ تأليف الفكر العربي حيث أضيف نوع جديد إلى مجموعات مخازن العلوم الإنسانية، فهو فن السيرة الذي نشأ كسجل لحياة الرسول ثم تطور من خلال تغيرات عدة عبر العصور إلى أن صار فنا مستقلا أدبيا المعروف بالسيرة الذاتية أو الترجمة الذاتية.

إن لجميع المفاهيم والظواهر الكونية طبيعة تطورية، وعلى نحو مماثل، كل أعمال أدبية لها خلود تاريخي حيث يتم اندماج الماضي والحاضر وامتداد إلى المستقبل. فيوجد أن تكون تأثيرات بسابقتها وكما أن تكون تأثيرات على لاحقها. فينبغي أن يأخذ تاريخ الأعمال الأدبية والفنية العظيمة في الاعتبار الأعمال السابقة، وأهميتها في عصر كتابها وتأثيرها وأهميتها في المستقبل. ومما يجدر بملاحظة ت. أس. إليوت^١ شاعر انجليزي عن 'التقليد' حيث يؤكد على الحاجة إلى فهم الأعمال الحالية في ضوء الأعمال الماضية وتأثيرها المحتمل على المستقبل.

أما بالنسبة إلى الاعتراف في النصوص الأدبية الذي يعتمد على المكاشفة والتجرد في تعبير ذات الكاتب، فهذه النصوص الثلاثة خالية من التعبيرات الذاتية من حيث الاعتراف. فهناك أسباب ثقافية ودينية وفنية لغياب 'الاعتراف' في الأدب مع الأخذ بالاعتبار أن 'الاعتراف' لم يظهر تيارا ملحوظا في الأدب في تلك العصور، رغم أنه كون الاعتراف جانبا مهما في حياة الانسان. وإن هذا التيار لم يظهر إلا في القرن الثامن عشر في الآداب الغربية نتيجة عن الانقلابات الجذرية في المجتمع الغربي حيث سيطرت الحركة الرومانسية على التعبيرات الأدبية. على الرغم من ذلك، أن ومضاته كانت حاضرة في بعض النصوص السير الذاتية العربية في العصر ما قبل الحديث. بينما يعد 'المنقذ من الضلال' للغزالي 'اعترافا دينيا'، إن كتاب 'التعريف' لابن خلدون هو سيرة ذاتية سياسية على شكل مذكرة الرحلة. فأما كتاب التحدث بنعمة الله للسيوطي فهو مؤلف يمكن إدراجه في عداد السيرة الذاتية في القرن السادس عشر. فهذه الكتب تتميز بالحفاظ على الموضوعية في التعبير عن ذوات كتابها، وتمثل الجوانب التاريخية أكثر من ذاتيتها، إلا كتاب 'المنقذ من الضلال' فتركيزه على الجوانب الروحية للكاتب على أنه اعتراف ديني.

١. الأدب المقارن، مادة تعليمية للفصل الثالث للماجستير في الإنجليزية، مديرية التعليم عن بعد، جامعة مولانا آزاد الأردية الوطنية، هيدرآباد، ط ١،

الفصل الأول

'المنقذ من الضلال والموصّل إلى ذي العزة والجلال' - أبو حامد الغزالي

البيانات الوصفية

اسم الكتاب	: 'المنقذ من الضلال والموصّل إلى ذي العزة والجلال'
المؤلف	: الإمام أبو حامد الغزالي (٤٥٠ هـ - ١٠٥٩ م / ٥٠٥ هـ - ١١١١ م)
سنة التأليف	: ما بين عامي ١١٠٥ - ١١٠٦ م
تحقيق الكتاب	: الدكتور محمد أبو ليلة والدكتور نورشيف عبد الرحيم رفعت
الناشر	: جمعية البحث في القيم والفلسفة، واشنطن، الولايات المتحدة.
تاريخ النشر والطبعة	: الطبعة الأولى - ٢٠٠١

المقدمة

يعد 'المنقذ من الضلال' من أهم الكتب الاعترافية الدينية في العربية. وقد اعتبر بعض من الباحثين أنه هو النموذج الأول^١ من هذا النوع الأدبي في العربية. بالرغم من أن تاريخ تأليفه^٢ المحدد غير متوفر، أنه يعتقد ذلك ما بين ٤٩٩ هـ / ١١٠٥ م و ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م. كان ذلك في الخمسين من عمره، أو بالأحرى خمس أو ست سنوات قبل وفاته. "وفي سنة ١٨٤٢ تم العثور على هذا الكتاب وترجم إلى الفرنسية من قبل فرانس شمولدرز^٣. وقد أغفل المؤرخون^٤ عن هذا الكتاب، وحتى عبد الغفار الفارسي، مؤرخ الغزالي، لم يذكر عنه نصاً. أما سبب ذلك قد يكون

١ . ترجمة النفس: سيرة ذاتية في الأدب العربي\تحرير دوايت ف. رينولدز، ترجمة: سعيد الغانمي، كلمة، أبو ظبي، ١، ٢٠٠٩، ص ١٠٩-١١٠.

2. Al Ghazali: Deliverance from Error and Mystical Union with Almighty, Critical edition, translation and introduction: Dr. Muhammad Abu Laylah, The Council for Research in Values and Philosophy, Washington, USA, 2021 P: 22. بتصرف

٣. شمولدرز أو شولدرز (١٨٠٩-١٨٨٨ م) هو مستشرق ألماني من أوائل من اهتموا بالفلسفة الإسلامية. راجع على موقع الانترنت (فرانس-شمولدرز <https://ar.wikipedia.org/wiki/>، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٣\١٤

٤. أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال، تحقيق: محمد أبو ليلة ونورشيف عبد الرحيم رفعت، جمعية البحث في القيم والفلسفة، واشنطن، ٢٠٠١، ص ٤٧-٤٨، بتصرف

أنه من آخر تأليفات الغزالي. فهذا الكتاب يحمل عنوانين، أولهما 'المنقذ من الضلال والمفصح عن الأحوال' والثاني منهما 'المنقذ من الضلال والموصّل إلى ذي العزة والجلال'⁵.

أما الإمام محمد بن محمد بن محمد أبو حامد الغزالي الطوسي فهو عالم ومفكر إسلامي في القرن الحادي عشر. ولد في مدينة طوس بخراسان والتي كانت جزءاً من إيران. تأتي مدة حياته بين ٤٥٠ - ٥٠٥ هجرية الموافق ١٠٥٩ - ١١١١ ميلادية. لقب بحجة الإسلام على أنه قام بالدفاع عن الإسلام من الهجومات العقلية من الفلاسفة اليونانية. مات أبوه وهو صغيراً وتولى مسؤولية الأسرة تحت رعاية صديقه عبد الغفار الفارسي وقام بكفالتهمما على خير وجه.

وهب الله له علوماً على نطاق واسع في مختلف الفنون التي تتمثل روح العصر الذي يعيش فيه. وكان ذكياً وحريصاً على أخذ العلم ببذل أقصى الجهد في سبيله منذ أن كان صبياً. وبالنسبة للباحث الذي يقوم بتحليل حياته نفسياً، فيمكن القول إنه أنجز - إلى حد ما - الغاية النهائية للإنسان، هي تحقيق الذات. لما أنه نجح في استكشاف ذاته إياه وتشخيص الأمراض التي لا يزال يواجه بها مجتمعه.

وتتلمذ الغزالي بعدد من العلماء ذوي الشهرة بالعلم والجاه. وبدأت رحلته في سبيل كسب العلم منذ صغره من بلدته وهي طوس، حتى رجع إلى نفس البلدة بعد جولاته الدائبة في البحث عن الحقيقة على شكل مواظب. أصبح مدرساً في المدرسة النظامية في بغداد وهو كان الرابعة والثلاثين من عمره. ولما تغلب عليه الأزمة الروحية والشغف لا هواده فيه للوصول من الشكوك المضطربة إلى نور اليقين المعنوي، ترك سلك التدريس في النظامية، واختار حياة الزهد والخلوة. وتجول من مدينة إلى آخر طالبا العقل المستنير ومن بينها مكة ومدينة ودمشق والقدس وغيرها وأخيراً أوصله هذا المطاف إلى بلدته 'طوس' وقضى فيها سنوات في العزلة والزهد حيث كان الناس يختلفون إليه لتلقوا التعاليم الروحية الصوفية. توفي الغزالي عام

5 . Al Ghazali: Deliverance from Error and Mystical Union with Almighty, (Critical edition, translation and introduction by Dr. (Professor) Muhammad Abu Laylah), The Council for Research in Values and Philosophy, Washington, USA, 2021 P: 22

٥٠٥ هـ^٦ (يوم الاثنين ١٤ جمادى الآخرة - ١٨ ديسمبر سنة ١١١١م)، بطوس عن عمر يناهز خمس وخمسين عاماً.

خلف الإمام الغزالي عدداً غير قليل من المؤلفات التي تتراوح بين العلوم الإسلامية والعلوم العصرية. اختلف الباحثون في عدد مؤلفاته. ذهب بعضهم إلى أن له أكثر من ٢٢٨ كتاباً ما بين مطبوع ومخطوط ومفقود^٧، والآخرين أحصوا عددها أكثر منها حتى "بلغ ٤٥٧ مصنفاً ما بين كتاب ورسالة"^٨. ومن أبرز أعماله هي إحياء علوم الدين، تهافت الفلاسفة، مقاصد الفلاسفة، المنقذ من الضلال.

كان القرن الخامس للهجري فيما يتعلق بالعالم الإسلامي حافل بالمناقشات الفكرية والمناظرات الفلسفية الحادة حيث كان الحكام وحتى عامة الناس منغمسين في الممارسات العقلية المذهبية. وكان على الغزالي أن يواجه عدة مدارس عقلية وفكرية فوقف على اطلاع المفاهيم الأساسية التي يتقدم بها أصحابها، وتم إخضاعها لتحليل ودراسة متأنية. ومثل هذه التيارات الفكرية والمناخ السياسي حيث تعصب الخلفاء والوزراء لدعم فرقة من الفرق الفكرية التي يميلون إليها، هي التي تشكلت شخصية الغزالي ورفعته إلى المرتبة العليا من علماء عصره.

أما كتاب 'المنقذ من الضلال' فهو يحتوي على توطئة وسبعة مواضيع رئيسية. وهي تتمحور على السفسطة وأصناف الطالبين من المتكلمين والباطنية والفلاسفة والصوفية، وحقيقة النبوة وسبب رجوعه إلى التعليم بعد إعراضه عنه. إن اعتراف الكاتب برحلاته الفكرية والروحية الدؤوبة في طلب العلم في شتى فنونه، وما عاناه من صعوبات في سبيل ذلك، هو تذكير للقراء بأن السعي لإدراك الحقيقة الربانية من المتطلبات الفطرية للإنسان.

٦. عبد الرحمن بدوي، مؤلفات الغزالي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط ٢، ١٩٧٧، ص ٢٥

٧. مقال بعنوان 'من هو أبو حامد الغزالي' على موقع الانترنت <https://www.arageek.com/bio/abu-hamid-al-ghazali>، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٣/١١/٤

٨. نهضة الشريفي، نبذة عن حياة الإمام أبو حامد الغزالي وسيرته العلمية، رابط على موقع الانترنت:

<https://www.eshraqtquraania.com/2019/11/About-the-life-of-Abu-Hamid-al-Ghazali.html#8>، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٣/١١/٦

المبحث الأول: المحاور الرئيسية والقيمة التاريخية والأدبية

يستكشف 'المنقذ من الضلال' استكشافاً عميقاً لرحلة الغزالي الفكرية والروحية، حيث يهتم بالنمو الروحي والشكوك الفكرية ودمج الإيمان والعقل، مما يوفر بصيرة قيمة في الفكر والتصوف الإسلامي. يمكن تلخيص ما يتضمن هذا الكتاب من محاور رئيسية:

- الأزمة الروحية والشكوك: إن التركيز الهام لهذا الكتاب هو صراع الغزالي الروحي العميق للوصول إلى اليقين المطلق حيث شكك في كل مصادر المعرفة التقليدية، بما في ذلك الحواس والعقل. ولم يكن نقده الإيمان الحقيقي، بل كان التقليد الأعمى.
 - الشكوك الفكرية: يقوم الغزال بالتحري العميق عن المدارس الفلسفية واللاهوتية المختلفة، وليس فقط على تحليلها النظري، بل بتجارب عملية فيها حيث يستكشف حدود المعرفة البشرية.
 - التصوف والروحانية: يهتم الغزالي بالتجربة الداخلية والتذوق بالرياضات والممارسات الروحية حيث يندمج التصوف مع العقيدة الإسلامية الصحيحة.
 - طبيعة المعرفة: يقوم الغزالي بالتمييز بين المعرفة الفكرية والمعرفة الروحية حيث يؤكد على المعرفة الحدسية والتجريبية للوصول إلى المعرفة الحقيقية.
 - حدود العقل: يؤكد الغزالي على ضرورة استخدام العقل كأداة مهمة، ولكنه محدود، حيث يتم الربط بين العقل والوحي، ويقوم بالتوازن بين البحث الفكري والخضوع الروحي.
 - الطريق إلى النمو الروحي: يستكشف أهمية تطهير الذات. فهي محتاجة إلى التوجيه والإرشاد الروحي وكذلك إلى المجاهدة والاخلاص.
 - تكامل الإيمان والعقل: إن الإيمان والعقل لا يتعارضان، بل يتكاملان في الوصول إلى الحقيقة.
- فهذا الكتاب ليس مجرد التعبير عن الذات، بل هو عمل فلسفي وروحي يتخذ شكل الاعتراف الديني، ويسعى إلى إرشاد القراء إلى طريق الحق.

القيمة التاريخية والفكرية والأدبية

يحتل هذا الكتاب قيمة تاريخية وفكرية وأدبية على أنه يعكس صورة مضطربة للسياسة والدين والتيارات الفكرية الأخرى التي كانت سائدة في العصر الذي عاش فيه الغزالي. ويلاحظ محمد أبو ليلة في مقدمة ترجمة إنجليزية للمنقذ ما له من ثلاثة أبعاد رئيسية^٩ أولاً، البعد السيرة الذاتية الذي لا غنى عنه في فهم أعمال الغزالي وبيئته، وثانياً، الرسم البياني للنفسي والفكري الذي يسجل تجربة الغزالي الداخلية وتحمله الفكري واستجابته للسلطة، وثالثاً تحقيقه في الاتجاهات الدينية والفكرية في تلك البيئة الاجتماعية. فهذا الكتاب عمل مؤثر في الفكر والروحانية الإسلامية، وجسر بين الفلسفة والتصوف، ورحلة ذاتية في حياة الغزالي وفكره. أما الجانب الأدبي فيستخدم الغزالي لغة أدبية قوية للتعبير عن تجاربه الذاتية مما يجعل الكتاب عملاً أدبياً مؤثراً.

المبحث الثاني: تصوير الذات في 'المنقذ'

يبتدئ الكتاب بتوطئة^{١٠} موجزة كلية تحوي على جميع ما يريد أن يعترف في الفصول التالية في الكتاب. أولاً، يقول عن دافعه إلى تأليفه، وكان ذلك كجواب لسؤال من أخيه في الدين إذ يقول "فقد سألتني أيها الأخ في الدين، أن أثبت إليك غاية العلوم وأسرارها، وغائلة المذاهب وأغوارها، وأحكي لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق مع تباين المسالك والطرق، وما استأجرت عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد إلى يفاع الاستبصار"^{١١}. ثم يبين عما في جبلته من "التعطش إلى درك حقائق الأمور"^{١٢} منذ أن كان

٩. أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال (مقدمة لترجمة انجليزية)، تحقيق: محمد أبو ليلة، د نورشيف عبد الرحيم رفعت، نشر جمعية البحث في القيم

والفلسفة، واشنطن، الولايات المتحدة الأمريكية، ص ٢١

١٠. أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال، (تحقيق: محمد أبو ليلة ونورشيف عبد الرحيم رفعت)، جمعية البحث في القيم والفلسفة، واشنطن، ٢٠٠١، ص ١٥٦-١٦٣.

١١. المصدر السابق، ص ١٥٦.

١٢. المصدر السابق، ص ١٦١

صغيرا. وانصرف همه إلى حقيقة الفطرة في قوله صلعم- كل مولود يولد على الفطرة -^{١٣} وانحلت عنه رابطة التقليد والعقائد المورثة واستمرت رحلته في البحث عن الحقيقة. وإن كثرة الأديان والفرق أذهلته فاستفاد أولا من علم الكلام ثم من طرق أهل التعليم وبعد ذلك وقف على علم التفلسف، وأخيرا ارتضى بطريقة التصوف.

السفسطة وجحد العلوم^{١٤}

يقول عن السفسطة وجحد العلوم لديه حيث بحث عن حقيقة الأمور في الحسيات والعقليات فلم يتيقن في أي منها. وبعد تفكير عميق لهذه الوسائل لإدراك المعرفة الحقيقية، تيقن أن الحياة كالنوم، واليقظة الحقيقية هي الموت دليلا على قول النبي صلى الله عليه وسلم "الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا"^{١٥} وعلى ما جاء في القرآن "فكشفتنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد"^{١٦}. أخيرا أصبحت الضروريات العقلية عنده مقبولة من خلال النور من عند الله بعد أن صار في حالة السفسطة شهرين. وبعد أن شفي داءه أنه أدرك أن الحق لا يعدو الأصناف الأربعة من الطالبين^{١٧}، هم المتكلمون والباطنية والفلاسفة والصوفية.

علم الكلام والفلسفة

بدأ يدرس في المتكلمين بدقة بالغة. وأدرك أن علم الكلام تولد لتشييد أهل السنة والدفع عن أهل البدعة. ولكن لم يكن في حقه كافيا، ولا لدائه شافيا^{١٨}. بعد ذلك صرف همه إلى الوقوف على الفلسفة^{١٩} وأدرك أنه لم يهتم أحد من علماء المسلمين بها حق الاهتمام. فأقبل على

١٣. المصدر السابق، ص ١٦٢

١٤. المصدر السابق، ص ١٥٦-١٧١

١٥. المصدر السابق، ص ١٦٧

١٦. المصدر السابق، ص ١٦٨

١٧. المصدر السابق، ص ١٧٢-١٧٤

١٨. المصدر السابق، ص ١٧٥-٧٨

١٩. المصدر السابق، ص ١٧٨-١٨١

دراستها في أوقات فراغه وكان مشغولا في التدريس والتأليف. وكان له ثلاث مائة طالبا في بغداد آنذاك. تم فهمها دون سنتين، ثم قضى سنة للتفكير فيها. فأدرك كل ما أدرك ما فيها من خداع وتلبيس وأصنافهم وأقسام علومهم. ومن أصناف الفلاسفة^{٢٠} الدهريون والطبيعيون والإلهيون. أما الدهريون فهم الزناقة أنكرو الصانع. والطبيعيون وهم قاموا بالخوض في دراسة الطبيعة وما فيها من عجائب في صنع الله. فاعترفوا بفاطر حكيم، لكنهم جحدوا الآخرة. وبهذا المعنى أنهم زنادقة أيضا. فالإلهيون وأصحاب هذه الفئة هم سقراط وأفلاطون وأرسطوطاليس. أما أرسطوطاليس فهو الذي وضع نظاما له ورَدَّ سقراط وأفلاطون فيما بعد. كان ابن سينا والفارابي من أتباع أرسطوطاليس.

أقسام العلوم

أدرك أن العلوم^{٢١} التي لا يزال يعالجها الفلاسفة هي ستة: رياضية ومنطقية وطبيعية وإلهية وسياسية وخلقية. أما الرياضية فلها علاقة مع علم الحساب والهندسة وعلم الفلك، وليس لها أي علاقة للشؤون الدينية ولكن لها بعض من الآفات. رغم أن المنطقيات لا يتعلق شيء منها بالدين نفيًا وإثباتًا، وحتى أنها أيضا ليست خالية من الآفات من جهة. وفي حين أن علم الطبيعة فهو دراسة في عالم السماوات والأرض وما فيهما من أجساد. وليس فيها ما ينكر من ناحية الدين. وبالنسبة للإلهيات أن فيها أغلاط الفلاسفة.

قام الغزالي بوضع كتاب تهافت الفلاسفة ردا على هذه الأغلاط ما نقله الفارابي وابن سينا من مذهب أرسطوطاليس. ففي عشرون أصلا، فثلاثة منها يجب تكفيرهم، وسبعة عشر فيها تبديعهم. فالسياسية فهي تتعلق بالحكم المصلحية المتعلقة بالأمور الدنيوية. وأما الخلقيات فهي تتعلق بصفات النفس وأخلاقها وكيفية معالجتها ومجاهدتها. وإنما أخذوها من الصوفية. فيقول عن آفات الفلسفة من حيث ردها وقبولها.

٢٠. المصدر السابق، ص ١٨٢-١٩٢

٢١. المصدر السابق، ص ١٩٣-٢١٢

مذهب التعليم

وبعد أن فرغ من الوقوف على الفلسفة وأصناف الفلاسفة وأنواع العلوم فيها، وأن أدرك عدم كفيتها، بدأ يدرس في مذهب التعليم^{٢٢} أي مذهب الإسماعيلية، هم يعتقدون ضرورة الإمام المعصوم في اكتساب المعرفة. فتبحر في كتبهم وتم دحض حججهم التي يمكن أن قد تنشأ منها من الشكوك والأسئلة، بشكل صارم على أساس قوة الأدلة. ويصرح أيضا أنه "ليس المقصود الآن ببيان فساد مذهبهم^{٢٣}، بل المقصود أن هؤلاء ليس معهم شيء من الشفاء المنجي من ظلمات الآراء"^{٢٤}.

الطريقة الصوفية

ثم انصرف همه إلى الاطلاع على طريقة الصوفية^{٢٥}، وإذ يقول عن إدراكه فيها "أن طريقتهم إنما تتم بعمل وعلم، وكان حاصل علومهم قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله عزوجل وتحليته بذكر الله عزوجل"^{٢٦}. واطلع على كتبهم الشهيرة مثل كتاب 'قوت القلوب' لأبي طالب المكي رحمه الله، وكتب الحارث المحاسبي والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي قدس الله أرواحهم^{٢٧}، ووقف على كنهه مقاصد علومهم، والفرق بين معرفة حقيقة الزهد وحال الزهد^{٢٨}، فأدرك أنه "لا يمكن الوصول إليه بالتعلم، بل بالتذوق"^{٢٩}.

٢٢. المصدر السابق، ص ٢١٣-٢٣٩

٢٣. المصدر السابق، ص ٢٣٥

٢٤. المصدر السابق، ص ٢٣٧

٢٥. المصدر السابق، ص ٢٤٠-٢٦٧

٢٦. المصدر السابق، ص ٢٤٠

٢٧. المصدر السابق، ص ٢٤٠-٢٤١

٢٨. المصدر السابق، ص ٢٤٧

٢٩. المصدر السابق، ص ٢٤٤

بالرغم أن كان لديه إدراك عن الأصول الثلاثة هي الإيمان بالله والنبوة واليوم الآخر وإنما سعادة الآخرة بالتقوى، أنه أدرك أن قلبه معلق بشواغل الدنيا ومنغمس فيها إذ يقول "ثم إنني تفكرت في نيتي في التدريس، فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت، وتيقنت أنني على شفا جرف هار"^{٣٠} وعزم مغادرة بغداد فتدخل الشيطان، وتمتم في نفسه فقال له "فإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه.....ولا يتيسر لك المعاودة"^{٣١}. فلم يزل يتردد بين شهوات الدنيا ودواعي الآخرة "قريبا من ستة أشهر أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربع مائة، وآخرها ذو الحجة"^{٣٢}. فاضطرب قلبه وضعف قواه وسئم من تناول الطعام والشراب "حتى قطع الأطباء طعمهم في العلاج"^{٣٣} والتجأ إلى الله.

فغادر للشام بعد أن ترك قدر الكفاف من المال لأهله وبينه. وأقام فيها قريبا من السنتين في الخلوة والرياضة والمجاهدة. واعتكف مدة في مسجد دمشق، ثم رحل إلى بيت المقدس^{٣٤}. كان يدخل الصخرة كل يوم ويقضي فيها بعد أن أغلق بابها. ثم قصد مكة لفريضة الحج والمدينة لزيارة الرسول صلعم، ثم إلى الحجاز.

ثم رجع إلى وطنه، رغم أن قد ألحته ضرورات المعيشة، أنه اختار له الخلوة في معظم أوقاته، لتصفية القلب. وإن التجارب من خلال هذه المدة غرست في نفسه يقينا أنه "أن الصوفية هم السالكون في طريق الله تعالى خاصة.....وطريقهم أصوب الطرق"^{٣٥}. وأدرك أيضا أن "من لم يرزق منه شيئا بالذوق ليس يدرك من حقيقة النبوة إلا الاسم، وكرامات الأولياء، هي على التحقيق بدايات الأنبياء"^{٣٦}. ثم يبين عن ثلاث درجات من الادراك فهي العلم والذوق والايمان

٣٠. المصدر السابق، ص ٢٤٩

٣١. المصدر السابق، ص ٢٥١

٣٢. المصدر السابق، ص ٢٥١

٣٣. المصدر السابق، ص ٢٥٢

٣٤. المصدر السابق، ص ٢٥٥

٣٥. المصدر السابق، ص ٢٥٧

٣٦. المصدر السابق، ص ٢٦٤-٢٦٥

إذ يقول "التحقيق بالبرهان علم، وملابسة عين تلك الحالة ذوق، والقبول من التسامح بالتجربة، وتجربة حسن الظن إيمان"^{٣٧}.

حقيقة النبوة

إلحاقا بالقيام بالتفصيل عن الطريقة الصوفية، يتناول حقيقة النبوة^{٣٨} وضرورة الاحتياج إليها الأمة البشرية. تقديمًا لذلك يتحدث عن تشكيل العقل وأبواب المعرفة المختلفة في الإنسان، ومن خلالها يعرف الكون الذي هو فيه وما فيه من ظواهر عجيبة. حقيقة "أن جوهر الإنسان في أصل الفطرة، خلق خاليا ساذجا لا خبر معه من عوالم الله تعالى"^{٣٩} فيبتدئ إدراكه عن العالم من خلال الحواس. بدءًا من حاسة اللمس، وتأتي بعدها حاسة البصر ثم السمع ويتبعه الذوق. عندما يتم السابع من عمره يدخل مرحلة التمييز حيث يتشكل العقل. ولم يكن ينته بهذا الحد. "فوراء العقل طور آخر، تتفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب"^{٤٠}. فهناك تقع مدركات النبوة، العقل معزول عنها كعزل قوة التمييز من إدراك المعقولات. هكذا، يبين الغزالي عن النبوة ومدركاته في بني الإنسان. وعلى حد قوله إنما يدرك بالذوق من سلوك طريق التصوف"^{٤١}.

العودة إلى التعليم

وفي الفصل الأخير يصرح سبب عودته^{٤٢} إلى نشر العلم بعد أن أعرض عنه سنوات. وقد كان مواظبا على العزلة والخلوة تقريبا عشر سنوات^{٤٣}. أولا، هو يشارك مع القراء بعض أفكاره

٣٧. المصدر السابق، ص ٢٦٦

٣٨. المصدر السابق، ص ٢٦٨-٢٧٨

٣٩. المصدر السابق، ص ٢٦٨

٤٠. المصدر السابق، ص ٢٦٩

٤١. المصدر السابق، ص ٢٧٢

٤٢. المصدر السابق، ص ٢٧٩-٣٠٨

٤٣. المصدر السابق، ص ٢٧٩

وهو في خلوته. إن الإنسان ممزوج بالقلب والجسد. أما الجسد فهو يشارك فيه الإنسان والحيوانات معا، لكن القلب يخص به فقط الإنسان. فهو "حقيقة روحه التي هي محل معرفة الله"^{٤٤}. إن أدوية القلوب هي العبادات التي تأتي من جهة النبوة. فالأنبياء لأمرض القلوب كالأطباء لأمرض البدن. وإن العبادات فهي أنواع ولها مقدار كما لأدوية البدن من أنواع ومقدار.

ثم يبين ما بان له من أسباب فتور الاعتقادات وضعفها في أصل النبوة وهي أربعة^{٤٥}، أو أنه أدرك هذه الأسباب في أربعة أصناف من الناس. فهم الخائضون في الفلسفة أو في الطريق التصوف أو المنتسبون إلى دعوى التعليم أو المسومون بالعلم. ومن هؤلاء من يؤدون المفروضات الشرعية مع أفعالهم المحرمات أو هم المؤمنون ظاهرا، ويحتفظون الكفر في باطنهم، إذ يقول عن هؤلاء، "فلان من المشاهير بين الفضلاء لا يصلى وفلان يشرب الخمر، وفلان يأكل أموال الأوقاف..."^{٤٦}. ويزعم البعض من المتصوفين "أنه قد بلغ مبلغا ترقى عن الحاجة إلى العبادة"^{٤٧}. وهم يحملون بعضا من النظريات الفلسفية من كتب ابن سينا وأبي نصر الفارابي.

فإذا قيل لمن يمارس التناقض في أفعالهم وأقوالهم فمثلا "إن كانت النبوة غير صحيحة، فلم تصلي؟ فربما يقول لرياضة الجسد، ولعادة أهل البلد، وحفظ المال والولد. وربما قال الشريعة صحيحة والنبوة حق. فيقال له لم تشرب الخمر؟ فيقول إنما نهى عن الخمر لأنها تورث العداوة والبغضاء، وأنا بحكمتي محترز عن ذلك، وأنا إنما أقصد به تشحيد خاطري"^{٤٨}. ويبررون ما يفعلون ويقولون "حتى أن ابن سينا ذكر في وصية له أنه لا يشرب الخمر تلهيا، بل

٤٤ . المصدر السابق، ص ٢٧٩ بتصرف

٤٥ . المصدر السابق، ص ٢٨٢

٤٦ . المصدر السابق، ص ٢٨٣

٤٧ . المصدر السابق، ص ٢٨٤

٤٨ . المصدر السابق، ص ٢٩٠

تداويا وتشافيا"^{٤٩}. وهكذا " وقد عم الداء، ومرض الأطباء"^{٥٠}. ولم يلبث أن كان هو في الحالة المتحيرة هي إما بالبقاء في العزلة أو الإقبال على الناس لنشر العلم، حتى صادفه الأمر من قبل السلطة لمباشرة سلك التدريس في المدرسة النظامية في نيسابور. فشاور في الأمر مع أصحاب القلوب فباشر العمل "في ذي القعدة سنة تسع وتسعين وأربع مائة، وكان الخروج من بغداد في ذي القعدة سنة ثمان وثمانين وأربع مائة، وبلغت مدة العزلة إحدى عشر سنة"^{٥١}.

وقد ألحت به فكرة العودة أنه هل تقوم إعادة الرغبات الأرضية إليه؟، ولكن هذا الموقف يختلف تماما عما كان عليه من قبل، حينما كان في عملية التدريس، وبه كان يكسب الجاه، أما الآن فهو على يقين بدناءة الجاه. ويقترح أن يقرأ بعض كتبه لإزالة الشبهات حول الايمان بالنبوة. ويطرح سؤالاً لم أن النبوة لا تستحق أن تجوز الخاصية وكل شيء في هذه الكون خاصة وراء الطبيعية؟ "فهناك طور وراء العقل تتفتح فيه عين يدرك بها مدركات خاصة، والعقل معزول عنها، كعزل البصر عن إدراك الألوان، والسمع عن إدراك الأصوات، وجميع الحواس عن إدراك المعقولات"^{٥٢}. أما بالنسبة إلى ارتكاب العلماء بالذنوب والمحرمات فذلك لن يدل على أنهم على صحيح، كما ليس من مسوغ أبدا للطبيب الذي يتناول الأطعمة الضارة بصحة أفعاله المضرة.

المبحث الثالث: الاعتراف في 'المنقذ من الضلال'

لا منازع أن كتاب 'المنقذ من الضلال' هو اعتراف ديني في التراث العربي كما يعتبر 'الاعترافات' للقدس أوغسطينوس اعترافا دينيا في العالم الغربي. فأما قصد الغزالي من هذا الكتاب فهو - كما صرح في التوطئة - جوابا للسؤال أنه، كيف ارتفع عن حضيض التقليد إلى قمة الاستبصار. ومعنى ذلك أنه أراد به ليس فقط التعبير عن صراعات التي تجرب بها في سبيل

٤٩. المصدر السابق، ص ٢٩٠.

٥٠. المصدر السابق، ص ٢٨٩.

٥١. المصدر السابق، ص ٢٩٣.

٥٢. المصدر السابق، ص ٢٩٧-٢٩٨.

الوصول إلى الحقيقة، بل لاستفادة منه من يقرؤه ما فيه من سبل للتخلص من التيارات الفكرية المشوهة الباطلة والحصول على نور الله تعالى. ولذلك لم تكن توجد فيه أي إشارات عن طفولته أو نشوؤه أو عن أسرته أو إنجازاته العلمية. ولكن يمكن للقارئ المتحري العثور على العديد مما يتعلق بتشكيل شخصيته من بيئته الاجتماعية الغاصة بالمناقشات الفكرية آنذاك.

فالدكتور يحيى عبد الدائم أضمن هذا الكتاب تحت فئة 'الرغبة في اتخاذ موقف ذاتي في الحياة' حيث يتم التصوير للموقف الشخصي الذي اهتدى إليه صاحبه بعد طول بحث وتحري^{٥٣}. وهناك بعض الأعمال الأخرى في الأدب العربي القديم التي يمكن إدراجها ضمن هذه الفئة، ومنها ما كتبه عن نفسه كل من محمد بن زكريا الرازي في 'السيرة الفلسفية' والحارث المحاسبي في كتابه 'النصائح الدينية'^{٥٤} وغيرها. ولكن 'المنقذ' يختلف عن غيره من هذه الفئة بما أنه يحتوي على رحلاته الروحية وصراعاته العقلية في سبيل إدراك اليقين وبالتالي تم اكتشاف ذاته الحقيقية. أما محور هذا الكتاب فيدور فقط حول تعبير عن حلقات مخصصة من حياة السارد. فذلك ما يتعلق بحياته الفكرية العاطفية لا غير. وأنه لم يقم بتعبير عن ذكريات طفولته وما بها من ربط عاطفي مع والديه وأخرى من صراعات وتطلعات وما إلى ذلك.

الاعتراف الديني

فهذا الكتاب هو تصوير رحلة حياة الغزالي الدائبة والتجارب فيها حيث جعل يتجول طالبا حقيقة أسرار العلم وقاصدا التخلص من الأزمة الروحية التي غلبت عليه في إحدى المراحل المعينة من حياته الفكرية المضنية. وقد لاحظ بعض من الباحثين أن حياته الفكرية وصراعه الروحي القاسي الذي قام بتصويره في 'المنقذ' لها تشابه بتجارب القديس أوغسطينوس، كما صورها في كتابه الاعتراف. "بالرغم من اختلاف عصري كل من مفكرين الكبيرين (أوريليوس

٥٣. يحيى عبد الدائم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، دار الاحياء والتراث العربي، بيروت، ١٩٧٤، ص ١٠٣٥. بتصرف

٥٤. المرجع السابق، ص ٣٥. بتصرف

أوغسطينوس) قديس المسيحية، و(الغزالي) حجة الإسلام وزين الدين، فإن بين الرجلين تشابهها يكاد يكون عجيبا. تشابهها في الحياة الخاصة، وتشابهها في الحياة العامة وفي التفكير والابداع، حتى في الشخصية تكاد تلامس روحا واحدة في جسمين مختلفين "°°. وأما الفارق الرئيسي بينه وبين الغزالي فهو أن 'اعتراف لأوغسطينوس' قصة الصراعات الدائبة في سبيل تنقلاته من حياة غير الأخلاقية إلى الديانة المسيحية، وفي حين أن المنقذ فهو رحلة روحية وفكرية للغزالي من الشكوك إلى اليقين فيما يتعلق بحقيقة المعرفة الربانية.

جرأته على الاعتراف

أما الاعترافات فكانت ممارسة متبعة عند العرب في العصور ما قبل الحديث، وإن لم تكن تعرف بهذا الاسم. "فإن أكثرها ينصرف إلى معالجة ما يشغل نفس الانسان من مسائل روحية وفكرية"°°. بالنسبة للغزالي كانت في جبلته الجرأة للسير عكس تيار المجتمع السائد على حجة قاطعة المقتنعة له. فلذلك "لم يمنع الامام الغزالي من هذا الاعتراف مكانته الدينية ومكانة والده وأسرته وصحبته الصوفية، ولا خوف من نظرة المجتمع إليه أو تشكك الحكام فيه، ولم يخش بأسا من اعلانها أن يهتبل بها خصوم الاسلام ويطيرون بها كل مطار، وهكذا أصحاب النفوس الكبيرة"°°. فلا يوجد في سطور الكتاب أي من عوامل الخوف، بل سيطرت عليها الصراعات الفكرية. لأن الصراع إحدى المميزات للعباقرة. فهذا الصراع نفسه هو الذي دفعه إلى اليقين، فأما اليقين فيمثل الأمان والشجاعة.

الصراع في 'المنقذ'

يعترف الغزالي بما كان يلح به من صراع روحي في مختلف مراحل حياته. بالنسبة للباحث يمكن العثور على ثلاث صراعات في المنقذ. أما الأول فيبدأ ببحثه عن حقيقة الفطرة حيث يطلع على

٥٥. د. جواد علي، أوغسطينوس - الغزالي، مجلة الرسالة، العدد ٤٤٧، منقول من ويكي مصدر، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٢\٤\١٧

٥٦. يحيى عبد الدايم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، دار الاحياء والتراث العربي، بيروت، ١٩٧٤، ص ٣٦، بتصرف

٥٧. مقدمة لكتاب المنقذ من الضلال للغزالي، تحقيق: محمد محمد أبو ليلة، د نورشيف عبد الرحيم رفعت، نشر جمعية البحث في القيم والفلسفة،

واشنطن، الولايات المتحدة الأمريكية، ص ٥٨

الحسيات والضروريات والعقليات وما وراءها من طرق المعرفة، والثاني منها عندما تم العزم مغادرة بغداد للتذوق والتجرب بالطريقة الصوفية، فالصراع الأخير يحدث حين يعود إلى نشر ما علم وتيقن من معارف بعد أن بقي في العزلة. وهو يقول عن صراعه الأخير، "ثم قلت في نفسي متى تشتغل أنت بكشف هذه الغمة ومصادمة هذه الظلمة، والزمان زمان الفترة، والدور دور الباطل، ولو اشتغلت بدعوة الخلق عن طريقهم إلى الحق، لعادك أهل الزمان بأجمعهم، وأنى تقاومهم؟ فكيف تعايشهم، ولا يتم ذلك إلا بزمان مساعد، وسلطان متدين قاهر؟"^{٥٨}. فكل صراع يمثل مرحلة مهمة في الكشف عن الحقيقة. وقد تغلب على هذه الصراعات وانتصر عليها - كما يلاحظ^{٥٩} محقق الكتاب في مقدمته - بشجاعته وصدقه التام مع الله ومع النفس ومع الناس.

تحليل الشخصية

إن من مميزات كتابات المتصوفين فهي اهتمامهم على تحليل شخصياتهم الروحية وتطورها نحو الكمال الإلهي. وأما كتاب المنقذ للغزالي فهو ليس تحليل الشخصية المحض من فرضية الكشوف الذاتية للمتصوفين فحسب، بل ينبثق من آفاق المعارف العصرية السائدة التي تضم العقليات وما وراءها. فيقوم بتحليل شخصيته من حيث تطورها الروحية والعلمية والعقلية. وفي الوقت نفسه أن هذا الكتاب لا يقوم بتحليل خصلات شخصيته وسلوكياته الخاصة وتكوين ذاته من منظور نفسي، بل هو محاولة فطرية لاكتشاف الذات من خلال الوعي الإلهي الحقيقي الذي يتجاوز الحواس.

٥٨. أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال (مقدمة)، تحقيق: محمد محمد أبو ليلة، د نورشيف عبد الرحيم رفعت، نشر جمعية البحث في القيم والفلسفة، واشنطن، الولايات المتحدة الأمريكية، ص ٥٨-٥٩

٥٩. المصدر السابق، ص ٢٨٩-٢٩٠

غايته من الاعتراف

إن من الواضح أن الغزالي قام بتأليف الكتاب بعد أن وصل إلى الحالة المتزنة قلبيا وروحيا، وذلك بعد أن مر بتجارب عملية حقيقية بوعي ذاتي ويقظة ذهنية حتى استكشف له حقيقة الحياة واستقر اليقين في نفسه. ولكنه مع ذلك أنه جدير بالملاحظة أنه تتوق في نفسه عطش إلى التعبير عن هذه السبل التي مر بها في سبيل التحري باليقين الإلهي. فيمكن للباحث الافتراض أنه، من خلال مثل هذا الاعتراف أن الغزالي كان قادرًا على نقل الحقيقة التي اقتنع بها، للآخرين فحسب، بل كانت تتم أيضًا عملية تطهير النفس من صراعاته العاطفية على شكل كامل.

الخاتمة

خلاصة القول، إن 'المنقذ من الضلال' هو كتاب في الاعتراف الديني حيث عبر فيه الغزالي عن صراعاته الروحية التي عانى منها في سبيل إدراك الحقيقة الربانية. وتيقن بعد أن تجرب التدوق من خلال الرياضية الصوفية والمجاهدة أنه لن يدرك الحقيقة الربانية إلا بالنور الإلهي، وذلك أمور مما يتجاوز الحسيات والضروريات والعقليات. رغم أن هذا الكتاب لا يقوم بمعالجة حياة الكاتب العاطفية الأخرى، أنه يتضمن تحليل شخصية الكاتب من حيث تطورها الروحية والعقلية والعلمية. ومما يجدر بالملاحظة، أنه قام بتأليفه لكي يستفيد لاحقوه من تجاربه الروحية في سبيل إدراك الحقيقة. وفي الوقت نفسه أنه من المفترض، حتى أن الاعتراف عن تلك الأزمات بعد الوصول إلى اليقين أيضا من متطلبات الفطرة البشرية لاستعادة التوازن الداخلي الحقيقي. أما الاعتراف العلماني الذي يقوم الباحث بالتحليل بصده، فهذا الكتاب بعيد عن مثل تلك التعبيرات العاطفية والمكاشفة. فالجدير بالذكر، أنه يقوم بالاعتراف فهو فقط في الأمور فيما يتعلق بموقفه من الحياة التي تيقن له من البحث والاطلاع الدائبة الغاصة بالصراعات النفسية والروحية.

الفصل الثاني

'التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا'- ابن خلدون

البيانات الوصفية

اسم الكتاب	: 'التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا'
المؤلف	: عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي (١٣٣٢-١٤٠٦ م)
سنة التأليف	: ما بين ١٤٠٦-١٤٠٧ ميلادية \ ٨٠٧-٨٠٨ هجرية
تحقيق الكتاب	: محمد بن تاويت الطنجي
الناشر	: دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر
تاريخ النشر والطبعة	: الطبعة الأولى - ٢٠٠٤ م

المقدمة

'التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا' هو كتاب في سيرة بن خلدون التي وضعها ذيلًا أو ملحقًا لكتابه الشهير 'العبر'. وذلك حوالي سنة ٧٩٧ هجرية اثناء إقامته في القاهرة^١. فقد تم ترتيب كتاب العبر في سبع مجلدات في ثلاثة كتب^٢. فالمجلد الأول هو الكتاب الأول. أما 'مقدمة ابن خلدون' هو جزء من الكتاب الأول. والكتاب الثاني يضم كل من مجلدات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة. فمحور الكتاب الثالث هو تاريخ مغرب. يحتوي على المجلد السادس والسابع. وكتاب 'التعريف' هو الجزء النهائي للمجلد السابع. وهو "لم يظهر بشكل مستقل حتى سنة ١٩٥١ م، وذلك بجهود العالم المغربي محمد بن تاويت الطنجي المتوفى سنة ١٩٦٣ م"^٣. وجاء الكتاب تحت عنوان 'رحلة ابن خلدون'.

١. ناصف نصار، الفكر الواقعي عند ابن خلدون، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط ١، ١٩٨١، ص ٢٠.

٢. د. مسعود عمشوش، ابن خلدون وفن السيرة الذاتية، راجع المقال على الموقع الانترنت: <https://alsard.wordpress.com/2011/11/05/ابن-خلدون-وفن-السيرة-الذاتية/>، تاريخ الاسترجاع ٢٠٢٢\٨\٦

٣. رحلة ابن خلدون، راجع على موقع الانترنت: https://albordj.blogspot.com/2014/03/blog-post_18.html، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٢\٦\٧

أما عبد الرحمن بن خلدون صاحب هذا الكتاب فهو مؤرخ عربي بارز وفيلسوف وسياسي وعالم الاجتماع في القرن الرابع عشر. كانت ولادته بتونس في أول رمضان سنة ٧٣٢هـ، وآخر مايو سنة ١٣٣٢ م^٤، في عائلة أندلسية نبيلة ذات نفوذ. تلقى ابن خلدون مبادئ العلوم من أبيه وفقا للممارسة المعتادة السائدة آنذاك. تبحر في متعدد العلوم والمعارف تتراوح بين الشريعة الاسلامية والعلوم الاخرى من فلسفة وعلم التاريخ وعلم الاجتماع، حتى أصبح عبقريا موسوعيا. "فهو المؤسس الأول لعلم الاجتماع، وإمام ومجدد في علم التاريخ، وأحد رواد فن الأتوبيوغرافي، فن الترجمة الذاتية"^٥. حظي بثقة السلاطين والملوك وتولى مناصب حكومية عدة واكتسب منها خبرة قيمة في السياسة والدبلوماسية. وله اسهامات غير مسبوقة في علوم إنسانية أخرى من علم النفس التربوي وسلوكيات بشرية أخرى متنوعة.

بدأ ابن خلدون حياته المهنية كاتب 'العلامة' عن السلطان أبي إسحق الحفصي. وذلك كان في عام ٧٥٢ هجرية وهو دون العشرين من عمره. ثم عهد إليه أبو عنان في قصره بفاس مهمة الكتابة والتوقيع عام ٧٥٦ هـ، وبعد وفاته تم تعيينه كاتب السر في قصر السلطان أبي سالم في عام ٧٥٦ هـ. وكذلك احتل مناصب عند السلطان بني الأحمر صاحب غرناطة، وبعد ذلك سفيرا عند ملك قشتالة في عام ٧٦٥ هـ. وفي سنواته الأخيرة من حياته تولى منصب القضاء في مصر عدة مرات. وشغل مناصب تدريسية في مدن مختلفة، مثل القاهرة.

بالرغم من أنه أدى هذه المهام بكل براعة ورؤى قيمة، أنه عرض لتهمة المؤامرة ضد الحكام والسلاطين حتى حكم عليه بالسجن. وذلك كانت لمشاركته في الانقلابات السياسية وما كان فيه من روح المغامرة والشخصية الصلبة. ومن خلال هذه الأوقات المضطربة تمكن له من التنقل إلى مناطق أكثر أمنا وواصل مساعيه العلمية فيها حيث استمر صقل أفكاره حول التاريخ وعلم الاجتماع وأداء مشروعه الضخم أو تأليف كتاب 'العبر' مع 'المقدمة' الشهيرة.

٤ . طه حسين، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية تحليل ونقد، تعريب من الفرنسية: محمد عبد الله عنان، لجنة الترجمة والنشر، مصر، ١٩٢٥، ص ١١
٥ . ابن خلدون سيرة.. ومسيرة، راجع مقال على موقع الانترنت: (/ابن-خلدون-سيرة-ومسيرة/https://islamonline.net/archive/، تاريخ الاسترجاع: ٢٦٧٧

كانت البراعة السياسية منطبعة في شخصية ابن خلدون وراثيا. كانت أسرته دائما متصلة ببلاط السلاطين والأمراء منذ بداية التاريخ المعروف جذورها. ويلاحظ طه حسين بإخضاع شخصية بن خلدون للتحليل أهمية العوامل الوراثية في تشكيل شخصية الانسان، ويقول "أن للوراثة دخلا كبيرا في المعارك السياسية التي خاض مؤلفنا غمارها"^٦ خلف ابن خلدون مساهمات قيمة في شتى ميادين العلوم. ومن أهم أعماله كتاب 'العبر'. وبجانب هذا كان له عدة قصائد وأعمال غير مطبوعة.

أما عنوان الكتاب^٧ فكان في أول الأمر 'التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب'. كانت قد احتوت فيه أحداث حتى الوقت الذي غادر فيه تونس لمصر بداية عام ٧٩٧هـ. ولما استقر في مصر بدأ يقوم بتنقيح الكتاب وأضاف إليه ما من أحداث حتى نهاية عام ٨٠٧ هجرية. وبعد ذلك عاش ابن خلدون بضعة أشهر فقط. فتم نشره كتابا مستقلا بالعنوان النهائي هو 'التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا'. وقد رسم فيه الكاتب حياته العلمية والفكرية وجهوده المهنية وما يتعلق بها من مساع سياسية ورحلات وصراعات شخصية بدءا من طفولته حتى الفترة قبل أن أدركته المنية.

المبحث الأول: المحاور الرئيسية والقيمة التاريخية والأدبية

يوفر هذا الكتاب فهما شاملا لحياة ابن خلدون ورحلاته وتجاربه الشخصية والفكرية والسياسية. وهو يشمل المحاور الرئيسية التالية:

- تأملات ذاتية: يتضمن هذا الكتاب صراعات ابن خلدون الشخصية وتجاربه وتأملات في أسرته ونسبه، وكذلك صورة خارجية حول تكوين شخصيته العلمية ودوافعه في الأمور.

٦. د. طه حسين، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية تحليل ونقد، تعريب: محمد عبد الله عنان، لجنة الترجمة والنشر، مصر، ١٩٢٥، ص ١٠.
٧. عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي، رحلة ابن خلدون، تحقيق: محمد بن تاويت الطلنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٤، ص ٢٠، بتصرف.

- الرحلة الفكرية: يرسم هذا الكتاب الخلفية التعليمية لابن خلدون ورحلاته الدائبة في البلاد حيث اتسعت آفاقه العلمية والفكرية حتى أدت إلى تأليفات الكتب القيمة.
- الرحلة السياسية: هذا الكتاب تجسيد رائع لانعطاف الشرق والغرب حيث قام برحلات عدة إلى مصر وسوريا وشمال إفريقيا، كما تمت التفاعلات مع الحكام والملوك والعلماء والثقافات.

هذا الكتاب هو تنمة للتراث السابق في كتابة الذات. ولذلك، ينبغي أن تكون هناك تأثيرات فلسفية وأدبية، لما أنه تم وضعه ذيلًا لكتابه 'العبر'. وقد تأثر ابن خلدون بمجموعة هائلة من الأدب والعلوم والحكم السائدة في ذلك العصر. منها التاريخ اليوناني والروماني، وعلم الكلام والفقه الإسلامي، والفلسفة اليونانية، والتقاليد الأدبية العربية.

القيمة التاريخية والأدبية

يُعتبر كتاب 'التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا' مرجعًا تاريخيًا وأدبيًا هامًا، حيث يجمع بين السيرة الذاتية لابن خلدون ووصف رحلاته وتجاربه. يحتل هذا الكتاب قيمة تاريخية، بما أنه يحتوي على صورة بيّنة للانقلابات السياسية فيما يتعلق بشخصيته، كما أن له أهمية أدبية لأنه ثري بأشعاره من عند نفسه، علاوة على ذلك أن هذا الكتاب ظهر في وقت لم يكن فيه أدب السيرة الذاتية يعتبر جنسًا أدبيًا متميزًا. وبعض من الأدباء والنقاد اعتبروه في خانة أدب الرحلات^٨، والآخرين عده أول سيرة ذاتية في الأدب العربي القديم. و"يعتبر علي عبد الواحد وافي وطه حسين أن ابن خلدون (ت ١٤٠٦ م - ٨٠٨ هـ) هو الأول"^٩.

٨. التعريف بابن خلدون بين السيرة والرحلة، مقال على موقع الانترنت (التعريف-بابن-خلدون-بين-السيرة-والرح / <https://www.alquds.co.uk>)، تاريخ الاسترجاع: ١٦ مايو ٢٠٢٢.

٩. دويت ف رينولدز ترجمة النفس (تحرير)، السيرة الذاتية في الأدب العربي، ترجمة: سعيد الغانمي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة)، أبو ظبي، ط ١، ٢٠٠٩، ص ١٠٩.

على الرغم من أن الكتابة عن الذات كانت ممارسة متبعة بين الأدباء والعلماء العرب بعد القرن التاسع الميلادي، لم يسبق ابن خلدون أحد في تمثيل الذات على مثل هذه الشمولية. وقد حاول العديد من السالفين الكتابة عن أنفسهم في أشكال مختلفة إما ملحقاً بكتبهم التاريخية أو منفصلة تماماً. "ومن الأدباء والمؤرخين الذين ترجموا أنفسهم ياقوت الحموي في كتابه 'معجم الأدباء' ولسان الدين ابن الخطيب معاصر ابن خلدون وصديقه في كتابه 'الإحاطة في أخبار غرناطة' ومعاصره الحافظ ابن حجر في كتابه 'حسن المحاضرة'. ولكن هؤلاء الجميع يضعون عن أنفسهم تراجم موجزة. أما ابن خلدون فهو أول مفكر مسلم يخصص لنفسه ترجمة مستفيضة تشغل كتاباً بأسره"^{١٠}. ويمكن للباحث الافتراض بأن لهذا الكتاب قيمة في الدائرة الأدبية بمراعاة طبيعة التمثيل الأدبي لتلك الفترة، كما كان له من قيمة تاريخية لما أنه سجل تاريخي لعصر الذي عاش فيه صاحب السيرة. خلاصة القول، إن هذا الكتاب، خلاصة لمسيرة حياة ابن خلدون وفكره، الذي تم وضعه ذيلاً لكتابه العبر. فهو جسر بين التقاليد الفكرية الإسلامية والغربية.

المبحث الثاني: تصوير الذات في 'التعريف بابن خلدون'

تبتدئ سيرة ابن خلدون بذكر أصل بيته ونسبه وسلفه في الأندلس وإفريقيا^{١١}. فتاريخ جذور أسلافه يرجع إلى إشبيلية وانتقل أسلافه منها إلى تونس في أواسط المائة السابعة^{١٢}. أما تسمية خلدون ترجع إلى جده الأكبر خالد. كان في جند اليمانية سافر إلى الأندلس وأقام في مدينة قرمونة. ثم يتحدث عن نشأته في تونس ومشيخته وأحواله^{١٣} حيث بدأ يقرأ القرآن من مشايخ بلده وتبحر في القراءات السبع وتعلم صناعة العربية والفقهاء وحفظ الأشعار الستة، وسمع منهم أمهات الكتب العديدة.

١٠. محمد عبد الله عنان، بن خلدون حياته وتراثه الفكري، مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٥٣، ص ١٤٤-١٤٥.
١١. عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي، رحلة ابن خلدون، تحقيق: محمد بن تاويت الطلنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٤، ص ٢٧-٣٥

١٢. المصدر السابق، ص ٢٧، بتصرف

١٣. المصدر السابق، ص ٣٦-٦٣

وفي سنة ٧٤٨ قدم إليهم جماعة من أهل العلم في جملة السلطان أبي الحسن. ومنهم كاتب السلطان هو أبو محمد عبد المهيم فأخذ منه شتى الفنون. وفي جملتهم شيخ العلوم العقلية، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الأبلي، وعديد من العلماء الآخرين معه في إفريقيا وتلمسان، فلازمهم وأخذ منهم. وقد أورد في هذا الفصل كثيرا من العلماء وعن أصولهم وعن تحقيقهم وتبحرهم في العلوم المختلفة ببعض من التفصيل. وفي هذه الفترة "كان مكبا على تحصيل العلم، حريصا على اقتناء الفضائل، متنقلا بين دروس العلم وحلقاته. في سنة ٧٤٨هـ وقع الطاعون الجارف. ذهب بالأعيان، والصدور، وجميع المشيخة حتى هلك أبواه^{١٤}.

الحياة العامة والنكبة

سنت له الفرصة من قبل أبي محمد بن تباركين المستبد على الدولة يومئذ بتونس لكتابة العلامة^{١٥} للسلطان أبي إسحق وهو دون العشرين من عمره. وبعد ذلك يرحل إلى المغرب للحاق بالمشايخ والفضلاء الذين سبق مغادرتهم إليها. وفي غضون هذه السطور يستطرد الحديث عن التقلبات السياسية كل من تلمسان وتونس وبجاية وفاس. ويتم توليته للكتابة عن أبي عنان. استمر ابن خلدون بجانب السلطان أبي عنان منذ سنة ٧٥٦هـ، حتى تكدرت الأحوال معه حين أدرك أن بين ابن خلدون وبين الأمير محمد، صاحب بجاية المخلوع، مداخلة، فحبسه مع الأمير في صفر سنة ٧٥٨هـ^{١٦}. وغادر أبو عنان لفاس. فقد وعد بإطلاق سراحه لكنه مات في غضون بعض من الأيام. فأطلق سراحه من قبل الوزير الحسن بن عمر. وذلك كان في ذي الحجة سنة ٧٥٩هـ^{١٧}. واضطر ابن خلدون البقاء معه بوجوه من الإكرام.

١٤. المصدر السابق، ص ٦٥، بتصرف

١٥. المصدر السابق، ص ٦٥

١٦. المصدر السابق، ص ٧٣

١٧. المصدر السابق، ص ٧٣

كتابه عن سلطان أبي سالم

حظي بنفوذ عند السلطان أبي سالم فعينه لكتابة سره. ثم ولاه خطة المظالم^{١٨}. لما تغلب الأمير عبد الله على الأمر أقره على ما كان عليه^{١٩}. لما وقعت الكراهية والنفور بينه وبين الأمير، أذن له الانطلاق إلى ما يريد من الوجهة، فاختار الأندلس^{٢٠}.

جولته في البلاد

استمر ابن خلدون جولته في البلدان المختلفة واتصل بحكامها واحتل بمناصب ملكية كل من مختلف بلدان الأندلس والمغرب حتى استقر في نهاية مطافه في مصر وأقام فيها حياته المتبقية حتى أدركته المنية في القاهرة. وفي سنة ٧٦٤هـ، رحل ابن خلدون إلى الأندلس^{٢١} يبعث أهله إلى قسنطينة، واتصل بابن الأحمر ملك غرناطة ووزيره ابن الخطيب. وفي العام المقبل أو بالأحرى سنة ٧٦٥هـ، سافر إلى "الطاغية ملك قشتالة يومئذ، بطره بن الهندش ابن أذفونش لإتمام عقد الصلح ما بينه وبين ملوك العدو"^{٢٢}. ولقي أيضا الطاغية إشبيلية، وهي أرض أسلافه الأوائل، واستقدم أهله بقسنطينة إليه. وفي الوقت نفسه وقع الانقلاب بينه وبين الوزير ابن الخطيب تهمة على أن له ملابسة بالملك واشتماله عليه^{٢٣}، وبينما هو كذلك، استدعاه السلطان أبو عبد الله صاحب بجاية^{٢٤}. فرحل إليها وتم توليته الحجابة عنده. ثم ارتحل إلى بسكرة^{٢٥} وأقام عند أميرها أحمد بن يوسف بن مزني. وفي حين أنه قد تم مشايعة أبي حمو صاحب تلمسان وعرض عليه أبو حمو الحجابة، ولكنه بعث إليه أخاه 'يحيى' نائبا عنه في

١٨. المصدر السابق، ص ٨٠.

١٩. المصدر السابق، ص ٨١.

٢٠. المصدر السابق، ص ٨٢.

٢١. المصدر السابق، ص ٨٣-٩٣.

٢٢. المصدر السابق، ص ٨٥.

٢٣. المصدر السابق، ص ٩٠-٩١، بتصرف.

٢٤. المصدر السابق، ص ٩١.

٢٥. المصدر السابق، ص ٩٨.

الوظيفة^{٢٦}. وذلك كان لما أن له رغبة في المطالعة والتدريس وإعراضا عن أحوال الملوك. ويستفيض أيضا الحديث عما كان له من مشايعة السلطان عبد العزيز ملك المغرب^{٢٧}.

قصد ابن خلدون إلى الأندلس من جديد، ثم إلى المغرب و"نزل بأهله في قلعة ابن سلامة بين أحياء أولاد عريف من بلاد بني توجين، وأقام بها أربعة أعوام. وانقطع هذه المدة لتأليف الكتاب منشغلا عن جميع شواغل أحوال الملوك. فأكمل 'مقدمة' لكتابه الشهير 'العبر' منه^{٢٨}.

بينما كان في القلعة عاكفا على المطالعة والتأليف والتنقيح أصاب له مرض على الثنية رغب في الرجوع إلى السلطان أبي العباس بتونس حيث كان مسكن آباءه وآثارهم^{٢٩}. وأقام عند السلطان واشتغل في تأليف الكتاب وأكمل أخبار البربر وزناته وقدم نسخته في خزائنه ومدح السلطان في قصيدة^{٣٠}. وفي حينئذ قد كانت شهدت القلعة لأضطرابات سياسية فاستأذن للسلطان لتخليته في سبيله لقضاء مهمته الشخصية، وتم الاذن من قبل السلطان^{٣١}.

قضاء مصر

وفي سنة ٧٨٤ غادر ابن خلدون تونس إلى مصر^{٣٢} واتصل بسلطان البلد وحظي بثقته. وسنحت له الفرصة لمباشرة سلك التدريس والقضاء في مصر. وفي منتصف رمضان عام ٧٨٩ هـ غادر القاهرة إلى مكة^{٣٣} قاصدا لفريضة الحج. وبعد قضائها عاد إلى مصر. وانقطع نفسه للنشاطات التدريسية واطلاع على الكتب. فهذه السيرة تحوي أحداث حياة الكاتب حتى عام

٢٦. المصدر السابق، ص ٩٩

٢٧. المصدر السابق، ص ١٢١-١٧٨

٢٨. المصدر السابق، ص ١٨٨-١٨٩، بتصرف

٢٩. المصدر السابق، ص ١٨٨-١٩٠، بتصرف

٣٠. المصدر السابق، ص ١٩٠-١٩٨.

٣١. المصدر السابق، ص ١٩٨-١٩٩ بتصرف

٣٢. المصدر السابق، ص ١٩٩

٣٣. المصدر السابق، ص ٢٠٩.

٨٠٧هـ. ولم يعيش بعد ذلك إلا بضعة شهور فقط. فهو يختم السيرة بذكر ولايته للقضاء وخلعه عليه^{٣٤} عدة مرات حيث كان قد تم عزله عن المنصب حين ذهب للقاء السلطان تمر، ولكن بعد رجوعه مصر قد تحسنت الأحوال وتمت إعادته في المنصب. وكذلك انتهى الأمر إلى إعادة تعيينه في المنصب خمس مرات.

المبحث الثالث: الاعتراف في 'التعريف بابن خلدون'

وإذا قام الباحث بنظرة ثاقبة في حياة ابن خلدون الشخصية وتجاربه، يمكن أن يرى أنها حافلة برحلات فكرية ومساع سياسية، فعلا كانت له شتى العلاقات مع مختلف الحكام والعلماء في عصره. فلا دخل لجدال فيها أنه قد واجه تحديات أكثر مما عسى أن يواجهها الفرد في حياته بأجمعها، وقد تحوينا ليس فقط الانتصارات الشخصية، بل بعض من الإحباطات وانعكاساته عليه من المجتمعات وأصحاب الملوك والسلطين التي تعامل معهم. وبالتالي إن من الطبيعي، أن توجد هناك مواد عاطفية مكبوتة في نفسه التي يجب أن تعترف وتحتاج إلى التهوية. وعلى الرغم من أنه يمكن القول إن سيرته شاملة تقريبا بمعنى أنها تغطي جميع مراحل حياته، أنها تفتقر إلى المراجع عن حياته العاطفية، بل أنه تم تركيزه على الأحداث الخارجية. وأما المراجع عن الصراعات التي حدثت طوال مسيرة حياته فوردت فيها سطحية تماما. ولذلك قد ينتهي البحث عن مثل هذه المراجع إلى شيء من خيبة أمل.

فهنا جديرة بملاحظة ناصف نصار على "أن مشروعه ليس مشروع فحص ضمير واعتراف وكشف عن خصوصية ذاته"^{٣٥}. فهو يستدل لذلك على طبيعة هذا الكتاب حيث تم وضعه ذيلا لكتاب 'العبر'، هو كتاب في التاريخ، فإنه من الطبيعي أن تختلف مهمة المؤرخ وكتاب السيرة في لها. أما طه حسين فيقول "إن ما يسيطر عند ابن خلدون هو فكرة 'الأنا'^{٣٦}. فهذه

٣٤. المصدر السابق، ص ٢٩٩-٣٠٠.

٣٥. ناصف نصار، الفكر الواقعي عند ابن خلدون، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط ١، ١٩٨١، ص ٢١.

٣٦. المرجع السابق، ص ١٨.

هي الأنا الظاهرة، وليست 'الأنا' الاستبطانية أو الاعترافية أو المبدعة. فمن المتضح أنه "يفتقر الوعي 'التعريفي' إلى الاعتراف الصريح بوضعه كذات. ولو حصل هذا الاعتراف لاندمجت الأنا الظاهرة وتوحدت تماما مع الأنا المبدعة"^{٣٧}.

بالرغم من أن ابن خلدون لم يصرح بدافعه في تأليف سيرته، تقدم الباحثون الذين درسوا خصلات شخصيته والصراعات التي مر بها والسياق الذي اختاره لتأليفه، بملاحظات عن دوافعه في وضع سيرته. أضمن إحسان عباس سيرة ابن خلدون في فئة حيث يقوم الكاتب بوضعه للتفسير والتعليل والاعتذار والتبرير^{٣٨}. ويلاحظ أنه ألفه تبريرا وتفسيرا^{٣٩} لما وقعت في حياته من اضطرابات وصراعات، ودفاعا عن نفسه حيث يصور فيه شهرته ومنزلته التي كانت له في الحياة السياسية والاجتماعية. يقول طه حسين أن ابن خلدون "لم يكتب سيرته الذاتية إلا بدافع الرغبة في التحدث عن نفسه، وفي إظهار نفسه"^{٤٠}.

فيمكن الافتراض أن الدافع الرئيسي الذي أوصله إلى تأليفه هو الدفاع عن النفس من جميع المؤامرات والاتهامات ضده حيث وضع هو نفسه على قمة المجد العلمي وألحقه بكتابه 'العبر' إكمالا له. ومما يمكن الملاحظة أيضا أنه من خلال هذا الدفاع عن النفس ستحدث ضمنيا عملية التنفيس من كل أعبائه العاطفية التي كان يتوق التخلص منها.

تعبير عن الطفولة والمراهقة

إن الطفولة والمراهقة هما مرحلتان من مراحل حياة الانسان الحرجة. فالحياة العاطفية في تلك الفترة تلعب دورا هاما في تشكيل شخصية الانسان وتوجيهه مواقفه وميوله واتجاهاته تجاه الحياة وما فيها من مظاهر متعددة. أما بالنسبة لابن خلدون فهو ابتعد عن مثل هذه

٣٧. المرجع السابق، ص ٢٠.

٣٨. إحسان عباس، فن السيرة، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ط١، ١٩٩٦، ص ١١٨.

٣٩. المرجع السابق، ص ١٢٣.

٤٠. المرجع السابق، ص ١٨.

المراجع في ترجمته عنها. يقول الدكتور طه حسين عن هذا الجانب أنه "لم يقل لنا في ترجمته شيئاً عن تربيته الحقيقية بل التزم الصمت التام إزاء أحداثه وحياته العائلية، على أنه عني بالإفاضة في تعلمه في الكتب التي درسها في مختلف العلوم التي كانت تدرس حينئذ في تونس"^{٤١}. ويمكن الملاحظة أن جميع الصراعات العاطفية في حياة الشخص ونمط موقفه منها تكون متجذرة في تجارب طفولته. فإن هذا الكتاب مفتقر تماماً إلى هذا الجانب المهم في السيرة الذاتية.

ويمكن هناك عدة عوامل نفسية وثقافية قد تفسر عدم الخوض في المواد العاطفية، بالإضافة إلى تأثير طبيعة تمثيل الذات الأدبي في فترات تاريخية معينة. كما يمكن أن تؤثر التجارب المبكرة، مثل الحرمان العاطفي أو القيود على الحرية، وعلى قدرة الفرد على التعبير عن المشاعر. ومثل هذه التجارب قد تؤدي إلى صراعات عاطفية في وقت لاحق من الحياة. وفقاً لنظرية التحليل النفسي الكلاسيكية، التي قدم بها سيغموند فرويد أنه قد توجد هناك عديد من الآليات النفسية يستخدمها الإنسان لحماية نفسه من المشاعر المؤلمة، تعرف بالآليات الدفاعية (Defence Mechanism)، وكذلك دوافع قوية أخرى التي تعمل موجهها مهمنا في شخصيته أو عوامل ثقافية أو دينية أخرى.

تعبير عن الصراع

إنه مما يثير اهتمام الباحث أنه يذكر ابن خلدون في سيرته عن فواقع متعلقة به وبأهله. كانت حياة ابن خلدون مليئة بالصراعات. ومع ذلك أنه حصل على فرص وافرة لاكتساب المعارف الدينية والعصرية من الأساتذة الكبار الذين كانوا من جملة الحكام والسلاطين. وقد كانت بدأت المأساة تطارده وهو كان في السادسة عشر من عمره. وفي سنة ٧٤٨ هـ وقع في بلده الطاعون الجارف، فهلك فيه أبواه وتقريباً جميع أساتذته. وفي سنة ٧٥٨ هـ وقع في الحبس سنتين

٤١. طه حسين، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية تحليل ونقد، تعريب من الفرنسية: محمد عبد الله عنان، لجنة الترجمة والنشر، مصر، ١٩٢٥، ص ١١

من قبل السلطان أبي عنان. وفي حادثة أخرى غرق أهله وأولاده في سفينة قادمة من تونس. وقد تم العزل من منصب القضاء في مصر عدة مرات بأسباب مختلفة، والصراعات الأخرى المتعلقة بعدة تقلبات في الأندلس وتونس والمغرب.

وفي حين أن جميع هذه الأحداث مؤثرة عاطفياً تماماً، وأنها يمكن أن تؤدي طبيعياً إلى اضطرابات عاطفية لصاحبها، بل يبدو أنه يعرض هذه الأحداث بشيء من ضبط عاطفي كامل ودون أي تعبير عاطفي من عنده، وإذ يقول عن حادثة غرق السفينة " فكثرت الشغب علي من كل جانب، وأظلم الجو بيني وبين أهل الدولة، وافق ذلك مصابي بالأهل والولد، وصلوا بالمغرب بالسفين، فأصابها قاصف من الرح فغرقت، وذهب الموجود والسكن والمولود، فعظم المصاب والجزع، ورجح الزهد، واعتزمت على الخروج عن المنصب، فلم يوافقني عليه النصيح ممن استشرته، خشية من نكير السلطان وسخطه، فوفقت بين الورد والصدر، وعلى صراط الرجاء واليأس، وعن قريب تداركني اللطف الرباني، وشملتني نعمة السلطان - أيده الله - في النظر بعين الرحمة، وتخلية سبيلي من هذه العهدة التي لم أطق حملها"^{٤٢}

وعلى أساس مرجع هذه الفاجعة، يلاحظ إحسان عباس أن الاحساس بالصراع ضعيف في سيرة ابن خلدون، رغم أن حياته كانت حافلة بالصراع في كل مرحلة من مراحل حياته، إذ يقول إنه "إذا واجه المشكلة تنحى عنها لتمر، أو اختار الهجرة لثلا يضعف إزاءها، وهو يعزل ثم يولى ثم يعزل ثم يولى، ويتقبل هذه الأمور كأنها أحداث تجري بمعزل عنه وعن تفكيره وتقديره، ويغرق أهله جميعاً في سفينة قادمة من تونس، فإذا جوابه على هذه الفاجعة أنه يريد زيارة مكة ليتعزى عن فقدهم"^{٤٣}. وإذا قام الباحث بالنظر إلى الوصف الذي قام به ابن خلدون في سيرته الذاتية عن تلك المصيبة، يبدو أن أسلوب عرضه هذا يتطلب مزيداً من التحليل. على الرغم من صحة ملاحظة إحسان عباس عن عدم الطبيعة الثورية أو التمردية

٤٢. عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي، رحلة ابن خلدون، تحقيق: محمد بن تاويت الطلنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١،

٢٠٠٤، ص ٢٠٨.

٤٣. إحسان عباس، فن السيرة، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ١٩٩٦، ص ١١١

فيها، أنها لا تعني فعلا أن ابن خلدون خال من الصراعات أو مستقر عاطفيا، بل هي تشير إلى أنه يحتاج إلى تهوية نفسية للتخلص من ضغوط الصراعات النفسية. ولعل هذا هو سبب اختياره - نمطا بديلا للتنفيس- للسفر إلى مكة، فالمدينة تنفيسا عاطفيا أمام القوة الالهية.

التعبير من خلال الأشعار

وقد أورد ابن خلدون أشعاره في هذا الكتاب كما أضاف إليه أيضا قصائد الآخرين بما يقتضيه السياق. فهي منتثرة في مواضع مختلفة في الكتاب. فلما اعتقله أبو عنان خاطبه مستعظفا^{٤٤} وتشوقا بقصيدة طويلة نحو مائتين بيتا، وقد أورد فقط خمسة أبيات منها، مطلعها:

على أي حال لليالي أعاتب وأي صروف للزّمان أغالب

كفى حزنا أنّي على القرب نازح وأنّي على دعوى شهودي غائب

وكذلك وضع قصيدة عند السلطان أبي سالم ليلة لقاءه^{٤٥} وعند الأمراء والسلطين الآخرين في موقف مختلفة. فيمكن العثور على أنه قرض الأشعار تحقيقا لاحتياجاته العاطفية القوية. ومن بينها الاستعظاف أو الاستجارة، وكسب ثقة السلطين، وتعبير أواصر المحبة معهم، تعبیر عن الصراعات أو الفرح والبهجة وما إلى ذلك.

المبحث الرابع: الاعتراف وخصلاته الشخصية

وقد لوحظ من قبل علماء النفس أن هناك علاقة وثيقة بالتعبيرات الاعترافية وخصلات الشخصية. إن بعضا من العلماء الذين درسوا شخصيته، أمثال طه حسين وبعض من المستشرقين، اتهموا عليه من حيث دوافعه في وضع 'الرحلة' وعاطفة الأثرة في شخصيته.

٤٤. عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي، رحلة ابن خلدون، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٤، ص ٧٣

٤٥. المصدر السابق، ص ٧٥-٨١

الدافع المهيمن

إن معظم علماء النفس يؤكدون على أهمية الدافع في حياة الانسان، فهذا الدافع هو الذي يقوم بتحفيز جميع حركاته تجاه تحقيق ذاته. وقد حدد عالم النفس الامريكي ديفيد ماكيلاند (David McClelland) الدوافع الثلاثة التي يمتلكها جميع البشر، فهي الانجاز والانتماء والقوة. وكل شخص يوجد لديه دافع مهيم، اعتمادا على تجارب حياته وخلفيته الثقافية. بناء على الدافع الرئيسي لكل فرد سيعرضون خصائص فريدة^{٤٦}. وهذا الدافع سيؤثر على سلوكياتهم وفي جميع جوانب حياتهم.

يقول طه حسين أن فيه "شيء من الزهو وأنه يصبر دائما على ان يتخذ لنفسه صفة أستاذ فائق الرسوخ في العلم والعرفان"^{٤٧}. فسيرته الذاتية – على حد قوله - تدور حول هذا الدافع المهيمن وأنه استكثر الذكر في سيرته في الحصول على العلوم والمعارف بدلا من أن ذكر أحواله الاسرية والعاطفية، حتى أنه عندما يذكر أساتذته يقدم تبهرهم في المواد التي تخصصوا فيها. علاوة على ذلك أنه يعبر شيئا من المبالغة في مراجعة تلك الأمور. إن طه حسين يرتاب ببعض مراجعته في مقدمته وسيرته ومنها مراجعته "بشأن كتاب الأغاني الشهير، فإنه في ترجمته يزعم أنه استظهر جزءا منه، وفي مقدمته يندب استحالة الحصول على نسخة منه، وعلى هذا نعتقد أن المؤلف لم يعرف منه سوى الاسم"^{٤٨}. وطه حسين يقدم أمثلة أخرى التي يبالي ابن خلدون في مراجعتها. مهما كانت صحة ملاحظات طه حسين في ذلك، يمكن لأي باحث أن يجد هذا الاتجاه واضحا طوال سيرته الذاتية.

٤٦. راجع المقال في الإنجليزية بعنوان 'Human Motivation Principles: A Definitive Guide'، على موقع الانترنت

٤٧. طه حسين، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية تحليل ونقد، ترجمة: محمد عبد الله عنان، لجنة الترجمة والنشر مصر، ١٩٢٥، ص ١١

٤٨. المرجع السابق، ص ١٢

عاطفة الأثرة

كان ابن خلدون يتمتع بشخصية قوية لدرجة أنه من وسعه تحويل أي حدث من الأحداث لصالح نفسه إياه. ويتضح هذا الاتجاه بوضوح في سيرته كلما يقوم بشرح حالات الصراع المرتبطة بالأحداث. ويلاحظ طه حسين "أن ابن خلدون كان قبل كل شيء سياسياً وافر الحكمة والبراعة. على أنه لم يستخدم براعته السياسية لتأييد دولة أو أسرة كما استخدمها لمنفعته الشخصية. كانت تغلب فيه عاطفة الأثرة وذلك واضح في ترجمته ووضوحها في جميع مؤلفاته"^{٤٩}. وإن من المستشرقين الذين قاموا بمقارنة بين شخصية ابن خلدون ومكيافيلي ومنهم كرامر وفريرو ويرى أن حياته السياسية الجمة الاضطراب^{٥٠}. وقد تمت هذه المقارنة كانت اعتباراً لخصوصيات فذة في شخصيتهما السياسية.

وأما مكيافيلية هي فلسفة سياسية كما أنها هي نوع من الشخصية السلبية في علم النفس الشخصية. "وفقاً لتعريف قاموس أوكسفورد الإنجليزي أن مكيافيلية هي "توظيف المكر والازدواجية في الكفاءة السياسية أو في السلوك العام، وهو أيضاً مصطلح يعبر عن مذهبٍ فكري سياسي أو فلسفي يمكن تلخيصه في عبارة 'الغاية تبرر الوسيلة' وتنسب هذه النظرية إلى الدبلوماسي والكاتب نيكولومكيافلي (١٤٦٩-١٥٢٧) الذي عاش في عصر النهضة الإيطالية"^{٥١}.

إن من أهم السمات للميكافيلية في علم النفس^{٥٢} هي البرودة العاطفية وعدم استقرار عاطفي، ومشاعر سلبية، وصعوبة في تحمل الضيق. أما تعبيرهم العاطفي فيكون متأثراً بالسياق كما يتسم التعبير عن مشاعرهم بالمرونة: فإذا كان ذلك يحقق هدفهم، فقد يخفون مشاعرهم الحقيقية في بعض السياقات، بينما سيعبرون عنها في سياقات أخرى. وقد سجلت

٤٩. المرجع السابق، ص ٢٣

٥٠. المرجع السابق، ص ٢٣

٥١. مقال عن نيكولو مكيافيلي على موقع الانترنت 'نيكولو مكيافيلي' https://ar.wikipedia.org/wiki/نيكولو_مكيافيلي تاريخ الاسترجاع ٢٠٢٣/١٦

52. Deak, A., Bodrogi, B., Biro, B. et al. Machiavellian emotion regulation in a cognitive reappraisal task: An fMRI study. *Cogn Affect Behav Neurosis* 17, 528–541 (2017). <https://doi.org/10.3758/s13415-016-0495-3>

ملاحظات البحوث العديدة أن المكيافيلية هي إحدى السمات الشخصية للعديد من السياسيين.

على الرغم من أن ابن خلدون ومكيافيلي من أعظم المفكرين اجتماعيا وسياسيا، هما ينتميان إلى الحضارتين المتباينتين، كلاهما مختلفان تماما كلا من السياقات التاريخية والبيئة الثقافية واللغة والتراث الديني، على حين أن الأول يمثل الأفكار العربية الاسلامية، ثقافتها وقيمها وأما الآخر فيمثل الثقافة الأوروبية المسيحية. يلاحظ الدكتور عبد الله العروي، مؤرخ اجتماعي ومفكر وروائي مغربي العديد من المصادفات والمشابهات في أفكارهما ونشاطاتهما السياسية في كتابه المعروف 'ابن خلدون ومكيافيلي' إذ يقول "فنحن نصادف كثيرا من الحالات المشابهة عندما نتابع التطور، المنفصل والمتوازي أيضا، للأفكار العربية الاسلامية والأوروبية المسيحية. إلام يجب أن نغزو تلك المصادفات؟ إلى مصدر مشترك؟ أم إلى الوحدة الجوهرية للفكر البشري؟ أم إلى المصادفة؟"^{٥٣}.

وفي الوقت نفسه، أن كرامر وفريرو قد أنسب إلى شخصيته عنصر التشاؤم، ويقارنه بأبي العلاء المعري وينتهي إلى تلك النتيجة هي أن تشاؤم ابن خلدون كان تشاؤم عالم وأن تشاؤم أبي العلاء كان تشاؤم شاعر"^{٥٤}. ويرى أن الاضطرابات الخارجية التي مر بها ابن خلدون في حياته السياسية هي منشأ تشاؤمه. وعلى أي حال، يمكن للباحث الافتراض أن ابن خلدون يجب ألا يعتبر شخصية مكيافيلية، على حين أنه يبدو في شخصيته عوامل مكيافيلية على الأقل على مستوى غير خطير، لأن كتاب 'التعريف' يفتقر إلى التعبير العاطفي لحياة صاحبه، وعلى حين أن عاطفة الأثرة تنعكس في سطره تقريبا تماما.

على الرغم من ذلك، أنه لم يتردد في أن يعبر عن فشله وخيبته حيناً بعد آخر في صيرورته مع السلاطين والأمراء، بل أنه أصر في صحة مواقفه دون تبرير خيبته أو إخفاء عيوبه. فيجدر

٥٣. عبد الله العروي، ابن خلدون ومكيافيلي، تعريب: د. علي أحمد خليل، دار الساقى، لندن. ط ١، ص ٥-٦

٥٤. طه حسين، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية تحليل ونقد، تعريب: محمد عبد الله عنان، لجنة الترجمة والنشر، مصر، ١٩٢٥، ص ٢٣

بملاحظة الدكتور طه حسين وهو يقول إنه "ينبغي أن نلاحظ أن ابن خلدون في ترجمته لم يحتط كما فعل غيره من المؤلفين في يخفى عيوبه فإنه لم يدع قط أنه حاول نيل السلطة خدمة المنفعة العامة، ولم يعن بأن يحاول تبرير عمل خاطئ بتقديم دواع شريفة، بل يلوح لنا أنه لم يكن ذا شعور بأنه أخطأ قط"^{٥٥}. وهذا يدل على أنه على ثقة مفرطة في جميع ما ينبثق منه من أعمال ومواقف. وهذه هي أيضا إحدى السمات للشخصية المذكورة أعلاه.

ومن المفترض مما سبق، أن خصلاته الشخصية الفذة أيضا عسى أن تبعده عن مثل التعبيرات الاعترافية التي تتسم بالمكاشفة والتجرد.

الخاتمة

خلاصة القول، إن كتاب التعريف له أهمية تاريخية وفنية عند مقارنته بمجموعة أدبية من كتابة السيرة الذاتية بأكملها في الحضارات المختلفة في ذلك السياق الثقافي لفترة ما قبل الحديث. يتميز هذا الكتاب عن غيره من هذا القبيل من الأدب بشموليته التي لم يسبقه أحد في هذا النمط من العرض حيث يحوي جميع مراحل حياة السارد كلا من الطفولة حتى مرحلة الحياة النهائية. وبالنسبة إلى العوامل الاعترافية فإنه فعلا خال من الطبيعة الثورية والتعبير عن الحياة العاطفية للكاتب. وإنه لا يكشف عن الصراعات الداخلية الحقيقية وراء القناع، لكنه في الحقيقة، يمكن للباحث القادر على التحليل النفسي لشخصيته، استكشاف عدة خصلات مهيمنة فيها. ويمكن أن يكون العديد من الأسباب لعدم استكشاف الذات الداخلية في فترة زمنية مخصصة، ومن بينها العناصر المتعلقة بالثقافة أو التمثيل الأدبي للذات وغيرها من خصلات شخصية. وإنه من الجدير بالذكر أن النمط من التعبير عن الذات على شكل اعترافي لم يكن من سمات تلك الفترة الزمنية في أية حضارات في العالم.

الفصل الثالث

'التحدث بنعمة الله' - جلال الدين السيوطي

البيانات الوصفية

اسم الكتاب	: التحدث بنعمة الله
المؤلف	: جلال الدين السيوطي (٨٤٩ هـ\١٤٤٥ م - ٩١١ هـ\١٥٠٥ م)
سنة التأليف	: ١٨٩٦
تحقيق الكتاب	: إليزابيث ماري سارتين
الناشر	: المطبعة العربية الحديثة، القاهرة
تاريخ النشر	: الطبعة الأولى - ١٩٧٢

المقدمة

'التحدث بنعمة الله' هو أحد الكتب القيمة الذي يمكن تضمينه في عداد مؤلفات السير الذاتية في القرن الخامس عشر الميلادي. قام بتأليفه الامام الحافظ جلال الدين السيوطي (١٤٤٤ - ١٥٠٥ ميلادية، الموافق ٨٤٩ - ٩١١ هجرية)، ولد سنة ٨٤٩ هـ^٢. وقد قامت إليزابيث ماري سارتين بتحقيق هذا الكتاب ونشرته بالقاهرة ١٩٧٢^٣. ولم يحظ هذا الكتاب بالاهتمام البالغ من قبل الباحثين والأكاديميين قبل أن حققت و"تقدمت بها المحققة لنيل درجة الدكتوراه من جامعة كمبردج"^٤. ثم تبعته طبعة جديدة له "بتقديم ودراسة الدكتور عوض علي الغباري، أستاذ الأدب المصري، ورئيس قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة القاهرة"^٥.

١ . هذا افتراض من قبل الباحث، وقد تم ذكره في السطور التالية في المقدمة.

٢ . جلال الدين السيوطي، التحدث بنعمة الله، تحقيق: إليزابيث ماري سارتين، المكتبة العربية الحديثة، مصر، ص ٢٢٧، ص ٣٢

٣ . عوض علي الغباري، السيرة الذاتية للإمام الحافظ جلال الدين السيوطي في كتاب التحدث بنعمة الله، ص ٦-٥.

٤ . المرجع السابق، ص ٦

٥ . إيهاب سيد أحمد، التحدث بنعمة الله: من نوادر السيرة الذاتية التراثية، العين الاخبارية، صحيفة رقمية، الامارات، 2016/10/27، راجع على موقع الانترنت:

https://al-ain.com/article/unique-book-imam-biography، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٢\٤\٨

على الرغم من أنه لم يتم تحديد سنة تأليف هذا الكتاب بشكل دقيق، أن الباحث يفترض وهي في ٨٩٦ هجرية، دليلاً على قوله داخل الكتاب "فنحن الآن في سنة ست وتسعين وثمان ولم يجئ المهدي ولا عيسى ولا أشراط ذلك"^٦. وبما أن هذه العبارة وردت في أحد الفصول الأخيرة من الكتاب، وحيث أن الكتاب مُنظم حسب الترتيب الزمني للأحداث التي يذكرها الإمام السيوطي عن نفسه وعن عصره، فإن هذا يقوِّي من فرضية أن تأليف الكتاب قد اكتمل أو كان في مراحلها النهائية في حدود سنة ٨٩٦ هجرية.

أما كاتب هذا الكتاب فهو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضير السيوطي المعروف باسم جلال الدين السيوطي من كبار أعلام المسلمين في القرن الخامس عشر الميلادي. كان فقيهاً شافعيًا وإماماً في السنة ومؤرخاً قديراً وأديباً. ذاع صيته بتبحر علومه وموقفه الفاضل وتعدد مؤلفاته. وله نحو ٦٠٠ مصنف^٧.

كانت ولادته في أسرة متدينة عريقة في العلم سنة ١٤٤٤ الميلادية الموافق ٨٤٩ هجرية بأسويوط في القاهرة. مات أبوه وهو كان ابن خمس سنوات من عمره. فنشأ فيها يتيماً. حفظ القرآن الكريم وهو في الثامنة من عمره، تمكن له المصاحبة مع علماء في جملة صحبة والده. فتلقى مبادئ العلوم من والده إياه ثم تعمق في فنون مختلفة من أساتذة عصره حتى أصبح مرتبة الاجتهاد والتجديد.

كان السيوطي شغوفاً بالانغماس في قراءة الكتب والاشتغال بها، حتى أنه يقال إن مولده كان بين الكتب. ولذا "أنه كان يلقب بابن الكتب، لأن أباه طلب من أمه أن تأتيه بكتاب، ففاجأها المخاض، فولدته فهي بين الكتب"^٨. ولم يقتصر اهتمامه فقط في تلقي العلوم والحفظ بها، بل كان نشيطاً في عالم الكتابة والتأليف أيضاً طوال حياته. حاول دائماً أن يبتعد عن البلاط والسلطين. وقام بعدة رحلات في البلدان المختلفة التي أثرت في تحقيق حرصه على اكتساب العلوم. توفي الإمام

٦. جلال الدين السيوطي، التحدث بنعمة الله، تحقيق: إليزابيث ماري سارتين، المكتبة العربية الحديثة، مصر، ص ٢٢٧

٧. خير الدين الزركلي، الأعلام: قاموس تراجم (ج٣)، دار العلم للملايين، مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر، لبنان، ط ١٥، ٢٠٢٢، ص ٣٠١.

٨. المصدر نفسه، ص ٣٠١

السيوطي في القاهرة في جمادى الأولى ٩١١ هـ، الموافق أكتوبر ١٥٠٥ م، ودفن بجوار قبر والده في أسيوط.

بدأ السيوطي نشاطاته التأليفية وهو دون السابعة عشر من عمره وأجاد فيه. قد تم تأليف كثير من الكتب ما بين الـ ٢٠ والـ ٣٠ من عمره^٩. كان يسافر باستمرار وتلمذ العديد من العلماء البارزين داخل بلده وخارجه، واستوعب من خلالها ما استطاع من العلوم والمعارف وبينما ظل نشطاً في مجال الكتابة والتأليف. وإنه "لم يبلغ أربعين سنة اعتزل الناس، منزويًا عن أصحابه جميعاً، كأنه لا يعرف أحد منهم، فألف أكثر كتبه. وكان الأغنياء والأمراء يزورونه ويعرضون عليه الأموال والهدايا فيردها، وبقي على ذلك إلى أن توفي"^{١٠}.

خلف السيوطي عدة مؤلفات التي تتراوح بين كتيب إلى مجلدات ضخمة. فالقسم الأكبر منها كان تلخيصاً أو شرحاً أو جمعاً أو تذييلاً. على الرغم من أنه أضمن في سيرته أكثر من ٤٤٠ كتاباً بما فيها من صغيرة الحجم والكبيرة منها، وعلى حين أنه "أوصله المستشرق كارل بروكلمان إلى ٤١٥ عنواناً، بينما بلغ بها تلميذه ابن إياس (ت: ٩٣٠هـ) نحواً من ٦٠٠ مؤلف"^{١١} وليس فقط في هذا الكتاب الذي قام السيوطي بالترجمة عن ذاته، بل تم بها في كتابه التاريخي 'حسن الحاضرة' وفي بعض من مقاماته أيضاً. وأما الكتاب الذي هو على قيد التحليل هنا فمن تحقيق إليزابيث ماري سارتين.

إن الأمر اللافت للنظر هنا هو أنه قد تم تأليف هذا الكتاب في فترة فريدة التي أطلق عليها الباحثون عصر الانحطاط والجمود بالنسبة للأدب العربي. وهي فترة ما بين العصر العباسي وعصر النهضة الذي يبدأ بقدم نابليون مصر ١٧٩٨. ومن "أبرز مظاهر الانحطاط في رأيهم هي

٩. جلال الدين السيوطي. عالم فتح عيونته على الكتب، مقال على موقع الانترنت (جلال-الدين-السيوطي-عالم-فتح-عيونه-على/2022/10/3/

https://www.aljazeera.net/encyclopaedia , تاريخ النشر: ٣ أكتوبر ٢٠٢٢، تاريخ الاسترجاع: ٢٦ مايو ٢٠٢٢

١٠. خير الدين الزركلي، الاعلام: قاموس تراجم (ج٣)، دار العلم للملايين، مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر، لبنان، ط ٢٠٢٢، ص ٣٠١ بتصرف.

١١. جلال الدين السيوطي: عالم فتح عيونته على الكتب، مقال على موقع الانترنت: جلال-الدين-السيوطي-عالم-فتح-عيونه-على/2022/10/3/

https://www.aljazeera.net/encyclopaedia , تاريخ النشر: ٣ أكتوبر ٢٠٢٢، تاريخ الاسترجاع: ٢٦/١٠/٢٠٢٢

جمود العقول، وقلة الإبداع العلمي، والتكرار والاجترار في الإنتاج العلمي^{١٢}. وكان مصر في عصر السيوطي تحت الدولة العثمانية بعد حملة التتار الشنيعة حيث يلاحظ أنهم أهلكوا خزائن العلم والمعرفة فمر العالم العربي بالجمود الفكري والتخلف العلمي.

المبحث الأول: المحاور الرئيسية والقيمة التاريخية والأدبية

يقدم كتاب 'التحدث بنعمة الله' لمحة رائعة عن حياة السيوطي ورحلته الفكرية وتجاربه العلمية، مما يوفر مساهمات قيمة في الفكر والثقافة الإسلامية. ويشمل محاور رئيسية مثل تأملاته في السيرة الذاتية، ورحلته الروحية والنمو الشخصي، وتكوين شخصية الكاتب الفكرية والعلمية، وتأملات في رحمة الله ونعمه عليه، والانخراط في الخلافات والمناظرات، وأصالته واكتفائه الذاتي في العلوم والافتاء والتجديد وما إلى ذلك.

القيمة التاريخية والأدبية

إنه مما يبدو لمن يقوم بالبحث المحايد عن هذا الكتاب أن له قيمة تاريخية وأدبية. وأما قيمه التاريخية فهي تتضح من قول السيوطي أنه "ما زالت القدماء قديما وحديثا يكتبون لأنفسهم تراجم. ولهم في ذلك مقاصد حميدة" وهو يشير إلى أن تأليف هذا النوع من الكتابة كان ممارسة شائعة التي لا يزال يفعلونها القدماء. ويمكن الافتراض أن هذا القول يبقى دلالة جلية على أن التقليد في الكتابة عن الذات كان معروفا لدى الكتاب آنذاك. إضافة إلى ذلك أن هذا المرجع يعتبر الأهم لدى الباحثين في بحوثهم حول عراق أدب السيرة الذاتية في التراث العربي ومقاصد المؤلفين في كتابتها وحوافزهم العامة. وهو أيضا كتاب ملحوظ من هذا قبيل وإن لم يتم تأسيسه كنوع من الأدب ولم يعرف على الاسم المخصص.

١٢. غازي التوبة، قراءة في مقولتي "عصر الانحطاط وعصر النهضة"، مقال على موقع الانترنت (قراءة في مقولتي -عصر الانحطاط-وعصر-

https://www.aljazeera.net/opinions/2009/12/24/٢ تاريخ النشر: ٢٤\١٢\٢٠٠٩، تاريخ الاسترجاع: ١١\١٠\٢٠٢٢

وعلى حين أن له قيمة أدبية لما أنه سيرة متفردة ركز السيوطي فيها على رحلة حياته العلمية التي قدمها بأسلوب سردي قصصي عكس تداخل أدب السيرة الذاتية بفن القصة^{١٣}. يقول عوض علي الغباري عما له من تفوق أدبي مما لا يقل عن تفوقه العلمي. "ويطرد هذا الأسلوب السيوطي المتميز في كل مؤلفاته، فلا تقل المكانة الأدبية له عن مكانته العلمية، خاصة أنه بدأ إنشاء مقاماته أيضاً في سنة حجه المباركة، وهو في العشرين من عمره. وكما عبّر 'السيوطي' عن إحساسه بنبوغته في التأليف في هذا السن، فقد عبّر، كذلك، عن شخصيته الأدبية المصرية في مقاماته"^{١٤}. وتجدر بالإشارة هنا إلى أن القيمة الأدبية لأي عمل أدبي لا يجوز الحكم عليها بمعايير العصر الحديث، بل يجب أن تكون من خلال المقاييس السائدة التي كانت موجودة في ذلك الوقت.

المبحث الثاني: تصوير الذات في 'التحدث بنعمة الله'

'التحدث بنعمة الله' هو كتاب في سيرة السيوطي الذاتية وضعه على حد قول السارد شكرا لله عزوجل على أنعمه الوافرة عليه، لما أنه يرى التحدث بنعمة الله مطلوباً شرعاً. ويأتي دليلاً على ذلك بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال العارفين التي تحث على الشكر لنعم الله على الإنسان وأهميته في الشرع، فيقول " إن التحدث بنعمة الله مطلوب شرعاً، قال تعالى "وأما بنعمة ربك فحدث" ...وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم التحدث بنعمة الله شكر وتركها كفر"^{١٥}. وإن الشكر يقتضي الزيادة لقوله تعالى "لئن شكرتم لأزيدنكم"^{١٦}. وإن العلماء السالفين والمعاصرين لا يزالون يقومون بهذه المهمة هي الكتابة عن أنفسهم، وذلك كان لديهم مقاصد حميدة. يقول السيوطي أنه "قد اقتديت بهم في ذلك فوضعت هذا الكتاب تحدثاً بنعمة الله وشكراً، ولا رياء، ولا سمعة، ولا فخراً"^{١٧}.

١٣. عوض علي الغباري، السيرة الذاتية للإمام الحافظ جلال الدين السيوطي في كتاب التحدث بنعمة الله، ص ٤.

١٤. المرجع السابق، ص ٢٤

١٥. جلال الدين السيوطي، التحدث بنعمة الله، تحقيق: إليزابيث ماري سارتين، المكتبة العربية الحديثة، مصر، ص ١

١٦. المصدر السابق، ص ١

١٧. المصدر السابق، ص ٤

وقد تم تأليف هذا الكتاب على النهج السائد آنذاك للتمثيل الادبي للذات. وذلك يتسم بعرض الأحداث الخارجية للسارد على شكل موضوعي. فهذا الكتاب يحتوي على واحد وعشرين فصلا كما يضم ملحقين من قبل المحقق وملاحظات حول تحقيق الأصل. وأما الملحق الأول فهو ما نقله الشاذلي في كتاب 'بهجة العابدين' من كتاب 'التحدث بنعمة الله' حول دراسات السيوطي، والثاني منهما فهو قائمة مسموعات السيوطي التي أوردها الداودي في كتاب 'ترجمة السيوطي'.

تكوين شخصيته العلمية

تبتدئ السيرة بذكر أسباب تأليف الكتاب كما ذكر سابقا، ثم يصور تصويرا دقيقا عناصر رئيسية التي أدت إلى تكوين شخصيته العلمية. ومن أهمها بيئته العائلية العلمية حيث كان والده كمال الدين وأجداده السالفين هم متحمسين لتلقي العلوم والمعارف. كانوا أهل العلم والوجاهة حيث بلغوا مكانة أسمى في النباغة والبراعة في شتى فنون العلم كما تفوقوا علماء عصرهم في التدريس والإفتاء. وهو يصف عن والده أنه "الإمام العلامة ذو الفنون الفقيه الفرضي الحاسب الأصولي الجدلي النحوي التصريفي البياني البديعي المنشئ المترسل البارع"^{١٨} كما يصف عن أحد أجداده من المشايخ الصوفية ويقول: إن جدنا الأعلى الشيخ همام الدين كان إحدى مشايخ الصوفية وأرباب الأحوال والولاياتولجدنا هذا ضريح بأسيوط يزار ويتبرك به"^{١٩}. وأما من أجداده الآخرون دون المذكور أعلاه فهم "كانوا من أهل الوجاهة والرياسة، منهم من ولى القضاء بأسيوط، ومنهم من ولى الحسبة بها، ومنهم من كان في صحبة الأمير شيخو وبنى مدرسة أسيوط"^{٢٠}. هكذا يصف وصفا دقيقا عن والده الذي يحتوي على مولده وموته بمرض ذات الجنب واشتغاله بشتى فنون العلم ومسموعاته من العلوم وأساتذته فيها وانفراده في براعة بعض من الفنون مثل الترسل والتوثيقات

١٨ . المصدر السابق، ص ٥

١٩ . المصدر السابق، ص ٥

٢٠ . المصدر السابق، ص ٧

وتصدره للتدريس والإفتاء وتوليته ببلده وخطبته في الجامع الطولوني وجماعة من الفضلاء الذين أخذوا عن والده^{٢١}.

ومن المعروف أن البلد الذي ولد ونشأ فيه له تأثير كبير في تكوين شخصية الانسان. فالسيوطي خصص فصلا لتصوير أخبار عن أسيوط، مكان ولادته وتاريخه ومؤرخيه ورواة الحديث والأدباء والشعراء والنحاة والأئمة التي تولى قضاءها. حتى أنه ذكر الجوانب الدقيقة لها مثل استعمال مختلفة لكلمة 'أسيوط' و'سيوط' أيضا. وبجانب هذه، ذكر مفصلا عن مؤلفي بلده من المحدثين ونظمهم على ترتيب حروف المعجم. وهذه التفاصيل تؤكد ما له من أصالة ونباعة في العلوم الإسلامية وأخرى العصرية.

اكتفاءه الذاتي في الإفتاء

وبعد ذكر التفاصيل عن نسبه ووالده وأجداده وأساتذتهم ومسقط رأسه وما يتعلق به من أخبار، يورد السيوطي ببيان عن فتواه مخالفا لما أفتى به والده حول قضية عمر الانسان "هل يزيد وينقص من الولادة إلى الموت". أما سبب المصارحة في الخلاف -يقول السيوطي- "ذلك لأمرين، أحدهما إفادة العلم، فإننا لا نستجيز كتم ما يظهر لنا من العلم مخالفا لما عليه غيرنا.....والثاني: ليفهم الناس عذرنا في مخالفة أهل عصرنا، ويعلموا أنه ليس غرضنا المعادة والتعصب، بل غرضنا اتباع الحق وترك المحاباة في الدين"^{٢٢}. فهنا يؤكد السيوطي ما له من اكتفاء الذات فيما يتعلق بأمور العلم والتعليم والإفتاء. علاوة على ذلك أنه يلمح أيضا على أنه ملزم بالقيام بمسؤولية الاجتهاد المؤكدة عليه، إذ يقول "وقد أقامنا الله بفضله جل جلاله، في منصب الاجتهاد لنبيين للناس في هذا العصر ما أدانا إليه الاجتهاد تجديدا للدين"^{٢٣}. وفي اعتقاده أن عليه أن يخبر الناس ما ظهر

٢١ . المصدر السابق، ص ٧-٩

٢٢ . المصدر السابق، ص ٢٠

٢٣ . المصدر السابق، ص ٢٠

له من علم، نتيجة اجتهاده دون كتمان، وجعلهم مدركين على أن غرضه ليس للمعاداة والتعصب ولا لمحابة حتى لوالده في أمر الدين.

مولده ومسموعاته وشيوخه

ومما يثير اهتمام الباحث على أن السيوطي دائما يحاول إثبات أصالته واستحقاقه فيما يتعلق بالعلم والتعليم. فهنا بعد أن ذكر أهليته في ذلك، ذكر عن ذات نفسه بدءا من مولده وتسميته بعبد الرحمن ثم يورد فضائل هذا الاسم مستدلا ببعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والمأثورات الأخرى، إذ يقول إنه "كان مولدي بعد المغرب ليلة الأحد مستهل رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة، فسَمَّاني والدي يوم الأسبوع عبد الرحمن، وفي تسميتي بذلك عدة لطائف"^{٢٤}. ومن بعض لطائفها^{٢٥} أنه أحب الأسماء إلى الله تعالى كما أنه أول اسم سمي به آدم أول ولده. وكذلك أول من سَمِّي من هذه الأمة بعبد الرحمن عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة الشهود لهن بالجنة، ولهذه التسمية أيضا بعض التفاؤل لأن الله تعالى وصف عباد الرحمن بصفة السلام.

وفي هذا الكتاب فصل مخصص لمسموعات^{٢٦} السيوطي التي ساعدت على تكوين شخصيته العلمية وبنيته الثقافية. وهي تضم عدة كتب في الأحاديث النبوية وما يتعلق به من علوم وبعض الكتب الفقهية والنحوية مثل ألفية ابن مالك وأخرى من الدواوين الشعرية مثل ديوان أبي تمام والمتنبي والبردة والكتب الأدبية مثل سقط الزند لأبي العلاء المعري ومقامات الحريري. وتضم هذه المسموعات عدة كتب أخرى وهي كما يقول السيوطي غير مكتملة.

وفيه أيضا فصل لذكر أسماء العلماء من الديار المصرية والحجاز وحلب إذ يقول فيه "وقد جمعت معجما كبيرا في أسماء من سمعت عليه أو أجازني أو أنشدني شعرا، فبلغوا نحو ستمائة نفس"^{٢٧}. وقسم السيوطي هؤلاء إلى أربع طبقات ورتبهم حسب الأهمية مع ذكر بعض الأخبار عنهم مثل سنة

٢٤. المصدر السابق، ص ٣٢

٢٥. المصدر السابق، ص ٣١-٣٨

٢٦. المصدر السابق، ص ٣٩-٤٢

٢٧. المصدر السابق، ص ٧١

الميلاد والوفاة وأسماء والدهم وعندهم حصلوا على الإجازة في تخصصهم. وقد أورد السيوطي ثلاثة أحاديث عشائية بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم فيها عشرة رواة في فصل خاص^{٢٨}. وهو يذكر هذه الأحاديث مع روايتها لإفادة الناس عن تبحره في علم الحديث ورواياته. ومن المعروف أنه وضع العديد من الكتب في هذا الفن.

الرحلات

وقد قام السيوطي عدة رحلات ومنها سفره إلى الحجاز ودمياط والإسكندرية وأعمالها. على الرغم من أن رحلته الأولى كانت إلى الحجاز قاصدا لأداء الحج، أنه لم يكشف عن تجاربه العاطفية الروحية في الحج، بل أنه بيّن عن استفادته العلمية من هذه الرحلة. وذلك في سنة ٨٦٩ هـ. وقد جمع ما وقع له بها في تأليف سماه 'الرحلة الزكية في الرحلة المكية'^{٢٩}. واصطحب بعلماء الحجاز وتلقى منهم. وفهم من تلاميذ أبيه. ومن أعلام هؤلاء برهان الدين إبراهيم بن نور الدين، قاضي الشافعية بمكة. وقد كان بينهما الولاء والصدقة ثم وقعت بينها العداوة إذ يقول عنه: "فقام في الواقع بحقوق والدي، وأكرمني وأجلني، ثم مشيت بيننا الأعداء، فوقعت بيننا وقعة طالت مُدتها عشرين سنة، ثم أرسل يطلب من مصنفاتي فحصل منها جملة، فأرسلتُ إليه في سنة ٨٨٨ كتابا بالصلح"^{٣٠}. وفي هذه الرحلة شرح السيوطي الألفية نظما واختصارها. وقد تم هذا التأليف في حجم الكراسة في يوم واحد الذي يحتوي على نحو ومعان وبديع وعروض وتاريخ سماها 'النفخة المكية والتحفة المكية'^{٣١}

وفي سنة ٨٧١ هـ قام السيوطي برحلة أخرى إلى دمياط والإسكندرية بعد أن رجع من رحلته إلى مكة. وذلك كان أيضا قاصدا اكتساب التجارب العلمية ووضع المؤلفات فيها. وهو يقول "قد جمعت

٢٨. المصدر السابق، ص ٧١-٧٨

٢٩. المصدر السابق، ص ٧٩

٣٠. المصدر السابق، ص ٧٩

٣١. المصدر السابق، ص ٧٩

فوائد هذه الرحلة في تأليف يسمى 'الاغتباط في الرحلة إلى الإسكندرية ودمياط'^{٣٢}. وإنه اغتنم هذه الفرصة للتفاعل مع علماءها. ومن هؤلاء من سمع أشعاره وأقواله وتصانيفه في فنون مختلفة حتى بعضهم طلبوا من الاجازة. وإذ يقول عنها "وفي هذه الرحلة حدثت "بعشارياتي"^{٣٣} وبأشياء من نظمي وكتب الكثير من كلامي وتصنيفي وطلب مني الاجازة"^{٣٤}. وقد أضمن فيه السيوطي أشعارا^{٣٥} التي قرظله مدحا به وتقريظا لقريحته الفذة.

التدريس والإفتاء

وفي سنة سبعين وثمان مائة انتصب السيوطي للتدريس خاصة الأحاديث النبوية في مدرسة 'الشيخونة' كما انتصب في السنة التالية للإفتاء. وكان من تلامذته كبار من الفضلاء والمدرسين. وقرأوا عليه تصانيفه. وهو يقول عن إفتاءه " لما بلغت درجة الترجيح لم أخرج في الإفتاء عن ترجيح النووي وإن كان الراجح عندي خلافه. ولما بلغت رتبة الاجتهاد المطلق لم أخرج في الإفتاء عن مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه"^{٣٦}. لما ولى التدريس في مدرسة 'الشيخونة' قام بإلقاء الحديث النبوي بحضور الشيخ العلامة 'محيي الدين الكافيحي'، مبينا طرق إسناده وتحليله وشرحه. وهذا يدل على معرفته العميقة في علوم الحديث وما يتعلق به من أصول وفروع.

مؤلفاته و انتشاره

وقد خصص السيوطي فصولا منفصلة لبيان كل من مؤلفاته وبعض ما كتب حولها تقريظا ومدحا من قبل فضلاء معاصريه وانتشارها خارج مصر. وفي الفصل الرابع عشر ورد تفاصيل عن مؤلفاته التي تم تصنيفها إلى سبعة أقسام^{٣٧}، فالقسم الأول منها ما تفرد به الكاتب أو أنه لم يؤلف أحد قبله

٣٢. المصدر السابق، ص ٨٣

٣٣. كتاب في الأحاديث الثلاثة العشاريات التي فيها عشر رواة.

٣٤. جلال الدين السيوطي، التحدث بنعمة الله، تحقيق: إليزابيث ماري سارتين، المكتبة العربية الحديثة، مصر، ص ٨٣

٣٥. المصدر السابق، ص ٨٤-٨٧

٣٦. المرجع السابق، ص ٩٠

٣٧. جلال الدين السيوطي، التحدث بنعمة الله، تحقيق: إليزابيث ماري سارتين، المكتبة العربية الحديثة، مصر، ص ١٠٥

على حد علمه. هناك ١٨ كتابا من هذا القبيل. ومنها كتاب 'الاتقان في علوم القرآن' و 'الدر المنثور بالتفسير بالمأثور' و'ترجمان القرآن' وغيرها من كتب في علوم القرآن والنحو وأصوله وطبقات النحاة والمنطق وعلم الكلام وعلم الفرائض. والثاني منها أن ما تم تأليفه من مناظريه والتي يبلغ حجمه فوق مجلد واحد أو دونه. عد في هذا القبيل خمسون مجلدا. منها الكتب تتعلق بالأحاديث النبوية شرحا أو تلخيصا وكتب التاريخ والنحو وما إلى ذلك. ومن بينها كتاب 'حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة'.

وأما الثالث منها يضم سبعين مؤلفا وهي صغيرة الحجم والرابع منها ألفت على شكل كراس صغير ويبلغ عددها المائة والقسم الخامس فيها ما ألف في واقعات الفتاوى، وهي تبلغ ثمانين مؤلفا حجمها فوق كراس أو دونه. وفي القسم السادس أضمن فيها الكاتب المؤلفات التي هي بالروية المحضنة وكتبت على طريق البطالين وزمن السماع. ويضم القسم الأخير منها ما شرع الكاتب فيه ولكن فتر العزم في كتابتها وهي قليل عددها.

ويتناول الفصلان التاليان ذكر عما كتب بعض من معاصريه من العلماء والشعراء نظما ونثرا حول بعض من مؤلفاته من تقرّظ أو مدح، وانتشار مؤلفاته خارج مصر خصوصا في بلاد المغرب والشام والحجاز واليمن حتى في الهند. فالدكتور عوض الغباري لا يرى أي إساءة في تضمين كلمات الثناء والمدح من فضلاء عصره حول كتاباته، فيقول إنه "لا نعتقد أنّ في ذلك غضاضة، أو عُجبا وغرورا في شخصية السيوطي، فقد كان الرجل متواضعا صالحا مُتخلِّقا بأداب فضلاء العلماء، وحقّ له أن يتحدّث بنعمة الله، وقد تبخّر في العلم، وأسهم بمؤلفاته العظيمة في الفكر الإنساني"^{٣٨}. وأما فيما يتعلق بانتشار مؤلفاته في الشرق والغرب فيقول السيوطي "ومن سنة خمس وسبعين أخذت مصنفاتي تسير في الآفاق"^{٣٩}.

٣٨. عوض علي الغباري، السيرة الذاتية للإمام الحافظ جلال الدين السيوطي في كتاب التحدث بنعمة الله، ص ٣٦.

٣٩. جلال الدين السيوطي، التحدث بنعمة الله، تحقيق: إليزابيث ماري سارتين، المكتبة العربية الحديثة، مصر، ص ١٥٥

الخلافاً بينه وبين معاصريه

يتحدث السيوطي عن الخلافاً^{٤٠} الذي وقع بينه وبين معاصريه من العلماء في مواضيع مختلفة، وموقفه منها. ويرى في ذلك نعمة من عند الله لما أنه أقام له أعداء ابتلاء له. ويقتبس آيات قرآنية وأحاديث نبوية ومراجعات من كتب التاريخ التي تحتوي على إشارات إلى ابتلاء الأنبياء والعلماء السالفين. ويأتي بقوله تعالى "وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن"، وبحديث النبي صلعم "أشد الناس بلاء الأنبياء ثم العلماء ثم الصالحون"، تقديمًا لذكر الخلافاً.

تبحره في العلوم ورتبة الاجتهاد

يذكر السيوطي عما حصل عليه من علوم وطبيعة التبحر فيها وبلوغه إلى رتبة الاجتهاد. ويقوم بتعريفها لتقييم حسب مستوى تبحرها ويتحدث أولاً عن العلوم السبعة التي نبغ فيها الأكثر، فيقول "وقد رزقت، والله الحمد التبحر في سبعة علوم: التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع على طريقة العرب البلغاء لا على طريق المتأخرين من العجم وأهل الفلسفة"^{٤١}. ويعين نفسه مكانته ومستوى تبحره في هذه العلوم بين معاصريه من العلماء ومن قبله. وبعد أن بين طبيعة هذه العلوم لديه وهو يقول "وقد ظن بعض الناس من قولي إن معرفتي بالفرائض دون معرفتي بالفنون السابقة أنني قاصر فيها، وذلك جهل منه، وإنما قولي ذلك أمر نسبي، فمعرفتي بالفنون السابقة كالبحر المحيط، ومعرفتي بالفرائض كالنيل بالنسبة إليه، ومعرفة غيري من أهل العصر بها كالخليج، بل كجدول الساقية بالنسبة إلى النيل، هذا فصل القول في ذلك" ولكن أكثر الناس لا يعلمون"^{٤٢}

وقد حصل أيضاً على معارف أخرى دون المذكور سابقاً، مثل القراءات وعلوم الطب وأما الحساب فهو أعسر عليه ويقول فيه "ومن ظن أنني قلت ذلك قصور عنه، فذلك لجهله بمقصودي، وكم

٤٠. المصدر السابق، ص ١٦٠-٢٠٢.

٤١. المصدر السابق، ص ٢٠٣.

٤٢. المصدر السابق، ص ٢٠٤.

من مسألة عرضت عليّ فيه نظماً ونثراً فأجبت عنها في الحال، وإنما قصدي بذلك ثقل النظر فيه لعدم ملائمته لطبعي"^{٤٣}. وأما مرتبة الاجتهاد لديه فيقول "فقد بلغت والله الحمد والمنة، رتبة الاجتهاد المطلق في الأحكام الشرعية، وفي الحديث النبوي، وفي العربية. ورتبة الاجتهاد في هذه الأمور الثلاثة كانت مجتمعة في الشيخ تقي الدين السبكي، ولم تجتمع في أحد بعده إلا في"^{٤٤}. ثم يتحدث عن الاجتهاد المطلق والمقيد واختلاف العلماء وموقفه منهما.

المجددون في الدين

وقد خصّص السيوطي فصلاً للذكر عن المجددين في الدين^{٤٥}. ويتحدث بهذا مستدلاً على حديث الرسول صلعم "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها"^{٤٦}. ويشرح بتفصيل عن مجدي القرون الثمانية التي سبقت قرنه على أساس استنتاجات العلماء السابقين. ومن أراء هؤلاء أن عمر بن عبد العزيز والإمام الشافعي هما مجددان على رأس المائتين الأوليين على التوالي. ويتمنى لو كان مجدد قرنه إذ يقول "فنحن الآن في سنة ست وتسعين وثمانمائة ولم يجر المهدي ولا عيسى ولا أشراف ذلك. وقد ترجى الفقير من فضل الله أن ينعم عليه بكونه هو المجدد على رأس المائة وما ذلك على الله بعزير"^{٤٧}. أما الفصلان الأخيران فهما ذكر -على وجه الاختصار- في اختيارات السيوطي في الفقه^{٤٨} واختياراته في علم الحديث والأصول والنحو^{٤٩}.

يتضح مما سبق أنه يركز فقط على حقائق خارجية فيما يتعلق به بدلاً من مكاشفة عن الذات الداخلية. وليس معنى ذلك أن التفاصيل الخارجية للفرد غير مرتبطة بالذات، أما الأمر الذي يشتمل هنا فهو أنه أغفل عن البعد العاطفي الملتف بمثل هذه الأحداث الخارجية.

٤٣ . المصدر السابق، ص ٢٠٤

٤٤ . المصدر السابق، ص ٢٠٥

٤٥ . المصدر السابق، ص ٢١٥-٢٢٧

٤٦ . المصدر السابق، ص ٢١٥

٤٧ . المصدر السابق، ص ٢٢٧

٤٨ . المصدر السابق، ص ٢٢٨-٢٣٣

٤٩ . المصدر السابق، ص ٢٣٤

المبحث الثالث: الاعتراف في 'التحدث بنعمة الله'

وأما بالنسبة للتعبير الاعترافي للكاتب فالفصل الأول نفسه يعطي دلائل واضحة على ذلك، لأن المقصود من تأليف الكتاب فهو تتبعاً للممارسة السائدة لسالفيه ومعاصريه من العلماء والكتاب. أنهم كانوا يكتبون أنفسهم لمقصود محمود. وذلك كان تحدثاً بنعمة الله عليه وما به من أفعال محمودة حتى يتمكن للقراء الاقتداء بها في حياتهم، وليس كان مقصدهم تصوير ذواتهم على شكل عاطفي وأنه يمكن أن يحدث فيها عيوب أو نقصان. وهذا من شأنه أن يعطي للقارئ قدوة سيئة. وباعتباره عالماً الذي شكلته القيم الإسلامية، كان مدركاً بأنه يجب عليه تقديم قدوة مثالية للآخرين، وذلك مطلوب شرعاً.

وقد أدرج الدكتور يحيى عبد الدائم سيرة السيوطي الذاتية ضمن فئة 'تصوير الحياة الفكرية' حيث يعمد فيها الكاتب إلى تسجيل كل ما أثر في تكوينه العقلي وتطوره الفكري، من كتب وأساتذة، ويعرفنا بآثاره العلمية^{٥٠}. على الرغم من أنه يمكن أن يقال إنه - وفقاً لقوله - لم يقدّم بتأليف سيرته رغبة في استرجاع ذكرياته الماضية أو تخفيفاً من ثورة نفسية أو انفعال تمردي على بيئته التي تكونت فيها شخصيته أو مجتمعه الذي عاش فيه، حقيقة أنه يمكن أن قد تحدث هذه الأمور كلها ضمناً لما أنه من الواضح أن كان له صراعات علمية مع علماء عصره.

بدلاً من سرد الجوانب العاطفية للتجارب في الحياة ان السيوطي يعطي التركيز على إنجازاته العلمية ومساعدته المضنية في نيلها وما يتعلق بها من صراعات والرحلات التي قام بها من أجلها وذكر الخلاف مع العلماء من معاصريه ومكانته الفذة من بينهم ومواقفه السديدة منها. ويصور جميع هذه الأحداث والتجارب خالية من جوانبها العاطفية الملفوفة بها، بل أنها عرضت على شكل موضوعي حيث تبدو فقط معلومات عن تجاربه الخارجية. ومعنى ذلك أنه تم تسليط الضوء فيها على حقائقها التاريخية بدلاً من ذكر جوانب الكاتب العاطفية أكثر حميمة.

٥٠. يحيى عبد الدائم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٣٥.

الشعر والتعبير عن العاطفة

وقد أورد السيوطي بعضا من الأشعار في هذا الكتاب. ومنها ما اقتبس من الشعراء الآخرين أو ما نظم من معاصريه من العلماء تقريبا أو مدحا على مؤلفاته^{٥١}، وكذلك نظما من عنده إياه^{٥٢}. وهذا يدل على تفضيل الكتاب تضمين الأشعار حتى في نصوصهم النثرية. علاوة على ذلك، يمكن العثور على أنهم التجأوا إليها في حالات السعادة والحزن والمفاجأة أو الصراع وكذلك الفخر عاطفة واعية بذاتها. رغم أنه لم يعترف شيئا من خلالها، استخدمها أداة لتعبير شدة عواطفه.

الاعتراف بالشعور بالكفاءة بالذات

إنه لا جدال في أن السيوطي كان من أعظم علماء عصره بعمق معرفته وحزم موقفه من الأمور. وبينما هو يؤكد في سيرته هويته العربية الإسلامية المصرية، فإنه دائما يحاول أن يدافع عن نفسه^{٥٣} بقوة من جميع المعارضات الموجهة إليه من حساده ومعارضيه من علماء عصره، كما أنه يحاول باستمرار تقديم نفسه كصاحب سعة معرفة فريدة التي تميزه عن غيره من معاصريه ومن قبله، وبينما يقول إن سبب تأليفه هو القيام بواجبه في شكر الله على عمق معرفته وسعة الاطلاع التي تلقاها من كبار العلماء وقراءاته الواسعة.

وتتضح كفاءته الذاتية القوية والوعي بها طوال كتاباته السير الذاتية كل من كتاب التحدث بنعمة الله وحسن المحاضرة والمقامات من مثل ما يقول "لو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنفا بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية، ومداركها ونقوضها وأجوبتها، والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها، لقدرت على ذلك من فضل الله، لا بحولي ولا بقوتي، فلا حول ولا قوة إلا بالله، ما شاء الله، لا قوة إلا بالله"^{٥٤}. فهذا الشعور بالكفاءة بالذات لديه يمكن أن يؤدي إلى الاتهامات من منظور نظريات سيكولوجية حديثة ما بعد الفرويد ونظريات علم النفس الشخصية الحديثة، بأن الأشخاص

٥١. جلال الدين السيوطي، التحدث بنعمة الله، تحقيق: إليزابيث ماري سارتين، المكتبة العربية الحديثة، مصر، ص ١٤٣-١٥٤

٥٢. المصدر السابق، ص ١٧٢، ١٧٩-١٨٠، ١٨٢-١٨٣

٥٣. جلال الدين السيوطي، التحدث بنعمة الله، تحقيق: إليزابيث ماري سارتين، المكتبة العربية الحديثة، مصر، ص ١٦٠-١٨٣

٥٤. عوض علي الغباري، السيرة الذاتية للإمام الحافظ جلال الدين السيوطي في كتاب التحدث بنعمة الله، ص ٨

الذين لديهم مثل هذه الخصلات في شخصيتهم سيبتعدون عن تعبير ما في داخلهم من عواطف حقيقية والاعتراف ما في شخصيتهم من جوانب سلبية. يلاحظ الدكتور عوض علي الغباري مما تقدم من النص أنه يقوم بالحفاظ على التوازن الدقيق بين نفي السيوطي الغرور والعُجب بنفسه، وإحساسه بقدراته الإبداعية في الكتابة العلمية^{٥٥}. فهذا يدل على رغم أن لديه هذا الشعور بالكفاءة الذاتية القوية، يتضح من صراحته أن دافعه في الكتابة عن نفسه هو التحدث بالنعمة التي أنعم الله عليه، وليس هو شيئاً من العجب أو الفخر. أما بالنسبة للاعتراف والصراحة بالنقص والعيوب من منظور إسلامي، ليست هي من الأمور المرغوبة فيها شرعاً، ولا ينبغي تشجيعها.

الخاتمة

جملة القول، إن التحدث بنعمة الله هي سيرة ذاتية علمية التي تتمحور حول نقطتين مهمتين. الأولى منهما هي الذكر عن أصالة الكاتب العلمية وإثبات تفوقه على معاصريه من العلماء في الاجتهاد والتجديد في الدين. ومن خلاله تمكين الكشف عن ذاته والتحقيق عنها. والثانية منهما هي أن من خلال نقل مقدراته العلمية وبراعته في التأليف إلى الأجيال القادمة، هو يؤكد على أنه فقط يتبع عملية الكتابة الذاتية التي كان يمارسها العلماء السابقون، وأنه يقوم بذلك مجرد مطلوب شرعاً، ذلك الشكر لله على أنعمه عليه. فلا غرابة على الإطلاق في عدم احتوائه على كشف ذات الكاتب الصريحة، وعدم قيامه على المكاشفة والتجرد، لأن مقصود صاحب السيرة فقط ذكر في أنعم الله عليه وشكره عليها. فيمكن القول إن هذا الكتاب خال تماماً من التعبير العاطفي الاعترافي لتجارب الكاتب.

الباب الرابع

تحليل النصوص في العصر الحديث: منظور اعترافي

مقدمة الباب الرابع

الفصل الأول: 'الأيام' لطله حسين'

المبحث الأول: المحاور الرئيسية والقيمة التاريخية والأدبية

المبحث الثاني: تصوير الذات في 'الأيام'

المبحث الثالث: الاعتراف في 'الأيام'

المبحث الرابع: الاعتراف وسلوكيات بديلة للتنفيس

الفصل الثاني: 'حياتي' لأحمد أمين

المبحث الأول: المحاور الرئيسية والقيمة التاريخية والأدبية

المبحث الثاني: تصوير الذات في 'حياتي'

المبحث الثالث: الاعتراف في 'حياتي'

المبحث الرابع: المبحث الرابع: الاعتراف بالحرمان وخصلات شخصيته

الفصل الثالث: 'سبعون' لميخائيل نعيمة

المبحث الأول: المحاور الرئيسية والقيمة التاريخية والأدبية

المبحث الثاني: تصوير الذات في 'سبعون'

المبحث الثالث: الاعتراف في 'سبعون'

المبحث الرابع: الاعتراف وأفكاره الفلسفية

الفصل الرابع: 'الخبز الحافي' لمحمد شكري

المبحث الأول: المحاور الرئيسية والقيمة التاريخية والأدبية

المبحث الثاني: تصوير الذات في 'الخبز الحافي'

المبحث الثالث: الاعتراف في 'الخبز الحافي'

المبحث الرابع: الاعتراف وموقفه من الحياة

الفصل الخامس: 'رحلة جبلية رحلة صعبة' لفدوى طوقان

المبحث الأول: المحاور الرئيسية والقيمة التاريخية والأدبية

المبحث الثاني: تصوير الذات في 'رحلة جبلية رحلة صعبة'

المبحث الثالث: الاعتراف في سيرة فدوى طوقان

المبحث الرابع: الاعتراف بموقفها من الحياة

الباب الرابع

تحليل نماذج السيرة الذاتية في العصر الحديث: منظورا اعترافي

المقدمة

هذا الباب مخصص لتحليل النماذج المختارة في العصر الحديث. فهي تضم كل من كتب 'الأيام' لطله حسين، و'حياتي' لأحمد أمين، و'سبعون' لميخائيل نعيمة، و'الخبز الحافي' لمحمد شكري، و'رحلة جبلية رحلة صعبة' لعدوى طوقان. فجميع هذه النصوص -خلافا لما كان للنماذج في العصر ما قبل الحديث- غنية بمقومات الحداثة في تصوير الذات والكشف عن دوائر النفس الحميمة حيث يعبر الكُتاب عن تجاربهم العاطفية مع علاقتها بالأحداث الخارجية بهم. فكتاب 'الأيام' و'الخبز الحافي' قد تم تأليفهما على شكل السيرة الذاتية الروائية، وفي حين أن الثلاثة الأخرى جاءت على شكل السيرة الذاتية المحضّة.

أما المقصود بالنصوص في العصر الحديث فهو كتاب 'الأيام' وما نشر بعده من أدب السيرة الذاتية، لما أن 'الأيام' يعتبر أول سيرة ذاتية فنية في العربية بمفهومها الحديث. فهذه النصوص كلها ظهرت من أول الربع الثاني في القرن العشرين حتى الربع الأخير منه. بينما النصان هما 'الأيام' و'حياتي' من مصر، كل واحد من النصوص الأخرى ينتمي إلى بلدان مختلفة، وذلك كتاب 'الخبز الحافي' من مغرب و'رحلة جبلية ورحلة صعبة' من فلسطين و'سبعون' من لبنان. عندما الأخذ باعتبار التمثيل الثقافي لهذه النصوص، أن صاحب كتاب 'سبعون' من الديانة المسيحية خلافا للنصوص المختارة الأخرى. فكتاب 'رحلة جبلية رحلة صعبة' يمثل تمثيلا نسويا من مجموعة النماذج المختارة بأجمعها.

أما باعتبار محتوى مراحل العمر لكتاب السير الذاتية، فكل نص من النصوص يختلف عن غيره. يتضمن كتاب 'الأيام' أحداثا من حياة صاحبه حتى ثلاثين من عمره. فأحمد أمين ضمّن في سيرته 'حياتي' قصة حياته حتى أربع وستين من عمره. أما 'سبعون' كما يشير الاسم فهو يمثل حكاية عمره السبعين. بينما عدوى طوقان تقص قصتها حتى الخمسين من حياتها في

سيرتها 'رحلة جبلية رحلة صعبة'، وفي حين أن 'الخبز الحافي' يضم فقط أحداث حياته حتى واحد وعشرين من عمره تقريبا.

فجميع هذه النصوص من العصر الحديث يتميز بالتعبيرات الذاتية العاطفية لأصحابها بدرجة متفاوتة. وذلك طبيعي أيضا لما أن كل واحد يخص ما فيه من فردية مميزة التي نتجت عن الأوضاع الأسرية والاجتماعية المختلفة. وأما ما يجعل أي حدث من الأحداث في الحياة تجربة فهو ما فيه من عاطفية، يمكن أن تكون إيجابية أو سلبية. إن التجرد في التعبير، والانفتاح والمكاشفة الكاملة فهي التي تحقق طبيعة 'الاعتراف'. حقيقة، أن مثل هذه التجارب يمكن أن تكون أكثر حميمة لصاحبها، وأحوج إلى التهمية نحو وجود خارج عنه.

الفصل الأول

الأيام – طه حسين

البيانات الوصفية

اسم الكتاب	: الأيام
المؤلف	: الدكتور طه حسين (١٨٨٩ – ١٩٧٣)
سنة التأليف	: الجزء الأول: ١٩٢٩، الجزء الثاني: ١٩٣٩، الجزء الثالث: ١٩٧٢
ناشر هذه الطبعة	: مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة
تاريخ النشر والطبعة	: الطبعة الأولى، ١٩٩٢

المقدمة

‘الأيام’ هو كتاب في السيرة الذاتية الروائية للدكتور طه حسين. هو أحد أشهر الكتاب المصريين ومفكرهم في القرن العشرين، المعروف بعميد الأدب العربي. ولد في مصر سنة ١٨٨٩. وبعد أن تلقى مبادئ الدراسة من أبيه في البيت ثم في الكتاب، أتم دراسته في الأزهر والجامعة الأهلية بمصر ثم في جامعة في فرنسا. أخذ العلوم الإسلامية والعصرية. فقد كانت اجتمعت في شخصيته الثقافة العربية والغربية معا.

شغل عدة مناصب أستاذا وعميدا في الجامعات والكليات. وأصبح وزيرا للمعارف في مصر سنة ١٩٥٠ م، وحاز على عدة جوائز تقديرية ودكتوراه الفخرية حتى انه قد تم ترشيحه لجائزة نوبل. وفي عام ١٩٥٥ قام برحلة إلى مكة لأداء فريضة الحج. ف قضى حياته المتبقية نشيطا في مجالات الأدبية والعلمية. وفي هذه الأعوام قام بمسؤوليات عدة يحمل مناصب مختلفة في المجالس والهيئات المختلفة حتى أدركته المنية سنة ٢٨ أكتوبر ١٩٧٣ عن عمر يناهز ٨٤ عاما. أما كتابه ‘في الشعر الجاهلي’ أثار ضجة في العالم العربي لما فيه من آراء نقدية حول الشعر

الجاهلي، وتعرض للانتقادات الحادة الساخنة من معاصريه من أمثال مصطفى صادق الرافعي. له عدة مؤلفات أخرى تتراوح بين الموضوعية والمترجمة كل من الكتب الفكرية والأدبية والنقدية.

يعتبر كتاب 'الأيام' أول سيرة ذاتية حديثة بمعناها الفني. أما محور هذا الكتاب فيدور حول إعاقة الجسدية هي 'العمي'، والصراعات حولها. ويشير الباحثون إلى أن الدافع المهم الذي أداه إلى تأليف 'الأيام' هو الاضطرابات النفسية التي أحدثتها الضجة المثارة إبان نشر كتابه 'الشعر الجاهلي' وآراءه المعبرة فيه فيما يتعلق بأصالة الروايات القديمة وتاريخية القرآن. وهذه الضجة قد جعلت فيه الإحساس بالظلم الذي كان قد مر بنفس الإحساس في مرحلة مبكرة من حياته فهي الطفولة والصبا، وكان عليه أن يتخفف من تلك الأزمة. أشار عبد المحسن طه بدر إلى هذا الأمر حيث يقول "كان الإحساس بالظلم الذي واجهه طه حسين نتيجة للضجة والثورة التي واجهت بها البيئة كتابه 'الشعر الجاهلي' هو الذي أعاد إلى ذاكرته صور الحرمان والظلم التي تعرض لها في طفولته وصباه"^٢. وقد أشار يحيى بعد الدائم^٣ إلى نفس الأمر، وكان ذلك بعد أن رجع من فرنسا حيث اشتدت فيه النظرة الساخنة إلى البيئة التي كان عليها حتى أيام دراسته في الأزهر. فيمكن الافتراض أن الإحساس بالظلم أثار في نفسه صراعا وقلقا فنيا للجوء إلى ذكريات طفولته.

جاء هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء. وكان قد نشر أولا فصولا في مجلة الهلال، "وذلك في المدة من ديسمبر سنة ١٩٢٦ حتى يوليو سنة ١٩٢٧، ثم جمع في كتاب وطبع في مطبعة أمين عبد الرحمن في سنة ١٩٢٩"^٤ وتلاه الجزء الثاني منه سنة ١٩٣٩^٥، ثم جاء بعده الجزء الثالث قبيل وفاته عام ١٩٧٢^٦.

٢. عبد المحسن طه بدر، تطور الرواية العربية الحديثة في مصر (١٨٧٠-١٩٣٨)، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٩٧٢، ص ٣٠٧.

٣. يحيى عبد الدائم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٣٨٥.

٤. عبد الرحمن بدوي، إلى طه حسين في عيد ميلاده السبعين (دراسات)، دار المعارف، مصر، ١٩٦٢، ص ٢١-٢٢.

٥. المرجع السابق، ص ٢٣.

٦. عبد العزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، مؤسسة الاسراء للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٦٦.

المبحث الأول: المحاور الرئيسية والقيمة التاريخية والأدبية

يقدم كتاب 'الأيام' محاور مثيرة للتفكير حول حياة المؤلف وعوالم أفكاره وتجاربه. ويتناول هذا الكتاب العديد من المحاور المتعلقة بالهوية والتعليم والقومية والحرية الفكرية، ومن أهمها تأملات السيرة الذاتية، الصراعات الشخصية والمرونة، اكتشاف الذات والهوية الثقافية والفكرية، السعي الدائب لاكتساب المعرفة على الرغم من العقبات، والتغلب على شدائد العمى والفقر والتحديات الاجتماعية، الدعوة إلى الإصلاح التعليمي والسياسي في المجتمع، القيام من أجل القومية المصرية والدعوة إلى العدالة والديمقراطية، وحرية الفكر وحقوق الفرد وما إلى ذلك من محاور التي تسعى إليها الحداثة وتهتم بها.

يحتل هذا الكتاب قيمة أدبية وفنية لما أن السارد نجح في نقل التجارب التي دخلت إلى نفسه عبر الحواس الأربع الأخرى - بدلاً من بصره المفقود - بقوة بحيث لا يضيع أي من مكوناتها العاطفية. ويمكن تضمين هذا الكتاب تحت فئة الرواية الفنية الحديثة لما له ما تقتضيه من عناصر فنية، ولكنه أقرب إلى السيرة الذاتية الحقيقية. أما الأمر الذي يجعله رواية فنية فهو تجرد السارد من 'ذات' له في إلقاء النصوص باستخدام صيغة ضمير الغائب. وقد ذكر أنيس المقدسي^٧ ثلاث خصائص ما في 'الأيام' من روعة فنية فهي عذوبة الحديث وروعة التصوير وطلاوة التهكم. يحتل هذا الكتاب في مقدمة المؤلفات العربية الحديثة من هذا القبيل بما فيه من أسلوب بارع "الذي يمس القلوب ويثير العواطف بما فيه من سلاسة وعذوبة وصفاء وقدرة على التصوير والتلوين"^٨. فيبدو هنا أنه قد تبني نفس الأسلوب البارع في هذا الكتاب كما هو الحال في جميع إبداعاته الأخرى.

يقول إحسان عباس إن كتاب 'الأيام' سيرة ذاتية فنية أدبية، إذا تحولت عناصره بعض التحول، أصبح قصة كما فعل توفيق الحكيم في 'عودة الروح' والمازني في 'إبراهيم الكاتب' والعقاد في قصة 'سارة'، ففي هذه الكتب شيء غير قليل من العناصر الذاتية والترجمة

٧. أنيس المقدسي، الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة، دار العلم للملايين، بيروت، ط٦، ٢٠٠٠، ص ٥٧٠-٥٧٣

٨. شوقي ضيف، الادب العربي المعاصر في مصر، دار المعارف، القاهرة، ط ١٠، ص ٢٨٦

الشخصية، غير أنه موضوع في إناء قصصي، ممزوج بقسط غير قليل من الخيال، فهي كتب لاحقة بالقصص، لا بالسير الذاتية، وفي هذا الموقف المتوسط بين طرفين يظل كتاب 'الأيام' أكمل ترجمة ذاتية أدبية في أدبنا الحديث، مثلما كان كتاب 'جبران' لنعيمة أكمل سيرة ذاتية أدبية^٩. فهذه الناحية نفسها هي التي جعلته نوعاً أدبياً متكاملًا بمفهومه الحديث حيث يحتوي جميع مكوناته الضرورية على نسبة صحيحة التي يجب أن تكون لسيرة فينة حديثة.

المبحث الثاني: تصوير الذات في 'الأيام'

يشتمل كتاب 'الأيام' في أجزاءه الثلاثة على مراحل مختلفة من حياة الكاتب بدءاً من طفولته في القرية إلى أن بلغ ثلاثين من عمره. كما هو معروف الأمر أنه كان فاقد البصر. وذلك أيضاً كان نتيجة عمى المجتمع السائد آنذاك حيث غلب عليه الجهل والحرمان. فالمحور الرئيسي لهذا الكتاب يدور حول تجاربه في البيت عقب فقدان بصره واحساساته المجروحة التي تشكلت من استجابات سلبية من أعضاء أسرته. فعاش السارد بعد ذلك حياة بؤس ومعاناة. وإنه هو أيضاً قصة لكيف أصبحت معاناة صاحبها قوة دافعة فعّالة في تحديد مسار حياته اللاحقة. فيحوي على طفولته في القرية ودراسته في الكتاب فيها والطقوس والمعتقدات التي كانت سائدة في مجتمعه كما يضم دراسته العليا في الأزهر والجامعة ورحلته إلى فرنسا ودراسته في الكليات فيها وزواجه من فتاة فرنسية عملت كمساعدة له على دراسته. فليس هذا الكتاب مجرد سيرة ذاتية، إنما هو أيضاً عمل فريد رائع حدد مسار تاريخ الأدب العربي اللاحق.

الجزء الأول

نشر الجزء الأول^{١٠} منه سنة ١٩٢٩ في عشرين فصلاً بعد نشرها في جريدة 'الهلال' فصولاً متتالية لمدة ثمانية شهور. وذلك يضم ذكرياته منذ الطفولة حتى أيامه الأوائل في الأزهر سنة ١٩٠٢. يبتدئ الكاتب بذكريات طفولته وخیالاته الرائعة فيها. تتكشف القصة من خلال استدعاء يوم من الأيام من ذكرياته المتوارية المنزوية حيث "لا يذكر لهذا اليوم اسماً ولا

٩. إحسان عباس، فن السيرة، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ط١، ١٩٩٦، ص ١٣٩

١٠. يحيى عبد الدائم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٢٨٥

يستطيع أن يضعه حيث وضعه الله من الشهر والسنة، بل لا يستطيع أن يذكر من هذا اليوم وقتا بعينه^{١١}، وذلك عسى أن يكون وقت الفجر أو العشاء. ولكن ذلك اليوم لا يزال يتبلور في محفظة تجاربه الحسية حيث تلقى الهواء فيه شيء من البرد الخفيف والضياء الهادئ من البيت والحركة المستيقظة من النوم حوله. إذ يصف قصب السياج أمام بيته، وهو يمتد إلى مالا نهاية في خيالاته ولكنه عرف فيما بعد أنه ينتهي إلى قناة معروفة. وهو يرسم صورة دقيقة لهذا السياج والقناة^{١٢} وما يلتف بهما من ذكريات ملونة، نغمة عذبة غريبة حولها، وعفاريت الليلة المظلمة، وصياح الديكة في الفجر ونهوض الشيخ لأداء صلاة الفجر وعناية أخواته نحوه.

كانت هذه القناة في مفهوم الصبي عالما مستقلا عن العالم الذي يعيش فيه. وقد احتلتها كائنات غريبة من التماسيح والمسحورين والأسماك الضخمة التي قد يعثر بعض من أهل القرية على خاتم سليمان في بطونها. ويتذكر أيضا أنه كانت من إحدى جوانب هذه القناة جماعة من العدويين في دار كبير لهم يوجد على بابها كلبان ضخمان، وعلى جانب آخر سعيد الأعرابي، هو رجل شره وامراته كوايس وفي أنفها حلقة ذهبية كبيرة.

كان السابع في عائلة كبيرة مكونة من ثلاثة عشر طفلاً^{١٣}. ويتذكر أن كان له مكانة خاصة بين إخوته وأخواته وكما كان يحس من والديه رحمة ورأفة. ومع ذلك أنه قد أحس شيئاً من الإهمال أحيانا^{١٤}. حفظ القرآن وهو لم يبلغ التاسعة من عمره ولقب بالشيخ على الرغم من أنه نحيف الجسم قصير القامة. وهو يأخذ بالقراءة إلى بعض حلقات من الذكريات في الكتاب وفي قريته. وفي ذكريات وقت الضحى^{١٥} من إحدى الأيام في الكتاب، يتذكر الكاتب أستاذه الأول ويصور كل ما له من مظهر وأخلاق ومعاملة وتقاليد وما إلى ذلك. وفي أول الأمر كان قد فشل في الامتحان الذي قام به والده في حفظ القرآن لديه، ولكنه قام بالمراجعة، أخيراً نجح في

١١. طه حسين، الأيام (الجزء الأول)، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٢، ص ١٥

١٢. المصدر السابق، ص ١٥-١٦

١٣. المصدر السابق، ٢٤

١٤. المصدر السابق، ص ٢٤

١٥. المصدر السابق، ص ٣٢

الامتحان. ولم يتردد الكاتب في الكشف عما وقع من الأحداث أثناء دراسته في الكُتَابِ بدقة بالغة. ويسهب الديناميكيات المختبئة بين 'سيدنا' والعريف والدارسين في الكتاب والأوصياء والتقاليد الموروثة فيما يتعلق بختم القرآن من حقوق 'سيدنا' طعام وشراب وثياب ومال.

وإن الأمر الذي لا جدال فيه هو أن جميع تجارب طه حسين الحسية من بيته وقريته أسهم كثيرا في تكوين شخصيته العلمية وعقليته الفضولية. وكان قد عاش في قرية شاع فيها الجهل والحرمان حيث كان عليه أن يدفع ثمناً باهظاً كونه ضحية لذلك أن أخته الصغير استسلمت للموت وفيما بعده أخوه الكبير بسبب كوليرا أيضاً^{١٦}. علاوة على ذلك أنه هو نفسه أصبح فاقد البصر نتيجة عمي مجتمعه. وكان الأمر مختلفاً تماماً في القرى ومدن الأقاليم مما كان في العاصمة فيما يتعلق بالعلم والعلماء. إنهم كانوا يتمتعون بالجلال والمهابة في القرى على حين أنهم لا يحفل بهم أحد في القاهرة. و"كان صاحبنا متأثراً بنفسية الريف، يكبر العلماء كما يكبرهم الريفيون، ويكاد يؤمن بأنهم فطروا من طينة نقية ممتازة"^{١٧}

كان أهل قريته ينتمون إلى إحدى العائلتين من أصحاب الطريق. هما العالية والسافلة. وكان قد تقع بين الناس منافسة حادة بين شيعتهما. وقد كان "حفظ الصبي ألوانا من أخبار الكرامات والمعجزات وأسرار الصوفية"^{١٨} من هؤلاء مشايخ الطرق.

كذلك اتصلت أيام الصبي بين البيت والكتاب والمحكمة والمسجد وبيت المفتش ومجالس العلماء وحلقات الذكر^{١٩} وهو يتذكر بعض الأيام المقترية من عيد الأضحى حيث كان الناس من جميع مناحي الحياة في استعداد العيد. ولكنه هو وحده كان منغمساً في عالمه الخيالي. وتموت أختها الصغيرة^{٢٠} بسبب عدم العلاج خلال ذروة العيد، ودفنت في يوم عيد الأضحى. وفي غضون تلك الأيام انتشر البلاد وباء 'الكوليرا' وأقفلت المدارس والمعامل حتى صارت البلاد

١٦. المصدر السابق، ص ١٠٨

١٧. المصدر السابق، ص ٦٩

١٨. المصدر السابق، ص ٨١

١٩. المصدر السابق، ص ٩٨

٢٠. المصدر السابق، ص ١٠٢

برمتها على حافة الخطر. كان ذلك في أغسطس ١٩٠٢^{٢١}. ومات أخوه ابن الثامن عشر مصابا بهذا الوباء. فاصطبغت الأسرة بطابع الحزن، اتخذت أمه بلباس السواد وتقرب صاحبنا إلى الله بالصلاة وقراءة القرآن الكريم. وفي نفس السنة غادر الصبي للقاهرة للالتحاق بالأزهر تحقيقا لأمنيته نفسه وأمنيته أبيه. ولم يحس بأي اختلاف في تقاليد الأزهر من صلاة وخطبة وغيرها مما شاهد في بلده. فبدأ يدرس في الأزهر تحت تلمذة الشيخ كان معروفا بأسرته.

وفي الفصل الأخير من هذا الجزء يخاطب الكاتب بابنته بما تجرب به من بيئته من بيت ومدرسة وتسهيلات في بلد له في أيام طفولته وفي أطوار حياته التطورية وما اختبر به في أيامها هذه. وهو يتعرف نفسه البون البعيد بين هذين العصرين. تتم مشاركة نفس الشيء لابنته تنفيسا لأعبائه العاطفية التي لايزال يعاني من ذكرياتها.

الجزء الثاني

وفي الجزء الثاني يمكن للباحث أن يلاحظ الاستمرار الطبيعي للتطور التدريجي للعقل الواعي القوي الحازم الذي يكاد يتكون من المصائب التي تعرضت لها طفولة صاحب السيرة بسبب فقدان بصره. فهذا الجزء مخصص لحياة الكاتب في الأزهر وما يتعلق به من أحداث خارجية والاستجابات الداخلية المنعكسة منها. أما الفصول الثلاثة الأولى فيبين فيها الكاتب عن أطوار ثلاث في القاهرة عقب التحاقه في الأزهر. فهي تمثل ثلاثة عوالم في نفسه. فهي غرفته التي يعيش فيها وحياته العلمية في الأزهر، وما بينهما من عالم ثالث فهو طريق إلى الأزهر.

ومن بين هذه المراحل الثلاث، كان المفضل لديه هو حياته في الأزهر حيث "قد كان يجد راحة وأمنا وطمأنينة واستقرار"^{٢٢}. وقد يكون ذلك نتيجة حرصه الشديد على تحصيل أكبر قدر ممكن من العلوم والمعارف. وكان في قلبه شعورا غامضا قويا في الغرق في بحر العلم الذي لا حد له حتى أنه كان قد أحس بنسيم الأزهر أشبه ما يتلقاه من قبلة أمه من بيته إذ يقول "كانت تلك القبلات تنعش قلبه وتشيع في نفسه أمنا وأملا وحنانا، وكان ذلك النسيم الذي

٢١. المصدر السابق، ص ١٠٤

٢٢. طه حسين، الأيام (الجزء الثاني)، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط١٩٩٢، ص ١٠٨، ص ١٣٨

كان يتلقاه في صحن الأزهر يشيع في نفسه هذا كله ويرده إلى الراحة بعد التعب، وإلى الهدوء بعد الاضطراب، وإلى الابتسام بعد العبوس"^{٢٣}

ويكاد يبدو من تعبيره الأكثر دقة عن تجارب هذه العوالم الثلاثة أن فقدان بصره هو الذي كان بمثابة دافع قوي لإنجازات مركزة في حياته، فيعبر الكاتب عن تجاربه التي اكتسبها من خلال أربعة حواس له خلا حاسة البصر، حيث يتعرف حتى على الصوت الضعيف بدقة حادة، والروائح المختلفة تنبثق من بيئته، وشعوره الحركي منها.

وفي الغرفة كان يستعرض كل ما شاهد وسمع وتجرب في الأزهر وفي طريقه إليه. وكان كلامه مع الشيخ الفتى حين يتناولان الطعام فقط جملا متقطعة. ولكن الفتى كان ناطقا مصطخبا مع أصدقائه. وهؤلاء كانوا ينفقون أوقاتهم عند الإفطار بألوان من الأحاديث يتنافسون ويزدحمون بالأصوات والضحك. ولكن الصبي وقد أهمل إهمالا تاما وهو "جالسا بينهم قد أترق إلى الأرض وحتى ظهره كأنه القوس"^{٢٤}. إذا فرغو منه يستعيدون ما تلقوا من الشيخ ويجادلون "وقد أخذ أحدهم مكان الشيخ المقرر، وأخذ أحدهم مكان الطالب المعترض"^{٢٥}. وكان هناك ثلاثة أطوار للدرس في الأزهر، وفي الفجر وفي الصباح وبعدهما حتى وقت الظهر.

آلام الصبي في الغرفة

وهو يتطرق أيضا الحديث عن حالته في الغرفة^{٢٦}. وكان يعاني من عذاب الوحدة المتصلة في غرفته منذ قبيل العصر حيث ينصرف أخوه إلى غرف مجاورة لأصدقائه. وهم يجتمعون لشاي العصر ثم يعيدون دروس الشيخ محمد عبده. وكان الصبي أشد حاجة إلى الشاي لذة للجسم وأشد شوقا إلى مشاركة في مثل هذه المراجعة للدروس لذة للعقل. وليس في استطاعته أن يطلب ذلك، "فأبغض شيء إليه أن يطلب إلى أحد شيئا"^{٢٧}. وكان يخوفه أيضا أصوات

٢٣. المصدر السابق، ص ١٣٨

٢٤. المصدر السابق، ص، ١٤٦-١٤٨

٢٥. المصدر السابق، ص، ١٥٢

٢٦. المصدر السابق، ص ١٥٥-١٦٤

٢٧. المصدر السابق، ص ١٥٧

الحشرات في الغرفة. وفي مثل هذه الحالة المضطربة كان يستذكر حياته في القرية وكان يعتقد أنه من الخير أن سيكون البقاء فيها. وألحت في نفسه خواطر عن اللعب مع الأصدقاء في الكتاب والبقاء في البيت مغلقا الباب، واختلافه إلى حانوت الشيخ عبد الواحد، والاستماع إلى حديث أبيه الشيخ مع أصحابه، وصوت الأذان في المسجد وصعده المنارة مع المؤذن. وفي غضون بقاءه في الذكريات، ربما تأخذه اغفائة وهو جالس. فيأتي إليه أخوه بعشاءه ثم يخرج. إنما كان هو يشعر بيقظة آمنة، فقط بعد نوم أخيه اللذيذ في آخر الليل.

سكان الربع

فالكاتب يتطرق الحديث المسهب عن سكان الربع من جانبي غرفته. وكان ممن يسكن فيه العمال والباعة من القاهرة الذين هم في الطبقة الأولى من الربع. والصنف الآخر من السكان "كلهم غرباء، شيخ من الإسكندرية وفارسيان وطلاب وأساتذة قد أقبلوا من أقطار مصر على اختلافها"^{٢٨}. وكانوا في الطبقة الثانية من الربع. وكانت من يمين غرفة الصبي أسرة غريبة أيضا تتكون من امرأة وابن بائع متجول لها. ودون هؤلاء كان فيه "أشخاص يقيمون في الربع وكأنهم ليسوا من أهله، وأشخاص آخرون كانوا يلعبون بالربع بين حين وحين وكأنهم من أهله المقيمين فيه"^{٢٩}.

وهو يستفيض عن صداقة الشبان مع أشخاص غريبة في الربع. ومن هؤلاء الحاج علي، الأعمى. وهو كان بعصاه يوقظ الشبان في الفجر. كان قد أدهش الصبي صوته الغليظ في آخر الليل بشيء من الخوف^{٣٠}. وكان الشبان أكثر حبا له حيث يجتمع كل منهم في يوم الجمعة في اعداد الطعام والانغماس في اللهو. وأما الصبي فهو مضطربا معهم في تناول الطعام حيث لم يكن يقدر اتمامه على صورة طبيعية. كان متدينا يتكلف التقوى والورع، وفي الوقت نفسه كان

٢٨. المصدر السابق، ص ٢٠٤

٢٩. المصدر السابق، ص ٢١٠

٣٠. المصدر السابق، ص ١٢٥-١٢٦

هو متتبعا عورات الناس وعيوبهم وهو مع أصدقائه من شبان الأزهر. وحزنت قلوب الشباب نعى هذا الشيخ بعد فراقهم.

وكان من جملة دائرة الصداقة لهؤلاء الشباب "رجل متوسط السن قد جاوز الأربعين"^{٣١}. درس في الأزهر عشرين سنة ولكن لم يكمل. وكان حبه للعلم معتدلا، ولم يكن لديه استعداد وإقبال واتقان كاف للامتحان. وكان يعتقد بأنه لن تنال الدرجات بالجد والبراعة، ولكنه بالحظ والمصادفة وبالمهارة بالتوسل بالمتحنيين^{٣٢}. وهو يحب الحديث معهم عن لذاته. وكان لديه مع ذلك براعة في وصف النساء المارات بالطريق بتسميتهن بفخذ. وقد طلق زوجته الفلاحة لأن يتزوج بامرأة متحضرة. وكان يختلف إلى غرفة الصبي. وفي نهاية المطاف أنه قد ظفر في الامتحان وأصبح عالما. وبعد ذلك فارق الغرفة وأخذته نزعة صوفية حتى أدت إلى شذوذ عقلية ومات بعدها.

يتحدث الكاتب عن شاب آخر قصير الذكاء، وأقدم منهم عهدا بالأزهر. وهو كان يشارك معهم في مطالعة الكتب التي "لا تتصل بالدروس المنظمة ولا بالكتب التي كان الشيوخ يقرؤونها"^{٣٣}. فهذه الجماعة كانوا يكرهون مناهج الأزهر وكتبها. وكان الفتى فيمن يتصل بهذه الجماعة. وقد اتصل هذا الشاب بالصبي بعد أن ابتعد عن الجماعة. لما اشتدت الخصومة فيما يتعلق بالمحنة السياسة حيث خرج الشيخ محمد عبده من الأزهر، انضم الشاب في الشيعتين معا، وأخيرا أصبح يقضي حياته المتبقية يائسا وحيد منقطعا عن هذه الجماعات حتى أدركته المنية.

كان الربيع خاليا منذ ان بدأ يقيم فيه الصبي، فالأساتذة والطلاب المقيمون فيه كانوا في بلادهم ليتمتعوا إجازتهم للصوم. ولم يكن في الأزهر "نظام يحصى فيها على الأساتذة والطلاب أيام

٣١. المصدر السابق، ص ١٧٧

٣٢. المصدر السابق، ص ١٧٨

٣٣. المصدر السابق، ص ١٨٨

العمل وأيام الراحة"^{٣٤}. وكانوا يستمتعون بهذه الحرية في قصد واعتدال. وفي غضون الأيام القلائل أعيدت الحركة والنشاط في الربيع.

لم يكن الصبي طالباً مسجلاً في الأزهر خلال هذه الفترة. وكان يستمع فقط إلى دروس الفقه والنحو ودرس الحديث بعد صلاة الفجر بانتظام. وكان راضياً^{٣٥} عن أستاذه في النحو والفقه لأن تقديم الدروس كان مختلفاً عما يقوم به شيوخ الأزهر الآخرون. جاء الإعلان للامتحان لأن يكون طالبا مقيدا. فحضره بشيء من الدهشة واليأس، لكنه نجح فيه وفي الاختبار الطبي^{٣٦} أيضا.

وكانت الوحدة في الغرفة بعد الدراسة صعبة على الصبي، كما كان يشق على أخيه أن يأخذ الصبي إلى الأزهر وإلى الغرفة صباحا ومساء. لكنهما لم يناقشا هذا الأمر فيما بينهما. لكن الصبي اطمأن عندما جاء ابن خالته إلى الأزهر ورافقه في غرفته. وكادت حياة الصبي أن تتغير حتى تخلص من العزلة. وفي هذه الأيام، على خلاف ما قبله، كان يقضي معظم أوقاته في الأزهر حتى تمر سنة في الأزهر ويأتي وقت الإجازة.

حياة جديدة في القرية^{٣٧}

وصل الصبي مع ابن أخيه في قريته. ولم ير أحد في المحطة يستقبلهما. وكانت قد تغيرت عقليته تماما على خلاف ما كان قبله إذ جعل يتمرد على اعتقادات أسرته وأهل قريته خصوصا فيما يتعلق بتوسلهم بالأولياء. وفي البداية وجد والده الأمر صعباً، لكنه أصبح فخوراً فيما بعد بشذوذ ابنه في أفكاره وفي خصوماته مع العلماء في القرية الذين لم يدرسوا في الأزهر حيث صار الصبي محور الاهتمام. وانغمسه هذا بالناس في القرية في الخصام

٣٤. المصدر السابق، ص ١٩٥

٣٥. المصدر السابق، ص ٢٢٣

٣٦. المصدر السابق، ص ٢٢٦

٣٧. المصدر السابق، ص ٢٤٢-٢٥٠

والنقاش قد سبّب للخروج من عزلته التي كان قد تجرب بها سنوات ونهوضه إلى التفاعلات الاجتماعية لأول مرة.

عودته إلى القاهرة و اقباله على الأدب

كانت حياته في الأزهر هذه المرة مختلفة تماما عما كانت عليه في عامه الأول. وحدثت في حياته العلمية نقطة تحول حينما سمع من الطلاب الكبار في الأزهر عن الأدب والشيخ الشنقيطي وآراءه الشاذة. فركز اهتمامه إلى درس الأدب وبدأ يحفظ المعلقات ودراسة المقامات ونهج البلاغة لعلي رضي الله عنه وديوان الحماسة وغيرها من ألوان الأدب. ولم يكن درس الأدب من الأساسيات في الأزهر، بل إنما كان جزءا إضافيا الذي يندرج تحت عنوان "دروس العلم الحديثة". يضم كلا من المواد الجغرافيا والحساب والأدب. كانت رغبته الوحيدة ووالده أن يصبح أزهريا خالصا. ولكن قد تغير الأمر حتى استيأس من شيوخ الأزهر وأساتذته. حقا، وقد انصرف همه إلى دراسة الأدب. وكان السيد المصري أستاذا في الأدب أحبه الصبي كثيرا كما اعتبره المصري من خواصه من الطلاب. وهو كان أحد منتقدي اللادع لشيوخ الأزهر وطرق تدريسهم.

كذلك كان ثلاثة من الطلبة بما فيهم هذا الصبي وهم يفضلون كتب الأدب القديمة على المؤلفات الأزهرية ويقرأون دواوين أشعار المجون جهرا في الأزهر وينتقدون أساتذة الأزهر على تقاليدهم القديمة غير المتحضرة. فجميع مثل هذه الأفعال أثارت استياء شيخ الأزهر وعزم على محو أسماء هؤلاء الطلبة من سجل الأزهر وإلغاء درس كتاب الكامل للمبرد الذي كان يليقه السيد مرصفي على أن المبرد معتزلي مذهبا.

فاستعطف هؤلاء الثلاثة للشيخ بخيت، لكن الأمر لم ينجح. وأما الصاحبان له فهما خرجا عن هذا الطريق، ولكن الفتى لم يتراجع فحسب، بل كتب مقالا ينتقد فيه بشدة الأزهر بأجمعه وشيخ الأزهر على وجه الخصوص، ويطالب فيه حرية الرأي أيضا. وبعد أن قرأ مدير الجريدة هذا المقال عرض العطف والاشفاق عليه ونصح له أن يتراجع من هذه المهمة، وإلا

ليکفي هذا المقال وحده ليصير الأزهر على العقوبة عليه. وفي نهاية المطاف أن شيخ الأزهر لم يصر على عقابه. وبعد هذه الحادثة كان صاحب السيرة يتردد على مدير هذه الجريدة حتى "وظفر الفتى بشيء طالما تمناه، وهو أن يتصل ببيئة الطرابيش بعد أن سئم بيئة العمائم"^{٣٨}. نمت هذه الصداقة بينهما إلى درجة حيث كان لاقاه مرة كل يوم.

وفي ختام هذا الجزء يتحدث الفتى عن صراعيه، الأول منهما صراع يتعلق بقضاء إجازته الصيفية في بلدته الجديدة حيث انتقلت أسرته إليها من مدينته القديمة. والأخير هو فيما يتعلق بمستقبله في الأزهر حيث أن أخاه انتقل إلى مدرسة القضاء الشرعي وفي حين أن ابن خالته ومعاونته التحق بدار العلوم. ولحسن حظه، أنه كان قد تم فتح الجامعة الجديدة في القاهرة. فبدأ يختلف إلى الأزهر مصباحاً وإلى دروس الجامعة ممسياً^{٣٩} معاً، رغم أنه "قد قطع الصلة بينه وبين الأزهر في دخيلة نفسه وأعماق ضميره. ولكنه ظل مقيداً في السجلات"^{٤٠}.

يختتم هذا الجزء كالذي يوجه الوالد لابنه إذ يقول "ها أنت ذا يا بني تهجر وطنك ومدينتك ودارك وتفارق أهلك وأصدقاءك، وتعبّر البحر في سنك هذه الصغيرة لتطلب العلم وحيداً في باريس". فهنا يرى السارد 'ذاتاً' له في ذكرياته خارجاً عن ذاته الحقيقة حال سرده.

الجزء الثالث

يبتدئ هذا الجزء بذكرياته الأعوام الأربع التي قضاها في الأزهر. وقد كان سئم الفتى الأزهر بسبب التقاليد القديمة فيها وأسلوب مطرد متشابه دون أمر جديد حتى أنه عد هذه الأعوام الأربع أربعين عاماً. وفي حينئذ جاء إعلان فتح جامعة جديدة في القاهرة فتحمس الالتحاق بها. وشعر بشيء مختلف فيما يُلقى فيها من مواد وطريقة اللقاء وما إلى ذلك. "ولم ينفق الفتى

٣٨. المصدر السابق، ص ٢٩٥

٣٩. المصدر السابق، ص ٣٠٣

٤٠. المصدر السابق، ص ٣٠٤

ثلاثة أيام منذ افتتاح الجامعة حتى تغيرت حياته تغيرا فجائيا كاملا^{٤١}. وكان يتردد بين دروس الجامعة والأزهر معاً ثم تم التخلي عن العلاقة مع الأزهر تماماً.

في الدائرة الاجتماعية

وهنا يبدأ طور مهم في حياة طه حسين حيث تنهض بيئة علمية جديدة في جامعة المصرية وعلاقته بالسيد لطفي السيد مدير الجريدة وصاحب مذهب الاعتدال والقصد في النقد والشيخ عبد العزيز جاويش صاحب مذهب الغلو والاسراف. وبفضل هذين الشخصين وإغرائهما تمكن دخوله في عالم الكتابة حيث "كان الفتى يستجيب للمذهبين جميعاً، وإذا اقتصد في النقد نشر في الجريدة، وإذا غلا نشر في صحف الحزب الوطني"^{٤٢}. بينما هو كذلك أنه لم ينجح في الامتحان في الأزهر لنيل درجة. إذ يقال إنه كان ذلك جزءاً من المؤامرة ضده من قبل لجنة الممتحنين لنقده اللاذع ضد الأزهر والأساتذة فيها.

وفي تلك الأيام كان يعيش حياة الأدباء مع صاحبيه حيث تغلب على نفوسهم مزاج غريب من المتعة وانغمسوا في عالم الأدب قراءة وحفظاً من الأشعار الجاهلية والإسلامية والعباسية وأخرى من كتب الأدب القيمة وأخبار الشعراء والأدباء وما إلى ذلك. وبفضل عبد العزيز جاويش ولطفي السيد أتيح للفتى فرصاً وافراً للخروج من عالمه المغلق إلى الحياة العامة والتعرف على عديد من المختصين بالأدب مثل نبوية موسى ومي زيادة وغيرهم.

حياته في الجامعة^{٤٣}

لقد أمضى السنة الأولى في الجامعة وهو يجلب الفرح والبهجة إلى السطح في ظل ذكريات الأزهر اليانسة. إلا أنه أتيح له فرص كبيرة للتفاعل مع بيئة أكاديمية جديدة حيث تمكن من عبور المذاهب المختلفة في الأدب وألوان التاريخ ومختلف المواضيع الأخرى. كما تمكن من التعلم من أساتذة متميزين من ثقافات مختلفة، مثل كارلو نالنو، المستشرق الإيطالي،

٤١. طه حسين، الأيام (الجزء الثالث)، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط ١، ١٩٩٢، ص ٣١٥.

٤٢. المصدر السابق، ص ٣١٨.

٤٣. المصدر السابق، ص ٣٤٣ - ٣٦١.

وسانتيلانا، وميلوني، وليتمان الألماني، وعديد من الأساتذة المصريين الفضلاء الآخرين. وفي أثناء هذه المدة قدم رسالته للدكتورة ونجح بدرجة فائقة. كان لديه حرص شديد لامتلاك قدرًا كبيرًا من العلوم، فانصرف همه هذه المرة إلى دراسة اللغة الفرنسية. بدأ من أولياتها بشيء من المشقة حتى خطا بخطوات بعيدة بفضل رفيقه محمود سليمان.

رحلته إلى فرنسا^{٤٤}

كان في نفس الفتى أشد رغبة في أن يسافر إلى فرنسا وتلقى ما استطاع من العلوم والثقافة من جامعاتها. ذات يوم أنه لوحظ إعلان في الجريدة فكتب إلى رئيس الجامعة يفيد رغبته في انضمام البعثة. وتم قبول طلبه فقط بعد تقديمه ثلاث مرات وحصوله على درجة الدكتوراه. لما حان موعد السفر أعلنت الحرب فتوقف إرسال البعثة من قبل الجامعة. قضى الفتى في القاهرة حياة عناء وضيق، وغلب عليه الملل واليأس حتى طلعت في ذهنه فكرة أن يعمل في الجامعة المصرية دون أجر فكتب إلى رئيس الجامعة وتم القبول لصالحه بمكافأة إلى أن تم تحديد موعد السفر إلى فرنسا. وكان معه أخوه وطالبان من بعثة الجامعة.

على الرغم من أنه يعاني من عناء ومشقة فيما يتعلق بإجادة اللغة الفرنسية وتعلم لغة جديدة هي اللاتينية التي هو كان أشد حاجة إليهما لتحقيق غايتها هي الحصول على درجة الليسانس، والأزمة المالية فيها، كانت هذه المعاناة أيسر له من أن كانت حياته في الأزهر. وكان أيضًا يعاني من الوحدة في الغرفة بعد أن يفرق رفقاءه للنوم لأنه قد كان وقع الافتراق بينه وبين أخيه.

بينما كان في باريس اضطر الرجوع إلى القاهرة حسب تعليمات الجامعة. وأقام في القاهرة ثلاثة أشهر مع آلامه النفسية وأفكاره التي تزعجه دائمًا وتردده على الجامعة لحضور بعض دروسها. وفي تلك الأيام أن عبد الحميد الحمدي صاحب جريد 'السفور' كان يطلب منه أن يكتب شيئًا في الجريدة فنشر كتابه عن أبي العلاء. ثم رجع إلى باريس لما انفرجت الجامعة من أزمته المالية.

٤٤. المصدر السابق، ص ٤٠٠

وفي هذه المرة بعد عودته إلى فرنسا اتخذ الفتى زيا أوروبا جديدا بعد أن كان في الزي الأزهرى القديم. ولم يكن هذا التغيير مجرد علامة خارجية، بل كان رمزاً لانتقاله النفسى الكامل إلى الثقافة الغربية. على الرغم من ذلك أن كل ما احتل من عناء ومشقة كان لا يزال يؤلمه ويؤذيه في دخيلة نفسه وفي أعماق ضميره. بينما هو كذلك إن وصول السيدة الفرنسية إلى حياته الشاقة المظلمة ألقى ضوءا جديدا ليس على حياته الفكرية والأكاديمية فحسب، بل على حياته المادية أيضا. وقضى صيفه المقبل معها ومع أسرته في بلدها.

وكان عليه أن يتم بعض الواجبات في وقته المحدد في فرنسا قبل عقد الزواج بينهما، وذلك كان تنفيذاً للعهد الذي تم بينه وبين الجامعة. ومن مهمته هو أن يظفر بدرجة الليسانس والدبلوم في الدراسات العليا وأن يتقدم بدرجة الدكتوراه بعد ذلك. إن فكرة نيل الدكتوراه من فرنسا كان عزما من عند نفسه. ولم يكن بإمكانه تقديم أطروحته إلى جامعة أجنبية إلا بعد الحصول على إذن من الجامعة المصرية بعد موافقتها. وهكذا ظفر بدرجة الليسانس والدكتوراه بعده^{٤٥} من جامعة سوربون بعنوان 'فلسفة ابن خلدون الاجتماعية'.

بينما هو في باريس أن الزوجان بوركا بطفل جديد المسمى بأمانة^{٤٦}. وكذلك ظفر في تلك الأيام بالدبلوم^{٤٧} وعاد مع زوجته وطفله الجديد. وكان في مصر يعاني من الأزمة المالية ليقود أهله من زوجة وابنة. وأصبح أستاذا في الجامعة^{٤٨}. وفي الفصل الأخير من الجزء الثالث يتحدث عن الانقلابات السياسية والاختلافات بين أبناء مصر فيما يتعلق باستقلال من الانجليز وإلحاح الموقف عليه لانضمامه في سياسة مصر.

المبحث الثالث: الاعتراف في 'الأيام'

يمتاز كتاب 'الأيام' بطبيعته الاعترافية حيث يصرح السارد مكنوناته النفسية وذكرياته المتوارية بشكل غير مسبوق في الأدب العربي. فهذه السيرة هي شهادة مباشرة على كيف أن كل

٤٥. المصدر السابق، ص ٤٧٤

٤٦. المصدر السابق، ص ٤٨٢

٤٧. المصدر السابق، ص ٤٩٣

٤٨. المصدر السابق، ص ٥١٠

تجربة من التجارب الحسية في مرحلة الطفولة كانت بمثابة عامل حاسم في تحديد الحياة اللاحقة وإيقاظ الموهبة وتكشف الإمكانيات الفطرية وإدراك تحقيق الذات في الأفراد. يرى الباحثون أن 'الأيام' هو تعبير اعترافي صريح صادق، "وهي اعترافات لا تقل روعة وجمالا عما كتبه علماء الغرب المشهورون من أمثال جيته وروسو وشاتو بريان، إذ يعرض طه ذكرياته عن طفولته وشبابه برقة وصراحة منقطعة النظير"^{٤٩}. وفي الوقت نفسه أنه لا يجتاز حدود الاعتراف من حيث جانبه الأخلاقي.

والجدير بالذكر هنا ملاحظة الدكتور عبد المحسن طه بدر مقتبسا بخطاب المؤلف لابنته الوارد في نهاية الجزء الأول من الأيام، فهو أن الكاتب لم يتخذ موقف الحياد، بل قام بمصارحة بعض التجارب وأغفل عن بعضها. ثم يقول "إن المؤلف لا يتوجه بكتابته إلى ابنته وحدها، وإنما يتوجه به إلى المجتمع بأسره.... وأن عنصر 'الاختيار' ينفي عن الكتاب كونه مجرد يوميات أو مذكرات، كما أن خشية المؤلف من الصراحة الكاملة ينفي عن الكتاب كونه مجرد مجموعة من الاعترافات"^{٥٠}. ويمكن الافتراض عند الفكرة في هذه الناحية، أن هذا الكتاب يخرج من دائرة الاعتراف الفاضح متمسكا الكاتب بتراث العرب المحافظة بالحياء، بل وجود بالتعبير العاطفي المسهب حتى بعناصره الدقيق دون بخل في كشف النقاب عن دوائل نفسه على الاطلاق. ومعنى ذلك أن كتاب 'الأيام' ثري بالبوح المسهب للتجارب العاطفية للساد دون الاعتراف الفاضح.

ضمير الغائب

إن من جمالية السرد في 'الأيام' هي استخدام الكاتب ضمير الغائب أداة فنية لإفضاء تجاربه بدلا من ضمير المخاطب الأكثر شائع في السير الذاتية. وهذه التقنية نفسها لا تزال تثير اهتمام دارسي هذا الكتاب. وهم يرون أنه أشد تعقيدا وأكثر خفاء في تحليله. فيرى

٤٩. شوقي ضيف، الادب العربي المعاصر في مصر، دار المعارف، القاهرة، ط ١٠، ص ٢٨٤

٥٠. عبد المحسن طه بدر، تطور الرواية العربية الحديثة في مصر (١٨٧٠-١٩٣٨)، دار المعارف، القاهرة، ط ٣، ١٩٧٢، ص ٣٠٣-٣٠٤

بنفنيست^{٥١} أن هذا النوع من الاستعمال يدل "على رفعة الكائن أو على تحقيره وإهانته"^{٥٢}، وعلى حين أن فيليب لوجون يلاحظ انه يعكس "ضرباً من السخرية من النفس أو حمايتها أو العجب أو الزهو بها"^{٥٣}. أما إحسان عباس فهو يرى أن استعمال ضمير الغائب في الأيام يعطي نوعاً من التجرد، إذ يقول "إن طبيعة الانسياب فيه وسرده في ضمير الغائب قد حقق شيئاً من التجرد في الحكم، برئ من مظنة العجب والدعوى والتمجيد بالنفس وغير ذلك من الصفات التي يوحي بها ضمير المتكلم"^{٥٤}. فالدكتور يحيى عبد الدائم ذهب مخالفاً لما اتخذ إحسان عباس من مذهب، فيرى أنه "من عوامل عجبه بذاته، حين فصل بلجوئه إلى استعماله بين ذاته وبين مواقف حياته وأحداثها، وشخصيات بيئته، وضاعف بين المسافة بينه وبين وقائع حياته"^{٥٥}، وعلى حد رأيه أنه من خلال استعماله هذا "يتوارى بشخصه وذاته خلف ضمير الغائب ليصب سخطه ونقمته على تلك الشخصيات"^{٥٦}، التي كان عليه أن يتعامل معهم من بيئته.

وفي الحقيقة، أن ضمير الغائب يمثل المحايدة بين نقيضين أو الثنائية كما يمثل الموضوعية. وهذه الطبيعة التناقضية هي من إحدى الخصوصيات الرئيسية للظواهر الكونية. إنما الوعي بهذا التناقض في الحياة والتوسط بين أقصى طرفيها فهي التي تعطي للحياة الجمال والأزلية. وهنا يتبنى طه حسين – تعمداً أو على غفلة - تقنية نفسية، حيث يُرى الفرد ومشكلاته كيانا منفصلاً ويقترّب منها شخصاً خارجاً عنها، مما يسمح للفرد بإخراج صراعاته النفسية إلى الخارج بدلاً من استيعابها. وهذا الأسلوب يحقق المحايدة من بين الاستلام المطلق والتمرد العنيف. يعد إضفاء الطابع الخارجي على مشكلة (Externalisation of the problem) الشخص أحد الأساليب المستخدمة في العلاج السردى (Narrative Therapy) في علم النفس. فهذا النمط من التعبير لا يحدد المشاكل داخل الأفراد، بل باعتبارها نتاجاً للثقافة والتاريخ. ويفهم هنا أن

٥١. هو إميل بينفنيست (١٩٠٢-١٩٧٦) هو لساني وسيميائي فرنسي

٥٢. شكري ميخوت، سيرة الغائب سيرة الاتي: السيرة الذاتية في كتاب الأيام لطف حسين، ص ١٠٢

٥٣. المرجع السابق، ص ١٠٣

٥٤. د. إحسان عباس، فن السيرة، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ط١، ١٩٩٦، ص ١٣٤

٥٥. د. يحيى عبد الدائم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٤٢٤

٥٦. المرجع السابق، ص ٤٢٤

المشاكل قد تم بناؤها وخلقها اجتماعيا مع مرور الوقت. وهذه الحالة تُمكن الفرد من إدراك أن ذاته والمشكلة التي يقترن بها كلاهما ليسا شيء واحد. فهذا النمط يفى وظيفة الاعتراف حتى يتمكن الفرد التحرر من كل موانع نفسية وبالتالي ممارسة صفة 'الاختيار' الموهوب طبيعيا.

خيالات الطفولة

كان في ذكرياته عن خيالات الطفولة تلميح واضح أو رمزي للعالم المتحرر من جميع القيود الذي يرغب الكاتب في أن يتحقق في حياته المستقبلية. أما السياج من القصب الممتد إلى مالا نهاية له في خياله^{٥٧}، والأرانب التي تتخطى السياج وثبا من فوق،^{٥٨} حيث كان يحسد منها، فكلاهما يتمثلان قيد العمي الجسدي والمجتمعي معا، وتتوقه إلى آفاق العالم مالا نهاية من عالم وتجربة التي أنجزها في حياته فيما بعد، على التوالي. ولكنه عرف فيما بعد أن هذا السياج ينتهي إلى قناة من قريب. وهو يذكر أن "كان لها في حياته - أو قل في خياله - تأثير عظيم"^{٥٩}. حقيقة أن إمكانية اجتياز سياج العمي والقيود كان أقرب من ذاته ومتأصلة فيها، لكنها فقط في خياله كان أبعد.

تعبير عن حرمان المجتمع

فهذا الكتاب تجسيد رائع لحرمان المجتمع الذي كان يعيش فيه. ينعكس فيه تعبير اعترافي للكاتب أيضا حيث يقول "كان مبعث بيئته التي عاش فيها حياة غاصة بالجهل والقسوة والحرمان والصراع سواء في قريته، أو في القاهرة حين وفد إليها يطلب العلم، تلك البيئة قد سلبته نعمة الابصار صغيرا، فقتلت فيه حاسة من الحواس الضرورية للإنسان وحرمته منها، لما يشيع فيها من تخلف وظلمة وسداجة وتواكل"^{٦٠}. وكان موت أخته الصغيرة - قد سبق الذكر عنه - فريسا لعمي مجتمعه. وقد شاهد منظور الحرمان الممتد في الأزهر أيضا. وهو يصورها

٥٧. طه حسين، الأيام (الجزء الأول)، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط ١، ١٩٩٢، ص ١٦

٥٨. المصدر السابق، ص ١٦

٥٩. المصدر السابق، ص ١٦

٦٠. يحيى عبد الدائم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٣٨٣

تصويرا بديعا في 'الأيام'. وكان الناس في تلك الأيام يفتنون على الأزهر. "فتصيب من العلم والدين ما تستطيع، ولكنها تصيب معها ألوانا من علل الأجسام والأخلاق والعقول أيضا"^{٦١} وقد تجلى عمق الجهل وعدم الإصلاح في جميع النشاطات في الأزهر. وقد كان بدأ يحس بها منذ حتى في امتحان وضع للدخول في الأزهر حيث يقول "وقد كان ينتظر على أقل تقدير أن تمتحنه اللجنة على نحو ما كان يمتحنه أبوه الشيخ. ولكنه انصرف راضيا عن نجاحه، ساخطا على ممتحنيه، محتقرا لامتحانها"^{٦٢}. حتى أن مخاطبتهم به كان بتسمية 'الأعمى'.

بالنسبة للكاتب أنه ليس فقط بسبب عميه في عينيه عليه ان يواجهه، لكن عمي مجتمعه أيضا. يلاحظ فدوى مالطي دوغلاس أنه "أولا هنالك الإعاقة الجسدية وهي فقدان البصر وتمكن من خلالها وصف وجهة نظر الأعمى تجاه إعاقته. كيف يرى الأعمى نفسه كشخص بدون بصر؟ أما الإعاقة الأخرى فهي الاجتماعية فتوضح كيفية تعامل المجتمع مع الأعمى. ما هي مفاهيم مجتمع معين عن العمى، كيف يفسر هذه المفاهيم فيما يخص مثلا الدور الاجتماعي للأعمى؟"^{٦٣}. فيمكن أن يكون احساسه بالحقيقة بأن العمى الحقيقي ليس في عينيه، ولكنه كان في عيون المجتمع. فلعلها هي التي دفعته إلى عوالم القراءة والكتابة وتجليات ذاته الحقيقية.

ذكريات عن الوالدين

أثناء الإشارات إلى ذكريات طفولته، فإنه يشارك أيضا ذكرياته عن والديه وإخوته وأخواته. وهو يستفيض الحديث عن والده حيث كان أكثر إجحاحا على أن يكون عالما أزهريا، وكان عليه قبل ذلك لا بد من حفظ القرآن واكتساب المعارف الأخرى. وكذلك يتحدث عنهما في ذكرياته عن موت أخيه وما يتعلق به من عادات وتقاليد عمياء في مجتمعه. ويعترف أيضا، رغم انه كان يحس من والديه رحمة ورأفة ورفقا، وشيئا من الإهمال^{٦٤} أيضا. ومع ذلك انه كان يؤذيه

٦١. طه حسين، الأيام (الجزء الثاني)، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٢، ص ١٩٧

٦٢. المصدر السابق، ص ٢٢٥

٦٣. فدوى مالطي دوغلاس، العمى والسيرة الذاتية، ترجمة: الدكتورة لمياء محمد صالح باعشن، ص ٢٣

٦٤. طه حسين، الأيام (الجزء الأول)، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٢، ص ٢٤

الاحتياط من قبل أخواته "لأنه كان يجد فيه شيئاً من الإشفاق مشبوحاً بشيء من الازدراء" ^{٦٥}. لكن لم تذكر أي إشارة إلى علاقته العاطفية الخاصة بأمه التي قد تتطور في الأفراد في مثل هذه الحالات. علاوة على ذلك أنه ليس من الممكن العثور على أي إشارات عن والديه وأعضاء أسرته في ذكرياته ما بعد مدة دراسته في الأزهر. وكذلك أنه لا يقوم في سيرته بتحليل مركز حول خصلاته في شخصيته التي يمكن أن تشكلت نتيجة عن الأحداث في طفولته والتجارب العاطفية المجروحة المعبرة عنها.

عاطفة الحب

كانت حياته تدور حول هدف مركز هو اكتساب أكبر قدر ممكن من المعارف العصرية بما يتجاوز إدراك المعرفة التقليدية الموجودة. وكانت قد تجلت في جميع مساعيه وحركاته مدة دراسته. فلم يرد في كتاب 'الأيام' عن رغبته الجنسية وعاطفة الحب لديه. وأما فتاة فرنسية التي صارت فيما بعد شريكة له في الحياة فحتى الإشارات إلى علاقته بها كانت موضوعية للغاية. إما أنه تجاهل من أن يعترف عن مثل هذه الإشارات في سيرته أو ممكن أن رغبته الجامحة في الوصول إلى الكمال جعلتها أمراً غير ذي مغزى.

المبحث الرابع: الاعتراف وسلوكيات بديلة للتنفيس

إنه مما يمكن أن يقال إن الاستلام والتمرد ليسا من الإيقاع الطبيعي للفطرة البشرية، بل أنهما يتشكلان من تجارب الحياة السلبية في مسارها الدائبة. فمثل هذه الأنواع من التجارب هي التي تجعل التعبير عن الذات والاعتراف أمراً لازماً لدى الأفراد. وأما الجوانب الإيجابية لها فهي تحفز الأفراد للسعي الدائب إلى التفوق، وبالتالي الوصول إلى تحقيق الذات. فالتعاطف الوجداني مع من لديه تجارب مماثلة، والسعي المستمر إلى المجد والتفوق وما يماثلهما من الأنماط السلوكية تفي وظيفة الاعتراف لدى الانسان. فيمكن تضمينها في عداد الظواهر

النفسية مثل آليات الدفاع الصحية مثل الإغلاء أو التسامي^{٦٦} (Sublimation) التي اقترحها سيغموند فرويد حيث يوجه الفرد طاقة دافع غير المرغوب لديه إلى دوافع مرغوبة. ويحدث التسامي نتيجة لفشل واضح، أو حرمان ظاهر لدى الفرد، فيتجه إلى الفن أو الأدب أو ما يماثله من غايات إنتاجية وقابلة للتحقيق.

الاستسلام والتمرد

تكشف دراسة في شخصية طه حسين في 'الأيام' من خلال أطوار نموه في الحياة، أنه كان قد تطور فيه موقف يتوسط بين أقصى الاستسلام والتمرد في أوائل أيامه. وكان في تلك الأيام دائماً يحتفظ بالمعاملة في خارجه رغم أن كان في داخله التمرد. وذلك ممكن أن يكون خوفاً من الجراءة للمصارحة من الشعور بالعار والنقص نتج عن حادثة مجروحة^{٦٧} في طفولته. فالموجات العاطفية المجروحة كانت تطارده في جميع لحظات في أوائل حياته. هو يعبر عن ذاته والصراعات حولها إذ يقول إن "الغريب من أمره وأمرها أنها كانت تؤذيه في دخيلة نفسه وأعماق ضميره. كانت تؤذيه سرا وتجاهره بالخصومة والكيد، ولم تكن تمنعه من المضي في الدرس، ولا من التقدم في التحصيل، ولا من النجاح في الامتحان حين يعرض له الامتحان، إنما كانت أشبه شيء بالشيطان الماكر المسرف في الدهاء"^{٦٨}. ولكن هذه الصراعات المؤرقة لم تمنعه عن السعي نحو التقدم في سبيل تحقيق الذات.

وتبدو هذه المعاملة فيه بالأفراد الذين يتعامل معهم حتى مع رفاقه في مواقف مختلفة. فكان "يعرض الرفاق عليه الطعام حين يأتي موعده فيرده في رفق ولكن في تصميم"^{٦٩}. ويمكن أن كان ذلك خوفاً من الاستهزاء منهم الذي اختبر نفس الشيء من بيئته الأسرية في أيام الطفولة. وكان لديه رغبة في أن يعامل معاملة طبيعية مثل التي كان يقوم بها أقرانه، ولكن خوفه من التعرض للاستهزاء دفعه إلى اللجوء إلى عالمه الخاص. وإذ يقول إحدى السياقات في الأزهر

^{٦٦} . التسامي، مقال انجليزي على موقع 'Psychology Today' ينظر <https://www.psychologytoday.com/us/basics/sublimation#> بتصرف.

^{٦٧} . طه حسين، الأيام (الجزء الأول)، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط ١، ١٩٩٢، ص ٢٦

^{٦٨} . المصدر السابق، ص ٤٢٨

^{٦٩} . المصدر السابق، ص ٤٣٤

بينما هو مع زملاءه لتناول الشاي. "والصبي مطرق منحن في مكانه، يقدم له نصيبه من الشاي في صمت، فيشربه مترفقا في صمت أيضا. وهو يلحظ ما يجري حوله، ويسمع ما يقال حوله، فيفهم منه قليلا ويعجزه أكثره عن الفهم، ولكنه يعجب بما فهم وبما لم يفهم ويسأل نفسه متحرّقا متى يستطيع أن يقول كما يقول هؤلاء الشباب، وأن يجادل كما يجادلون"^{٧٠}. بالرغم من أنه كان يخاصم مع أساتذته في الأزهر ويجري بالوقوف ضدهم ويقوم باحتجاجات في كثير من السياقات ملتزما بمواقفه من الأمور في حياته الاجتماعية فيما بعد، كان يتجلى فيه شعاع هذه المجاملة والاستسلام معهم حتى في حياته اللاحقة.

التعاطف بالتجارب المماثلة

ويمكن ملاحظة أن طه حسين قد حافظ على ارتباط عاطفي وثيق بحياة أبي العلاء المعري، شاعر وفيلسوف في العصر العباسي، بما بينهما من تجارب مماثلة. فقد بصره في الرابعة من عمره، وفي حين أن طه حسين صار فاقد البصر وهو ابن خمسة. كان أول رسالته الجامعية حول موضوع أبي العلاء المعري. وقد ورد ذكره في مواضع كثيرة في 'الأيام'. وكان متأثرا بأفكاره حيث كان يتعاطف مع كتاباته العاطفية. وقد غدت أفكاره في الإفراج عن ضائقته العاطفية في مسيرة حياته من أجل تحقيق الذات. بينما هو يروي حادثة من طفولته -سبق ذكره- حيث تعرض لاستهزاء ممن حوله من أعضاء أسرته، أنه يأتي بحادثة مماثلة لها في حياة أبي العلاء^{٧١} التي سببت في أخذ موقف حاسم لديه.

السعي إلى التفوق

إن من الظواهر المزدوجة المعقدة في حياة الانسان هو أن النكسات غالبًا ما تكون بمثابة القوة الدافعة تجاه تحقيق المجد والتفوق. وبالنسبة لطه حسين، كانت حياته سعيا دائما نحو التفوق. أما حادثة مؤلمة التي تجرب بها في طفولته حيث تعرض للاستهزاء من قبل اخوته وأحس بشيء الازدراء والنقصان النفسي فهي كانت غيرت مجرى حياته وغدت في نفسه حافزا

٧٠. المصدر السابق، ص ١٥٢.

٧١. طه حسين، الأيام (الجزء الأول)، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط ١، ١٩٩٢، ص ٢٧

قويا للسعي الدائب من أجل اكتساب قدر ما يمكن له من العلوم والمعارف ونيل الإنجازات الكبرى في حياته. فيمكن القول إن الجروح العاطفية التي نتجت عن إعاقته الجسدية، ذلك فقدان بصره فهو الذي غرس في نفسه رغبة لا تشبع في نيل الانجازات الكبرى، وهو يتذكر عن تلك الحادثة في طفولته حيث انه أخذ اللقمة بكلتا يديه حين تناول الطعام، " فأما إخوته فأغرقوا في الضحك، وأما أمه فأجهشت بالبكاء. وأما أبوه فقال في صوت هادئ حزين: ما هكذا تؤخذ اللقمة يا بني.. وأما هو فلم يعرف كيف قضى ليلته"^{٧٢}.

فهذه الصدفة كانت منعطفا في حياته الجاهدة. "ومن ذلك الوقت تقيدت حركاته بشيء من الرزانة والاشفاق والحياء لا حد له. ومن ذلك الوقت عرف لنفسه إرادة قوية. ومن ذلك الوقت حرم على نفسه ألوانا من الطعام لم تبح له إلا بعد أن جاوز الخامسة والعشرين"^{٧٣}. فأصبح بعد ذلك قليل الميل إلى الطعام^{٧٤}، وحرم على نفسه اللعب مخافة الضحك^{٧٥}. وفي الوقت نفسه أنها خلقت في نفسه إرادة قوية والحرص على تحصيل قدر ما يمكن ما لا يعرف من العلوم^{٧٦}. فحياته بعدها قد دارت حولها وما ترتب عليها من عواطف سلبية.

استعادة ذاته الحقيقية

إنّ ذات الإنسان تحافظ على فطريتها في مراحل نموه من خلال الاحتكاك والتواصل مع أشياء خارج ذاته - عملية الأخذ والعطاء - من بيئته على شكل طبيعي. إذا فقد هذا النمط الطبيعي في مساره تتولد فيها الصراعات النفسية. وبالتالي قد يؤثر على أفكاره وسلوكياته. وفي نفس الوقت أن هذه الحالة قد تستلهمه إلى التفكير الأعمق علميا وفلسفيا. فيبدو أن الشعور بالإهانة والنقص التي تلقاها طه حسين من بيئته بسبب فقدان بصره وتولد فيه صراع نفسي حتى أدى إلى تحسين موهبته وتحقيق ذاته الحقيقية وتمكين ممارسة 'الاختيار' لديه. وإذ

٧٢. المصدر السابق، ص ٢٦.

٧٣. المصدر السابق، ص ٢٦-٢٧.

٧٤. المصدر السابق، ص ٢٨.

٧٥. المصدر السابق، ص ٢٩.

٧٦. طه حسين، الأيام (الجزء الثاني)، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٢، ص ١٣٩.

يقول إنه "كان يحمل في نفسه ينبوعا من ينابيع الشقاء لا سبيل إلى أن يغيض أو ينضب إلا يوم يغيض ينبوع حياته نفسها. وهو هذه الآفة التي امتحن بها في أول الصبا، شقي بها صبيا وشقي بها في أول الشباب وأتاحت له تجاربه بين حين وحين أن يتسلى عنها."^{٧٧}

فإذا انعدم الإيقاع الفطري في التفكير والمشاعر، والسلوكيات التي تليهما يتولد فيه اختلال التوازن، فهذه الحالة تمثل عدم الثبوت والتفاوت في المزاج ما بين السعادة والشقاوة. وفي نهاية سلسلة من التجارب غير المتوازنة، يصل العقل إلى حالة التوازن. هذا ما تتطلبه الفطرة البشرية. لا حدث غير متوازن في حياة الانسان، بل إنما يحدث الاختلال في موقفه نحوه. فكتاب 'الأيام' يرسم بدقة تطورا تدريجيا للفرد من عملية عقله غير المتوازنة إلى موقف عقلي ثابت أو يمكن أن يقال إنه قصة إدراك الذات الحقيقية للفرد.

بالاختصار، إن مثل هذه السلوكيات التي تشجع الفرد إلى تحمل على المجهودات الشاقة غير العادية في سبيل نيل المجد والإنجازات، تفي وظيفة الاعتراف عند الافراد، وأنها ستصير عملية تعويضية لما تفقد من حقوق فطرية موهوبة في الحياة.

الخاتمة

فكتاب 'الأيام' يحتل مكانة متميزة بما له من ريادة في عداد أدب السيرة الذاتية العربية في العصر الحديث. وهو ثري بتعابير عاطفية بوفرة في قالب قصصي مع الميثاق الأتوبيوغرافي الضمني حيث استخدم ضمير الغائب وسيلة للتخاطب. وعلى الرغم من أنه محتوى على عديد من العناصر الاعترافية والتعبير عن الصراعات في مختلف مراحل حياته، يجدر بالملاحظة أنه دائما كان يلتزم بالمحايدة من حيث التعبير الاعترافي.

٧٧. طه حسين، الأيام (الجزء الثالث)، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٢، ص ٤٢٧

الفصل الثاني

'حياتي' - أحمد أمين

البيانات الوصفية

اسم الكتاب	: 'حياتي'
سنة التأليف	: ١٩٥٢-١٩٥٠
المؤلف	: أحمد أمين (١٨٨٦ - ١٩٥٤)
الناشر	: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة
تاريخ النشر والطبعة	: الطبعة الأولى، ٢٠١٢

المقدمة

يعد كتاب 'حياتي' لأحمد أمين إحدى المؤلفات القوية المثيرة في أدب السيرة الذاتية العربية الحديثة بعد نشر كتاب 'الأيام' لطفه حسين كونه حضوراً عربياً متميزاً من نوعه لنظيره في الأدب الغربي. وقد تم تأليفه سنة ١٩٥٠. ثم ألحقها بعض الأحداث في الطبعة الثانية سنة ١٩٥٢ م، التي لم يكن تم تضمينها في الطبعة الأولى لعدم وجودها في ذاكرته. ومن ناحية مراحل الحياة أنه سيرة ذاتية على نحو شامل لأنه يضم قصة حياته منذ طفولته حتى مرحلة قبيل إدراكه المنية بأربع سنوات وكان هو في الرابعة والستين من عمره.

كان أحمد أمين كاتباً مصرياً وناقداً ومفكراً ومؤرخاً إسلامياً. أسهم في تجديد الفكر العربي الإسلامي مع موقف وسيطة. اشتهر بتأليفه في تاريخ الإسلام الفكري والحضاري. ولد بمصر سنة ١٨٨٦ م^٢. كان أول مدرسته هي البيت، ثم درس في الكتاب وبعده في مدرسة والده عباس باشا الأول الابتدائية. واصل دراسته في الأزهر ومدرسة القضاء الشرعي في القاهرة وتخرج منها

١. أحمد أمين، حياتي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ص ١١.
٢. محمد رجب البيومي، أحمد أمين مؤرخ الفكر الإسلامي، دار القلم، دمشق، ط ١، ٢٠٠١، ص ٩

عام ١٩١١ م. شغل أحمد أمين العديد من المناصب، مدرسا وعميدا في الكليات وقاضيا وناشرا. اشتهر بمؤلفاته التاريخية فجر الإسلام وضحى الإسلام وظهر الإسلام. وفي عام ١٩٤٨ منحت له الدكتوراة الفخرية من مجلس كلية الآداب ومجلس جامعة فؤاد الأول^٣. وتوفي عام ١٩٥٤ م في مصر.

كان قد اعتاد بتسجيل ما وقع من حياته من حادثة منذ مرحلة مبكرة جدًا من حياته. إذ يقول في مقدمة الطبعة الأولى للكتاب "نبئت عندي فكرة تاريخ حياتي، منذ أول عهد شبابي، فقد رأيتني أدون مذكرات يومية عن رحلاتي، وعن حياتي في الأسرة وأيام زواجي. ووجدتني أسجل في المفكرات السنوية أهم أحداث السنة، وما يسوء منها وما يسر، ولكن لم يكن كل ذلك عملاً منظماً متواصلاً، بل كان يحدث في فترات متقطعة"^٤. وكانت تلك الممارسة أدت إلى تأليف هذا الكتاب في صبغة جديدة على النحو الذي بين يدي القارئ.

إن نفس الانسان - كجميع الظواهر الكونية - يتعقد بعمقها وغموضها من وعي ولاوعي وظاهر وباطن وما لها من ثنائية. طبيعياً أنها تكاد "تغلو في تقدير ذاتها فتنسب إليها ما ليس لها، أو تبالغ في تقدير ما صدر عنها، أو تبرر ما ساء من تصرفها"^٥، فبالتالي يكون الانصاف بعيد عن تعبيرها الحقيقي، وعلى حين أنه في غير استطاعتها أن تعبر جميع ما وقع في حياته دون استثناء. وعلى حد قول الكاتب أن الحديث عن النفس هو نوع من اللباقة، ولذلك أنه لم يدرج في هذا الكتاب إلا ما يوافق الحق من أحداث إذ يقول "لم أذكر فيه كل الحق، ولكني لم أذكر فيه أيضاً إلا الحق"^٦. فهذا الكتاب يحتوي على سبعة وثلاثين فصلاً.

٣. أحمد أمين، حياتي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ص ٢٢١

٤. المصدر السابق، ص ٩.

٥. المصدر السابق، ص ٧.

٦. المصدر السابق، ص ٨.

المبحث الأول: المحاور الرئيسية والقيمة التاريخية والأدبية

يستكشف 'حياتي' تجارب المؤلف وأفكاره وانعكاساته. ومن أهم المحاور التي يشملها هذا الكتاب هي تأملات السيرة الذاتية، وتكوين هوية الكاتب النفسية والثقافية والفكرية وسعيه في الاستكشاف عنها، وبحث عن معنى الحياة واستكشاف الأبعاد الصوفية والتعامل مع أزمة الإيمان من الشكوك وعدم اليقين، والصراعات الشخصية مثل المرض والخسارة والمرونة للتغلب عليها، وشغفه الشديد بالتعلم والنمو الفكري، ودعوته إلى الإصلاح التعليمي، والانخراط في الفكر الغربي والإسلامي، والتغيير الاجتماعي وموقفه المنتقد منه، والدعوة إلى تمكين المرأة وتعليمها واسترجاع حقوقها، ومكافحته للقومية المصرية، والصراعات بين الأصالة والتحديث.

كل قطعة أدبية سجل تاريخي للأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية لسياق تاريخي لساردها. فهذا الكتاب يعكس المناخ السياسي السائد آنذاك، كما ينعكس تطور عقلية العرب حيث شاعت فيهم الفلسفة والزندقة وكذلك تمحور الفكر العربي حول الزواج وتحرير المرأة وما إلى ذلك من أمور مثيرة. ومن الناحية قيمة 'حياتي' الأدبية والتاريخية فهو أكثر ميلا إلى عرض حياته الحقيقية في أسلوب تقريرى مع ما فيه من أسلوب قصصي. وهو يقول عن إفادته بمتلقيه "ولعلها تفيد اليوم قارئاً، وتعين غدا مؤرخاً فقد عنيت أن أصف ما حولي مؤثراً في نفسي، ونفسي متأثراً بما حولي"^٧. فيمكن للقارئ أن يتعاطف مع السارد بما فيه من تعابير عاطفية كما يتمكن للمؤرخ أن يفيد بما فيه من أحداث تاريخية معبرة.

يقول احسان عباس إن "أحمد أمين قد عاد بالسيرة الذاتية إلى التاريخ، وابتعد عن الناحية الفنية، التي تجعل من السيرة الذاتية ينبوعاً يتدفق من النفس ويفيض على ما حولها"^٨. ويضيف أيضاً مقارناً بينه وبين طه حسين أن "صاحب الأيام يصور نموه النفسي الداخلي،

٧. المصدر السابق، ص ٩.

٨. إحسان عباس، فن السيرة، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ط١، ١٩٩٦، ص ١٣٧.

وصاحب 'حياتي' يصور علاقته الخارجية بالناس والأماكن. وبينما تستطيع أن تبني من كل 'الأيام' صورة لشخصية كاتبه، تجد أن أحمد أمين رسم صورته وطبيعته في بضع صفحات^٩ أما يحيى عبد الدائم يلاحظ أنه "لم ينتهج فيها سبيل التحليل والاستبطان والتعبير عن الذات تعبيرا عقليا وفلسفيا على نحو ما فعل 'العقاد' الذي اختار الأسلوب التفسيري التحليلي لترجمته الذاتية، ولم يسلم في أجزاء غير قليلة منها من الأسلوب التقريري. كذلك لم يسلك أحمد أمين في ترجمته الذاتية الاسلوب الذي يجمع بين التفسير والتصوير على نحو ما فعل كل من توفيق الحكيم في 'سجن العمر' وفي 'زهرة العمر' وميخائيل نعيمة في 'سبعون'، كذلك لم يتبع الاسلوب الروائي الذي أفاد، طه حسين بعناصر غير قليلة منه في 'الأيام'^{١٠}. وعلى حد قوله إنه اتخذ صياغة أدبية فيها عناصر من الاسلوب التفسيري التحليلي لدى العقاد، وعناصر قليلة من الاسلوب القصصي الذي اختاره طه حسين لبناء الأيام.

المبحث الثاني: تصوير الذات في 'حياتي'

"ما أنا إلا نتيجة حتمية لكل ما مر على وعلى آبائي من أحداث، فالمادة لا تنعدم كذلك المعاني، قد يموت الطير وتموت الحشرات والهوام، لكنها تتحلل في تراب الأرض فتتغدى النبات والأشجار، وقد يتحول النبات والأشجار إلى فحم، ويتحول الفحم إلى نار، وتتحول النار إلى غاز، ولكن لا شيء من ذلك ينعدم"^{١١}. هكذا يبتدئ 'حياتي' بهذه المقدمة التي تنعكس ما عند أحمد أمين من وعي تام عن العمليات العقلية والنفسية لدى الانسان وتأثير الوراثة في تكوين شخصية الانسان.

إنه لم يختتم على ذلك، بل أضاف أنه "كذلك الشأن في العواطف والمشاعر والأفكار والأخيلة تبقى أبدا وتعمل عملها أبدا، فكل ما يلقاه الانسان من يوم ولادته، بل من يوم أن كان عقلة، بل من يوم أن كان في دم آباءه، وكل ما يلقاه أثناء حياته، سيستقر في قرارة نفسه، ويسكن في

٩. المرجع السابق، ص ١٣٧

١٠. يحيى عبد الدائم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٢٦١-٢٦٢

١١. أحمد أمين، حياتي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ص ١٣

أعماق حسه، سواء في ذلك ما وعى وما لم يع..... وكل ذلك تختبئ في عالمه اللاشعوري، ثم تتحرك في لحظة من اللحظات لسبب من الأسباب فتكون باعثا على عمل كبير أو مصدر لمعمل خطير. وكل انسان - إلى حد كبير - نتيجة لجميع ما ورثه عن آبائه، وما اكتسبه من بيئته التي أحاطت به"^{١٢} حتى قال " ولو ورث أي إنسان ما ورثت وعاش في بيئة كالتى عشت لكان إياي أو ما يقرب مني جدا"^{١٣}.

فكتاب حياتي ثري بهذه المقدمة على نحو مستطيل متأكد تأثير البيئة والوراثة المعقد في تكوين شخصية الانسان. يمكن تلخيص ما رسم الكاتب من شذرات التجارب الذاتية، على النحو التالي:

أصل الأسرة

يذكر الكاتب عن أصل أسرته^{١٤}. كانت أسرة أبيه من 'سمخراط' هجرها مع أخيه الأكبر خوفا من ظلم الحكام والأعيان بالسخرة وتحصيل الضرائب غير العادلة ثم أقام في ضواحي القاهرة. كان أبوه عالما أزهريا متدينا. وقد تلقى مبادئ العلوم من بيته الذي بناه أبوه يضم دورين غير الأرضي، يتميز بالنظافة والبساطة. وكان أثنى شيء فيه الكتب. كان يقضي أكثر أوقاته في مطالعة الكتب في الفنون المختلفة. قد كان تعود أحمد أمين من استفادة منها ويمضي ساعات فيها. كانت ولادته في هذا البيت سنة ١٨٨٦ رابعا من أبناء والديه. ولم يكن أبوه يحب كثرة الأولاد خشية المسؤولية. وقد مات أختها وهي في الثانية عشرة من عمرها محترقة بالنار.

كان بيته محكوما بالسلطة الأبوية، ولذلك قد كان البرود العاطفي مغطيا وسائدا في بيته. وإن علاقته العاطفية كانت مع أمه، فيقضي معها في الحديث والفكاهة. ومع ذلك وكان يستمع إلى قصص شعبية التي ترويها جدته وحكاية من ألف ليلة وليلة من أخيه. وبعضها كانت مفرحة وأخرى مرعبة أيضا. على كل حال أنّ الشعور الديني كان مغمورا في بيته. ويلاحظ أحمد أمين

١٢. المصدر السابق، ص ١٣-١٤

١٣. المصدر السابق، ص ١٤

١٤. المصدر السابق، ص ١٥-١٧

أن سلطة الأمهات والأبناء والبنات التي حلت محل النظام الأبوي بعد انهياره أيضا لا تقل خطورته شيئا عما كان من قبل، فكلا النظام يجلبان التصادم والتخاصم ويفقدان سعادة البيت ويسدان الإيقاع الفطري في الحياة البشرية.

ذكريات الطفولة

يتذكر أحمد أمين ثلاثة حوادث^{١٥} التي لا تزال تبقى في ذاكرته. مرة وهو كان الرابعة من عمره أعجبتة 'جباسة' التي يطحن فيها كل شيء باستخدام الثيران والاسطوانة الحديدية وقضى فيها أوقات، فتغيب عن رؤية أبويه، أخيرا عثروا عليه. كما يتذكر حادثة أخرى حينما كان مع أبيه في المسجد فسقط في 'الميضأة' على غفلة أبيه. لو لم يلفت انتباه أبيه نحوه لكان القدر مختلفا تماما. وفي حادثة أخرى أنه تبع مع سائل يستجدي بالفن فتأخر عن البيت وقت الغروب. فضربه أبوه بلا سؤال ولا جواب. ومن خلال ذكر أمثال هذه الحوادث أنه يحاول أن يكشف فلسفة الحوادث وفلسفة القدر وما فيها من غموض وعجب.

ثلاثة مدارس

تلقى أحمد أمين مبادئ العلوم واكتسب تجارب الحياة العملية من ثلاثة مدارس. فهي البيت والحارة والكتّاب^{١٦}. وفي البيت أنه كان قد اعتاد حياة منتظمة متدينة تحت سلطة أبيه. وكانت تلك الحياة المتدينة الجادة ترفض الشعور بالجمال التي تقتضيها الفطرة البشرية وتعاليم الدين أيضا. لأن في ذلك قضاء على صفة الحرية الإلهية الموهوبة. وأما في الحارة فإنه تعلم دروس الديمقراطية حيث لم يكن بينهم فوارق من أي مقاييس التي شكلت اجتماعيا. وقد تم فيها التعايش بين أطفال الطبقة العليا والطبقة الوسطى والطبقة الدنيا معاً دون أي تفرقة مخلوقة اجتماعيا. وعلى حين أن الكتاب كان مدرسته الثالثة، وفيه أيضا تم إهمال الإيقاع الجمالي في عملية التعليم والتعلم وفي علاقة المدرس والدارس. قضى خمس سنوات في

١٥. المصدر السابق، ص ٢٩-٣١.

١٦. فصول الرابع والسادس والسابع من نفس الكتاب.

الكتاتيب الأربعة المختلفة وتعلم منها القراءة والكتابة وبعض من القرآن الكريم في بيئة خشنة ومملة وغير جذابة.

وهذه الأماكن الثلاثة كانت خالية من الشعور الجميلة التي تجتذب إليها النفوس البشرية. وهو يقول إن "بيتنا لم يكن يعنى بتربية الذوق أية عناية، فليس فيه لوحة جميلة ولا صورة فنية، ولا أثاث منسق جميل، ولا زهرية ولا أزهار"^{١٧}. كذلك الحال في حارته أنها كانت متربة وشوارعها قذرة حافلة بالمزابل العامة. لقد لقي نفس التجارب القاسية الخشنة من الكتاتيب أيضا. "لقد كانت كل هذه تكفي لإماتة الشعور بكل جمال، والشعور بالجمال أكبر نعمة، وتربية الذوق خير ما يقدم إلى الناشئ حتى من ناحية تقويم أخلاقه"^{١٨}.

وبعد ذلك أدخله أبوه بمدرسة أم عباس الابتدائية، كانت بناءها على طراز جديد، ومن المواد المدروسة فيها كل من الحساب واللغات المختلفة من العربية والتركية والفرنسية والانجليزية. وإن البرنامج اليومي الذي وضع له أبوه كان مرهقا يبتدىء من الفجر ويستمر إلى وقت العشاء. "ربما كان يهرب من الدروس، ولكن إذا اكتشف هذا كان جزاؤه الضرب الشديد، وإن تدخلت الأم، فقد يتحول إليها"^{١٩}. كان أبوه متحيرا في أمر دراسته. وهو يدعو الله أن يغفر لأبيه وأن يجزي خير الجزاء على إرهاقه في دراسته وتفكيره الحادة في مستقبله. على كل حال أن هذه المدرسة كانت قد أعطت له شتى التجارب أكثر من دروسها المقررة. ولذلك كان أحب إليه أن يبقى فيها أكثر من التحاقه بالأزهر. قضى فيها أربع سنوات حتى أخرجها أبوه منها إلى الأزهر.

تجاربه في الأزهر

وهو كان في سنة الرابعة عشرة تقريبا ألحقه أبوه في الأزهر. ألبسه زيا ازهريا وأحس له بهذه البدلة مصيبة كبرى. وشعر بأنه صار "كالفرع قطع من شجرته أو الشاة عزلت عن قطيعها، أو

١٧. أحمد أمين، حياتي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ص ٤٣.

١٨. المصدر السابق، ص ٤٣

١٩. المصدر السابق، ص ٤٥، بتصرف

الغريب في بلد غير بلده^{٢٠}. كان الأزهر شيئاً غامضاً لديه من ناحية كنهه ونظامه ومنهجه. لما أحس بالأزهر بحواسه الخمس فهم أنه امتداد للكتاب ولا امتداد للمدرسة^{٢١}. وحزن بمقارنته بالمدرسة^{٢٢} لأنه رأى فناء الأزهر مكاناً لتشميس الخبز، وعلى حين أن فناء المدرسة كان موقع اللعب والمرح. كان قد وضع له أبوه برنامجاً يضم الفقه الشافعي وتجويد القرآن والنحو والعلوم العصرية من جغرافيا والحساب. ولم يكن أوقات الدروس كما عهد بها في المدرسة، إنما كانت منظمة بالصلوات الخمس.

كانت هناك مسافة بين بيته والأزهر نحو نصف ساعة على الأقل، يخرج من بيته قبل زوال الظلام في الفجر ويصل البيت مساءً. وكان بعض الدروس مملاً لم يفهم شيئاً حتى أنه اختفى عن بعض الدروس مع صديقين له، ولكنه التفت إلى دروسه بعد أن أدرك سوء المآل. لقد كان محظوظاً جداً في حياته الأزهرية لأنه تمكن من حضور حلقة الشيخ محمد عبده الذي كان يسمع منه تفسير القرآن وأسرار البلاغة حيث يراجع عن الأوضاع الراهنة للمسلمين وكتاب قاسم أمين 'المرأة الجديدة' وما إلى ذلك.

في سبيل التدريس

حينما كان في الأزهر تم تعيينه بناء على طلبه مدرسا في مدرسة بطنطا. ولم يلبث حتى استقال من الوظيفة لما تم الغاء طلبه للنقل إلى القاهرة بالبدل فرجع إلى الأزهر من جديد. ولم يكن راضياً بد على طريقة الأزهر في الحواشي والتقارير وكثرة الاعتراضات والإجابات، ولكنه تفوق على زملائه في الأزهر بفضل أبيه الذي استفاد أحمد أمين من درسه في اللغة والأدب كما استفاد من مطالعة الكتب في مكتبته أيضاً. حينئذ قدم طلباً لالتحاق بمدرسة دار العلوم، لكنه سقط في الامتحان فاستمر في الأزهر.

٢٠. المصدر السابق، ٤٩.

٢١. المصدر السابق، ٥٠.

٢٢. المصدر السابق، ٥٠.

وفي الثامنة عشرة من عمره وقع عليه الاختيار مدرسا في مدرسة راتب باشا بالإسكندرية التابعة لأوقاف أهلية تحت وزارة المعارف. وأعظم ما كسب في هذه المرة تعرفه بشخصية قوية يكبر منه أربعة وعشرين سنا. كان صوفيا في الطريقة النقشبندية مع أنه حر في الفكر ومبتعدا عن الخرافات ومتعاطفا للشيخ محمد عبده. وكان محبوبا لدى الطلبة في مدرسته "حتى يسمونه الشيخ الانجليزي لترفعه وحرته وصدق قوله وسعة فكره"^{٢٣}.

وتؤكد أقواله عنه بأن صحبته بهذا الشخص الكبير كان له دور مهم في العوامل الكثيرة التي شكلت شخصيته وأفكاره إذ يقول "فلئن كان أبي هو المعلم الأول فقد كان هذا الأستاذ هو المعلم الثاني، فأيقظني، وأعمى فأبصرني، وعبدا انتقلت بفضلته نقلة جديدة وشعرت أنني كنت خامدا للتقاليد فحررتني، وضيق النفس فوسعني"^{٢٤}. ولم يكن تقتصر هذه الصداقة في الاسكندرية، بل توسعت إلى القاهرة فعمل كلاهما معا في مدرسة القضاء أيضا. وكان يستفيد من علمه وتجاربه حتى من حسن حديثه. وقد بدأ في هذه المدة يقرأ الجرائد اليومية، منذ أن أنارت حادثة دنشواي في الدائرة الاجتماعية المصرية، ولم يكن يتعود قراءتها في صغره. وفي سنة ١٩٠٦ تم تعيينه بوالدة عباس التي تعلم فيها صغيرا. وفي هذه الأيام أصيب بحى التيفويد الشديد. تخلص منه بعد عناء طويل بعد أن مكث أياما في دور النقاهاة.

في مدرسة القضاء والجامعة المصرية الأهلية

وفي السنة ١٩٠٧ تم انشاء مدرسة القضاء والتحق بها. وكان منهج الدراسي يضم كل من المواد الاسلامية والعلوم العصرية وأصول القوانين الحديثة ونظام القوانين والإدارة. وهي تمتاز بنظام صارم عنيف لا تقبل الشفاعة، وبالأستاذة من جنسيات مختلفة كما تمتاز بالمرافق المادية والبيئة المنظفة المزينة بالحدائق. التحق بالدراسات العليا تضم أربع سنوات. فقد كانت أنشئت جامعة جديدة في مصر هي الجامعة المصرية الأهلية. وذلك كانت في نفس السنة التي ولدت فيها مدرسة القضاء. كان قد يختلف إلى الجامعة المصرية الأهلية أيضا لحضور

٢٣ المصدر السابق، ص ٦٢.

٢٤. المصدر السابق، ص ٦٢-٦٣.

المحاضرات التي يلقيها الأساتذة المستشرقون في المواضيع المختلفة مثل تاريخ الفلق عند العرب والفلسفة الإسلامية والجغرافيا.

كان راضيا عن نفسه في دروس في مدرسة القضاء^{٢٥}. سنحت له فرصة لإعداد مقال فاستحسن بها الأستاذ عاطف بركات. كما تمكن له باتصال الشيخ على يوسف صاحب جريدة 'المؤيد'، واعداد مقالة لنشرها فيها لو لم تنشر فيها. كان شديد التدين في تلك الأيام حتى أنه سمي 'السنّي'، ولكن غيره من الطلبة تم تسميتهم بالفيلسوف أو الزنديق^{٢٦}.

أحداث في الاسرة

وهو يتطرق الحديث عن بيته وأعضاء أسرته. إذ يقول "فقد كان بيتي هادئا مطمئنا سعيدا سعادة سلبية، وأعني بالسعادة السلبية السعادة الخالية من الآلام، أما السعادة الإيجابية من فرح ومرح وضحك ونحو ذلك فقد كان بيتنا خاليا منها تقريبا، لإفراط أبي في جده وحبه للعزلة وعكوفه على القراءة أكثر وقته"^{٢٧}. كان بيته يتألف من أبويه وأخ وأخت يكبرانه وأخ وأخت يصغرانه.

كان اخوه الصغير نشيطا مملوءا بالحياة، ويثور على تقاليد البيت التي وضعها أبوه^{٢٨}. تعلم في الأزهر ثم التحق بمدرسة القضاء. وفي السادسة عشرة من عمره أدركته المنية^{٢٩} في أيام دراسته فيها مصاب بالحمى التيفويد. فغمر بيته بالحزن والبكاء وفي كل من هو ووالديه وأخيه وأختيه وحتى انه سمي في المدرسة 'بمالك الحزين'. أما أمه وقد تلطم وجهها حتى تسقط مغشيا عليها، تجتمع النساء للعويل تدعى 'المعددة'^{٣٠}. وأما أبوه "فيحترق قلبه في الباطن ويتجلد في الظاهر.....وسمع بكتاب للسيوطي اسمه 'فضل الجلد عند فقد الولد' ونسخه

٢٥ . المصدر السابق، ص ٨١-٨٥

٢٦ . المصدر السابق، ص ٧٤.

٢٧ المصدر السابق، ص ٨٧

٢٨ . المصدر السابق، ص ٧٧ بتصرف

٢٩ . المصدر السابق، ص ٨٨

٣٠ . المصدر السابق، ص ٨٨

بيده، يتصبر بقراءته وكتابته"^{٣١}. وأما أخوه الكبير في الخامسة الثلاثين، فهو كان رجلا صالحا محدود الذكاء، تعلم في الأزهر، له زوجة وابن وبنت. وجاءت مصيبة من جديد في بيته في صورة موت هذا الأخ الكبير"^{٣٢}.

تجاربه مدرسا وقاضيا

تم تعيينه مدرسا معيدا في مدرسة القضاء^{٣٣} بعد أن تخرج منها. سنع له هذا المنصب فرصا أن يتعامل مع مواضيع اجتماعية ودينية وسياسية مع أستاذ كبير، واستفاد منه كثيرا من الأخلاق وفقه وتاريخ الإسلام. حتى ذلك الحين كان يحكمه العواطف لا العقل في أمر الدين. فصارت تفاصيل الدين وجزئياته خاضعة لعقله. ثم اتصل بأستاذه أحمد بك أمين وتحولت الأستاذية إلى صداقة. فهذه الصداقة معه وأساتذة أخرى من العصرين غرست فيه الاطلاع على التعلم اللغة الإنجليزية والفرنسية. و"كانوا يقولون دائما إن من اقتصر على اللغة العربية يرى الدنيا بعين واحدة، فإذا عرف لغة أخرى رأى الدنيا بعينين"^{٣٤}. أما اتصاله بجريدة 'الجريدة'^{٣٥} للأستاذ احمد لطفي السيد فأعطت له فرصا لحضور المناقشات والمحاضرات مع الشبان المثقفين وعدد من رجال السياسة مثل الشيخ علي يوسف. بعد أن قضى في التدريس سنتين، تم تعيينه قاضيا في الواحات الخارجة لمدة قصيرة أو ثلاثة شهور. ويشارك الكاتب تجاربه فيها مما كتب هذه المدة من مذكرات يومية^{٣٦}.

دراسة الانجليزية

عاد إلى مدرسة القضاء. وفي هذه المدة أحس بحاجة ملحة إلى دراسة اللغات الأجنبية، خصوصا الانجليزية. ومما غدتها فيه دروسه في الأخلاق مصدرها مذكرات عطف بك التي نقلها

٣١. المصدر السابق، ص ٨٨

٣٢. المصدر السابق، ص ٨٩-٩٠

٣٣. المصدر السابق، ص ٩١

٣٤. المصدر السابق، ص ٩٢

٣٥. المصدر السابق، ص ٩٣-٩٤

٣٦. المصدر السابق، ص ٩٥-١٠٣

عن الإنجليزية، وكتاب مكدونالد في علم التوحيد في الاسلام^{٣٧}. فتعلم الإنجليزية مع السيدة مس بور^{٣٨}، ولأزم معها أربع سنوات واستفاد منها كثيرا من عقلها وفنّها وجوانب من ثقافتها. كما تعلم من السيدة انجليزية^{٣٩} في ريعان الشباب. هكذا أصبح ذا عينين بدراستها.

اجتماع المثقفين

وفي عام ١٩١٤ كان مع جماعة الشبان المثقفين^{٤٠} الذين لهم ثقافة عصرية، يجتمع في إحدى المقاهي، صاحبها كان مغرما بالقصص الإنجليزية. وكان يلح كل الإلحاح عليهم لاستماع ما يسرد مما قرأ منها. وكان فيهم من يهتم بالتاريخ ومن تخصص في الطبيعة والكيمياء وآخر طبيعي كيمائوي ومن تمهر في الرياضة. وكان عالما بغير نظام حيث اجتمع الجد والفكاهة، العلم والأدب، الدين والشعر، والتقريظ والنقد، وكل شيء فيه بالحرية الكاملة. وبجانب هذا، كانوا يقومون بألعاب رياضية والرحلات كما يذهبون لصالة لاستماع غناءها ومشاهدة روايتها.

وانضم فيما بعد في هذه الجماعة ثلاثة^{٤١} من نوابغ خريجي مدرسة الحقوق. وقاموا بتشكيل لجان مختلفة لترقية الأمة، أخيرا بقيت لجنة واحدة المسماة 'لجنة التأليف والترجمة والنشر'. وكان ذلك في سنة ١٩١٤. وكان قد تمت تأسيس مطبعة ومجلة تحتها، ونشرت تحتها عدة كتب قيمة.

كان قد لعبت صداقة الكاتب مع من خارج ثقافته دورا هاما في تشكيل منظوره نحو الظواهر في الحياة من اتجاهات متعددة. غالبا يكون الحديث بينهم "مزاجا بين حرية فرنسية واعتدال انجليزي ومحافظة أزهريّة، نتحدث في السياسة وحرية المرأة، وفي المقارنة بين فرنسا ومصر"^{٤٢}. يصرح الكاتب عن عاطفة الحب المكبوت فيه في المراهقة، وزواجه وما يتعلق به من

٣٧. المصدر السابق، ص ١٠٤.

٣٨. المصدر السابق، ص ١٠٦.

٣٩. المصدر السابق، ص ١٠٩.

٤٠. المصدر السابق، ص ١١١-١١٤.

٤١. المصدر السابق، ص ١١٥-١١٦.

٤٢. المصدر السابق، ص ١٢١.

عادات كانت سائدة في مصر^{٤٣}. ويتحدث أيضا بصراحة عما كانت فيه من منظور في الزواج والأولاد^{٤٤}، وما حدث فيه من تغير عنه فيما بعد، وكذلك كيف أصبحت طبيعته الانطوائية وعكوفه على قراءة الكتب والتأليف مصدرًا للصراع في حياته وكيف أدى ذلك في النهاية إلى الحياة الزوجية الطبيعية.

الانضمام في السياسة

لما اندلعت الحرب العالمية الأولى ١٩١٤. تولى زمام الحكم في مصر البريطانية وأخذ الدواب والمحصولات جبرا من أهلها وجعلهم منزوعي السلاح ومرت مصر بمعاناة وويلات الحرب وسوء الإدارة من قبل سلطة البريطانية وعوقب المتظاهرون بإطلاق الرصاص حتى السيدات الرقيقات كن صففن في المظاهرات. وكان حينئذ مدرسا في مدرسة القضاء. وهو أيضا انغمس في السياسة واشترك في المظاهرات ولكنه لم يفرط فيها وهو يقول إنه "قد علمني أبي الإفراط في التفكير في العواقب ومن فكر في العواقب لم يتشجع"^{٤٥}.

وقد كان استمر في مدرسة القضاء خمسة عشر سنة طالبا ومدرسا^{٤٦}. ولكن تم نقله إلى القضاء ليصبح قاضيا بسبب خلافات مع الناظر الجديد. خدم في القضاء أربع سنين. وبالرغم من أن سلك التدريس كان أحب إليه من أي وظيفة أخرى، أنه أخذ هذه المهمة حق الأخذ من صدق وحكمة. وقد قام أحمد أمين بسرد الانقلابات السياسية والأحداث الأخرى بشيء من التفصيل. حينما كان في فترة القضاء مات أبوه مصابا بفتق. ويتذكر عن مرض أبيه وسبب تفاقمه كما يذكر مزايا أبيه لا تحصى مع أنه لم يظهر الحنان إلى أبناءه. وكذلك وقعت عقبه وفاة عاطف بركات كما يعبر عنه أنه أبوه الروحي الثاني له، ويعبر عن ذكرياته عنه أيضا.

^{٤٣}. المصدر السابق، ص ١٢٢-١٢٦

^{٤٤}. المصدر السابق، ص ١٢٧-١٣١

^{٤٥}. المصدر السابق، ص ١٣٧

^{٤٦}. المصدر السابق، ص ١٣٦

مع طه حسين

حينما كان قاضيا بمحكمة الأزيكية سنة ١٩٢٦، جاءت إليه مكالمة تليفونية من طه حسين يطلب فيها أن يكون مدرسا في كلية الآداب. وقبل طلبه بعد تردد قليل بسبب نفوره من القضاء وحبه للتدريس. كانت بيئته مختلفا تماما من أن كانت في مدرسة القضاء. وأحس فيها قلة الشعور بعاطفة الحب والرفقة بين الطلاب والأساتذة. على كل حال أنس بهذه البيئة الجديدة واكتسب منها تجارب أخرى من العالم الأكاديمي. وفي هذه الأيام انغمس في مشروع واسع حول 'الحياة الإسلامية من نواحيها الثلاث في العصور المتعاقبة'^{٤٧} مع طه حسين الأستاذ عبد الحميد العبادي، واختص أحمد أمين بالحياة العقلية. وكان نتيجة لهذا المشروع ظهور كتبه القيمة هي فجر الإسلام وضحى الإسلام وظهر الإسلام.

الرحلات

وفي سنة ١٩٢٨ أتاحت له فرصة الرحلة خارج مصر الأستاذ لطفي السيد مدير الجامعة. وذلك ليساعد على البرنس يوسف كمال في بحثه في إستانبول. وكان أشد اشتياقا في رؤيتها. استغرقت الرحلة والمكث فيها أربعين يوما. وكان يكتب كل يوم مذكرات ما شاهد وتجرب خلال الرحلة وإقامته فيها. وقد وصف جميع ما حدث في أول بلد إسلامي في الغرب من تقلبات في السياسة وفي الحكم وتأثيرها في حياة الناس وحقوقهم الفطرية. وقد أضمن بعض من المذكرات اليومية التي كتبها خلال رحلته في أستانة.

وفي سنة ١٩٣٠ رحل مع الطلبة وزملاءه من الأساتذة إلى الشام عابرين المستعمرات الصهيونية وزار الاماكن المقدسة فيها من المسجد الاقصى والقبه الصحراء. كما زار المسجد الأموي بدمشق وضريح الشيخ محي الدين بن عربي وقبر صلاح الدين الأيوبي وقبر أبي العلاء المعري في معرة النعمان وجامعات المختلفة في تلك البلدان وغيرها. استغرقت الرحلة خمسة

٤٧. المصدر السابق، ص ١٤

عشر يوماً. وفي السنة التالية قام برحلة مع بعض من الأساتذة الطلبة إلى العراق. وفي عام ١٩٣٧ سافر إلى الحجاز لأداء الحج مع بعثة الجامعة المصرية.

وفي سنة ١٩٣٢ كان عليه أن يشارك في مؤتمر المستشرقين الذي سينعقد في ليدن بهولندا. فخرج مع صديقه الدكتور عبد الرازق السنهوري لزيارة بعضاً من المدن الأوروبية وما فيها من أماكن تاريخية ومعاهد علمية قبل شهرين من موعد المؤتمر. وانتهز هذه الرحلة للقيام بالمقارنة بين بلاد الشرق والغرب ومستوى حياة الشعوب فيهما. وبعد رجوعه من هذا السفر قد كان قام برحلة أخرى إلى أوروبا لمشاركة في مؤتمر المستشرقين ببروسكل ممثلاً للجامعة. وكان ذلك في سنة ١٩٣٨.

تولية المناصب

يتحدث عن ترقيته إلى مناصب^{٤٨} مثل أستاذ مساعد وعضو في مجلس إدارة الكلية وممثلاً لكلية الآداب في مجلس الجامعة وعميد كلية الآداب. وشهدت عدة صراعات التي تنبثق من محاولة التغلب مثل محاولة الحكومة التدخل في شأن الجامعة، ومحاولة الجامعة المحافظة على استقلالها وهكذا. وأعطت هذه المناصب له درساً عملياً لما أنه كيف تدخل النزعات والأغراض في تكوين الآراء. وكذلك كيف تصيب العمادة صداقته. كان عليه أن يختلف مع العديد من قرارات السلطات وحتى أدى إلى استقالته من المناصب.

ذكريات الوالدين

وفي سنة ١٩٣٦ ماتت أمه وحينئذ كان أستاذاً بكلية الآداب. كانت أمية لا تقرأ ولا تكتب كسائر النساء في بلده، ولكنها كانت طيبة القلب ومحبوبة لدى أهل الحارة، على الرغم بذلك لم تكن لها حياة هادئة سليمة طبيعية "لأنها تأملت كثيراً في حياتها، فقد مات من أولادها وهم في شبابه، وعاملها أبي معاملته شديدة قاسية، سلّمتها وكبت شخصيتها وحرمتها

٤٨. المصدر السابق، ص ١٨٥-١٩٢

دائرة نفوذها"^{٤٩}. وهو يتذكر أن فرحتها الوحيدة كانت حينما تقضي الوقت مع أولادها وحبها لهم.

وهو يعترف أن كل فرد "ليس هو إلا صور جديدة لأبائه، يعيشون فيه"^{٥٠}. كذلك يقوم بالمقارنة بين الصفات التي ورثتها من والديه، إذ يقول "إن كان لي شيء من عناد وقوة إرادة وجلد على العمل وصبر على الدرس وسرعة غضب وميل إلى الحزن وكثرة تفكري في العواقب، فذلك كله من أبي رحمه الله"^{٥١}. وفي حين أنه "إن كان في شيء من سذاجة، وعدم حرص على مال، وحزن على أي حزين، وحسن ظن بالناس فيما يقولون ويفعلون، وندم على غضب، وسرعة تحول من غضب إلى هدوء ومن سخط إلى رضا، فذلك كله من أمي، رحمها الله"^{٥٢}

تخلية السلطات الإدارية

لما اخلى من جميع السلطات الادارية في الجامعة انصرف همه إلى الكتابة. فهو يشارك بعض أفكاره المتناثرة التي انبثقت في خاطره من تجارب حقيقية له فيما يتعلق بسلوك الناس وبممارسة الكتابة لديه وأثرها في زوايا الكتاب الأرسقراطيين. وفي سنة ١٩٤٥ أنتدب مديرا للإدارة الثقافية بوزارة المعارف. وتم تعيينه عضوا في ممثلي مصر إلى لندن في مؤتمر فلسطين عندما كان أستاذه أحمد لطفي السيد وزير الخارجية.

أحيلت إلى المعاش بعد أن بلغت سن الستين^{٥٣}. وقد كان رغب من قبل في التحرر من جميع القيود. فأصبح مديرا للإدارة الثقافية في الجامعة العربية. وقامت بتصوير عدة مخطوطات عربية قديمة على أفلام صغيرة وعقد المؤتمرات تحتها. كما قام بمحاولة لإنشاء متحفا واستخدام السينما والإذاعة وإنشاء علاقة مع يونسكو وغيرها من النشاطات الثقافية. وانتقل مسكنه بمصر الجديدة إلى القريب من الجامعة بجيزة.

٤٩. المصدر السابق، ص ١٩٣

٥٠. المصدر السابق، ص ١٩٤. بتصريف

٥١. المصدر السابق، ص ١٩٤

٥٢. المصدر السابق، ص ١٩٤

٥٣. المصدر السابق، ص ٢٠٧

أفكاره في الحياة

أصيب بمرض الانفصال الشبكية في عينه. وتمت العملية، ويشارك لنا أفكاره وعواطفه في تلك الأيام. فأما إيمانه بالله كان نوار لعينيه المظلمة، وخطر بباله عن ضعف الانسان. فقرأ عليه أحد أبنائه كتاب 'اعترافات تولستوي'. فتفكر موقفه المادي نحو الحياة وموقف الغزالي منها في كتابه 'المنقذ من الضلال'. وأما "الفرق بينهما فهو أن تولستوي آمن بعد إلهاد والغزالي آمن إيمان كشف بعد إيمان تقليد"^{٥٤}. فتفكر عن بشار بن برد وأبي العلاء المعري. أما بشار فهو واجه فقدان بصره في ثبات^{٥٥}. في حين أن أبي العلاء أعرض عن لذات الحياة لما أصابته الكارثة. وبعد ذلك ضعفت قدرته على القراءة والكتابة مع الرغبة الشديدة فيهما^{٥٦}. هكذا يعبر عن كثير من شذرات من الأفكار والعواطف حول مثل هذه الأمراض ومعنى الحياة وما إلى ذلك.

وفي عام ١٩٤٨ منحت له الدكتوراة الفخرية من مجلس كلية الآداب ومجلس جامعة فؤاد الأول^{٥٧}. وفي العام نفسه تم تعيينه أستاذ غير متفرغ في كلية الآداب^{٥٨}. وفي سنة ١٩٥٠ ذهب إلى الإسكندرية للاصطيفاء حيث أصيب بجلطة خفيفة^{٥٩}، وفقد حركة الجانب الشمالي من الأعضاء. ولم يتمكن الشفاء الكامل إلا بعد أسابيع.

تختتم سيرته الذاتية بذكر الأحداث التي جرت في حياته منذ طفولته حتى وقت الذي كان يسجلها. فهي التي سببت إلى تشكيل شخصيته تلك التي هو عليها حيث يقوم بتحليل سلوكيات متناقضة لديه. وفي الوقت نفسه أنه حظي بالتوفيق للحصول على إنجازات علمية وأدبية ومالية، وفي حين يخفق من هو أذكى منه وأقوى عزيمة وخلقا. فهي ظاهرة التي يصفها

٥٤. المصدر السابق، ص ٢١٤

٥٥. المصدر السابق، ص ٢١٥

٥٦. المصدر السابق، ص ٢١٩

٥٧. المصدر السابق، ص ٢٢١

٥٨. المصدر السابق، ص ٢٢٢

٥٩. المصدر السابق، ص ٢٢٣-٢٢٤

أنه "يصعب تعليلها العقلي أو تفسيرها بالتحليل الاجتماعي النفسي... وذلك فضل الله يؤتي من يشاء"^{٦٠}.

المبحث الثالث: الاعتراف في 'حياتي'

قد تم تأليف هذا الكتاب على أسلوب تقريرى حيث تظهر فيه طبيعيا عناصر تاريخية. ولكنه ثري بتعابير ذاتية وعناصر اعترافية للكاتب. وهو يتمركز على ذاتيته التي شكّلتها بيئته الأسرية حيث توجد برودة عاطفية بين أعضاء الأسرة تحت والده الأكثر متدينا والأشد متسلطا على عائلته. فالسارد يقوم بتحليل ذاته بجانبها الإيجابي والسلي منظورا حياديا. فهذا الكتاب هو تعبير صادق لما اختبر وتجرب في حياته منذ طفولته حتى أدركته المنية قبل أربعة سنوات.

وفي الوقت نفسه أنه لا يدعي أبداً أنه سجّل فيه جميع أحداث حياته التي بقيت في ذاكرته دون أي إخفاء أو أقنعة. فهو دليل من قوله في مقدمة الكتاب "لم أذكر فيه كل الحق، ولكني لم أذكر فيه أيضاً إلا الحق"^{٦١}. فهذا الكتاب هو تعبير إنجازات الفرد وبقاءه الجاهد الذي فقدت طفولته الطبيعية في سن مبكر، لكنه، من ناحيتها الإيجابية، تمكن له اكتساب فهم عميق عن صراعاته الحقيقية وعن جذور ما يعامل وراء طبائعه واهتماماته وميوله. ويتجلى من قوله "تشايخْتُ منذ الصبا - وهذا ولا شك أثر التربية المنزلية، فقد كانت تربية أساسها التخويف والإرهاب"^{٦٢}، عمق فقدان الإيقاع الطبيعي في مسيرة حياته، وكما تتجلى أنه كيف كانت تأثيرها السلبية في عفوية لحظات حياته.

الحرمان عن التعبير العاطفي

أما بيته فكان تحت سلطة أبيه الذي كان عالمه مقتصرًا على أزهره ومسجده وكتبه لا غير، إذ يقول "كان بيتنا محكوما بالسلطة الأبوية، فالأب وحده مالك زمام أموره، لا تخرج الأم إلا بإذنه، ولا يغيب الأولاد عن البيت بعد الغروب خوفا من ضربه، ومالية الأسرة كلها في يده

٦٠. المصدر السابق، ص ٢٣٢-٢٣٣

٦١. أحمد أمين، حياتي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ص ٨

٦٢. المصدر السابق، ص ١٢٥

يصرف منها كل يوم ما يشاء كما يشاء، وهو يتحكم حتى فيما نأكل وما لا نأكل”^{٦٣}. وقد حرم عليهم تعبير عاطفي تلقائي حيث غمر البيت جد عنيف لا هزل ولا ضحك ولا مرح وذلك -كما يقول- ” من جد أبي وعزلته وشدته”^{٦٤}.

كل مرحلة من مراحل حياة الانسان تتطلب مهمة تنموية (developmental task) التي تنشأ فيها، وتؤدي عدم انجازها الناجح إلى عدم القدرة على أداء المهام المرتبطة بالفترة أو المرحلة التالية، خصوصا أداؤها الصحيح في مراحل مبكرة التي هي تلعب دورا حاسما في تكوين شخصية هادئة فطرية لدى الفرد. وقد ذكر السارد في عدة مواضع عن حرمان فرص لأداء تلك المهام الفطرية. وهو يقول ”لا أذكر أنه مزح معنا وقل إن ضحك في وجوهنا، ولذلك كان اطمئناننا ومرحنا القليل ساعة يغيب عن البيت، وخوفنا ورهبتنا وحبس أنفاسنا ساعة يحضر”^{٦٥}. حقيقة أنه لا بد أن تتم تأدية تلك المهام بحضور ربط عاطفي شديد من أشخاص ذوي الأهمية عاطفيا.

وليس معنى ذلك أنه كان خاليا من الرأفة والرحمة على أبنائه، بل أنه لم ينقل هذه المشاعر لأطفالهم بطريقة صحيحة. كان له مزايا عدة ومنها أنه كان يشجع تعليم البنات^{٦٦} رغم أنه اعتبر جريمة لا تغتفر وبهتان عظيم في مجتمعه، كما أنه كان رحيمًا وحنينًا بهم، ولكنه لم يكن يظهر إلا في حالة مرضهم أو غيابهم أو موتهم^{٦٧}. وعلى الرغم من أنه كان يؤثره على أخوته في العناية^{٦٨}، ولكن ذلك لم يكن كافياً للتغلب على الانفتاح العاطفي المفقود. علاوة على ذلك أنه يعترف أنه قد انقلب الخوف منه إلى الحب والاحترام إذ يقول ”بعد أن كبرت ودخلت مدرسة القضاء وتحررت من رعايته لي وقسوته علي بدأت أشعر بفضله، وينقلب خوفي منه إلى حب وإجلال له، وبعد أن أصيب بفقد ولديه زاد عطفه عليه وبذل كل جهد في عمل ما يرضيه. ومن

٦٣ . المصدر السابق، ص ٢٠

٦٤ . المصدر السابق، ص ٢١

٦٥ . المصدر السابق، ص ١٤٢

٦٦ . المصدر السابق، ص ١٤٢

٦٧ المصدر السابق، ص ٢٠، ١٤٣

٦٨ . المصدر السابق، ص ١٤٣

جانبه بادلني عطفًا بعطف وحنانًا بحنان وترك لي التصرف في ماله وشؤونه وتفرغ لحزنه ومرضه، ودينه^{٦٩} فهو يشارك مع القراء عن معاناة أمه^{٧٠} المكبوتة شخصيتها تحت سلطة أبيه القاسية.

الاعتراف بتأثير التربية

كان عليه دائمًا أن يتحمل ثقل التربية السلبية التي قد خضع لها في بيته أيام طفولته، حيث تم حرمان التعبير العاطفي الطبيعي، الذي لا بد كل فرد محتاج إليه للقيام بالتوازن النفسي والجسدي والروحي. ولا يزال يطارده في جميع لحظات حياته، حتى في الملعب مع رفاقه، إذ يقول "وإن لم أبلغ في خفة الحركة مبلغ صحي، لأني أحمل من أوزار تربيتي الأولى ما لا يحملون"^{٧١}. وفي الوقت نفسه أنه ساعده على الاستقامة أمام نظريات مادية مثل الالحاد والفلسفة الفاسدة. كما ساعده على الالتزام بالأخلاق والقيم في الحياة. وهو يعترف نفسه^{٧٢} ما غرسته بيئة بيته في طبيعته وشخصيته من إفراط في جانب الجد، وتفريط معيب في جانب المرح، والصبر والجلد في التحمل على المشقات، وميله الشديد إلى عوامل الحزن، وإيمانه في قلبه الذي لا تزلزله فلسفة ولا مطالعته على كتب الالحاد، والبساطة في كل شيء، وكرهية للتصنع والتكلف في أسلوب الحياة. فمرجع هذه كلها - على حد قوله - "إلى تعاليم أبي وما شاهدته في بيتي"^{٧٣} ويضيف إلى ذلك "تعلمت الصبر على الدرس واحتمال العناء في التحصيل. ومنه كسبت وضوح العبارة وبساطة الأسلوب، ومن مكتبته المتنوعة الغنية بكتب الأدب والتاريخ نبت في نفسي حب الأدب والتاريخ؛ وعلى الجملة فقد ورثت منه - إلى حد ما - كثيرًا مما لي من مزايا وعيوب"^{٧٤}

٦٩. المصدر السابق، ص ١٤٣

٧٠. المصدر السابق، ص ١٩٣

٧١. المصدر السابق، ص ١١٤

٧٢. المصدر السابق، ص ٢٦ بتصريف

٧٣. المرجع السابق، ص ٢٦

٧٤. المرجع السابق، ص ١٤٣

الصراحة عن الحب

يكشف الكاتب عما كان في نفسه من عاطفة الحب^{٧٥} منذ أن كان صبيا. فأول تجربة في الحب كان مع جار له وهو في الخامسة عشر من عمره. كانا يجلسان معا في الكرسيين أمام بيتها ويتحدثان غير الغرام. ولكن أباهما حجب بينهما. وكان قد شقي زمنا بذلك. وكذلك أحب لمدرسة انجليزية له، لكن كان ذلك حبا يائسا. لأنها كانت فتاة متزوجة تعيش سعيدة مخلصه مع زوجها. على حد قوله إنه رغم أن كانت في نفسه عاطفة الحب، كانت مكبوتة. إذ يقول "كانت تربيتي الدينية تعد الحب فجورا والنظر إلى الفتاة وحديثها إغواء شيطانية، ومدرستي كويتي متزمتة متعنتة"^{٧٦}.

ويتحدث أيضا عن مفاهيمه حول الزواج وكذلك عن زواجه والخلافات التي نشأت فيما بعد في الحياة الزوجية والصدمات بينه وبين زوجته بسبب طبيعته الهادئة وعكوفه في الليل للقراءة وتحضير الدروس دون كلام ومرح. ولكنها كانت "تربت في بيت مرح، مملوء بالضحك والبهجة، يكثر فيه الحديث في الفارغ والملاّن"^{٧٧}. ولكن، بعد مرور الأيام وقعت بينهما التفاهم والمصالحة. رغم أنه يأتي بشيء من التفاصيل حول بعض التناقضات التي حدثت في حياته الزوجية في أوائل الأيام، إلا أنه قد اقتصر الإشارة إلى عاطفة الحب الذي كانت لديه في بضعة أسطر. ومن المتضح، قد كان عليه أن يحمل أعباء التربية في طفولته وأثرها السلبية في معظم لحظات من حياته.

طبيعة الحزن والانطواء والعزلة

وكان من إحدى الطبائع لديه هو طبيعة الحزن. وهو كان أكثر ميلا إلى عاطفة الحزن والاحساس به مما يحس بمواقف السعادة والبهجة. ويعترف انه كان تغلب عليه حادثة وحيدة محزنة من بين تسع حوادث مسرة. ويمكن أن يكون جذرها يرجع إلى آلام أمها التي احتملتها من

٧٥. المرجع السابق، ص ١٢٦

٧٦. المرجع السابق، ص ١٢٦

٧٧. المصدر السابق، ص ١٢٨

اضطهاد أبيه الجَدّ الشديد من ناحية تسليطه على الأمور وعدم التبادل العاطفي. وهو يقول "كان ذلك أنا حمل في بطن أمي، فتغديت دما حزينا ورضعت بعد ولادتي لبنا حزينا واستقبلت عند ولادتي استقبالا حزينا فهل كان ذلك أثر فيما غلب عليّ من الحزن في حياتي فلا أفرح كما يفرح الناس، ولا أبتهج بالحياة كما يبتهجون"^{٧٨}.

وهو يعترف أيضا ميله إلى الانطواء والعزلة، ولكنه لم يؤده إلى أبعاده من الدوائر الاجتماعية. ومن خلال رحلته إلى بلاد الشام أنه تعجب بما فيها من أماكن تاريخية فيما يتعلق بتراث الإسلام والأدب العربي واستفاد من الرحلة ما استفاد ولكن أنه يعبر عما في نفسه من رغبة في أن ينطوي إلى عالمه الخاص ويقول "لكن عكر صفوها أني لم أستطع أثناءها الانفراد بنفسي، وأنا أكره اليوم الذي لا تتاح لي فيه فرصة الوحدة والعزلة، أحلم فيها وأتأمل"^{٧٩}. وهذا هو خير دليل على أن ميله إلى الانطواء قد تطور فيه كطابع أساسي الذي يجعله منتجعا إليه في مختلف اللحظات في الحياة.

المبحث الرابع: الاعتراف بالحرمان وخصلات شخصيته

رغم أن كتاب 'حياتي' قد لوحظ عنه بقلة التعبيرات الذاتية في أسلوبه، أن الكاتب يعترف فيه بحرمانه الحقوق الفطرية الموهوبة في بيئة أسرية باردة العواطف. فمن المفترض أن هذه الحالة المحرمة قد حفزته إلى تحلية الصفات الشخصية المحمودة مثل المصالحة وتحليل الشخصية من منظور سيكولوجية، وبالتالي تحقيق المجد والشهرة في الحياة. وبالرغم من أن الاحتياجات الأساسية والسيكولوجية لازم لإدراك الشخص إلى حالة تحقيق الذات كما بينها أبراهام ماسلو في نظرية التسلسل الهرمي للاحتياجات (Theory of Hierarchy of needs)، يمكن للفرد أن يصل إلى تحقيق أهدافه وطموحاته بوضوح ومرونة، إذا كان لديه فهما عميقا للذات والوعي بها، فيترجم به إلى أفعال هادفة. فالانتكاسات والحرمان تساعد على بناء المرونة ومهارات المواجهة والتعاطف وتحقيق الذات.

٧٨. المصدر السابق، ص ٢٠

٧٩. المصدر السابق، ص ١٢٩

أما اعتراف الكاتب بالحرمان وتأثيره على تشكيل خصلات مميزة في شخصيته مثل الاستلام والمصالحة، والتوسط في الأمور، وكذلك بصيرة نفسية لديه عن أضرار السلطة الاجبارية على الشخصية، فهي كلها تشير إلى قدرته على التحليل النفسي لشخصيته والوعي بالذات لديه. فهذه الصراحة بحرمانه الاحتياجات العاطفية أيام الطفولة دليل على أنه واع بذاته بأنها قد عملت حافزا قويا في تشكيل خصلاته الشخصية المميزة لاحقا.

الاستسلام والمصالحة

بالرغم من انه يعترف عما وقع في حياته من تجارب حميمة مثل الحب^{٨٠} والإخفاق^{٨١} والمرض^{٨٢} وما إلى ذلك على شكل مقبول حيث لا يجتز حدود تعبير الفضاحة في الثقافة التي تحافظ على القيم ورفاهية المجتمع، أنه لم ينجح في تصوير تجاربه الذاتية بعواطفها الحقيقية الملتفة بها كما هي. يلاحظ إحسان عباس بمقارنته بطله حسين في تصوير الأشياء، أن " أحمد أمين تقرير يميل إلى ذكر الحقيقة، كما هي، وطه يميل إلى تصويرها كما أحسها ذات يوم"^{٨٣}. بالنسبة للتعبير الذاتي فهو أسهب في التحدث عن الأحداث الخارجية، ولكنه "رسم صورته وطبيعته في بضع صفحات"^{٨٤}. ولم يكن متمردا، بل أنه كان على موقف المسالمة والمصالحة لكل من يخالطه في المجتمع. "وتبدو طبيعته المستسلمة في مراحل عمره كلها على التقريب"^{٨٥}.

وكان في تشكيل مثل هذه الطبيعة تأثيرا كبيرا للبيئة التي نشأ فيها. وكانت نتيجة للمواقف الممتزجة بين الطفولة الجادة القهرية التي خلت من تعبير العواطف العفوية والتشدد الديني من جهة، وتشكيل الوعي بالذات من خلال اكتساب شتى فروع العلوم والتجارب من الحياة العملية من جهة أخرى. ويشير عبد الدائم إلى طبيعة المسالمة والمصالحة لديه والأسباب المحتمل وراءها، إذ يقول "أما أن يريح نفسه من حدة انفعالاته، فيقف من مجتمعه موقف

٨٠. المصدر السابق، ص ١٢٥

٨١. المصدر السابق، ص ٧٩-٨٠

٨٢. المصدر السابق، ص ٢٢٣

٨٣. د. إحسان عباس، فن السيرة، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ط١، ١٩٩٦، ص ١٣٦.

٨٤. المرجع السابق، ص ١٣٧

٨٥. يحيى عبد الدائم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٢٨٦

المسالمة والمصالحة على ما نجده متمثلاً في موقف أحمد أمين من مجتمعه وهو موقف يتسم في كل مراحل حياته بالمصالحة والتواري بمبعدة عن كل ما يسبب له مجابهة مجتمعه والتمرد عليه، إيثارا منه السلامة وخوفا من العواقب وإيماناً منه بالمصير المحتوم الذي تجري به الأيام على الانسان. ولعله من أجل ذلك قد خلت سيرته من نقل ألوان الصراع لأن موقفه من بيئته، أقرب أن يكون موقف استسلام وإذعان^{٨٦}.

التوسط في الأمور

ومن المعروف أنه لا معرفة إلا بالتجارب. حقيقة أن الإدراك بالشيء لا تأتي إلا من تجربة طرفيه أو نقيضيه. إذ يقول عنه "فأنا أرى أن الشيء لا تمكن معرفته معرفة حقة إلا بالمقارنة، فالأبيض إنما يعرف بياضه بمقارنته بالأسود والأخضر والأصفر، والأمة لا يعرف أنها متأخرة إلا بقياسها بأخرى متقدمة، والنظام لا يعرف أنه فاسد إلا إذا عرف أو على الأقل تخيل بجانبه نظام صالح"^{٨٧}. ومن هذا المنظور يمكن أن يفترض أن ما له من موقف التوسط من الأمور والتجرد في النظرة والانصاف في الحكم، لا بد أن قد تشكل فيه من التجارب العملية للأطراف المتعارضة للأشياء في فترات مختلفة من حياته. هذا "شيء عسير لا يمكن أن يبلغ الانسان فيه حد الكمال"^{٨٨}.

كانت أفراحه في الطفولة قد اقتصرت على الألعاب في بعض الأحيان مع زملاءه في الحارة وأحاديث جدته المعجبة وحكاية أخيه من كتب مثل ألف ليلة وليلة. وأكثر أوقاته كان على الجد والعزلة. ويقوم بالمقارنة^{٨٩} بين ما كان في أيام طفولته وما كان على أيامه الأخيرة من حياته فيما يتعلق بحالات الحياة بميادينها المختلفة المتنوعة. وهو يقول إن "الحياة ليست جدا ولا

٨٦. المرجع السابق، ص ٢٨٧

٨٧ أحمد أمين، حياتي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ص ١٥٤.

٨٨. د. إحسان عباس، فن السيرة، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ط١، ١٩٩٦، ص ١٣٨

٨٩. أحمد أمين، حياتي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ص ٤١-٤٣

نعيمًا صرفًا ولا شقاء صرفًا، وخير أنواع التعليم ما صور صنوف ولا هزلا محضا الحياة"^{٩٠}.
فيمكن العثور على هذا الموقف المتوسط في جميع الأمور طوال حياته.

أضرار السلطة

والأمر الذي يثير اهتمام الدارسين هو أنه يذكر عن بيئة بيته الباردة عاطفيا بسلطة أبيه حيث لا يوجد الهزل فيه ولا مرح، وفقدت فيها طفولته، حتى أنه يتساءل لنفسه لماذا لا يستطيع له أن يمرح كما يمرح أطفال بلده. ولكن عندما تم استبدالها بعد عدة سنوات بسلطة الأمومية فقدت سعادة البيت تماما إذ يقول "لقد عشت حتى رأيت سلطة الآباء تنهار، وتحل محلها سلطة الأمهات والأبناء والبنات وأصبح البيت برلمانا صغيرا، ولكنه برلمان غير منظم ولا عدل فلا تؤخذ فيه الأصوات ولا تتحكم فيه الأغلبية، ولكن يتبادل فيه الاستبداد، فأحيانا تستبد الأم، وأحيانا تستبد البنت أو الابن وقلما يستبد الأب، وكانت ميزانية البيت في يد صراف واحد فتلاعبت بها أيدي صرافين، وكثرت مطالب الحياة لكل فرد وتنوعت، ولم تجد رأيا واحدا يعدل بينها، ويوازن بني قيمتها، فتصادمت وتحاربت وتخاصمت، وكانت ضحيتها سعادة البيت وهدوءه وطمأنينته"^{٩١}. وهذا يدل على موقفه المعتدل تجاه النظام الأبوي والأمومي. على الرغم من أن الندوب العاطفية التي نجمت عن بيئة منزله أضرت بإيقاع حياته الفطري، إلا أنها لم تدفعه أبداً إلى اتخاذ موقف متمرد ضدها. بل يمكن الافتراض أنه تم اكتسابه من خلال التجارب والعادات التي تجبر الفرد على اتخاذ موقف الوساطة في حياته المستقبلية.

الخاتمة

إن كتاب 'حياتي' هو سيرة ذاتية على نحو شامل لما أنه يحتوي جميع مراحل حياة السارد، وأنه يضم أيضا عدة عناصر اعترافية للكاتب. وعلى الرغم من ذلك، أنه لوحظ بأن هذا الكتاب يضم قدرا أقل من المواد الشخصية الأكثر حميمية للكاتب، بل أنها غنية بأحداث خارجية

٩٠. المصدر السابق، ص ٤١

٩١. المصدر السابق، ص ٢٢

عنه، حيث حاول الحفاظ على الموضوعية أكثر من الذاتية. فليس معنى ذلك أنها تفتقر تماما إلى عناصر عاطفية للكاتب. بل، أنه يدل على الفروق الفردية في الأسلوب والعرض. كان أحمد أمين معاصرا لطفه حسين، ولذلك، لا يسع لمنازع أن كان قد تأثر بكتاب 'الأيام' في تأليف سيرته الذاتية.

ومن الأمر الذي يجدر بالملاحظة هو، أن الفرد لا يستطيع أن يعبر عن تجاربه العاطفية في الحياة إلا إذا أتاحت له فرص وفيرة لأدائها على شكل طبيعي في المراحل الأولى من الحياة. وإلا فإن مثل هذه التعبيرات العاطفية قد لا تكون ممكنة في الأيام اللاحقة في الحياة. وفي الحقيقة أن بيئته الأسرية تحت سلطة أبيه كانت قد حرمت على جميع أعضائها التعبير الطبيعي الموهوب فطريا. وهذا الأمر جلي في أسلوب الكتاب. عند الافتراض من هذا المنطلق، يمكن القول، رغم أنّ التدفق العفوي للتعبير العاطفي غائب في سيرته، يمكن العثور على الأشعة العاطفية والاعترافية المختلفة وراء جميع تعبيراته في الكتاب.

الفصل الثالث

'سبعون' - ميخائيل نعيمة

البيانات الوصفية

اسم الكتاب	: 'سبعون'
المؤلف	: ميخائيل نعيمة (١٨٨٩ - ١٩٨٨)
سنة التأليف	: ١٩٦٠
الناشر	: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة
تاريخ النشر والطبعة	: الطبعة الأولى - ٢٠١٢

المقدمة

هذا الكتاب حكاية عمر للكاتب اللبناني ميخائيل نعيمة. قام بتأليفه في سنه السبعين حيث اعتقد أنه في أيامه الأخيرة من حياته، ولكنه عاش نحو تسع وعشرين عاما بعده. وقد تم تنظيمه في ثلاثة أجزاء. كان قد اجتمعت في شخصية ميخائيل نعيمة الصفات السماء التي يمكن أن تنتسب إلى الشخصية العظيمة مثل الشاعر والفيلسوف والناقد والقاص والمسرحي والمفكر وما إلى ذلك. لقب بـ 'ناسك الشخروب' بسبب حبه للعزلة والتأمل.

ولد سنة ١٨٨٩ في أسرة مسيحية في لبنان. وذلك في أسرة مسيحية تتمتع بالطقوس الديانة المسيحية. وهو بدأ دراسته المدرسية في فلسطين. وتابع دراسته الجامعية أولا في مدينة 'أوكرين' في روسيا. ثم قصد إلى الولايات المتحدة الأمريكية وأقام في نيويورك والتحق بجامعة واشنطن ودرس منها الآداب والحقوق. وفي سنة ١٩٣٢ رجع إلى موطنه في لبنان وأقام بها مع أسرته منغمسا في النشاطات الأدبية والفكرية.

شارك في تأسيس الرابطة القلمية وانضم في نشاطاتها مع جبران خليل جبران ونسيب عريضة وإيليا أبو ماضي وغيرهم من معاصريه في المهجر خلال مدة قضاءه في نيويورك. وله إسهامات

ملحوظة في تطوير الشعر العربي بلباسه الجديد بحيث يكون قادرا على التفاعل مع روح العصر الجديد. وكانت إنتاجاته الأدبية والفكرية امتدادا انعكاسيا لما تجرب بحواس له قابلة للغاية من بيئته والموجات المستمرة التي أثارت تفكيره. كل تجربة حسية كانت قد سببت لأن تتولد فيه فكرة مبدعة والتي تتجاوز عبر الزمان والحواس.

إن مؤلفات ميخائيل نعيمة تتراوح بين دواوين الشعرية وروايات ومسرحيات ومجموعات قصصية وسير وأخرى من الأدب الواقعي ومقالات أدبية وما إلى ذلك. وذلك في اللغات العربية والانجليزية والروسية. وبجانب سيرته الذاتية 'سبعون' في ثلاثة أجزاء له كتاب في المذكرات هو 'أبعد من موسكو ومن واشنطن'. وأما الأمر الذي تتميز كتبه عن غيرها فهو جوانبها الفلسفية. توفي في قريته الحبيبة 'الشخروب' عام ١٩٨٨ وقد كان عمره يناهز المائة.

المبحث الأول: المحاور الرئيسية والقيمة التاريخية والأدبية

يتكون 'سبعون' من العناصر الذاتية والتأملات الفلسفية للكاتب حيث يستخدم نعيمة الرموز والاستعارات عدة ويتبنى أسلوب السرد الواعي المتدفق. ومن المحاور الرئيسية التي يضمها هذا الكتاب هي: تكوين هوية الكاتب واكتشاف الذات والبحث عن المعنى في الظواهر الكونية، والعناصر الأخلاقية ومسؤولية الفرد وحالات النفس الإنسانية، والإيمان والتصوف والسعي إلى التسامي، والجودية حيث تأتي في مقدمتها الحرية، والاختيار، والعبث، وكذلك الحب والعلاقات الإنسانية وما يتعلق بها من ترابط حميم والصراعات فيها.

فجميع هذه الموضوعات تترايط بعضها على الآخر. أما الهوية فهي تؤثر على الاختيارات الأخلاقية والمساعي الروحية، فالأخلاق تعمل محركا قويا في تشكل العلاقات الإنسانية والحب. وفي حين أن الروحانية تؤثر على الاختيارات الوجودية والهوية. والحرية الوجودية تمكن أو تعيق العلاقات الحميمة. فالحب والعلاقات تؤثر على الهوية والأخلاق والروحانية، لأن البشرية هي وحدة متكاملة مترابطة الأجزاء والعناصر.

يتفرد هذا الكتاب عن غيره من النوع من حيث جماليته الأدبية والفنية. فالأمر الذي يجعله فريدا فيمكن حصره على عاملين مهمين، فهما نظرتة الشاملة للكون وما فيه من مخلوقات

وقدرته على تصوير الأشياء على شموليتها وحقيقتها تصويرا خياليا. وأنه يحتل قيمة تاريخية أيضا بما فيه من أوضاع سياسية السائدة آنذاك ليست فقط في لبنان، بل في الولايات المتحدة والروسية وفرنسا أيضا. تنبثق مثل هذه المراجع من مدى تأثير الوضع السياسي غير المستقر والقمعي على صراعاته الداخلية حيث يتفكر في حالات الحياة البشرية في مساعيها نحو الكمال، أو بمعنى آخر أنها تنبع من الصراع الدائم بين الاضطراب الداخلي للفرد والأحداث الخارجية في البيئة التي يتعامل ويتجاوب معها.

ومن ناحيته الأدبية فإنه يتحلى بجميع العناصر التي يجب أن يمتلكها الأدب متضمنة في حرفته ونسيجه، علاوة على ذلك، أنه يجدر بالملاحظة أيضا أنه يدمج الابتكارات التي تسعى إليها القطعة الأدبية من حيث المعاني وروح العصر. وأما من حيث ناحية الفن والأسلوب فهو كما يلاحظ عبد الدائم، أنه "ينهج في بنيتها الفنية، نهجا مغايرا لذلك الذي انتهجه كل من العقاد، وأحمد أمين، فلا يغلب عليه الأسلوب التحليلي كالعقاد، ولا الأسلوب التقريري الوصفي كأحمد أمين، بل يعتمد إلى أسلوب يجمع فيه بين التحليل والتصوير، على نحو يصح معه أن نتخذ ترجمته الذاتية، مثلا صادقا على الأسلوب الوسط بين أسلوب المقالة والرواية"^١. وإن من كمالية هذا الكتاب هو أنه كلما يقدم الأحداث الخارجية في المناسبات المختلفة وهو يقوم بتصويرها حتى جوانبها الأدق ومزاج الكاتب الداخلي وموقفه منها بكل ما التف بها من انفعالات وأحاسيس وأفكار وهواجس.

المبحث الثاني: تصوير الذات في 'سبعون'

وقد تم تنظيم كتاب 'سبعون' في ثلاث مراحل^٢. أما الكتاب الأول (١٨٨٩م-١٩١١م) فتضم المرحلة الأولى من حياته. وذلك بدءا من طفولته وحتى دراسته في روسيا. تبدأ المرحلة الثانية من حياته (١٩١١-١٩٣٢) بمغادرته روسيا للولايات المتحدة من أجل دراسته الجامعية وينتهي

١. يحيى عبد الدائم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٤ ص ٣٠٣.

٢. ميخائيل نعيمة، سبعون (المرحلة الأولى)، مؤسسة نوفل، بيروت، ط ١٢، ٢٠١١، ص ١٧.

بعودته منها إلى لبنان، وقد انضمت في الكتاب الثاني. أما المرحلة الأخيرة (١٩٣٢م-١٩٥٩م) فتحوي على حياته المتبقية في لبنان حيث تبدأ منذ عودته إلى موطنه لبنان حتى السبعين من عمره حيث قام بتأليف هذا الكتاب.

المرحلة الأولى

المرحلة الأولى من سيرته تغطي فترة ما بين عام ١٨٨٩ حتى ١٩١١. وذلك أول اثنين وعشرين عاما من حياته. وهي تعتبر مراحل مهمة من حياة الفرد التي تحوي على الطفولة والمراهقة ومرحلة الرشد المبكر. فالتجارب العاطفية في هذه المراحل تحدد مسار حياة الفرد وشخصيته بما فيها من ميول ومواقف تجاه ذاته وغيره من الناس والعالم حوله.

يبدأ الكتاب بذكرياته عن أمه^٣ وهي تصلي للأب السماوي الذي ليس بدم ولا لحم من أجل أب له من لحم ودم الذي يعمل في أمريكا. وكان يسكن في بيته مع أخويه الأكبر منه هما ديب وهيكل وجديه بو يوسف وأم يوسف. ثم يتحدث عن مستوطني سفوح صنين وحياتهم الريفية وبيوتهم المتلاصقة تدعى ب'الصايح' كما يتطرق حديث مستفيض عن صايحه الذي كان يسكن فيه. فيسير في بعض من ذكريات طفولته^٤ دون تريب زمني منذ يوم انطبعت هذه الذكرى في ذهنه. وهي تدور حول اختلاف أمه إلى الكنيسة وهو محمولا على كتفها، وما في الكنيسة من شموع مضاءة ورائحة البخور وأثواب مزركشة للكاهن. كما تضم ذكريات عن جديه وخاليه إبراهيم وسليمان وبيتهما المزخرف بالقرميد الأحمر.

ثم يتحدث عن بسكنتا -مسقط رأسه- بطبيعته الخلاية وعن الشخروب^٥ الذي هو مكان مكتظ بالصخور والأشجار البرية على بعد خمس كيلومترات من بسكنتا حيث كان يقضي في العزلة كل صيف للتأليف والتأمل، حتى انه لقب بناسك الشخروب. وكان لهما أثر كبير في

٣. ميخائيل نعيمة، سبعون (المرحلة الأولى)، مؤسسة نوفل، بيروت، ط ١٢، ٢٠١١، ص ١٩

٤. المصدر السابق، ص ٣٥-٥٦

٥. المصدر السابق، ص ٥٧-٧٨

تكوين شخصيته الفكرية والفلسفية إذ يقول إنه "لبسكنتا والشخروب أثر في حياتي لا أستطيع حصره وتحديده"^٦.

ويتحدث أيضا عن بداية ذهابه إلى المدرسة^٧ في القرية ممسكا يدي أخويه الأكبر. وكان -قبل بلوغ سن المدرسة - يستمع إلى توصيات أمه لأخويه لأن يتحلوا بالصفات المحمودة قدوة للآخرين حين تعتنها بهندامهما وتهيئتهما للذهاب إلى المدرسة. ثم يقول عن المدرسة وما فيها من عالم الحروف العجيب والمدرسين فيها وبعض من مغامراته تلك الأيام.

وهو كان دون السابعة من عمره رجع أبوه^٨ من أمريكا بهندامه الغربي. ولم يكن له فيها شيء ذي بال من الكسب، ولذلك لم يلبث أن رجع إلى الأعمال الزراعية. وكان اعتاد أن يراقب كل ما كان يعمل أبوه في الحقول بكل صبر واحتمال. وفي غضون تلك الأيام تعلم اللغة الفرنسية^٩ من معلم غريب جاء إلى المدرسة الخيرية الأرثوذكسية التي كان يدرس فيها وحضر للامتحان هو وأمه كونها عارفة هذه اللغة.

في المدرسة الروسية

وفي سنة ١٨٩٩ فتحت مدرسة روسية بسكنتا. وهي كانت مدرسة مثالية ولها برنامج ونظام معين. والتحق بها وقضى فيها حتى ١٩٠٢. وحظي بأهلية^{١٠} الالتحاق بدار المعلمين الروسية في الناصرة بفلسطين اعتبارا لتفوقه في الدروس والسلوك. ويشارك الكاتب بعضا من مغامرات^{١١} الطفولة وأعبائها بالضفادع واليعسوب والطيور وما إلى ذلك في بسكنتا وأودية الشخروب.

كانت سنة ١٩٠٠ جاء إلى بيته أخ جديد سمواه نجيب. وفي نفس السنة مات خاله الأكبر إبراهيم الذي هو في مصر. وفي هذه السنة نفسها سافر أخوه أديب إلى الولايات المتحدة. ولقد

٦. المصدر السابق، ص ٥٧.

٧. ميخائيل نعيمة، سبعون (المرحلة الأولى)، مؤسسة نوفل، بيروت، ط ١٢، ٢٠١١، ص ٧٩-٨٨.

٨. المصدر السابق، ص ٨٩-١٠٠.

٩. المصدر السابق، ص ١٠٤-١٠٥.

١٠. المصدر السابق، ص ١٢٢.

١١. المصدر السابق، ص ١٢٣-١٣٦.

كان سافر أبوه قبله ولم ينجح. فلعله يكون أوفر حظا من أبيه. فهو متعلم وأبوه أمي. ولعله يعود بعد سنين لينتشل العائلة من القاع إلى الذروة كما فعل البعض من أبناء بسكنتنا^{١٢}. وفي عام ١٩٠٢ التحق بدار المعلمين الروسية بالناصره بفلسطين. ويتحدث أحداثا عدة حدثت قبل وأثناء السفر^{١٣}. كان هذا السفر بالنسبة إليه الغربية الأولى من حياته.

في الناصرة

يتحدث الكاتب عن الأحداث منذ أيامه الأوائل^{١٤} في الناصرة وما به من وحشة ودهشة وملاح الرئيس ومعاملته ومنهج الدروس فيها. وكذلك عن الأماكن المقدسة في الناصرة^{١٥} وما حولها وعن الرحلات التي تم القيام إليها بينما كان فيها. يستفيض نعيمة عن حياته فيها من مغامرات له مثل سرقة اللبنة^{١٦} والانحرافات الجنسية لبعض من الطلاب. وفي دراسة الشعر أنه كان أكثر ميلا إلى التأمل في مشكلات الحياة والموت أكثر من اثاره العواطف^{١٧}. ويصرح عما كان في طبيعته من تجنب الخصام والعيش مع الوفاق والوئام^{١٨}. كان في المدرسة حصة للأعمال اليدوية فيتفكر شذرات من الأفكار حول أهمية الصنع اليدوي للطلاب^{١٩}، وكذلك يتحدث عن رجال الدين فيقول "الجنة ليست وفقا لدين دون دين، فهي تتسع للصالحين من كل دين"^{٢٠}. وفي عام ١٩٠٦ م اختير طالبا محظوظا للدراسة في روسيا بسبب تفوقه في الامتحان^{٢١}. وبعد قضاء العطلة في بلده غادر لروسيا في الالتحاق بالمدرسة فيها. ويصور الكاتب وداعه لأهله قبل مغادرته إلى روسيا مؤثرا القلوب والوجدان^{٢٢}.

١٢. المصدر السابق، ص ١٣٩.

١٣. المرجع السابق، ص ١٤٩-١٦٥.

١٤. المرجع السابق، ص ١٦٩-١٧٤.

١٥. المرجع السابق، ص ١٨١-١٨٩.

١٦. المرجع السابق، ص ١٩٤.

١٧. المرجع السابق، ص ٢١٣.

١٨. المرجع السابق، ص ٢١٥.

١٩. المرجع السابق، ص ٢١٩-٢٢٢.

٢٠. المرجع السابق، ص ٢٢٤.

٢١. المصدر السابق، ص ٢٢٥-٢٢٩.

٢٢. المصدر السابق، ص ٢٥٢-٢٥٥.

في السمنار

التحق بالسمنار في 'بولتافا' عام ١٩٠٦^{٢٣} ودرس فيه ست سنوات حيث "الأربع الأولى منها مكرسة للدروس العلمانية وبعض المواد الدينية، والاثنان الأخيرتان للطقوس والعقائد الكنسية"^{٢٤}. وبعد انقضاء بضع الشهور فيها صار موضع اعجاب من رفاقه حين أجاب لسؤال لأستاذه. وكانوا في اعتقادهم الخاطئ بأن العرب أهل الخيام والبوادي لا شجر ولا ماء. وفي غضون هذه الأيام جاء إليه خبر سار بأن أخاه هيكل انضم إلى أخيه الأكبر وفي 'الاولا' في أمريكا^{٢٥}. وفي غضون تلك الأيام تمرن على كمنجة، كما برع في الرقص. وبعد ذلك بدأ يدون يومياته في اللغة الروسية ما بين ٢٣ آذار ١٩٠٨ حتى ٢١ نوار ١٩٠٩ بعد أن زهد جميع من ملاهي الشباب بما فيها الرقص.

حبه الأول

بينما هو في السمنار قام بزيارة مزرعة الأوكرانية في 'غيراسيموفكا'^{٢٦} حيث يسكن رفيقه 'أليوش'، ووصل بيت شقيقته 'فاريا' وزوجها 'كوتيا'. سرعان ما بدأت تستأنس فاريا إلى نعيمه أكثر لما كان بينها وبين زوجها بون شاسع^{٢٧}. ونعى حبا له من التلميح إلى التصريح حتى مرضت من أجله وأسيرت بالفراش^{٢٨}. ويشارك ما كان له من تجارب الحب العاطفية على شكل مثير في مذكراته^{٢٩} تلك الأيام. وكان قد تم تأليف قصيدته 'النهر المتجمد'^{٣٠} في سياق إحدى النزعات على طول نهر 'صولا' مع 'أليوش'.

٣٣. المصدر السابق، ص ٢٥٩

٢٤. المصدر السابق، ص ٢٥٩

٢٥. المصدر السابق، ص ٢٦٣-٢٦٤

٢٦. المصدر السابق، ص ٢٩٩-٣٠٣

٢٧. المصدر السابق، ص ٣٠٠ بتصرف

٢٨. المصدر السابق، ص ٣١٤

٢٩. المصدر السابق، ص ٣٢١-٣٢٧

٣٠. المصدر السابق، ص ٣١١

طور جديد

وبحلول السنة الثالثة في السمنار قد كانت غلبت عليه موجة الزهد والتكشف^{٣١} التي كانت نحوها ميل فطري لديه. وقد أحس كل ما من مناظر وظواهر خارجية تافهة عدا ما يبحث عنه من مهم. يمكن الفهم لهذه المرحلة على أنها بداية تجسيد نظريته 'التوحيد الكلي' نحو هذا الكون العظيم وما فيه من موجودات. وقد سجّل^{٣٢} ما جرى - في تلك الأيام - من أحداث وما خطر في نفسه من تأملات وانطباعات على شكل اليوميات في اللغة الروسية.

وفي السنة الرابعة تقدم بعض الطلاب في السمنار بالإضراب يطالبون فيه الحرية. وبالتالي تم الحرمان لهؤلاء الثائرين من حضور الدروس تلك السنة. وكان ممن فهم مخائيل نعيمة كمعرض للإضراب. فقضى تلك الأيام في 'رومانيا' مع أهل فاريا وفي 'غيراسوموفكا' مع 'آليشا'^{٣٣}. وخطر في نفسه رغبة في متابعة دروسه في فرنسا منذ أن عرف سفر صديقه ميخائيل إسكندر إليها.

وفي خريف نفس السنة عاد هو إلى 'بولتافا' لاستعداد الامتحانات النهائية وسكن في غرفة خارج السمنار و'فاريا' و'كوتيا' أيضا في بيت آخر^{٣٤}. وفي تلك الغضون حاولت الانتحار بسبب خيبة الأمل في حياها له، لكنها استعادت حياتها ورجعت إلى بلدها. ولا يزال تطارده هذه الأحداث، ولكنها لم تصرفه عن المطالعة والقراءة^{٣٥}. ورجع إلى بيته بعد أن ظفر في الامتحان النهائي. تختتم هذه المرحلة بمغادرته لأمريكا مع أخيه لمتابعة دروسه العليا^{٣٦}.

٣١. المصدر السابق، ص ٣٢٩

٣٢. المصدر السابق، ص ٣٣٥-٣٦٥

٣٣. المصدر السابق، ص ٣٨٥-٣٨٦

٣٤. المصدر السابق، ص ٣٩٧

٣٥. المصدر السابق، ص ٤٠٣

٣٦. المصدر السابق، ص ٤٢٢-٤٢٣

المرحلة الثانية

تتضمن المرحلة الثانية فترة ما بين ١٩١١ و ١٩٣٢. وهذه الفترة تمثل حياته في الولايات المتحدة الأمريكية. ولم تكن تعجبه مدينة نيويورك المكتظة بالمباني الشاهقة والشوارع المزدحمة لما أن في نفسه شيء من نقمة على المدنية، فأزالت جميع الخيرات والقيم الانسانية. واحتلت ماكينة في جميع ميادين الحياة حتى في المزارع وأصيب المناخ بشيء من التمرد. وهو يقول "إني لأوثر القلة مع صفاء الذهن والقلب على الوفرة مع اضطراب القلب والعقل معا"^{٣٧}

التحق بجامعة واشنطن في برنامج يضم الآداب والحقوق يستغرق ست سنوات. وفي السنة الثانية بدأ أن يكتب في مجلة الفنون التي تصدر في نيويورك منشئها نصيب عريضة صديق له ويشدد العلاقة معه. وفي تلك الفترة احتلت تركيا لبنان وسوريا وفلسطين وغيرها من البلدان العربية وأصبحت تحت إمرتها وألغت امتيازات لبنان بمعونة ألمانيا حليفة لها. وفي نفس الوقت اشتدت المجاعة في لبنان.

إن الأزمات المتكررة في الحياة والأشغال المتعبة فيها مثل أخبار الحرب والمجاعة والدراسة والوظيفة المؤقتة في القنصلية مع ما كان يلزم به من الوحدة والعزلة كلها ألحت في نفسها تساؤلات فلسفية حول معنى الحياة وما فيها من الظواهر المعقدة مثل المعرفة والمصادفة والعقيدة والاحساس باللذة والألم والخوف والطمأنينة الفضيلة والرذيلة والحلال والحرام وما إلى ذلك. أما الصداقة بشاب إسكوتلندي، شريكه في الغرفة فجعلته يفكر في التعاليم الباطنية أكثر. حقا كانت مراسلاته^{٣٨} تلك الأيام مع صديقه نصيب عريضة تجربة روحية التي تدفئ الحس والقلب والوجدان. يقول فيها عن إعادة نشر جريدة الفنون وتأسيس نقابة أدبية وغيرها من النشاطات الأدبية والفكرية والاجتماعية.

٣٧. ميخائيل نعيمة، سبعون (المرحلة الثانية)، مؤسسة نوفل، بيروت، ط ١٢، ٢٠١١، ص ١٥

٣٨. ميخائيل نعيمة، سبعون (المرحلة الثانية)، مؤسسة نوفل، بيروت، ط ١٢، ٢٠١١، ص ٦٤-٧٧

التخرج من جامعة واشنطن

ترك عمله بدوام جزئي في القنصل الروسي بعد أن تخرج من جامعة واشنطن فعاد إلى 'والاوالا' بقصد الاستراحة دون مباشرة أي عمل ولا مطالعة ولا كتابة وانضمام مع أخويه فيها. ولكنه لم يكن يستطع الاستراحة. ألف مسرحية 'الآباء والبنون' في ثلاثة أسابيع^{٣٩}. بعد أن فرغ من تأليف هذا الكتاب لاحظ كتابا اسمه 'الأدب والعقيدة' لدى أخيه أديب. وكان هذا الكتاب من تأليف رجل ماسوني عن عقيدة الماسونية. وكان أخوه من محفل 'والاوالا' فانضم في هذه الجمعية وحصل على ثلاث درجات فيها حتى انقطعت صلته بها لما أدرك أن أكثرهم يحفلون بقشورها ولا بلبابها.

في نيويورك من جديد

وفي سنة ١٩١٦ عاد إلى نيويورك مرة ثانية، وانخرط في النشاطات الأدبية والتأليفية^{٤٠}. وكان قد أصبحت مكانا مكتظا بالشعوب من الجنسيات المختلفة شكلا ودينا ولغة وميلا. لقي استقبالا حارا في مكتب 'الفنون' من قبل نسيب عريضة وعبد المسيح حداد وميخائيل اسكندر وخليل جبران فيما بعد. واستأجر غرفة في بيت عجوز إيرلندية فيها مع وظيفة في مكتب 'الأسطول التجاري' الروسي. ثم تنقلت وظيفته سكرتيرا للمفتش الروسي لدى شركة التي كانت تصنع ضربا من القنابل المدفعية الروسية. وذلك في ولاية بيت لحم في بنسلفانيا، كما تنقل سكنه في مكان مجاور لها. تم نظم قصيدة 'النهر المتجمد' في ذلك الوقت.

الخدمة العسكرية

وفي عام ١٩١٧ أعلنت أمريكا الحرب على ألمانيا. فاضطر لانضمام في الخدمات العسكرية. وكان يتعزل كل مساء في التأمل عن الحروب. وفي الوقت نفسه غمر الله داخله فيضانا من الطمأنينة، فتولدت في خياله صورة الأرقش^{٤١}. بينما كان في المعسكر حبس بتهمة عدم وفاء

٣٩. المصدر السابق، ص ٧٩.

٤٠. المصدر السابق، ص ٩٥-١٠٤.

٤١. المصدر السابق، ص ١٠٥-١٠٨.

مهمة ما ليس من مسؤوليته، فقال أمام المحكمة "كان في مستطاعي أن أتهرب من الجندية لو أنا شئت ذلك، ولكنني لن أتهرب. ولو كنت أحسب أن الخدمة في الجيش الأمريكي تعني محق الشخصية، ودوس الكرامة الانسانية، وتعني انعدام العدل، أو عدلا بميزانين، لما رضيت أن أخدم"^{٤٢}. فأطلق سراحه.

يصرح نعيمه تجاربه القاسية في باخرة عسكرية^{٤٣} تحمل جنودا لعم سام، وكذلك في مستشفى عسكرية^{٤٤} بعد وصول الباخرة في ميناء في شمال فرنسا، وفي أرض المعركة^{٤٥} حيث تم تعيينه أحدا من الثمانية لاستكشاف وتزويد الأركان بالمعلومات عن سير المعارك. وكان عليه السير على الأقدام مسافة عشرين كيلو مترا إلى قرية صغيرة في فرنسا^{٤٦}. وبعد الهدنة وانتهت الحرب مشوا عشرة أيام، كل يوم على الأقل ٣٠-٤٠ كيلومتر^{٤٧}. وهو أضمن في الكتاب مذكراته حول التجارب العسكرية. وفي آذار ١٩١٩ هو وثلاثة آخرون سافروا إلى رانش هي مدينة فرنسية ليلتحق إحدى جامعاتها بدلا من جامعة واشنطن. بينما كان في الجامعة تم انتهاء الحكم التركي في لبنان وبعض من الدول العربية^{٤٨} توقفت 'الفنون' وأغلقت المدارس بسبب الحرب. فأصبحت على عاتقه تكاليف أسرته.

وفي عام ١٩١٩ رجع إلى 'والاوالا' وقضى شهرين مع أخيه نسيب وأهله، ثم قصد إلى نيويورك^{٤٩}، المدينة الصاخبة. أحس بها كالواحة في الصحراء لوجود أصدقاءه فيها واحياء 'الفنون' وعمل في المتجر لمائة دولارا وسكن في غرفة في بيت رجل وزوجته فقط بستة دولارات في الأسبوع. بينما هو فيها أحبته فتاتان^{٥٠}. الأولى منهما 'بيلا' هي ربة البيت الذي يسكن فيه. وقد كانت دائما اتبعته في طعامه وشرابه جسديا وروحيا. وقد استمرت هذه العلاقة خمس سنوات. وقد كانت

٤٢. المصدر السابق، ص ١٢٢

٤٣. المصدر السابق، ص ١٢٤-١٣٨

٤٤. المصدر السابق، ص ١٣٩-١٤٩

٤٥. المصدر السابق، ص ١٥٦-١٧٠

٤٦. المصدر السابق، ص ١٥٠-١٥٥

٤٧. المصدر السابق، ص ١٧٢-١٨٠

٤٨. المصدر السابق، ص ١٩٢

٤٩. المصدر السابق، ص ١٩٤-٢٠٧

٥٠. المصدر السابق، ص ٢١٧-٢٣١

حافزا لنظم عديد من قصائده. وأما الثانية فهي فتاة لبنانية اعترضت في طريقه من الحياة بكل تكلف ولكنه أعرض عنها. وكان قد حسب أن الحب مع 'بيلا' فقط نزوة عابرة من نزوات الشباب. ولكنه كانت قد توغلت في حروقه حتى بات صوتها أعذب الأصوات لديه على الإطلاق^{٥١}. فيشارك شذرات من أفكاره حول الحب مع 'بيلا' والجروح العاطفية^{٥٢} التي نجمت عنه. عندما غادرت مدينة نيويورك مع زوجها واستقرت في إحدى القرى، كانت نعيمة معها كمستأجر. لاحقًا، ابتعد عنها وهجر بيتها وغادر للنيويورك^{٥٣}.

الرابطة القلمية^{٥٤}

كان البوق الذي من خلاله تحدث الثورة الأدبية في المهجر فهو 'الفنون' وبعد احتجابه جريدة 'السائح'. وفي سنة ١٩٢٠ تم تأسيس الرابطة القلمية من قبل عصابة عشرة. وقد اختير 'جبران' عميدا و'نعيمة' مستشارا و'وليم كاتسفليس' خازنا لها. وأصبحت حافزا قويا للأدب العربي لهوضه "من دور الجمود والتقليد إلى دور الابتكار في جميل الأساليب والمعاني"^{٥٥}. فهؤلاء العشرة لم يكونوا مثقفين إلا وليم كاتسفليس وجبران. وقد تمت تحت لوائها منشورات عدة. وفي السنة التالية سنحت له الفرصة لتقديم هدية^{٥٦} للرئيس ولسن بعد ان عاد إلى واشنطن مع نسخة من معاهدة الصلح مع ألمانيا.

وفي هذه الفترة تم تأليف كتاب 'الغريال'^{٥٧} بتقديم العقاد. وقد كان تلقى يد العون ممن استهواهم أدب الرابطة القلمية مثل محيي الدين رضا. وكان ذلك أيضًا وقتًا واجه فيه كتاب المهجر انتقادات شديدة من المحافظين لعدم اتقان استعمال اللغة، ولو كان ثريا بالمعاني الجديدة تمشيا مع روح العصر وعدم تكلف الألفاظ المستخدمة. وفي غضون هذه الأيام

٥١. المصدر السابق، ص ٢٦٤

٥٢. المصدر السابق، ص ٢٦٤-٢٧٠

٥٣. المصدر السابق، ص ٣٢٢-٣٣١

٥٤. المصدر السابق، ص ٢٣٢-٢٤٨

٥٥. المصدر السابق، ص ٢٣٣

٥٦. المصدر السابق، ص ٢٤٩-٢٦١

٥٧. المصدر السابق، ص ٢٧١-٢٨٣

سنت له الفرصة لتقديم موقفه نحو 'نهضة الشرق العربي وموقفه بإزاء المدينة الغربية' بمناسبة ابتداء العقد الرابع لمجلة 'الهلال'^{٥٨}. فيقول فيه أن العلم الذي تقدمت به المدينة الغربية قاصر عن إدراك 'الشيء الكبير'، 'المهم'، 'البعيد' الذي لا يزال يفتش عنه، فهي أحوج إلى هاد. وأما الشرق فعليه أن تستعيد الإيمان والاعتصام به دون استسلام وخوف وذل. في ذلك الوقت، تمت محاولة لتقوية جريدة 'السائح' في نيويورك^{٥٩} بمشاركة بعض الأصدقاء الآخرين إلى جانب عبد المسيح لكنها باءت بالفشل.

مغادرة نيويورك

وهو لما أخبر أن أخاه نجيب يريد السفر إلى مكسيك فيشارك شذرات من الأفكار حول ارتياح الحياة في الوطن، وكذلك يأتي بقصة ساعة كوكو التي وردت في مجموعة 'كان ما كان'^{٦٠}. وفي أواخر ١٩٢٥ ترك عمله في المتجر وبحث عن عمل آخر في السنوات الثلاثة التالية^{٦١}. فعمل بائع الموسوعة البريطانية. وعلى الرغم أنه ظفر بدهشة مدير البيع في المؤسسة، ترك العمل بما أنه أحس شيئاً من الضيق النفساني. فسافر إلى أخيه أديب في والا ولا. وقضى في مصيف^{٦٢} في الجبل فيها في الخلوة والعزلة طاهيا المأكولات الخفيفة واصطيادا الأسماك قرب النهر. وقد خطر في البال ذكريات الماضية ونظم في هذه الفترة بعض القصائد في الانجليزية.

ثم عاد إلى نيو يورك^{٦٣} طلبا للعمل. وحصل على عمل عند رجل تاجر بمرتب ٦٥ دولارا في الأسبوع. أنه يملك مكتبا في الصين لاستيراد المطرقات الصينية. مدير هذا المكتب هو صديقه إسكندر يازجي. ثم يقول عن الصداقة والصديق الحقيقي. ومن صديقين من هذا القبيل هما

٥٨. المصدر السابق، ص ٢٨٤-٢٩٥

٥٩. المصدر السابق، ص ٣٠١-٣٠٩

٦٠. المصدر السابق، ص ٣٣٢-٣٤١

٦١. المصدر السابق، ص ٣٤٢-٣٥٠

٦٢. المصدر السابق، ص ٣٥١-٣٦٠

٦٣. المصدر السابق، ص ٣٦٦-٣٦٦

اسكندر اليازجي وإميل ضومط. وهو يورد في الكتاب المراسلات التي تمت بينه وبينه أخيه الأصغر نسيب^{٦٤}. وكانت دراسته على نفقته.

وهو يتحدث أيضا عن بعض الصور^{٦٥} التي انبثقت من قلمه إياه في وقت غير مكترث ولا تصميم حيث تغلبت عليه الصراعات بين تفكير عن ضرورة المال ليعيش الإنسان حياته من ناحية، ورغبة العقل في العزلة على سفح تلال شخروب بعيدا عن كل الضجيج من ناحية أخرى، حقا لقد فاجأت جبران حتى قال إنه لو تمرن صاحبها عند فنان لتوّد في العالم ميكالانجلو الجديد. وكذلك يستفيض الحديث عن صدفة حيث وقع في حب فتاة أخرى اسمها 'نيونيا'^{٦٦} وعلاقته معها ثلاث سنوات تقريبا. وذلك فترة ما بين صيف ١٩٢٩ ومغادرته أمريكا سنة ١٩٣٢.

وفي الفصول الأربعة الأخيرة من هذا الجزء يتحدث الكاتب عن رحيل جبران^{٦٧} من الحياة المادية وانضمامه في تشييعه، وسهرة قضى مع فتاة اسمها 'هيلدا'^{٦٨} التي تعرّف بها ليلة وفاة جبران في رصيف المحطة. وكذلك المراسلات^{٦٩} التي جرت بينه وبين أخيه نسيب تتجلى فيها نظراته ومعتقداته في ذلك الزمن. أما في الفصل الأخير فهو محتوى عن استبطان^{٧٠} إلى ما كان أمريكا قبل عشر سنين عندما وصل هناك، وما حدث لها من تطورات مادية وما تتصف بها من سرعة وابتكارات وطموحات وما جرى في حياته من مصادفات وأحداث عشوائية. وكان وداعه لديار أمريكا دون أي حسرة ولا ضغينة. فالورود البيض التي بها قامت 'هيلدا' بتوديعه، والدموع الخالصة من 'نيونيا'، وكذلك وشهادة أخيه له على أنه متنزه عن حب الذات، فهي كلها قد منحه شعوراً بالفخر عن ذاته.

٦٤. المصدر السابق، ص ٣٦٧-٣٩٧

٦٥. المصدر السابق، ص ٣٩٨-٤٠٤

٦٦. المصدر السابق، ص ٤٠٥-٤١٤، ٤٣٢-٤٣٨

٦٧. المصدر السابق، ص ٤١٥-٥٢٣

٦٨. المصدر السابق، ص ٤٢٤-٤٣١

٦٩. المصدر السابق، ص ٤٣٩-٤٥٠

٧٠. المصدر السابق، ص ٤٥١-٤٥٩

المرحلة الثالثة

تبتدئ هذه المرحلة بمغادرته أمريكا لحياته الريفية في لبنان. ويتحدث عن رجوعه منها بعد ثلاثين سنة من تطواف مستمر وتجارب عوالم متنوعة في سبيل اكتساب العلم والمعرفة. فتمر بخاطره الذكريات الماضية مع ما التف بها من مشاعر وأفكار وانطباعات وهو اجس وتطلعات ارتجاعا فنيا. فتظهر ممرات عصبية (Neural pathways) لذكرياته الخافتة إلى النور. وقد تغيرت آفاق أرضه وسماءه ما من تراب وهواء وماء ماديا ومعنويا. أما الأمر الذي يزعجه فهو فكرته عن المعيشة التي تعكر على صفاء خلوته.^{٧١} فيرسم جميع اللحظات في طريقه في العودة واستقبال أهله له وتغير ملامح وجوه بلاده والاشخاص فيها بكل دقة وتفصيل. فيقول عن هذه النشوة الخاطفة "إنني لفي ما يشبه الانخطف من فرط ما انتثر فوقى وتحتي وأمامي وخلفي من ورعة وبهجة، حتى ليخيل إليّ أن صنين والشخروب والأرجاء المحيطة بهما قد تضافرت جميعا لتولم مثل تلك الوليمة لهذا الابن الشاطر الذي هجرها ثم عاد إليها، والذي كان ميتا فعاش، وكان ضالا فوجد"^{٧٢}. وقد أقيمت حفلات في بلده تكريما له بعد وصول موطنه. فالخطب التي ألقاها فيها كانت حافلة بشتى فلسفات الحياة العملية.

ناسك الشخروب

بالرغم أنه كان يعيش بين الناس مع أحزانهم وأفراحهم، أنه كان أكثر ميلا إلى العزلة والخلوة للتأمل والتأليف. ولذلك بنيت له خيمة^{٧٣} من أغصان الشجرة في مكان مكتنف بالصخور العالية في الشخروب. وكان يقضي معظم أوقاته فيها إلا بعض منها مثل وقت الطعام واستقبال الزوار وممارسة العمل الزراعي ونحوها. توفيق عواد أحد زائريه عندئذ خلع عليه لقب 'ناسك الشخروب'. ذلك ظهر في جريدة 'البرق' لبشار الخوري. ويتذكر باعتزاز أنه تلقى

٧١. ميخائيل نعيمة، سبعون (المرحلة الثالثة)، مؤسسة نوفل، بيروت، ط ١٢، ٢٠١١، ص ٦.

٧٢. المصدر السابق، ص ٤٢.

٧٣. المصدر السابق، ص ٦٠-٦٧.

بعض الأسئلة من القراء فيما يتعلق بهذا اللقب حيث أن ظنهم هو أنه دائماً يعيش ابتعاداً عن الناس في الخلوة.

وفي سنة ١٩٣٢ قام بزيارة^{٧٤} مع صديقه الشاعر أمين مشرق ضريح جبران بعد زيارتهما أولاً غابة الأرز ومار سركيس. وقام هذا الصيف ذاته برحلة إلى جبل صنين^{٧٥} برفقة زوجة أخيه نسيب وصديقه أميل ضومط. كل رحلة لديه قد كانت تعبر الحواس إلى العالم الموحد حيث لا لمخلوق وجوداً مستقلاً، بل أنه يتفرد بكونه جزءاً من الواقع المطلق أو العالم الموحد كما يتفرد العالم في وجود ذاته. كان يتلقى جميع تجاربه الحسية للحظة الحالية باليقظة الواعية، مما يجعل الجسر إلى تجارب الماضي المماثلة، وبالتالي إلى العالم التجاوزي.

فلك نوح

في سنة ١٩٣٣ اشتد مرض أخيه نسيب وتدركه المنية^{٧٦}. فيشارك مع القراء أفكاره الفلسفية فيما يتعلق بالموت. وفي صيف نفس السنة انتقلت العائلة كعادتها إلى الشخروب. فبنى صومعة أو خيمة للتأليف والتأمل في مكان ملتف بالصخور بغير انتظام، والتي سماها 'الفلك' مستلهما من فلك نوح الذي تكسرت أمواج الطوفان عنه كما تتكسر أمواج العالم الصاخرة على عتبة الصخرة، حيث قال إن تلك الأمواج هي شهوات الانسان العنيفة، لذلك دَفَنَ خمساً من شهواته الأرضية من زمان، فهي "شهوة السلطان، وشهوة الغنى، وشهوة النساء، وشهوة الشهرة، وشهوة الخلود"^{٧٧}. وأصبحت تلك الخيمة مصدراً للكثير من نتاجه الفكري والأدبي إذ يقول "وفي الفلك - قد غلب عليها فيما بعد اسم 'الكهف' - وضعت الكثير من مقالاتي ومؤلفاتي. ومن بينها 'البيدارح' وكتاب 'مرداد' وجبران خليل جبران"^{٧٨}.

٧٤. المصدر السابق، ص ٩٤

٧٥. المصدر السابق، ص ٩٨

٧٦. المصدر السابق، ص ١٢٢

٧٧. المصدر السابق، ص ١٣٠

٧٨. المصدر السابق، ص ١٣٦

أما كتابه عن جبران فهو قبول للثناء من القراء ومعاصريه من الأدباء وكذلك النقد أيضا. وذلك من زميله أمين الريحاني، أنه كتب رسالة مفتوحة في جريدة 'البلاد'^{٧٩} ينتقده فيها على فضح أسرار جبران في علاقاته الجنسية. فرد عليها نعيمة في كتاب مفتوح آخر، ويذكر فيه عن علاقته العاطفية مع جبران وعدم جدوى اتهاماته عليه بالتفصيل.

وفي أول العهد بعد أن رجع إلى بسكنتا كان يساير الناس في أمورهم الاجتماعية. رغم أن مجاملته الاجتماعية اقتضت تدرجيا بعد ذلك، كان لا يزال يساعد الناس على أمورهم فيما يتعلق بأقاربهم في المهاجر^{٨٠}. وفي غضون تلك الأيام مات جده^{٨١}. وفي سنة ١٩٤٠ هو وبعض من أعضاء أسرته "تحت سقف البيت الجديد. وكان السقف من القرميد. وجاء البيت قصرا منيفا بالنسبة إلى البيت القديم"^{٨٢}. ومع ذكر انجازات أرضية مثل تشييد البيت الجديد وهو يأتي بجانبه المعنوي أيضا إذ يقول "أن الراحة نعمة لا تجود بها الأشياء، ويجود بها الروح الذي يستخدم الأشياء"^{٨٣}. فيصف معاناة جحيمية للإنسان بالرغم من كل الملذات المادية لديه ويقول عنه "ما أكثر الفقراء بين الأغنياء، والأغنياء بين الفقراء"^{٨٤}.

معاناة الحرب وعواقبها

اندلعت الحرب العالمية الثانية، أصبحت الناس في الورطة والمصائب. ومع ذلك أنه حصل عليه فرصا لاكتساب المال حيث كان يلقي الحديث في الاذاعة والأندية وكتابة المقالات والقصص في المجلات. ونشرت 'همس الجفون'. في سنة ١٩٤٥، و'البيادر' و'صوت العالم' و'كرم على درب' وطبعة جديدة ل'الغريبال'^{٨٥}. ومن خلال ذكر الاعلان من محطة الاذاعة اللبنانية عن انتهاء الحرب، يعبر عن بعض الأفكار الفلسفية^{٨٦} حول الحرب والسلام في شكل

٧٩. المصدر السابق، ص ١٤١

٨٠. المصدر السابق، ص ١٧٥

٨١. المصدر السابق، ص ١٨٢

٨٢. المصدر السابق، ص ٢١٦

٨٣. المصدر السابق، ص ٢٢٥

٨٤. المصدر السابق، رجع السابق، ص ٢٢٦

٨٥. المصدر السابق، ص ٢٢٧-٢٣٦

٨٦. المصدر السابق، ص ٢٤٥-٢٥٨

حوار بين الشمس والأرض. كان جواب الوحيد للأرض لسؤال الشمس أنه ثمة معاهدات سلم وهدنة واستعدادات لحروب جديدة وشوق إلى سلام، لكن فقط السلام يظل مجرد وهم. وبحلول عام ١٩٤٦، قد كان جميع الأشخاص العشرة في الرابطة القلمية قد ماتوا إلا اثنين، هما عبد المسيح الحداد في نيويورك وميخائيل نعيمة في لبنان^{٨٧}.

ذكريات عن الأم

وفي سنة ١٩٤٤ ماتت أمه^{٨٨} ويصف عمق الخيط العاطفي مع الوالدات وروعته في قوله إنه "كل القلوب عجيب ورائع وغريب، ولكن أعجمها وأروعها وأغربها من غير شك قلوب الوالدات"^{٨٩}، كما يطرح سؤالاً فلسفياً حول حتمية الموت لكل الحياة فيقول إنه "كيف يموت ويدفن من تجلت فيه الحياة ولو لمحة من الزمن، إلا إذا ماتت الحياة ودفن الزمن؟"^{٩٠}

والفصول الأخيرة يتحدث عن الخوارق^{٩١} التي يتعذر على العلم توضيحها ودرسها في المختبرات تأسيساً على فرضية النسبة والمطلق للعالم والجزئية والكلية له. كما يقوم بتحري معنى كلمة الاستقلال^{٩٢} بعمق فلسفي. وذلك كان في سياق تحرر بعض من البلدان العربية مثل لبنان وسوريا من قبضة القوات المستعمرين المحتلين. وكان في سنة ١٩٤٣ تذوق لبنان الاستقلال.

وبحلول تلك الأيام، قد كان انخفض الاعضاء في بيته إلى ستة^{٩٣} بعد وفاة جد وجدة ووالد ووالدة وأخيه نسيب. وهؤلاء الستة هم هو وأخوه نجيب وعائلته المتضمنة من زوجته وثلاثة أولاد لهما وهم يعيشون تحت سقف واحد بانسجام ووثام وما فيهم من الاختلافات في شخصياتهم وأنماط تفكيرهم مزاجهم وميولهم وأذواقهم وآراءهم. ويقوم بالوصف لكل من هؤلاء وصفاً دقيقاً بشيء من التفصيل.

٨٧. المصدر السابق، ص ٢٥٨

٨٨. المصدر السابق، ص ٢٣٧

٨٩. المصدر السابق، ص ٢٣٨

٩٠. المصدر السابق، ص ٢٤٤

٩١. المصدر السابق، ص ٢٥٩-٢٧٧

٩٢. المصدر السابق، ص ٢٧٩-٢٨٥

٩٣. المصدر السابق، ص ٢٨٦-٣٠٣

ولادة كتاب

ويتطرق الحديث عن ولادة قطعة أدبية سواء كانت قصيدة أو قصة أو مقالة أو رواية^{٩٤}. فليست هي كما يعتقد الناس نتيجة تصميم سابق. بل هي عملية معقدة. فالقصيدة مهما طالت قد تكون وليدة بيت واحد أو شطر من بيت، أو كلمة التقطتها الأذن، أو صورة ارتسمت في العين، أو خيال خطر في البال، أو عاطفة اختلجت، أو فكرة حركت الوجدان، أو عوامل أخرى باطنية وخارجية^{٩٥}. فتتطور تدريجياً حيث تجر الكلمة كلمة، والصورة صورة.. هكذا، من غير علم سابق أين مصدرها. فكل يعتمد على الذوق والميول والاستعداد. وكذلك سائر الأنواع الأدبية كلها تصدر من خزانة مقفلة في الداخل. ويسهب عما تولد بعض من كتبه مثل 'مذكرات أرقش'.

ويتحدث عن بعض الأحداث التي وقعت فيما بين ١٩٤٩ - ١٩٥٩^{٩٦}. منها ما صدر من كتب مثل كتاب 'المرداد' في الإنجليزية، وعن التغيرات المتقدمة في شخروب مثل استبدال حمارة بسيارة وخطوط تليفونية وغير ذلك. وفي سنة ١٩٥٠ جاء إليه خبر من أخيه أديب وفاة شقيقه 'هيكل'^{٩٧}. وكذلك زيارته للاتحاد السوفياتي^{٩٨} بدعوة من جامعة الكتاب سنة ١٩٥٦، وبعض الانقلابات السياسية في البلدان المجاورة.

وليمة الكلمات

تنتهي هذه المرحلة بذكر وليمة الكلمات التي من خلال نوافذها انكشفت حياته، ما فيها من رغبة ومن صريح. أما 'أنا' فهي النافذة، "لا شك أنها في جوهرها كانت نضالاً ضد الرغبة وتفتيشاً عن الصريح"^{٩٩}. وفي الحقيقة تمكن له الانكشاف فقط بقابليته للفهم والنطق

٩٤. المصدر السابق، ص ٣٠٤-٣١٦

٩٥. المصدر السابق، ص ٣٠٤

٩٦. المصدر السابق، ص ٣١٧-٣٣٢

٩٧. المصدر السابق، ص ٣٢٠

٩٨. المصدر السابق، ص ٣٢٢

٩٩. المصدر السابق، ص ٣٣٤

والكتابة. وليس من استطاعة الانسان حق الادراك والفهم لما كتب ونطق من كلمة. ولا يزال يفتشون عنه حتى تأتي إليه نعمة الفهم المقدس، إذ يقول "فليس المهم.. أن تعرف متى تأتيك نعمة الفهم المقدس، بل المهم ان تميّز معالم الطريق المؤدي إليها، وأن تسير فيه بقدم ثابت"^{١٠٠}. كل كلمة لما له من قبح وقدسسية. فأما المتلقي فهو الذي يجعل كل كلمة فاسدة ويقدمها. ومن يتقدس بهذه الكلمات المعبرة فيمكن له أن يتناول من وليمتها السخية إلى طريقها للفهم المقدس.

المبحث الثالث: الاعتراف في 'سبعون'

مما لا شك في أن كتاب 'سبعون' تجلية رائعة لرحلته الروحية في عالم مادي متحليا بتجارب الشرق والغرب معا، مجتزا بحواسه الخمس بيقظة واعية، كما أنه رحلة من خلال عالم الأفكار القابع ما وراء المحسوسات. وعلى حد قوله^{١٠١} إن العلم وحده قاصر عن إدراك الحقيقة. فهو محصور على المحسوسات. يتمحور هذا الكتاب على التعبير عن ذاته مع علاقتها بأحداث خارجية حيث يبحث عن ذاته الحقيقة التي تقبع ما وراء الحواس. فلا يتمكن إدراك تحقيق الذات إلا إذا تجرب بالأحاسيس الخارجية وعلاقتها بالداخل بيقظة واعية. وهو يقول "فهنيئاً من الانسان لا ينحصر فيما يشيد ويهدم، أو فيما يخترع ويكتشف، أو فيما ينتج ويستهلك، إلا على قدر ما يساعده ذلك في تحقيق هدفه من وجوده - ذلك الهدف الذي يتجاوز أقصى ما يتعطش إليه الآن من الجمال والمعرفة والحرية والخلود"^{١٠٢}. أما حياة الانسان فهي محاولة تشييد من جهة، وهدم ما تشيّد من جهة أخرى، وما بينهما من صراع متصاعد الذي هو نفسه الطريق إلى التفوق والتجديد. فجمال الحياة هو توفيق كلتي المحاولات المتناقضة وإدراك الحقيقة ما وراءها.

١٠٠. المصدر السابق، ص ٣٤٣

١٠١. ميخائيل نعيمة، سبعون (المرحلة الثانية)، مؤسسة نوفل، بيروت، ط ١٢، ٢٠١١، ص ٤٤١

١٠٢. ميخائيل نعيمة، سبعون (المرحلة الأولى)، مؤسسة نوفل، بيروت، ط ١٢، ٢٠١١، ص ١٦-١٧

فهذا الكتاب ثري بتعابير تجاربه الذاتية بكل ما فيها من معان ذاتية من عنده. أما بالنسبة للاعتراف فهو يحتوي على تعبير عن الحب والرغبات الجنسية والأمراض والسرقة وما إلى ذلك من تجارب أكثر حميمة. ولكنه لن يتعد إلى درجة الفصاحة والتعريّة خصوصاً فيما يتعلق برغباته الجنسية – وإن تعدت الرغبات الأرضية لديه عن حدود الأخلاق في تجربته الحقيقية أم لا -. فهو بعيد عن مثل تلك التعبيرات الفاضحة.

يقول الكاتب في مقدمة الكتاب أنه أهمل فيه إهمالاً^{١٠٣} تاماً كثيراً من الأعمال اليومية فيما يتعلق به مثل الأكل والشرب والنوم، وكذلك ذكر عن أعضاء أسرته وعلاقتهم العاطفية به وأمور مخزنة أو مسرة حيث أنه يرى ليس للناس في معرفتها منفعة في حياتهم إلا الأمور التي وردت في رسائله أو في مقالاته أو في مذكراته. ولذلك أنه ندر أن ورد فيه ما أصيب من والديه أو أساتذته أو أنسابه الأكثر حميمة من تجارب عاطفية -سلبية أو إيجابية كانت – التي عسى أن لعبت دوراً هاماً في تشكيل شخصيته. وفي الوقت نفسه أنه غني بأحداث خارجية التي لها خيوط خفية لذاته الداخلة مع انعكاساته الفلسفية تجاهها.

ذكريات عن الوالدين

إن ذكرياته عن والديه -من حيث التجارب الاعترافية - قليلة بالمقارنة مع تعبيراته عن التجارب والأحداث والظواهر الكونية وانعكاساته النفسية نحوها على شكل مستفيض في الكتب الثلاثة التي تمثل جميع مراحل حياته. وعند القيام بتحليل السمات الشخصية لوالديه التي شاركها، فيمكن العثور على جذور خصالاته الفلسفية فيها. وهو يقول "لا أذكر أن والدي تناولني بكف غير مرة واحدة، وذلك عندما كذبت عليه"^{١٠٤}. هكذا يشارك إحدى التجارب مع والده. وأما بالنسبة لذكرياته عن التجارب العاطفية في الطفولة فيما يتعلق بوالده فقد انحصرت على بعض الأحداث الخارجية مثل ما صور عن صلاتها لأب سماوي وكذلك اختلاف

١٠٣. ميخائيل نعيمة، سبعون (المرحلة الثالثة)، مؤسسة نوفل، بيروت، ط ١٢، ٢٠١١، ص ١٠-١١

١٠٤. ميخائيل نعيمة، سبعون (المرحلة الأولى)، مؤسسة نوفل، بيروت، ط ١٢، ٢٠١١، ص ٩٣

أمه إلى الكنيسة محمولاً على كتفها وما إلى ذلك. لا تظهر أي من هذه الذكريات تجاربه العاطفية قد تجرب بها مع والديه

ولا بد من الافتراض أنه اكتسب من والده مبادئ أساسية لنظريته الدينية ذات التوجه القيمي التي يطرحها باعتبارها متميزة عن النظرة الدينية القائمة على الطقوس العمياء. يقول عن نظرة والده عن الدين "فالدين في نظره كان الخلق الرضي وحسن المعاملة قبل أن يكون في تأدية الفروض والمراسم المألوفة، ولذلك لم يستنكف أحياناً من العمل أيام الأحاد والأعياد. فالعمل الصالح هو في ذاته عبادة صالحة، إلا أن والدي كان يحب الكنيسة ويحب الأتقياء من رجال الدين"^{١٠٥}

وكذلك يقوم بالمقارنة بين ما لوالده ووالدته من خصلات متباينة. وهو يقول "لم يكن يؤلم أبي وخز الشوك، والصراع مع الصخر، بقدر ما كان يؤلمه وخز لسان أمي والصراع مع أطباعها. وقد كان صبوراً وكانت لجوجة. وكان قنوعاً، وكانت طموحاً. وكان مسالماً، وكانت لا تهاب الخصام. وكان يميل إلى السكوت والتأمل، وتميل إلى الجدل والارشاد والحركة. وكانت عاطفته أعمق من متناول لسانه، وعاطفتها تتفجر من عينها ومن أسارير وجهها ومن لسانها. فكانت بينهما اصطدامات لعلها أبشع وأوجع ما أحمله حتى اليوم من ذكريات صباي. إلا أنهما في الواقع، كانا يتممان وأحدهما على الآخر. فلولا طموح أمي ولجاعتها وحسن تديرها لما تعلم أي منا أكثر مما تعلم والدنا..... ولولا صبر والدي الطويل ومقدرته العجيبة على العمل المضني وتحمل شظف العيش لما بقيت عائلتنا متماسكة تماسك الذرات في الفولاذ"^{١٠٦}. فيمكن ملاحظة بأن كانت خصلته الذاتية ممزوجة بالخصلات المتناقضة التي ورثتها كل من والده ووالدته.

١٠٥. المصدر السابق، ص ٩٣

١٠٦. المصدر السابق، ص ٩٩

الاستسلام والعزلة

كان نعيمه -منذ أن كان صغيراً - يميل إلى الانطواء والعزلة والحرص على التفكير عن الطبيعة وما وراءها من الحقيقة. ولكنه لم يكن يبتعد تماماً عن النشاطات الخارجية. وكذلك يصرح عما كان له من طبيعته المطيعة وبالتالي من التقيد بالقانون^{١٠٧} خلافاً من التمرد. كان من العسير أن يقترن بأي جمعية أو مذهب ملازماً بها. لأن طبيعته المتأصلة لم تكن متسقة بمثل هذه الملازمة^{١٠٨}. وإنه تبدو أن طبيعة الأنماط التفكيرية لديه كلها كانت تساند لتغذية مثل هذه الخصلات الذاتية.

الحب والرغبة الجنسية

لم يستطع الكاتب الامتناع عن رغبته الأرضية مثل الحب والجنسية بينما يتحدث باستمرار عن الحقائق ما وراء الحواس. وقد أورد تجاربه في الحب مع الفتيات في روسيا وأمريكا ورغبته الجنسية معهن بما لا يتجاوز حدود الأخلاقية. وهو يشارك تجربته الأولى حيث تحدث مع فتاتين في القطار في طريق عودته إلى بلده من 'الناصره'، إذ يقول "بالرغم أنهما لم تكونا على أحسن الصورة، أنهما أيقظتا في كيانه هائجة جنسية بريئة"^{١٠٩}. فهذه اليقظة الجنسية لا تزال في كيانه عندما اصطحب مع نسيبه إلى سهرة 'عوالم' حيث شاهد فتاة راقصة نصف عارية مصحوبة بالموسيقى^{١١٠}. وهو يشير إلى معاناته الكثيرة في السيطرة على عاطفته الجنسية في المواقف المختلفة في الحياة، ويضيف أيضاً إلى أنه لم يستسلم لها إلا في بعض الفترات^{١١١}.

وكان أول حب له مع فتاة في روسيا اسمها 'فاريبا' وهي شقيقة زميله في السمنار 'آيوشا'. أحبته عند زيارة له بيتها. كانت هي متزوجة قامت بمحاولة انتحار من أجله لكنها باءت بالفشل.

١٠٧. المصدر السابق، ص ١٠٧.

١٠٨. المصدر السابق، ص ٨٥.

١٠٩. المصدر السابق، ص ٢٤٧ بتصرف.

١١٠. المصدر السابق، ص ٢٤٨-٢٥٠.

١١١. المصدر السابق، ص ٢٠٤، ٣١٢.

ويستفيض الحديث عن الحب^{١١٢} بينهما بوفرة. وكذلك حبه مع فتاة انجليزية اسمها 'بيلا'، حينما كان في أمريكا. وقد استمرت هذه العلاقة خمس سنوات. كانت هي حافزا لنظم عديد من قصائده^{١١٣}. وبجانب هاتين الفتاتين كان له أشد حب لفتاة أمريكية 'نيونيا'^{١١٤}. وكذلك كان له علاقة مع فتيات أخرى مثل ماروسيا^{١١٥} وليدا^{١١٦} ومادلين^{١١٧} وغيرها. ولكن لم تكن تطور علاقة رومانسية عميقة.

رغم أنه لم يقيم بتعبيرات خارجة عن الحدود الأخلاقية عن هذه العلاقات الرومانسية، تبدو أنها كانت قائمة على رغبة أرضية. ولم تكن تدهشه دموع بيلا^{١١٨} حين تفارقه وهو يتساءل نفسه "فبأي سحر عاد الحب فجمع بينك وبينها؟ وحبك لها وحبها لك - وإن رافقتة الشهوة الجسدانية - ليبدو لك أرفع من حاجات الجسد من كثير"^{١١٩}. وكذلك هو يكاد لا يصدق نفسه يدهش بأنه هل هذا هو الإنسان الذي يبحث عن حقيقة العالم بعيداً عن كل المصالح الأرضية ومغرياتها؟^{١٢٠}. وهو يصرح أيضا أنها كانت احتياجاته اللازمة إذ يقول "ولو لم يكن قلبي ودمي في حاجة إلى قلب المرأة ودمها لما كان ما كان بيني وبين 'فاريا' في روسيا و'بيلا' و'نيونيا' في أمريكا"^{١٢١}

المبحث الرابع: الاعتراف و أفكاره الفلسفية

إن هذا الكتاب هو مزيج من اعترافاته حول رغباته الأرضية وأفكاره الفلسفية تجاه هذا الكون وما فيها من مخلوقات حية وغير حية. في ظاهر الأمر، يبدو أن هذين الأمرين متضادان، لكن

١١٢. المصدر السابق، ص ٣٠٠، ٣١٤، ٣٢١-٣٢٧، ٣٨٥-٣٨٦، ٣٩٧.

١١٣. ميخائيل نعيمه، سبعون (المرحلة الثانية)، مؤسسة نوفل، بيروت، ط ١٢، ٢٠١١، ص ٢٢٣

١١٤. المصدر السابق، ص ٤٠٥-٤١٤، ٤٣٢-٤٣٨

١١٥. ميخائيل نعيمه، سبعون (المرحلة الأولى)، مؤسسة نوفل، بيروت، ط ١٢، ٢٠١١، ص ٣٥٢، ٣٥٥-٣٥٦، ٣٦٠-٣٦١

١١٦. المصدر السابق، ص ٣٥٠

١١٧. ميخائيل نعيمه، سبعون (المرحلة الثانية)، مؤسسة نوفل، بيروت، ط ١٢، ٢٠١١، ص ١٨٤

١١٨. المصدر السابق، ص ٣٣١

١١٩. المصدر السابق، ص ٣٢٤

١٢٠. المصدر السابق، ص ٤٠٩

١٢١. المصدر السابق، ص ٤٥٤

يمكن رؤيتهما على أنهما مرتبطان ببعضهما البعض. غالبا قد تكون الصراعات النفسية العميقة هي المحفز القوي لمثل هذه الأفكار الفلسفية. ولعل الأمر الذي يجعل هذا الكتاب أكثر مثيرا وروعا، هو أن ما فيه من صراع نفسي يتعلق بالرغبات الأرضية من جهة، والأفكار الفلسفية العميقة من جهة أخرى، التي يرى الكون وما فيها وحدة شاملة روحيا.

نظرة الكونية

إن الطبيعة للكاتب كتاب سحري حيث تم نظامها بمنتهى الدقة والتصميم والروعة^{١٢٢}. والأمر الذي يبهره فيها هو "مقدرتها الخارقة على التوليد والتجديد"^{١٢٣}، وما للمخلوقات فيها من عجيب هو "أنها تحيا لغيرها إذ تحيا لذاتها"^{١٢٤}. أما فكرة هذا الكتاب الرئيسية فهي وحدة الكائنات الحية وغير الحية حيث يرى جميع ما في الكون من أشياء برؤية شاملة ببصيرة الصوفي. لا وجود في الكون منفصلا، بل متصلا بعضها من بعض اتصالا روحيا. وهو يقول "تنتهي النفس التي استجدها في الخلاص من الثورة وأوجاعها إلى التأكيد بأن مصدر تلك الثورة هو الاعتقاد بوجود عالين لا عالم واحد، أحدهما 'الخير' والآخر 'الشر'. وبوجود 'ذوات' كثيرة في ذينك العالمين لا 'ذات' واحدة. في حين أن العالم واحد وذاته واحدة، وإن تعددت الكائنات التي يحتويها، وتنوعت أشكالها ووظائفها. فهي منه بمثابة الأعضاء في الجسد الواحد"^{١٢٥} فكل سطر من سطور هذا الكتاب يحمل هذه النظرة الشاملة نحو الكون. وهو يأخذ القارئ إلى هذا المنظور الفلسفي من خلال بعض الصراعات الفلسفية فيما يتعلق بالكون.

الحياة والموت

إن الحياة والموت ثنائية متناقضة ظاهريا، ولكنها ووحدة متسقة باطنيا. أما جمال الحياة فهو حتمية الموت. كلاهما تكملة بعض عن الآخر. "فالحياة زَادُ المَوْتِ، والموت زاد الحياة. فلا حياة

١٢٢. ميخائيل نعيمة، سبعون (المرحلة الثالثة)، مؤسسة نوفل، بيروت، ط ١٢، ٢٠١١، ص ١٩١

١٢٣. المصدر السابق، ص ١٩٠

١٢٤. المصدر السابق، ص ١٩٢

١٢٥. ميخائيل نعيمة، سبعون (المرحلة الثانية)، مؤسسة نوفل، بيروت، ط ١٢، ٢٠١١، ص ٢٩٨

تفنى في الموت، ولا الموت يموت في الحياة، إنهما في الواقع، وحدة لا تنفصم^{١٢٦}. وهو يرى الموت شيئاً طبيعياً مما تجعله الولادة ضرورياً، إذ يقول بشيء من التعجب "إذا كان في الأرض ظاهرة تتكرر بغير انقطاع فتلك الظاهرة هي الموت، أفما آن للناس أن يألفوها وأن يستعدوا لها؟ ذلك هو العجب العجاب"^{١٢٧}

التجارب والجمال

كل شيء إلى الزوال، حتى التجارب الحسية، وأن لها فقط قصيرة العمر. فأما الأمر الذي يجب أن يكون متبقياً هو الجمال المستخلص منها، وإلا فإنه سيكون طريقاً إلى الدمار إذ يقول عن هذه الظاهرة "أجل، الأشياء إلى زوال والحواس إلى زوال. لكن الجمال ليس إلى زوال. إنه القيم التي يستخلصها الروح من تفاعل الحواس والأشياء. وهذه القيم هي روح الأشياء والحواس. أو هي روح الروح. وهي باقية ببقائه. فيا ويل الذين جمالهم إلى زوال، والذين روحهم بغير روح"^{١٢٨}

الحقيقة والواقع

وفي سنة ١٩٣٢ قام بزيارة^{١٢٩} مع صديقه الشاعر أمين مشرق ضريح جبران بعد زيارتهما أولاً غابة الأرز ومار سركيس. وقام هذا الصيف ذاته برحلة إلى جبل صنين^{١٣٠} برفقة زوجة أخيه نسيب وصديقه أميل ضومط. كل رحلة لديه قد كانت تعبر الحواس إلى العالم الموحد حيث لا لمخلوق وجوداً مستقلاً، بل أنه يتفرد بكونه جزءاً من الواقع المطلق أو العالم الموحد كما يتفرد العالم في وجود ذاته. كان يتلقى جميع التجارب الحسية للحظة الحالية باليقظة الواعية، مما يجعل الجسر إلى تجارب الماضي المماثلة، وبالتالي إلى العالم التجاوزي.

إن الحقيقة هو أمر ثابت، عسى أن يكون لها وجوه عدة، ولكن الواقع هو ما ترصده حواسنا وتدرکه عقولنا. فالواقع يختلف لدى كل فرد حين ينظر من زاوية أو جانب خاص تجاه ظاهرة

١٢٦. ميخائيل نعيمة، سبعون (المرحلة الثالثة)، مؤسسة نوفل، بيروت، ط ١٢، ٢٠١١، ص ١٢٠.

١٢٧. المصدر السابق، ص ١٢٤.

١٢٨. المصدر السابق، ص ٤٢.

١٢٩. المصدر السابق، ص ٩٤.

١٣٠. المصدر السابق، ص ٩٨.

من الظواهر الكونية. لما وصل قمة جبل الصين مر بخاطره شذرات من الأفكار إذ يقول "أن حقيقة الواقف على قمة صين وواقعه هما غير حقيقة الماشين في السفوح وواقعههم. مثلما حقيقة النسر في أعالي الجو هي غير حقيقة الخلد في غياهب الأرض"^{١٣١}. فلا يمكن الوصول إلى عالم الكليات إلا عندما يجتاز الفرد إلى ما وراء هذه التجارب المطلقة، فإذاً كما يقول "إنك إذ ذاك في عالم موحد متجانس متآلف إلى أقصى حدود الوحدة والتجانس والتآلف. لأن ذلك العالم لا وجود له إلا فيك، ولأنك لا وجود لك إلا في ذلك العالم، فأنت وإياه وحدة لا تنفصم"^{١٣٢}.

الحرية والدافع الجنسي

يتناول الكاتب قضية الحرية وطبيعتها. إنه يرى "الحياة بغير الحرية، كالجسد بغير روح"^{١٣٣}. الجنس هو دافع قوي سجين في جسم الانسان الذي تتوق دائما إلى الانطلاق^{١٣٤} وهو نظام حريص على تجديد النسل في المخلوقات الحية. ولكنه مقيد بغيريته في الحيوانات غير الانسان. أما في الانسان "فإذا تركته على هواه قاده هواه إلى الهاوية. فلا بد من لجام لا بد من رادع. ولكن هذا الرادع يجب أن يأتيه لا من الخارج، بل من الداخل نفسه"^{١٣٥}. فجمال الحرية في اللجام والرادع.

الصدفة والاختيار

بينما كان في الجامعة تولدت في نفسه فكرة التي نتجت عن الأحداث الخارجية وبالأخص خبر اغتيال رجل في إحدى المدائن. وذلك مشكلة متعلقة عن حرية الامتثال والاختيار لدى الانسان وهو يتساءل نفسه "أىكون أن الحرية هي حرية التكيف لا التكيف وحرية الامتثال لا

١٣١. ميخائيل نعيمة، سبعون (المرحلة الثالثة)، مؤسسة نوفل، بيروت، ط ١٢، ٢٠١١، ص ١٠٤

١٣٢. المصدر السابق، ص ١٠٥

١٣٣. المصدر السابق، ص ٢٢٨

١٣٤. ميخائيل نعيمة، سبعون (المرحلة الأولى)، مؤسسة نوفل، بيروت، ط ١٢، ٢٠١١، ص ٢٠٢ بتصريف

١٣٥. المصدر السابق، ص ٢٠٣

الاختيار؟ ذلك لعمرى هو الاستنتاج الذي فرضته - وتفرضه- على تأملاتي وأحداث حياتي^{١٣٦}. ويمكن للقارئ العثور على مثل هذه الأحداث العارضة - حتى لو كانت صغيرة - كانت سببت لأن تتولد فيه تأملات ما وراء المحسوسات والمنطق فيما يتعلق بالظواهر الكونية وتغذيتها.

التجربة والمعرفة والاعتقاد والقدر

ولم يفلت من آفاق خياله وتفكيره أي من ظواهر كونية - ملموسة كانت أم تجريده - ومن بينها التجربة والمعرفة والاعتقاد والقدر. إن "العلم أولاً المحسوسات وكل يوم افتراضات جديدة"^{١٣٧}. وأما المعرفة^{١٣٨} فلن يصل الفرد إليها إلا عن طريق التجربة، وتكون المعرفة أيضاً مستحيلة بلوغها تماماً من خلال فترة عمره مهما طالت. لا معرفة إلا إذا كانت لديها شيء من المجهول لأن تستكشف. و"القضاء والقدر يحددان البيئة والوراثة ولا عكس، ولكن حقيقة الحياة أكثر من ألعوبة القدر"^{١٣٩}. فالعقيدة^{١٤٠} هي التي تحرك الحياة وتتجدد بتجدد المعرفة.

الحرب والسلام

إنه يتحدث عن السلام بعد الحروب على صورة الحوار بين السماء والأرض^{١٤١} في سياق بث الإذاعة اللبنانية لأخبار أن الحرب العالمية الثانية على وشك الانتهاء. كلما تحدث تطورات بين الطرفين في النقاش حول السلام، لا يزال السلام الحقيقي يبتعد عن أبناء الأرض. فالأرض تجيب لسؤال السماء أن فيها كل شيء إلا السلام. فهناك هدنة، لا نار، ولا انفجار وشوق إلى السلام ومعاهدات سلم، فلا تزال الأصوات لمطالبة بحروب جديدة تتصاعد. السلام لا يزال بعيداً. فسعي الانسان الدائم نحو الكمال من جهة، وفي الوقت نفسه فهو يستغرق نقيض ذلك من جهة أخرى. فيقول في ذلك "فهو من جانب يثور ضد القيود والسدود والحدود،

١٣٦. ميخائيل نعيمة، سبعون (المرحلة الثانية)، مؤسسة نوفل، بيروت، ط ١٢، ٢٠١١، ص ٤٦

١٣٧. المصدر السابق، ص ٦١

١٣٨. المصدر السابق، ص ٦٠

١٣٩. المصدر السابق، ص ٦١-٦٢ بتصرف

١٤٠. المصدر السابق، ص ٦٠-٦٢ بتصرف

١٤١. ميخائيل نعيمة، سبعون (المرحلة الثالثة)، مؤسسة نوفل، بيروت، ط ١٢، ٢٠١١، ص ٢٤٥-٢٤٨

فيعزز العلوم والفنون، ويبني المدنيات والحضارات، ومن الجانب الآخر يريق دمه، ويمزق لحمه، ويهدم بعلومه وفنونه ما بناه، ليعود فيصنع له من أنقاضه قيودا وسدودا وحدودا جديدة^{١٤٢}. فالحرب والسلام ثنائيتان متكررتان، وبينهما تصلح الحياة وتتجدد.

الخاتمة

فلا يسع للنزاع أن هذه هي سيرة على أتم صورة تشمل مراحل حياة الكاتب منذ طفولته إلى سنه السبعين. رغم أنها مركزة على نظرتة الفلسفية تجاه الكون وما فيها من ظواهر بأجمعها، أنه ضمّن فيها أحداث عديدة في حياته بما فيها من خصلاته الذاتية واعترافاته مثل صراعاته وتجاربه في الحب ورغباته الجنسية والسرققة. ويبدو هنا أنه تم التعبير عن تجارب جنسية فقط ضمّنيا أو أغفل بعض منها. فبالتالي، لا يمكن القول - من ناحية الاعتراف - إن هذا الكتاب قائم على المكاشفة والتجرد تماما.

الفصل الرابع

الخبز الحافي - محمد شكري

البيانات الوصفية

اسم الكتاب	: الخبز الحافي -سيرة ذاتية روائية ١٩٣٥-١٩٥٦
المؤلف	: محمد شكري (١٩٣٥-٢٠٠٣)
سنة التأليف	: ١٩٥٢
اسم الناشر	: دار الساقى، بيروت، لبنان
تاريخ النشر والطبعة	: ٢٠٠٠ - الطبعة السادسة

المقدمة

يعد 'الخبز الحافي' سيرة ذاتية روائية للكاتب محمد شكري. هو أديب مغربي متمرد، اشتهر بتأليف هذا الكتاب في العالم الأدبي. وأن طفولته البائسة والحرمان ومراهقة المتشرد والتجول غير هدي كلها عملت نفطاً أثريا لحياته الأدبية. ولم يدخل عالم القراءة والكتابة إلا في أواخر العقد الثاني من سنه.

كانت ولادته في سنة ١٩٣٥ في إحدى مناطق شمال المغرب، المسماة ب'آيت شيكر'. نشأ في ظل الفقر المدقع والإهمال والتعذيب من قبل أبيه. واضطر أهله الخروج إلى مدينة طنجة بحثاً عن المعيشة للحياة العادية وهو كان ابن سبعة سنة من عمره. وتجول في مناكب تطوان ومهران ودروهما لإشباع الجوع حيث انخرط في العديد من الوظائف مثل عمل آخر في معمل الأجر - عمل آخر في معمل الفخار - غادر العمل واشترى صندوقاً من ماسح أحذية - بائع صحيفة وغيرها. فانغمس في التهريب والنشاطات الجنسية.

وقد بقي محمد شكري أعزباً طوال حياته. ويتضح من قوله إن تجاربه العنيفة التي خضع لها في الحياة هي التي دفعته إلى أخذ قرار صارم على ألا يتزوج أبداً، إذ يقول " لكي أصبح أبا لابن عليّ أن أتزوج. لقد عزفت عن الزواج لأنني أخشى أن أمارس على من ألد نفس التسلط والقهر

اللذين مورسا عليّ. لهذا أنا أخشى أن يكون لي مولود.. فأنا لا أثق في نفسي" ^١. توفي محمد شكري سنة ٢٠٠٣ م بعد أن مر بصراع عنيف مع مرض السرطان.

وبجانب كتاب 'الخبز الحافي' له مؤلفات^٢ أخرى. منها الشطار أو زمن الأخطاء (١٩٩٢) ووجوه ومجنون الورد (١٩٧٩) والخيمة (١٩٨٥) والسوق الداخلي (١٩٨٥) ومسرحية السعادة (١٩٩٤) وغواية الشحرور الأبيض (١٩٩٨).

بالرغم من أنه تم تأليف هذا الكتاب في عام ١٩٧٢، لم يكن تظهر طبعته العربية إلا في عام ١٩٨٢. وذلك كان على حساب الكاتب نفسه بعد صدوره في اللغة الانجليزية على يد بول بولز في سنة ١٩٧٣. وقام بترجمته الفرنسية الطاهر بنجلون في سنة ١٩٨١. بينما جاءت نسخته الإنجليزية بعنوان 'من أجل الخبز وحده'، في حين أنه احتفظ على عنوان 'الخبز الحافي' في طبعته الفرنسية والعربية^٣. أثار هذا الكتاب ضجة في المجتمع العربي بمحتواه المواد الجنسية، وتم حظره في معظم البلدان العربية. وذلك كانت غير المقبول ثقافيا. وذلك يتسم بالاعتراف الصريح والتعريّة التي كانت على نمط التعبير غير المعروف لدى المجتمع العربي. كما أشار الكاتب على غلاف الكتاب أنه يحتوي على تجاربه منذ أن ولد في سنة ١٩٣٥ إلى سنة ١٩٥٦.

وقد سجل في مقدمة الكتاب أنه "أنتظر أن يفرج عن الأدب الذي لا يجتر ولا يراوغ مثل هذه الصفحات عن سيرتي الذاتية، كتبها منذ عشر سنوات ونشرت ترجمتها بالإنجليزية والفرنسية والاسبانية قبل أن تعرف طريقها إلى القراء في شكلها الأصلي العربي"^٤. يرى الناقد والروائي المغربي أحمد المديني، أن الكاتب الأميركي الشهير بول بولز لعب دورا كبيرا في شهرة

١. محمد شكري، مقال على موقع الانترنت: محمد شكري/ <https://www.marefa.org/>، تاريخ الاسترجاع: ٢٢\٨\١٧

٢. المرجع السابق

٣. عبد الكبير الميناوي، تقرير عن إعادة اصدار كتاب الخبز الحافي، جريدة الشرق الأوسط، راجع على موقع الانترنت: الخبز-الحافي -لمحمد-شكري-لا-تزال-حاضرة-بقوة/ <https://aawsat.com/home/article/2427791/>، تاريخ النشر: ٣ أغسطس ٢٠٢٠، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٢\٠٨\١٧

٤. محمد شكري: الخبز الحافي، دار الساقي، لبنان، ط٦، ٢٠٠٠، ص ٧

اسم شكري على المستوى العالمي، لأنه أول من كتب سيرة شكري (الخبز الحافي) بالإنجليزية^٥. بجانب هذا الكتاب له مؤلفان في السيرة الذاتية الروائية. وهما تمثلان مراحل أخرى من حياته هما 'زمن الأخطاء' و'وجوه'.

هذا الكتاب هو قصة حياة مؤلمة للمعاناة والبؤس التي مر بها السارد منذ أيام طفولته. وتتجلى في قوله ليست فقط قسوة الطفولة ومعاناة المراهقة، بل اقتناعه الحقيقي عن الحياة البشرية. إذ يقول "لا تندسوا أن 'لعبة الزمن' أقوى منا، لعبة مميتة هي، لا يمكن أن نواجهها إلا بأن نعيش الموت السابق لموتنا، لإماتتنا: أن نرقص على حبال الخاطرة نشداناً للحياة"^٦.

المبحث الأول: المحاور الرئيسية والقيمة التاريخية والأدبية

يستكشف 'الخبز حافي' تجارب حياة المؤلف في الريف المغربي. فيدور المحاور حول الطفولة والفقر والهوية والعدالة الاجتماعية، ويوفر معلومات تبصيرية حول الثقافة والمجتمع المغربي. فهو يتضمن المحاور الرئيسية مثل براءة الطفولة وفضولها وصراعاتها وقدرتها على الصمود في الظروف الصعبة، والفقر والمكافحة للبقاء، وصورة المجتمع المغربي وثقافته قيمه وسياسته، تكوين هوية الكاتب الذاتية والمجتمعية، الروابط الأسرية والصراعات فيها، السلطة الأبوية على الحرية الفردية، تصوير الحياة الإباحية وما إلى ذلك من صورة صادقة للعناصر التي أثرت في تكوين شخصيته وموقفه من الحياة.

يحتل كتاب 'الخبز الحافي' قيمة تاريخية وأدبية. وذلك ليس بما احتواه من تعبير إباحية جنسية، ولكن بما أنه يعكس أقصى مظهري الحياة، فهما مظهر المفترس والفريسة. فقوى الاحتلال الظالم التي تتمتع بكل سلطان ورفاهية واسترخاء في الحياة من جهة، والحيوات المظلومة المهمشة في عالم الحرمان السفلى في المجتمع في جهة أخرى. ومن الناحية التاريخية

٥ . محمد شكري، مقال على موقع الانترنت: محمد-شكري <https://www.aljazeera.net/encyclopedia/2015/3/2/> تاريخ النشر: ٢٠١٥/٣/٢، تاريخ

الاسترجاع: ٢٠٢٢/٨/٢٠

٦ . محمد شكري: الخبز الحافي، دار الساقي، لبنان، ط٦، ٢٠٠٠، ص ٨

فيلاحظ أن 'الخبز الحافي' هو وثيقة تاريخية تتجلى فيه صورة حقيقية للمجتمع المغربي الذي كان يعاني من اضطهاد قوى الاحتلال وما يترتب به من الفقر والمجاعة والجهل واللاأخلاقية في ذلك العصر.

وأما من الناحية الأدبية فيمكن تضمين هذا الكتاب في فئة 'أدب الهامش'^٧ على أن كاتبه ليس من الأكاديميين أو من المتخصصين في عالم الأدب. بل أنه ينبثق من طبقة معدمة من المجتمع حيث صور ما تجرب فيها من حياة التشرذم والأكل من المزابل والتجول في الشوارع والمدينة والمبيت في البورديل وبيوت الدعارة وغير ذلك. جعلته هذه كلها كاتب الشعب المعدم. استخدم الكاتب النثر الغنائي الحي لنقل التجارب الشخصية حيث يتم المزج بين الحقيقة والخيال في سردها، ويستكشف فيه تعقيدات الذاكرة وتمثيل الذات. أما السؤال الذي يطرح به محمد شكري "أنا أكلت من القمامة ونمت في الشوارع فماذا تنتظرون مني أن أكتب عن الفراشات؟"^٨ فهو يعكس -لا منازع- ماهية هذا الكتاب ولبّه وقيّمته.

المبحث الثاني: تصوير الذات في 'الخبز الحافي'

تبدأ القصة بذكريات الحالة المعقدة في الطفولة حيث يتشابك الموت والجوع ووحشية الأب مع بعضها بالآخر. مات خاله. يبكي هو والناس والأطفال الآخرون حوله، "المجاعة في الريف والقحط والحرب"^٩. مساء يوم من الأيام يؤلمه الجوع حتى يمس أصابعه حيث لا يمكن إيقافه حتى بكلمات التسلية من أمه "سهاجر إلى طنجة هناك خبز كثير. لن تبكي على الخبز عندما

٧. أمل الفرقان، خصائص رواية الخبز الحافي.. ولماذا تصنفت ضمن أدب الهامش، كتابة ظهرت على موقع الانترنت

<https://www.almsal.com/post/1159924> . تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٣\١٢\٢٦

٨. مبروك لزعر، رواية الخبز الحافي.. أن تكتب بالرصاصة، (مقال منشور على الجزيرة نت بتاريخ: ٢٠١٨\٠٥\٣١) عنوان الموقع: رواية-الخبز-الحافي-أن-

تكتب-بالرصاصة/2018/5/31، <https://www.aljazeera.net/blogs/2018/5/31>، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٣\٧\٧

٩. محمد شكري: الخبز الحافي، دار الساقى، لبنان، ط٦، ٢٠٠٠، ص ٩

نبلغ طنجة. والناس هناك يأكلون حتى تشبعوا"^{١٠}. يدخل أبوه وهو (الراوي) باكيا على الخبز فيهاجم أبوه عليه بكلمات أبشع ويركله ويرفعه في الهواء.

وفي طريق هجرتهم كانوا في مشاهدة جميع العلامات للمجاعة والقحط، حيث جثث المواشي تحوم حولها الطيور السوداء والكلاب، روائح كريهة، أحشاء ممزقة، دود ودم وصيد"^{١١}. وفي طنجة نزلوا في حي 'عين قطيوط'، ولم يكن ير ما وعدته أمه من خبز كثير، فيتجول بحثا عليه في مزابل المدينة، حتى عثر على دجاجة ميتة، ورجع بها إلى بيته وكان هناك أمه وأخ مريض له. ولكن أمه ترفض أكلها. وفي غضون أحد هذه الأيام يموت^{١٢} أخوه عبد القادر فريسة لوحشية أبيه.

كان أبوه رجلا أكثر إيذاء لزوجته وأطفاله دون سبب يذكر. وكان يجمع ملابس جنود الإسبانيين بالمقايضة للخبز والتبغ ويبيعها في السوق. يوما لم يعد إلى بيته. وأدركوا فيما بعد أنه سجن من العساكر الإسبانيين لأنه كان قد هارب منها. وبعد ذلك طفقت الأم تذهب باحثة عن العمل، وترد خائبة كما كان يرد أبوه حين كانوا في طنجة. كانت تزور أبيه مرة في الأسبوع. وقد مرت الأسرة بحالة مريعة قاسية، كما مرت حياته بتجارب قاسية بينما كان متنقلا بين مكان وآخر اشباع بطنه. يوما جمع البقول من مقبرة بو عراقية^{١٣} التي دفن فيها أخوه. ومرة أخرى "هوى شرطي في مؤخرته بهراوته"^{١٤}. يوما تذوق تجربة الحبس في حجرة، هذه هي كان أول مرة في حياته^{١٥}. وذلك حينما كان قبضه صاحب البستان لأخذ الإجاز من شدة الجوع.

١٠. المصدر السابق، ص ٩

١١. المصدر السابق، ص ١٠

١٢. المصدر السابق، ص ١٢

١٣. المصدر السابق، ص ١٥-١٦

١٤. المصدر السابق، ص ١٥

١٥. المصدر السابق، ص ١٨

في تطوان

ولدت أمه بنتا سمها 'ارحيمو'. وفي غضون أيام قلائل يرجع أبوه وتمهاجر الأسرة إلى تطوان. أقامت الأسرة في حي 'عين غبار'^{١٦} في مسكن يضم حجرة واحدة ومرحاضا خارجها. بدأت أمه تشتغل في بيع الخضر والفواكه في حي 'الطرانكات'^{١٧}، وعثر له أبوه على عمل في إحدى المقاهي في نفس الحي. ولكن أباه بقي يستلذ البطالة^{١٨} مع المغاربة مثله. هو يأتي إلى المقهى كل شهر ويحصل على ثلاثين بسطة أجرة عمل ابنه فيه، ولم يعط له شيئا.

وبدأ يدخن الكيف والسجائر والحشيش ويشرب الخمر مع رفاقه فيه، كما بدأ يسرق في غياب صاحب المقهى حتى برر هكذا على فعله "سأسرق كل من يستغلي حتى ولو كان أبي وأمي. هكذا صرت أعتبر السرقة حلالا مع أولاد الحرام"^{١٩}. ينام أحيانا فوق المقعد في المقهى أو في المخبز الإسبانيين المجاور للمقهى^{٢٠}، وهو يشهد على الأنشطة الجنسية بين رفاقه.

ترك العمل في المقهى، وقضى الأوقات باصطياد الطيور في البستان والسباحة في الصهريج وسرق الفواكه من البساتين، غرقا في أفكار الرغبة الجنسية، ثم عاد إلى المقهى للعمل فيه من جديد، لكنه هرب منه بعد أن صفعه مخدمه. ثم اشتغل أعمالا عدة مثل العمل في معمل الأجر ومعمل الفخار وماسح أحذية وبائع الصحيفة^{٢١} وما إلى ذلك.

بدأ يساعد الأم على بيع الفواكه والخضراوات في حي الطرانكات^{٢٢}. كل مساء يأخذ بعض النقود دون علم أمه لشراء الحشيش والذهاب إلى السينما. ويذهب مع صديق تفريسيته له إلى الماخور ويقومان بالانخراط في النشاط الجنسي مع امرأة فيها. وقد كان تعود أن يذهب إلى

١٦. المصدر السابق، ص ٢٩.

١٧. المصدر السابق، ص ٢٩.

١٨. المصدر السابق، ص ٢٩.

١٩. المصدر السابق، ص ٣٠.

٢٠. المصدر السابق، ص ٣١ بتصرف.

٢١. المصدر السابق، ص ٣٩-٤٠ بتصرف.

٢٢. المصدر السابق، ص ٤١.

ثلاث أو أربع مرات في الاسبوع لاكتشاف امرأة جديد للمجاعة معهن. مات أخوه عاشور^{٢٣} ولم يبك عليه لأن ملذات جسده كانت آلهته. ينام في الدروب أكثر من البيت. يبيع مع صديقه الفواكه والخضروات في السوق ويسرف ما يربح من فلوس في شرب الخمر والنوم مع النساء. يوما شتم أحد من البطل أخته 'أرحيمو' وصفعها وهي كانت وحيدة في الدكان، فينتقم منه. وأخذه أبوه إلى بيته بمساعدة بعض من الفتيان. سرعان ما تستعد الأسرة للرحيل إلى وهران لزيارة إخوة أبيه فيها وهن كن سافرن إليها بسب الفقر والمجاعة^{٢٤}.

في وهران

تركه أبوه مع خالته في وهران بحثا عن إخوته في المدن البعيدة. ثم عاد أبوه إلى تطوان^{٢٥}. عثر له زوج خالته على عمل في مزرعة فرنسية. عمل فيها ستة شهور. وفي أيام الأحاد قضى في المزرعة والمدينة اصطيدا العصافير وتسلقا الأشجار. ويخيل إليه الشجرة امرأة وينغمس في ملذات الجسد بها في الخيال. ثم عمل في منزل مراقب المزرعة^{٢٦} المسيو سيجوندي. قد كانت تلحه رغبته الجنسية فيما يتعلق زوجته الفاتنة. يرفض أن يغتسل سلبياته فطلب منه الذهاب إلى بيته^{٢٧} وبعد ثلاثة أيام أعادوه إلى بيته من جديد.

يوما في غياب صاحب الدار وزوجته لاحظ ألجوم فيه ثلاث صورة عارية لها^{٢٨}، فقد لاحظوا ذلك، وفي مرة أخرى حاول المداعبات الجنسية مع غلام في الحقل. وأصبح من الاستعصاء عليه البقاء هناك، فعاد إلى تطوان. وفي طريق عودته إلى تطوان فكر في "أيهما أفضل وهران منفى جميل وتطوان سجن جميل. سجن الوطن ولا حرية المنفى"^{٢٩}.

٢٣ . المصدر السابق، ص ٤٩

٢٤ . المصدر السابق، ص ٥٠ بتصرف

٢٥ . المصدر السابق، ص ٥٤

٢٦ . المصدر السابق، ص ٥٦

٢٧ . المصدر السابق، ص ٥٩ بتصرف

٢٨ . المصدر السابق، ص ٦١

٢٩ . المصدر السابق، ص ٦٨

في تطوان من جديد

كبرت أخته ارحيمو، وهي تساعد أمها في الدكان. أما هو فيؤدي حياة التشرذد نائما في الدروب في تطوان، يوما أيقظته فتاة فسألت له هل أنت ولد الميمونة؟ وجاءته برغيف مزبد وكوب قهوة بالحليب^{٣٠}. ويوما آخر سأله متسول نفس السؤال فقال لا إن أبي مات^{٣١}. كان أبوه يضربه على مرأى من الناس. وفي غضون تلك الأيام كان جالسا في المقهى يقصد السرقة لقضاء ليلة في بورديل فاجأه أبوه فهاجم على أبيه رفيقه "حتى يسيل دمه كما أسال دمي كلما يضربني.... نعم إنه أبي.. إنه يستحق أكثر مما فعلتماه له"^{٣٢}.

يوما دخل مع صديقه عبد السلام والبستاوي بيت الدعارة فيه امرأة مخمرة، يقول إنها أمه. قضى فيها ثلاثة أيام. يوما وعبد السلام والبستاوي خرجا، فبقي فيه وحيدا، وقد انجلت في حلم اليقظة ذكريات ملونة في طنجة وتطوان ووهران^{٣٣}. وفي الليلة الأخيرة بات مع فتاة فيها تحدث العيون والبسمة معا دون كلام أكثر وتصابا الشراب معا.

تم الصلح بينه وبين أبيه. بدأ يساعد أمه في الدكان. يوما جاء الشرطيان السريان سألأ عن عبد السلام والبستاوي وعن سرقتهم ثم أطلق سراحه. وفي يوم آخر هو كان في بيته قصد إلى سهرة مع صديقه التفرستي ترقص فيها الفتاة عارية. كره هو أن يتناول طعاما أمام أبيه، فقضى في مشاهدة السينما والتجول في ساحة الفدان. وفي الميناء شرب كوبا من ماء من المقهى أبشع شدة جوعه بسمكة صغيرة جافة مقيئة الرائحة باشمئزاز^{٣٤}، وبالفتيرة التي رماها بعض من الصياد في الماء ولكنها لم تكن كافية لبشع الجوع وأحس بأنه سيسقط دون تمكن القيام بنفسه. وتخيل في نفسه "القط الذي رأته في مرفئ مستودع الأسماك ربما هو

٣٠. المصدر السابق، ص ٧٢

٣١. المصدر السابق، ص ٧٣

٣٢. المصدر السابق، ص ٧٥

٣٣. المصدر السابق، ص ٧٩

٣٤. المصدر السابق، ص ١٠٠ بتصرف

أسعد مني^{٣٥}. بينما هو في الطريق أشار إليه رجل^{٣٦} أن يركب في سيارته واتجه به إلى مكان مظلم في ضواحي المدينة. وتمتع برغبته الجنسية بمص عضوه التناسلي وكان حينئذ "الفرح والحزن يتصارعان"^{٣٧} في نفسه ثم أعطى له خمسين بسيطة.

وفي السوق البراني^{٣٨} دخل مطعما صغيرا وطلب سمكا مشويا ونصف خبزة بيضاء ودفع خمس بسيطات. ونام في المقبرة مفرشا قطعة من الكرتون. وفي الصباح تعجب بنفسه أن البسيطات المتبقية ما زالت في مكانها. وفي السوق اشترى نعلا وتناول الفطور وقال في نفسه "يوم جديد مع قليل من اليأس وكثير من الأحلام. سأسترق في السوق كما فعلت مع البستاوي وعبد السلام"^{٣٩}. وفي الليلة التالية أراد أن يبني في سوق 'الفندق الشجرة' في الاصبطل الكبير^{٤٠} فوق سقيفة له والدواب تحتمها. مركز المتشردين والبغايا والسكرارى. ولن يتمكن النوم تلك الليلة فخيّل إليه أنه "أفضل النوم في المقبرة على أن أنام في هذا البورديل"^{٤١}. ترك المكان وهبط الدرج ووقف عند الفرس فبال عليه. فتجول متحيرا واشترى صابونا حتى اغتسل السراويل والقميص وتمشى قرب محطة القطار ذهابا وإيابا لتكشف ثيابه.

وكان جالسا مع صديقه الكبداني في مقهى التشاطو^{٤٢} يوم ٣٠ مارس المشؤوم. وقد كان يوم الذكرى حيث تمت معاهدة مع السلطان عبد الحفيظ للحماية الفرنسية على المغرب سنة ١٩١٢. وفي الخارج تجري الاشتباكات بين المغاربة والشرطة وإطلاق النار والتخريب، كثير من الأهالي تم قبضهم من قبل الشرطة. فخرجوا للتخلص منها فلقيا قابيل صديق للكبداني ويذهبا إلى كوخه في سيدي بوقنديل. وفي كوخه فتاتان تمارسان الدعارة هما سلافة وبشرى. عند

٣٥. المصدر السابق، ص ١٠٣

٣٦. المصدر السابق، ص ١٠٥-١٠٦. بتصرف

٣٧. المصدر السابق، ص ١٠٧

٣٨. المصدر السابق، ص ١٠٧

٣٩. المصدر السابق، ص ١٠٩

٤٠. المصدر السابق، ص ١١٠

٤١. المصدر السابق، ص ١١٠

٤٢. المصدر السابق، ص ١١٧

غياهما عن الكوخ لعملية التهريب تجري بينهما علاقة جنسية وتشارك له فكراته الجنونية. ثم هو يشارك مع قابيل والكبداني في التهريب، ويذهب إلى ميناء. بعد رجوعه إلى كوخها، وهي أعطت له بعض الساعات لأن يبيعها ويحتفظ ثمنها لمصروفاته الشخصية حتى عثر على عمل آخر.

وفي بيت للازهور كان يجلس مع ليلي البوّالة في غرفتها^{٤٣} يتحسى ثمالة النبيذ وفي الأسفل الفتيات الأخريات. وقد كان يبيت في الليلتين الماضيتين مع ثلاث منهن. وفاجأه القندوسي أحد عضو في عمل التهريب، ويذهب معه إلى مقهى السنترال وتناولوا كونيالك. وفي غضون حديث معهما قال القندوسي عن موت الكبداني في حادثة اصطدام الزورق واتهام قابيل بقتله، وعن التهريب كما تكلمنا عن مغادرة سلافة الكوخ وعن الأحداث غير المرغوب فيها التي حدثت فيما يتعلق بها اليوم المشؤوم. وفي رجوعه إلى الفندق وقعت مخاصمة والتعارك مع شاب مسكور فلجأ إلى الفندق. قام من فيه كل من الزبلاشو وفوزية وبوشتا وعبد الحميد بتنظيف جروحه بالماء الساخن والكونيالك.

وبعد أيام وقع هو وعبد الحميد في قبضة بوليس وسجنا كما قبضوا على الشبان المغاربة الآخرون. وفي السجن هو كتب بيتين للشاعر أبي القاسم الشابي^{٤٤}:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة

فلا بد أن يستجيب القدر

ولا بد الليل أن ينجلي

ولا بد للقيد أن ينكسر

رغم أنه لم يفهم شيئاً مما قاله من معاني الأبيات، أنه تأثر بمهارته القراءة والكتابة. وأدرك حميد استعداده للتعلم فبدأ يعلمه الحروف العربية قراءة وكتابة وطلب منه إعادة الأبيات مرات حتى يحفظها. وبعد بضعة أيام تم إطلاق سراحه من السجن.

٤٣ . المصدر السابق، ص ١٦٧ بتصريف

٤٤ . المصدر السابق، ص ١٩١

استيقظ صباحا باكر وقصد إلى مرفأ. فلقي صديقه بوصوف واتفق معه على أن يعمل معه مقابل ثلاثة آلاف فرنك^{٤٥}. ومشيا إلى المرفأ وركبا الزورق فاقتربت من الباخرة المكتظة بالجنود. وبدأ يبيع "ساعات سويسرية، شالات، مناديل يابانية، وقداحات"^{٤٦} وبضائع أخرى. وقد سبق بينهما العهد فيما يتعلق بالمبلغ كان عليه أن يعطي له في حالة انكسار الزورق أو ضاع. فقد وقع بينهما التعارك لما انكسر الزورق. وتبلل جميع العملات الورقية معه. وعاد إلى غرفته مجروحا.

وفي الفصل الأخير، يتحدث عن مجالسته مع صديقه عبد المالك أخو حميد في مقهى سي موح^{٤٧}. وكان يحمل معه "مجلة مصرية مختصة في نشر أخبار الممثلين العرب وصورهم"^{٤٨}. وقد كان اعتاد التفرج على هذه الصور ولإرواء رغبته الجنسية. وكان عبد الملك يقرأ الصحف والمجلات لمن حوله ويشرح ما فيها من أخبار سياسية واجتماعية مما عنده من علم مع استشهادات من القرآن الكريم والأحاديث النبوية. فجرى بينهم التعارك والخصام المثير حتى أن تم الصلح فيهم. فخرج مع كمال إلى دار السعدية الكحلا^{٤٩} وباتا الليلة مع فتاتين فيها.

وفي الصباح، ذهب إلى المقهى بعد أن اشترى كتابا لتعلم مبادئ اللغة العربية قراءة وكتابة وقال لعبد الملك رغبته في التعلم وما اكتسب بعضا من كتابة الحروف في السجن من أخيه حميد. فنصحته أخوه حسن الذهاب إلى 'العرائش' للتعلم في المدرسة فيها. وناولته رسالة وصية لمدرّسها الذي كان من دائرة صداقته. وصحب مع عبد الملك إلى مقبرة 'بوعراقية' الذي كان عليه أن يقرأ "ما تيسر من القرآن الكريم على قبور عائلاتهم"^{٥٠}. وقرأ عبد الملك سورة يس على أخيه عبد القادر أيضا المدفون فيها. فخطر بباله فكرة أنه "لماذا هذه القراءة على قبر أخي المجهول؟

٤٥ . المصدر السابق، ص ٢٠٠ بتصرف

٤٦ . المصدر السابق، ص ٢٠٢

٤٧ . المصدر السابق، ص ٢١٥

٤٨ . المصدر السابق، ص ٢١٥

٤٩ . المصدر السابق، ص ٢٢٢

٥٠ . المصدر السابق، ص ٢٢٥-٢٢٦

إنه لم يذنب. ولم يعيش سوى مرضه ثم قتله أبي. تذكرت قول الشيخ الذي دفنه، أخوك الآن مع الملائكة"^{٥١}. ويختم هذا الفصل الأخير بطرح سؤال عن مصيره إياه "أخي صار ملاكا. وأنا؟ سأكون شيطانا، هذا لا ريب فيه. الصغار إذا ماتوا يصيرون ملائكة والكبار شياطين. لقد فاتني أن أكون ملاكا"^{٥٢}

المبحث الثالث: الاعتراف في 'الخبز الحافي'

حقا، إن هذه السيرة الذاتية الروائية - بلا منازع - هي غاصة بأقصى قمة الاعتراف وتعرية النفس. تتفرد هذه السيرة بما فيها من مراجعات عن الأنشطة الجنسية الإباحية لصاحبها والسرقة والتهرب والادمان للمخدرات وما إلى ذلك. وذلك قد اجتازت الحدود الأخلاقية السائدة في الثقافة العربية. ولذلك أنها منع نشرها في معظم البلدان العربية. على كل حال، إنها تجلية الذات الداخلية المجروحة ممن أولئك الذين ينتظر منهم أكبر قدر من الاهتمام والعناية والرعاية كما أنها هي تدفق عاطفي أو تعبير انفتاحي عن المواد العاطفية المكبوتة دون أي موانع عاطفية ونفسية واجتماعية أو ثقافية.

إن الطفولة هي تعتبر أهم مراحل حياة الفرد فيما يتعلق بتشكيل شخصيته ومسيرة حياته المستقبلية. وأما الفطرة التي يولد بها الطفل، فإنها متضمنة بجميع الصفات الإيجابية التي تشجعه إلى الاتجاه التقدمي. فإن للبيئة التي ولد ونشأ فيها الطفل تأثير كبير في تحديد شخصيته وميوله ومواقفه نحو ذاته والآخرين حوله والكون الذي يعيش فيه. إن معظم النظريات السيكولوجية تؤكد على أن الطفولة تلعب دورًا حاسمًا في تشكيل ذات الانسان ومواقفه من الحياة، لأنه عالم الاستكشاف والدهشة.

٥١. المصدر السابق، ص ٢٢٨

٥٢. المصدر السابق، ص ٢٢٨

نتاج الحتمية

إن الأمر الذي يمكن للباحث العثور عليه هو أن ذات الكاتب إنما هي نتاج للعوامل المواتية للحتمية حيث تتشابك البيئة العاطفية السلبية للأسرة، والفقر والمجاعة الشائعة، والبيئة الاجتماعية اللاأخلاقية والفضوى نتجت عن عدم الاستقرار السياسي، وطبيعة طنجة الجغرافية. كانت مدن طنجة ملتقى الثقافة المشتركة من افريقيا وأوروبا، وهي خارجة عن تقاليد محددة. لأن طنجة كانت منعطفًا ما بين أوروبا وافريقيا. وقد عمت الاخلاق الإباحية فيها. أما تأثير هذه الحتمية السيكولوجية التي تشكلت من التسلط والقهر من والده فقد ظلت دائما حاضرة في نفس الكاتب حتى في أواخر أيامه في الحياة.

السلطة الأبوية

أما البيئة الأسرية التي تشكلت فيها ذات الكاتب، فسيطرت عليها السلطة الأبوية وتم الحرمان لكل عضو فيها من الفرصة للتعبير عن عواطفه وفرديته بشكل طبيعي. وبقيت فيها البرودة العاطفية. وهنا توجد الطفولة التي خنقتها السلطة الأبوية. وحتى احتجاجات هؤلاء المضطهدين واستياؤهم اقتصر على عالمهم الخيالي.

كان أبوه رجلا خشنا الذي يتعامل مع كل من أعضاء أسرته بهيمنة قصوى. وهو يصرح فظائع أبيه العاطفية في مواضع مختلفة في السيرة. ويكفي للباحث قراءتها السطحية حتى في صفحتها الأولى، لإدراك هذا الأمر. وهو يتذكر مرة كان على بكاء لشدة الجوع، ف"دخل أبي. وجدني أبكي على الخبز. أخذ يركلني ويلكمني: أسكت، أسكت، أسكت، ستأكل قلب أمك يا ابن الزنا. رفعني في الهواء، خبطني على الأرض. ركلني حتى تعبت رجلاه وتبلل سروالي"^{٥٣}. حتى أنه لم يقدر على حركاته الطبيعية أمامه إذ يقول "يدي ترتعش حين أمزق شريحة لحم أمامه.....أكل

٥٣. المصدر السابق، ص ٩-١٠

بحذر مثل القط...^{٥٤}. إن أخاه عبد القادر مات من إيذاء أبيه. وهو يتذكر كان "يلوي اللعين عنقه بعنف، أخي يتلوى الدم يتدفق من فمه"^{٥٥}. ولا يزال هذا الصبي يطارده الخوف من أن يعرضه والده للخطر إذ يقول "لكي أخفف من كراهيتي الشديدة لأبي، أخذت أبكي من جديد. كنت خائفا من أن يقتلني كما قتل أخي"^{٥٦}. كلما يُحرم المرء من العناية الطبيعية والحرية التي يستحقها فطريا، من الممكن أن يفترض أنه مدفوع إلى غرائزه البدائية.

ولم تقتصر معاملته الخشنة فقط على أبناءه، وكانت نفس المعاملة مع زوجته أيضا. وهو يقول "يضرب أمي بدون سبب أعرفه، سمعته مرارا يقول لها: أهجرك يا ابنة القبحة. دبري أمرك وحدك مع هذين الجروين"^{٥٧}. فيمكن أن تكون الإساءة اللفظية أكثر إيذاء من الاعتداءات الجسدية. وفي غير مرة قال الأب له "كأني لم ألدك ربما نام مع أمك رجل آخر"^{٥٨}

الفقر والمجاعة

أما الزمن الذي عاش فيه الكاتب فهو كان مغلوبا عليه الفقر والمجاعة، فأصبحت المهاجرة من بلد إلى الآخر مشاهد طبيعية. فأما صاحب السيرة فكان ولادته على هذه الحالة المؤلمة. والفقر والمجاعة ألححت أسرته حتى كانت أمه تريحه حين يبكي اشباعا لبطنه بينما كانوا في بلده، فكانت تقول له "أسكت، سنهاجر إلى طنجة. هناك خبز كثير. لن تبكي على الخبز عندما تبلغ طنجة. الناس هناك يأكلون حتى يشبعوا"^{٥٩}.

وكانت قد شاعت هذه الحالة المسيئة تقريبا جميع الناس خارج بيته إذ يقول "أرى الناس أيضا يبكون. المجاعة في الريف. والقحط والحرب"^{٦٠}. لكن الوضع في طنجة لم يكن مختلفا عما كان

٥٤ . المصدر السابق، ص ٨٩

٥٥ . المصدر السابق، ص ١٢

٥٦ . المصدر السابق، ص ١٤

٥٧ . المصدر السابق، ص ١٢

٥٨ . المصدر السابق، ص ٩٣

٥٩ . المصدر السابق، ص ٩

٦٠ . المصدر السابق، ص ٩

هو عليه. وإنه يتضح من قوله أدناه الوضع الخطير السائد فيه إذ يقول "حين يشتد عليّ الجوع أخرج إلى حي 'عين قطيوط'، أفتش في المزابل عن بقايا ما يأكل. وجدت طفلاً يقتات من المزابل مثلي. في رأسه وأطرافه بثور. حفي القدمين وثيابه مثقوبة قال لي: مزابل المدينة أحسن من مزابل حيننا. زبل النصارى أحسن من زبل المسلمين"^{٦١}. هكذا يمكن للباحث العثور على أشباح المجاعة والفقر في أرضه وسماءه برمتها.

حياة التشرد والدعارة

أما ما يميز 'الخبز الحافي' عن سائر النصوص السيرة الذاتية المعروضة للتحليل في هذا البحث فهو ما فيه من تعبيرات عن تجارب الكاتب الجنسية المنفتحة المتطرفة. كان قد تعلم دروسه الأولى في التشرد عندما كانت والدته تذهب إلى حي 'الطرانكات'^{٦٢} لبيع الخضار والفواكه. وكذلك بدأ يدخن الكيف والسجائر والحشيش ويشرب الخمر مع رفاقه والسرقة والانخراط في الأنشطة الجنسية عندما كان عاملاً في إحدى المقاهي في نفس الحي^{٦٣}. لما ترك العمل في المقهى قضى الأوقات في اصطيد الطيور والسباحة وسرق الفواكه، غرقاً في أفكار الرغبة الجنسية، ومشاهدة عري النساء. فلا غرو، أن هذه هي كلها جعلته فيما بعد متشرداً في طرقات المدينة وزيارة بيوت الدعارة والبورديل والانخراط في التهريب وما إلى ذلك من الأنشطة اللاأخلاقية.

تصوير الانتقام من الوالد

أما سلاحه الوحيد في مواجهة اعتداء أبيه ضد ميوله وطبيعته فهو دفاعه في خياله. لأنه كان عاجزاً عن الدفاع عنه مباشرة وهو صغير. وقد كان شاهداً على مهاجمة أبيه على كل من عياله من أمه وكل من أبناءه. وذلك خلقت في نفسه احتجاجاً عليه. وفي حديث سنه كان في

٦١ . المرجع السابق، ص ١٠

٦٢ . المرجع السابق، ص ٢٩

٦٣ . المصدر السابق، ص ٣٠

مثل هذا الخيال. لما ركل أبوه أخاه عبد القادر التي أدى إلى موته أنه يقول "أستغيث في خيالي"^{٦٤}. ويمكن أن يوجد مثل هذه المراجع في بعض من السياقات الأخرى. وقد كان يتمنى موت أبيه قبل فوات الأوان، إذ يقول "في الخيال لا أذكر كم مرة قتلته، ولم يبق لي إلا أن أقتله في الواقع"^{٦٥}. فهذه الطبيعة -الاستلام في الخارج والتمرد في الداخل- قد كانت تطورت في ذاته. علاوة على ذلك أن هذا الاحتجاج المكبوت في نفسه ضد الأب كان قد امتد إلى الآخرين الذين يتصرفون بنفس الطريقة. يوما عبر عن احتجاجه في خياله لصاحبة البيت التي قبضت عليه لسرقة الاجاص في البستان، فإذا قال "غضبت عليها في خيالي"^{٦٦}

التجارب العاطفية

ومما يجب أن يجلب اهتمام الباحث هو أنه يمكن للتجارب العاطفية المكثفة أن تخلق اهتزازات عميقة في حياة المرء المستقبلية. فإن رؤية، أو صوتا، أو رائحة، أو لمسة، كل هذه تعيد الذاكرة إلى تجارب سابقة وتستجيب في سياق تلك التجربة. وعند القيام بالتحليل عما سمع وشاهد وتجرب من أبيه منذ أن كان صغيرا كلها محملا بالعواطف السلبية، فيمكن العثور على أنها عملت كردود فعل في جميع اللحظات من حياته. أما التجارب الحسية المشتبكة من الرؤية والصوت، فيمكن هي التي دفعته إلى الاعتراف بها أداة للتنفيس والتهوية من الصراعات النفسية العميقة.

التجربة الأولى

ومما لوحظ من الحياة البشرية أن التجربة الأولى فيما يتعلق بأي غريزة من غرائزه وأو تجاربه الحسية لها أهمية في حياته اللاحقة وقد تتكرر في المستقبل في بيئة مماثلة. يمكن العثور على

٦٤. المصدر السابق، ص ١٢

٦٥. المصدر السابق، ص ٨٩

٦٦. المصدر السابق، ص ٢٣

مثل هذه الظاهرة في سيرته. مرة هو يتذكر عن تجربته الأولى في شرب السيجارة، "غالبا ما تذكرني سيجارة الصباح بتلك التي دخنتها لأول مرة"^{٦٧}.

وكان اعتاد أن يذهب إلى الصهريج حينما تغادر أمه لبيع الخضراوات ويتمتع بفتياتها ومنها آسية. ويمكن قراءة مراجعته عنها عدة مرات في السيرة. إذ يقول مرة "نزلت من الفراش وأنا أتخليني قابضا على آسية عارية بين ذراعي قدام الصهريج"^{٦٨}. وكانت أجساد النساء التي رآها في حياته المبكرة قد تهيجه ببعض من الجنة^{٦٩}

المبحث الرابع: الاعتراف وموقفه من الحياة

حقا كل حياة لها حتمية سيكولوجية وبيولوجية من جهة، لما أن الطفولة مرحلة الاعتماد على الآخرين، وخاصة على الوالدين أو مقدمي الرعاية أو الشخصيات المهمة الأخرى بالنسبة إلى حياة الطفل. وإن التجارب في هذه المرحلة هي القوة الدافعة في تحديد العديد من المواقف من الحياة وما فيها من مظاهر. ولكن وعيه بالذات وإدراكه العاطفي في مراحل الحياة اللاحقة هي التي تمكنه من الاختيار الحر بالخروج من الدوائر الحتمية العمياء. أما الاعتراف بهذه التجارب العنيفة هي التي تساعد على المرونة والوعي بالذات وإدراك عاطفي لدى الفرد. ولكن هذا الكتاب يعالج فيه الكاتب حياته حتى مرحلة المراهقة فقط، حيث من المستحيل أن يدرك الفرد ذاته الحقيقية، وبالتالي تمكين الاختيار الحر وتحديد مسار الحياة نحو الاتجاه الإيجابي.

أما بالنسبة للكاتب فهو يعترف بمواقفه من الحياة إذ هو يتجه إلى تساؤلات فلسفية عبثية. ومما يفترض من مواقف الكاتب من ظواهر الحياة المختلفة في حياته اللاحقة أنه حتى

٦٧. المصدر السابق، ص ١٠٩

٦٨. المصدر السابق، ص ١٦٢

٦٩. المصدر السابق، ص ١١٠

الاعتراف بتجاربه العنيفة القهرية لم يدركه إلى الوعي بالذات الحقيقي، بما أنها يمكن أن تكون أقوى وأشد من أن تخرجه من الدائرة الحتمية السيكلوجية. وإن قوله عن الزواج يدل على ذلك، فهو يقول " لقد عزفت عن الزواج لأنني أخشى أن أمارس على من ألد نفس التسلط والقهر اللذين مورسا عليّ. لهذا أنا أخشى أن يكون لي مولود.. فأنا لا أثق في نفسي"^{٧٠}

تساؤلات فلسفية

كان في أغلب الأحيان يطرح تساؤلات فلسفية عندما يقصر لديه احتياجاته البيولوجية أو النفسية. وقد تطورت هذه التساؤلات إلى مستوى العبثية في ذهنه فيما بعد. وأحيانا يقول لأمه عندما يشتد الجوع "لماذا الله لا يعطينا حفا مثلما يعطيه لبعض الناس"^{٧١}. كان أبوه يضرب أمه دون سبب يذكر، فهو كان يتفكر "لماذا ليست قوية مثله؟ الرجال يضربون النساء وهن يبكين ويصرخن"^{٧٢}. وهو يطرح سؤالاً عندما عزم للرجوع إلى بلده تطوان من وهران حيث كانت في تطوان أسرته "أيهما أفضل: وهران منفى جميل وتطواني سجن جميل. سجن الوطن ولا حرية المنفى"^{٧٣}. أما مثل هذه التساؤلات فهي التي تجعل هذه السيرة قوية، وتثير اهتمام الباحثين.

العبثية

إن العبثية والجودية كلاهما نظريتان نحو الكون اللتان تأثر بهما الكتاب الكثيرون. "فكلاهما يتفقان على أن الكون لا معنى له بطبيعته، لكن الوجودية تنص على أنه يجب علينا خلق

٧٠. محمد شكري، مقال على موقع الانترنت: محمد شكري/ <https://www.marefa.org/>، تاريخ الاسترجاع: ٢٢/٨/١٧

٧١. محمد شكري: الخبز الحافي، دار الساق، لبنان، ط٦، ٢٠٠٠، ص ١٤

٧٢. المصدر السابق، ص ١٢

٧٣. المصدر السابق، ص ٦٨

المعنى الخاص بنا. من ناحية أخرى، تركز العبثية على التوتر بين الكون الذي لا معنى له وسعينا المستمر للعثور على المعنى"^{٧٤}.

إن الأمر الذي يجعل الحياة ذا مغزى وهو فقط عندما يمكن التعبير عن الحياة والاستمتاع بها بإيقاعها الطبيعي. فهو يتعلق بتجارب عاطفية متنوعة في حياة الفرد. وبالنسبة لصاحب السيرة فقد مر بتجارب عنيفة ممن هو أقرب منه عاطفياً. فمثل هذه الأوضاع ممكن أن تعمل مصدراً لفقدان المعنى في الحياة. فالكاتب أحياناً يطرح تساؤلات حول معنى الحياة حتى كأنه لا يعرف المقصود من معنى الحياة. مرة سأل صاحب السيرة لزميله حميد في السجن وهو كتب بيتين لأبي القاسم الشابي على جدران السجن ويّين معناه له أن هذه الأبيات تتعلق بإرادة الحياة. فسأل له الكاتب 'ما معنى إرادة الحياة'^{٧٥}. وحتى قد فقد عنده معنى ل'إرادة الحياة'.

وكانت بدأت تدخل إلى ذهنه أفكار في عبثية الحياة ومنذ أن كان صغيراً. وكان قد انعكس ذلك في تساؤلاته غالباً. "كنت أفكر أحياناً: أمن أجل هذا يولد الانسان ويعيش؟ أو كلا، هناك الجنة والنار كما قالت أمي"^{٧٦}. وفي آخر مرة وهو يقول "إن المقبرة هي المكان الوحيد.....الذي يمكن للواحد أن يدخل من بابه في أية ساعة يشاء"^{٧٧}. وكذلك وهو يسأل ما معنى أن يعيش الانسان ثم يموت"^{٧٨}.

وهو يطرح مثل هذه التساؤلات مع النساء في بورديل المدينة أو في بيوت الدعارة، يوماً بينما كان مع سلافة، إحدى الفتيات فيها، فقال في نفسه "فكرت في الموت. الحب دائماً يجعلني

74. Parthiva Sinha: Existentialism and Absurdism, International Research Journal of Education and Technology, Peer reviewed Journal, ISSN 2581-7795, © 2022, IRJEdT Volume: 04 Issue: 12 | Dec-2022) www.irjweb.com)

٧٥. محمد شكري: الخبز الحافي، دار الساقى، لبنان، ط٦، ٢٠٠٠، ص ١٩١

٧٦. المصدر السابق، ص ٣١

٧٧. المصدر السابق، ص ١٠٨

٧٨. المصدر السابق، ص ١٠٩

أفكر في الموت. أحس نفسي سارقاً ومسروقاً زجاجة نبيذ وقدحان فوق الطيفور"^{٧٩}. وفي آخر مرة قال لليلة بؤالة "لا أعرف بعد ما هو الحب"^{٨٠}.

الخاتمة

إن 'الخبز الحافي' هو كتاب اعترافي فاضح حيث تنعكس شخصية السارد المجنونة اللاأخلاقية. وفي نظر الناقد الذي يرى الأدب أن يكون من أجل رفاهية المجتمع، فهو كتاب يرفض الحدود الأخلاقية ويشجع العبثية والفوضى في المجتمع، فينبغي حظر تداوله وقراءته. أما من زاوية أولئك الذين يروجون لمفهوم 'الفن للفن' فهو مكاشفة جريئة من رجل بلا نفاق ولا أقنعة. بينما في نظر السارد أنه حقيقة حتمية يجب أن يكشفها، وقد عايشها في مرحلة مبكرة عندما كان من المستحيل تحديد مسار حياته. على كل حال أنه يمثل أقصى المكاشفة والتجرد في التعبير عن الحياة.

٧٩. المصدر السابق، ص ١٤٥

٨٠. المصدر السابق، ص ١٢٨

الفصل الخامس

رحلة جبلية رحلة صعبة - فدوى طوقان

البيانات الوصفية

اسم الكتاب	: رحلة جبلية رحلة صعبة
المؤلفة	: فدوى طوقان (١٩١٧-٢٠٠٣)
سنة التأليف	: ١٩٨٥
الناشر	: دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن
تاريخ النشر والطبعة	: الطبعة الثانية - ١٩٨٥

المقدمة

هذا الكتاب بعنوان 'رحلة جبلية رحلة صعبة' هو الجزء الأول من سيرة فدوى طوقان الذاتية. هي أهم الشاعرات في العالم العربي في القرن العشرين وأبرز أيقونات القضية الفلسطينية. وكافحت بكلماتها الحادة وقلمها المبدع من أجل الحرية وناضلت ضد الاحتلال والاعتداء الصهيوني وظلمهم القاسي. فأشعارها الحادة احتفل بها الشعب الفلسطيني وهم كانوا يستلهمون منها في سبيل حرية فلسطين.

كانت شقيقة إبراهيم طوقان. فالنكبات التي حدثت تلوا بعد آخر في حياتها الشخصية على وجه الخصوص وبيئتها الخارجية جعلتها في عداد الشاعرات الفلسطينية القوية. تتجلى من آثارها الشعرية والنثرية أن حياة فدوى طوقان كانت كفاحاً مضمناً في البحث عن هواء الحرية والانطلاق من سلاسل تقاليد الأسرة غير الطبيعية والمجتمع حيث اعتبر الانفتاح للتجارب الأنثوية غير مقبول اجتماعياً وسياسياً. ولقبت بشاعرة فلسطين، حيث مثل شعرها أساساً قوياً للتجارب الأنثوية في الحب والثورة واحتجاج المرأة على المجتمع^١

١ . فدوى طوقان، ويكيبيديا الموسوعة الحرة، راجع موقع الانترنت: فدوى_طوقان /https://ar.wikipedia.org/wiki/، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٣\٦\١٧

ولدت فدوى طوقان في نابلس في فلسطين سنة ١٩١٧ لعائلة نبيلة عريقة المحافظة. تلقت الدراسة الابتدائية من بلدتها نابلس، ولكنها لم تتمكن متابعة دراستها بشيء من المصادفة هي التي أقعدتها في بيتها سجينة دون تربية رسمية. وكانت عائلتها تعتقد أن مشاركة المرأة في الحياة الاجتماعية شيء غير مقبول. فركزت اهتمامها على الشعر والأدب بمساعدة أخيها إبراهيم ومقاربتة الحنون نحوها حتى تمكنت من خلالها اكتشاف ذاتها واختلاق عالم خاص بها. وبالتالي استطاعت لها توسيع آفاق مواهبها من كتابة الشعر ونشره في عدة مجلات وصحف عربية في العالم العربي. وأصبحت شاعرة وأيقونة للشعب الفلسطيني في سبيل مقاومة ومكافحة ضد الاحتلال الصهيوني.

كانت فدوى طوقان شاعرة مبدعة التي استخدمت الشعر أداة قوية للتعبير الصادق عن ذاتها والحقائق الاجتماعية المحيطة بها. ورأت في الشعر منقذا لأنه فقط كان وسيلة لتهمية المشاعر الراسبة لديها كلما حبست شخصيتها تحت إطار تقاليد المجتمع العمياء. وربما كانت هذه البيئة القهرية لعبت دورا هاما في تغذية إبداعيتها. "كانت فدوى فعلا تعاني ظروف اجتماعية قاهرة. تمكنت هذه الظروف الاجتماعية من صقل شخصيتها ومنحها نوعا من الروح التعدي التي تمكنت بها من تفجير ينبوع الشعر. الحرمان والظلم يولدان الابداع"^٢

أثرت الأحداث الخارجية المؤلمة في نفس فدوى طوقان التي ظهرت على شكل النكبة سنة ١٩٤٨ وأعقبها النكسة سنة ١٩٦٧، وكذلك حلت التجارب الداخلية من بيئة أسرية سدودا آفاق أحلامها وتحقيق ذاتها. وكانت تحس دائما بالعوائق التي نتجت عن البيئة الأسرية البائسة عاطفيا، للمشاركة في النشاطات الاجتماعية، ولكنها تعرفت أن الشعر هو نفسه أهم سلاح للمكافحة فاتخذته لسانا لمجتمعها المكافح.

٢. د. يحيى جبر، محاضر في اللغة العربية، جامعة النجاح الوطنية، راجع فيلم فدوى طوقان على يتوب:

٢٠٢٣\٦\٤: تاريخ الاسترجاع: https://www.youtube.com/watch?v=K1yT2e_TMrE&t=133s

شاركت عدة مؤتمرات وندوات أدبية وفكرية، كما سنحت لها عدة فرص للاشتغال في مناصب جامعية. وحازت العديد من الجوائز التقديرية والأوسمة تكريماً لأنشطتها الأدبية في مجال الشعر. لها مجموعات شعرية وآثار نثرية. وقد جاءت سيرتها الذاتية في جزأين، هما رحلة جبلية رحلة صعبة (الجزء الأول ١٩٨٥) والرحلة الأصعب (الجزء الثاني ١٩٩٣). أدت نوبة قلبية إلى وفاة فدوى طوقان حيث لفظت أنفاسها الأخيرة وغادرت عالم الصراعات في ديسمبر ٢٠٠٣ في عمرها ٨٦ تقريباً.

تصور فدوى طوقان في 'رحلة جبلية رحلة صعبة' مسيرة حياتها من طفولتها حتى عام ١٩٦٧. وذلك مرحلة مهمة من منتصف كهولتها، يناهز عمرها من خمسين سنة. وتم نشره في عام ١٩٨٥ م. أما الجزء الثاني منها 'الرحلة أصعب' فهو يمثل حياتها حتى سنة ١٩٩٢. هذه هي رحلة فدوى النفسية التي هي تشابه من جهة رحلاتنا الحقيقية من مكان جغرافي إلى مكان آخر وما فيهما من تجارب متنوعة للحالات الخارجية والداخلية وتختلف تماماً من جهة أخرى التي هي تعبير ذاتي ممزوج بالحقيقة والخيال لرحلة الحياة الحقيقية. فهنا "لا يهم في الرحلة لحظة الانطلاق أو لحظة الوصول، بقدر ما يهم تحقيق الذات، والمتغيرات النفسية والسلوكية والاجتماعية التي يواجهها الشخص في مراحل الانتقال الذاتي، والمحطات التي يقف عليها في مسيرة حياته التي تبدأ من حالة الوعي بالرحلة الذاتية وتنتهي عند المحطة الأخيرة في حياته".

هذه هي قصة كفاح امرأة للتخلص من سجن البيت بقواعده وتقاليده الرجعية حيث حرمت عليها الحرية الموهوبة بالولادة فطرياً. وهي تصف هذا السجن بقولها، إنه "القالب الفولاذي الذي يضعنا فيه الأهل، ولا يسمحون لنا الخروج عليه. القواعد المألوفة التي يصعب كسرها، التقاليد الخالية من العقل، والتي تضع البنت في قمم التفاهة. كنت توقا مستمرا إلى الانطلاق

٣. أ.د. خليل عودة، البعد النفسي في رحلة فدوى طوقان رحلة جبلية صعبة، ٢٠١٦، راجع على موقع الانترنت:

٢٠٢٣\٠٦\٠٨، تاريخ الاسترجاع: https://www.researchgate.net/publication/299836654_albd_alnfsy_fy_rhlt_fdwy_twqan_rhlt_jblyt_sbt

خارج مناخ الزمان والمكان، والزمان هو زمان القهر والكبت والذوبان في اللاشيئية.. والمكان هو سجن الدار".^٤

يلاحظ الدكتور حسن عبد الخالق^٥ بالرغم أن الكتاب الأول يمثل حيّز الوعي المثالي لدى فدوى طوقان، وفي حين أن الجزء الثاني ينعكس فيه انتقالها الحاسم إلى حيّز الوعي الواقعي. وصف سميح القاسم سيرة فدوى طوقان في تقديمه للكتاب بأنها الثالث المتكامل - التنوير والتثوير والتغيير - في مهمة إعادة صياغة العالم والحياة. وهذا القول صورة مجملة - بالنسبة لمن يرائي من الخارج - لما تجربته فدوى طوقان من حياة كفاحية محفوفة بشتى الاحداث.

المبحث الثاني: المحاور الرئيسية والقيمة التاريخية والأدبية

تستكشف 'رحلة جبلية، رحلة صعبة' حياة المؤلفة ونضالاتها واكتشافها لذاتها. ومن محاورها الرئيسية هي: تكوين هوية الكاتبة الأنثوية والثقافية من خلال استكشاف لذاتها، والنضال الشخصي في التغلب على تجاربها مع الأسرة في الطفولة، والصراعات العاطفية والتعامل مع الاكتئاب والوحدة، والتغيير الاجتماعي ومكانة النساء فيه والدعوة إلى تعليمها وتمكينها والمساواة بينها، ونقد المعايير الأبوية والتوقعات المجتمعية، والدعوة إلى الحرية والعدالة والنضال في سبيل القومية الفلسطينية والمقاومة ضد الاحتلال الإسرائيلي من خلال الأشعار، وتمكين ذاتيتها من خلال المكافحة والتغلب على الصراعات من متعدد الجوانب.

كل قطعة أدبية يمكن أن تعكس الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية على درجة متفاوتة للفترة التي تولدت فيها. فهذا الكتاب تكشف حالة نابلس في تلك الأيام التي ولدت ونشأت فيها الكاتبة. أما الشعور بالنقص واللاشيئية التي انغrust في نفس الكاتبة في طفولتها فعملت حافزا قويا لاجتياز العالم المحسوس إلى الحقيقة ما وراءه.

٤ . فدوى طوقان، رحلة جبلية رحلة صعبة، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠٠٨، ص ١٠.
٥ . د غسان عبد الخالق، النماذج التراثية والنزعة الوجودية في سيرة (فدوى طوقان) الذاتية، جامعة فيلادلفيا، الأردن، ١٩٩٨، راجع على موقع الانترنت: <https://repository.najah.edu/items/bcb318ba-8811-48c8-a477-4a10ab48891e>، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٣\٠٦\١٠

ومن المعروف، أن الغموض هو إحدى الخصوصيات للنتاج الأدبي، وهو نفسه يمثل العالم المحسوس. فهذا الاجتياز هو الذي يجعل 'رحلة فدوى طوفان' فنيتهما. بينما تحتل هذه السيرة مكانة مميزة من حيث جانبها الفني شكلا ومضمونا، وهي تسلط الضوء أيضا على الاضطرابات السياسية في فلسطين. ومن هذه الناحية أنها صورة حقيقية وعينة صادقة لأحوال الناس المؤلمة تحت احتلال المستعمرين الانكليزيين بعد أن كانت سنوات تحت سيطرة العثمانيين، وبالأخص بعد نكبة فلسطين في عام ١٩٤٨.

المبحث الثاني: تصوير الذات في 'رحلة جبلية رحلة صعبة'

تبتدئ السيرة معبرة عن نفورها وانكماشها عن الاجوبة للأسئلة التي لا تزال توجه إليها عن حياتها. حقيقة أنها لم تكن راضية عن حياتها. ولا تزال تكافح للوصول إلى الكمال، فهي تقول "أن الكفاح من أجل تحقيق الذات يكفي لمليء قلوبنا واعطاء حياتنا معنى وقيمة"^٦. إن هناك طريقان أمام كل من يأتي إلى هذا العالم، طريق مفتوح ناعم وطريق شائك صعب^٧. فهي تدرك أن عليها التعامل مع العملة ذات الوجهين، هما الإرادة والعمل^٨ للتغلب على الطريق الشائك.

كانت سابع العشرة من أبناء وبنات لوالديها. وهي لا تزال تسمع تروي أمها منذ صغره أنها كانت أرادت إجهاضها في بطنها لأنها "كانت مرهقة متعبة من عمليات الحمل والولادة والرضاع"^٩. لم تكن لدى والديها تاريخ ميلادها المحدد. كانت تؤرخ "الوقائع بأحداث بارزة رافقت تلك الوقائع"^{١٠} فقالت "فحين استشهد ابن عمي كامل عسقلان كنت في الشهر السابع من الحمل"^{١١}. فاتفقا زيارة المقبرة الشرقية حيث هو يرقد، لاستخراج شهادة ميلادها من شاهد قبره^{١٢}.

٦. فدوى طوفان، رحلة جبلية رحلة صعبة، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠٠٨، ص ٩

٧. المصدر السابق، ص ١٠ بتصرف

٨. المصدر السابق، ص ١١ بتصرف

٩. المصدر السابق، ص ١٢

١٠. المصدر السابق، ص ١٣

١١. المصدر السابق، ص ١٤

١٢. المصدر السابق، ص ١٥ بتصرف

كانت ولادته في فترة حيث "الإمبراطورية العثمانية تلفظ آخر أنفاسها" سنة ١٩١٧. وفي سبتمبر نفس السنة تم احتلال باقي فلسطين ووقع أبوها في قبض الانكليز في نابلس ونفوه إلى مصر. فهي تتحدث عن تجاربها المؤلمة في الطفولة^{١٤} ببعض من التفصيل مع جوانبها العاطفية. وقد تعرضت لإهمال والديها في توفير حاجاتها المادية والنفسية. وكانت تتلهف دائما إلى دمية وملابس ثمينة بدلا مما تخطه أمها بدون اتقان، كما تتلهف للحصول على حب أبويها واهتمام خاص من قبلهما. وكانت تؤلمها النعوت الجارحة مثل يا صفراء ويا خضراء كما تؤلمها بنيتها النحيفة التي لم تكن لها شهية للطعام حتى أنها تدعو ارافعة إلى السماء ان يجعل خدها لونا جميلا مشربا بالحمرة. وتتذكر أيضا عن أمها كانت تسلمها إلى صبية اسمها 'السمره' لتقوم برعايتها. فأما مهمتها الوحيدة فهي كانت ارضاعها فقط. وتعرضت لعقاب أمها بسبب الافتراءات من قبل ابنة عمها 'الشهيرة' أيضا. ولم تكن مراجعة من قبل أمها عن طفولتها حين تروي نوادر إخوته في الطفولة، فأحست باللاشيئية. ومع ذلك أنها تقول عن طبيعة أمها الحقيقية وسبب خيط من الشقاء لديها وعديد من المزايا الايجابية التي تملكها. ولذلك كانت لها مشاعر متناقضة نحوها. وأمها كانت أيضا تحب الرقص والموسيقى ومطالعة الكتب والجرائد^{١٥}.

وتتذكر أيضا عن حكاية أخته الكبرى عن امرأة قاسية التي مات زوجها وتركت أطفالا لها فتزيد فيها الالتصاق بأمها. وكان التصاقها الأكثر مع خالتها لما تشبعه من العطف والحنان وما تتيح لها من حرية الانطلاق والحركة^{١٦}. وكانت تذهب معها للنزهة. كما تتحدث عن ذكرياته عن الحمام العام في نابلس والأحوال المتغيرة بعد النكبة في فلسطين ومن أهمها رفع الحجاب من وجوه النساء. منذ ذلك أخذت أمها تتنفس نسيم الحرية^{١٧}.

١٣. المصدر السابق، ص ١٦

١٤. المصدر السابق، ص ١٨-٢٢

١٥. المصدر السابق، ص ٢٧

١٦. المصدر السابق، ص ٢٣ بتصرف

١٧. المصدر السابق، ص ٢٧ بتصرف.

بالرغم من أن كان أبوها في نظرها رجلا عاديا كغيره من الناس، "لم يكن منعزلا عن المعتكك السياسي، بل كان عضوا في بعض الجمعيات السياسية. وسجن أكثر من مرة"^{١٨}. وتأتي بذكريات عن احتفال الرجال في نابلس موسم النبي موسى عليه السلام احتياطا من قيام هجمة صليبية في أعياد الفصح. وذلك كانت فكرة صلاح الدين الأيوبي^{١٩}. وفي سنة ١٩٢٧ مات عمه وقد كان معه التصاق أكثر من أبيها. وقد كان "أول فجيعة فقدان عرفها قلبها"^{٢٠}.

وهي تتحدث أيضا عن الشيخة^{٢١} التي عملت طبيعتها الرقابية المستبدة والقمع على خلق بنية نفسية ذات التركيب الثنائي لديها هما الخضوع والتمرد. فهي كانت مريدة الطريقة الشيخ عبد القادر الكيلاني بعد أن فشلت حياتها الزوجية. كان العزف والغناء فرحا وبهجة لها لأنهما تنفيسا للتوتر الذي تعاني منه ومخرجا رمزيا لحاجاتها العاطفية المكبوتة^{٢٢}. بالنسبة إلى الشيخة كانت هذه الممارسات أكثر إزعاجا لها، لأنها تعتبرها من المحرمات.

وهي تحدث عن جذور نسبها وأجدادها كما يتذكر عن بيتها الأثري^{٢٣} بين الجدران العالية التي تحجب جميع العالم الخارجي الذي ولدت ونشأت فيها. وكان الضحك والغناء والتعبير عن النفس الطبيعي من المحرمات فيه. ولكن المناخ في بيت عمها كان مختلفا تماما. وبالرغم ذلك، أنه كان خال من الاعتقادات الخرافية والمشاجرة بين الاعضاء.

وهي تتذكر ذكرياتها في المدرسة^{٢٤}. وفي نابلس أمضت ثلاث سنوات الأولى في المدرسة الفاطمية، وستين بعدها في المدرسة العائشة. وهي تذكر أنها تلقت ما تفقد من حاجاتها النفسية من بيئة بيتها. وقد حظيت بالعناية الكافية من معلمات فيها.

١٨. المصدر السابق، ص ٣٠

١٩. المصدر السابق، ص ٢٨-٢٩ بتصرف

٢٠. المصدر السابق، ص ٣٠ بتصرف.

٢١. المصدر السابق، ص ٣٢-٣٧

٢٢. المصدر السابق، ص ٣٨ بتصرف

٢٣. المصدر السابق، ص ٣٩-٤٢

٢٤. المصدر السابق، ص ٥١-٥٩

كانت لها ذكريات عذبة^{٢٥} مع شقيقها إبراهيم. كانت أول هدية تلقت منه كما قامت أول سفر برفقته في حياتها. وفي سنة ١٩٢٩ عاد إبراهيم من الجامعة الأمريكية في بيروت بعد تخرجه منها للاشتغال في التدريس في نابلس. وهي كانت تقوم بخدمته وتهيئة ما تحتاج إليه شؤونه من الوجبات والمياه للغسل وغيرها. وكان إبراهيم حبل السلامة لها في سن مرهقتها القاسية.

حبها للشعر

كان لها ميل فطري للاستماع إلى الشعر والاستمتاع به. كلما كانت تلتقي السقاء القادم إلى بيت خالتها منذ صغرها كانت تتذكر قصيدة مطلعها 'أيها الساقى اليك المشتكى' المتضمنة في كتاب في بيتها اسمه 'كشكول'. وهي تقول "أن الموسيقى تثير الوجدان، وتحرك الخيال، انها تجعلنا نحلم ونرى عوالم غير منظورة، تعج بالحيوية والحركة"^{٢٦}.

وتتذكر لو لم تكن تلك الصدفة^{٢٧} لكانت واصلت دراسته وما قعدت في بيتها أسيرة. وفي هذه الأيام كان أخوها إبراهيم بدأ يدرّسها الشعر^{٢٨} بدءاً من كتاب الحماسة لأبي تمام. فتكرسه في دفترها كما لو كانت في المدرسة، وتحفظ بحلول مساء كل يوم ما تلقت منه. تبدأ دراسة الشعر منذ أذان الفجر^{٢٩} وتعيش مع الشعر كلما تخدم أمها في البيت.

وفي غضون هذه الأيام غادر إبراهيم^{٣٠} للتدريس في الجامعة الأمريكية ببيروت. وقد وقعت في وحشة ثقيلة. ولكن جرت بينهما مراسلات، وكان يشجعها في دراسة الشعر والنثر. وفي الفترة ما بين ١٩٣١-١٩٤٠^{٣١} قرأت عدة كتب قديمة وحديثة لكل من الأدباء والشعراء البارزين،

٢٥. المصدر السابق، ص ٦٠-٦٣

٢٦. المصدر السابق، ص ٦٧

٢٧. المصدر السابق، ص ٦٧

٢٨. المصدر السابق، ص ٦٨-٧٣

٢٩. المصدر السابق، ص ٧٦-٧٧

٣٠. المصدر السابق، ص ٧٩

٣١. المصدر السابق، ص ٨٠

وحفظت الأشعار وعكفت على العزف على العود والغناء بصوت خفيف، لأنه كان من المحرمات – إلا فونوغراف- في البيت.

ثم يتحدث عن ممارساتها الشعرية. مرة أثنى أخوها أحمد على جودة قصيدتها. كانت أول قصيدة^{٣٢} نشرت في الصحف هي 'أشواق إلى إبراهيم' نهجت نهج القصيدة الدالية لابن الرومي. ولكنها كانت تحت سيطرة هم ثقيل خوفا من اهتمام أبيها، بل لم يقل شيئا عنها. أما إبراهيم لم يقم بتشجيع^{٣٣} قصيدتها حزينة عن مرضه لما فيها من طبيعة حزينة انطوائية. وكانت تحاول تقليد^{٣٤} أخيه إبراهيم في كتابة الشعر الوطني. وقد نشرت واحدة منها في مجلة 'الأمالي' لعمر الفروخ. كان إبراهيم ملتصقا^{٣٥} بالتراث الشعري، ولذلك أنه يحذرنا من حفظ الشعر الحديث. رغم أن كلمة الحب تقترن في نفسها بصورة الفضيحة^{٣٦}، كانت تكتب قصائد غزلية باسم 'الدنانير' وهي كانت جارية يحيى البرمكي. وكانت أشعار المجهرين أقرب إلى تكونها النفسي. وكذلك لقصيدة الشاعرة نازك الملائكة^{٣٧} في شعرها التفعيلة. رغم أنها مع مؤيدي التحرر من قيود العروض القديمة، لم تكن مع القائلين بالتخلي عن الوزن والقافية بشكل نهائي^{٣٨}.

وهي في الخامسة والعشرين من عمرها سحنت لها الفرصة لتدرس في مدرسة راهبات مار يوسف في نابلس بعد أن حرمت منها أبواب المدرسة منذ أن كانت صغيرة. وفي سنة ١٩٣٩ حصلت لها وشقيقتها (فتايا) على فرصة لتعلم الإنجليزية^{٣٩} لدى فتاة مسيحية. ولكن سرعان ما توقف بضغط خارجي. احتجت فتايا أم أبيهما فقام بتوكيل تلك المهمة لأخيها نمر. ولكنها

٣٢. المصدر السابق، ص ٨٣

٣٣. المصدر السابق، ص ٨٥

٣٤. المصدر السابق، ص ٨٧

٣٥. المصدر السابق، ص ٨٨

٣٦. المصدر السابق، ص ٨٩

٣٧. المصدر السابق، ص ٩١

٣٨. المصدر السابق، ص ٩٢

٣٩. المصدر السابق، ص ٩٦-٩٧

كانت لها موقفا سلبيا تجاه ما يغضب أو يثير. فتعرفت نفسها فيما بعد أن تشعر بامتنان تجاه لمن يخنق تطلعاتها إلى تحقيق الذات. وتبينت لها أن التحطم والنكسات التي واجهتها كانت مفيدة في النهاية.

ثم هي تتحدث عن الثورة والاضراب^{٤٠} في فلسطين والتجارب المؤلمة فيها. وفي سنة ١٩٣٦ استشهد الشيخ عزالدين القسام في ثورة ضد الاحتلال الإنجليزي. فاشتدت الثورة في فلسطين. فأصبحت فدوى طوقان محاصرة في بيت أخيها أحمد في عمان. وزوجة أخيها تشكو له عما لها من وحدة بانطواء فدوى طوقان في عالم الكتب في غرفتها. لما انحلت الثورة عادت إلى نابلس وانحصرت إلى عالمها الخاص في غرفتها. وبعد شهر اندلعت عمليات الاعتقالات والقمع من جديد من قبل السلطة الحاكمة. وصارت مدهمة البيوت للتفتيش واخراج أهاليها من بيوتهم أحداثا يوميا. وقد أحزنها نهب قلمها الزيتوني اللون الذي لا تزال تحفظه أول هدية من أخيها إبراهيم. فكانت نابلس إحدى معاقل الثورة، ولذلك كان عليه أن يعاني أكثر من قبل السلطات. وقد أحست بالتأثر العميق عن عجزها للمشاركة في الثورات والمظاهرات النسائية، ولكنها تعرفت بقيمة الشعر وتأثيره في الثورة ضد المحتلين.

سجن أبوها ومرض في السجن ونفي^{٤١} أيضا إلى مصر بعد شفاء مرضه. فكانت تتصور في مخيلتها عن نظم قصيدة 'إلى أبي' ونشرها في مجلة 'الرسالة' لأحمد حسن الزيات. وذلك حين لم تكتب وتندشر مثل هذه القصيدة. ولكنها صارت حقيقة فيما بعد. وكانت حدثا مهما في مسيرتها الشعرية.

وهي تقول عن القوانين الاجتماعية في نابلس وقلة مستوى التعليم لأهاليه^{٤٢}. وليست في استطاعتها الخروج إلا مع اخواته أو أمه. وتواصلت مع أهل بلدها بالمجاملة لأن اهتمامها بعيد

٤٠. المصدر السابق، ص ١٠١-١٠٩

٤١. المصدر السابق، ص ١٠٩-١١٣

٤٢. المصدر السابق، ص ١١٤-١١٧

عن اهتماماتهم. وكانت فيها فئة من المعلمات التي كانت لهن الاكتفاء الذاتي والاستقلال الاقتصادي. ولكنهن لم تكن لهن صلة بالكتب عن خارج المدرسة. فلم تكن لها أية صلة ودية مع هذه الفئة من المعلمات إلا معلمة الست فخرية. كانت تتحدث معها عن الكتب عند لقاءهما. وهن يجرحن شعورها حتى يقلن "أخوها إبراهيم يكتب لها الشعر ويذيله باسمها"^{٤٣}. ولكن الفجوة بينها وبين هؤلاء ضاقت بعد أدركت أن الدنيا تدور على عاداتها قبل أن تكتشف عالم الكتب وبعده.

وهي تتطرق حديثا عن الثورة^{٤٤} التي استمرت ثلاث سنوات ما بين ١٩٣٦-١٩٣٩. وفي آب سنة ١٩٣٩ وقع انفجار القنبلة في مبنى مصلحة الإذاعة الفلسطينية حين يعمل أخيها إبراهيم. وتصور الحالة المتدهورة والمتحيرة عقبه. ولكن القسم العبري في ذلك المبنى خاليا ذلك اليوم. بينما كانت في القدس مع إبراهيم سحنت لها الفرص للالتحاق بمدرسة مسائية لتعلم الإنجليزية ومشاركة في النشاطات الاجتماعية بحرية كاملة حيث تمكنت للمشاركة في تقديم بعض الأحاديث الإذاعية والتمثيلات ونظم الأناشيد والانشاد وما يماثله من الابداعيات^{٤٥}.

وفي سنة ١٩٤٠ أقيل إبراهيم^{٤٦} من عمله في الإذاعة لعدة أسباب فيما يتعلق بموقفه ضد المصلحة اليهودية. غادر إبراهيم مع عائلته القدس للعراق، وهي عادت إلى نابلس. ولكنه سرعان ما مرض وعاد إلى نابلس ومات^{٤٧}. فهي تشارك معنا ذكريات عنه لأنه كان معاونا وحيدا في مسيرتها الشاقة نحو تحقيق الذات.

٤٣. المصدر السابق، ص ١١٦

٤٤. المصدر السابق، ص ١١٨-١٢٠

٤٥. المصدر السابق، ص ١٢١

٤٦. المصدر السابق، ص ١٢٣

٤٧. المصدر السابق، ص ١٢٦-١٢٧

وبعد موت أخيه إبراهيم وبقاؤها في بيتها أعادت في نفسها الشعور بعقدة السجن^{٤٨} التي هي كامنة في أعماقها. وأحست بالهجرة النفسية عن العالم الخارجي وظل الصمت لغتها المشتركة واتسعت الفجوة بينها وبين أبيها خصوصا بعد أن وجدها بجرم تدخين السجائر. وقد اشتدت في جوفها أحلام لأن تطير إلى الفضاء الفسيح حرة من الحرمان والخوف.

بينما هي في تلك الحالة المزعجة، يأتي إليها والدها يطلب منها كتابة الشعر السياسي. كأنه يراها مكان إبراهيم بعد فراقه. وقد أيقظ هذا الطلب أفكار احتجاج في نفسها. وأما ما أغضبها هو منطلق مطالبته بالشعر السياسي بعد ان اعزلها عن العالم الخارجي وأبعدها عن مشاركتها في الأنشطة الاجتماعية. ولكنها لم تكن متمردة خارجيا. فتشارك معنا افكارها المؤلمة^{٤٩} فيما يتعلق بحركاتها النفسية الداخلة التي ابقتها التجارب في الطفولة.

وفي سنة ١٩٤٨ مات أبوها. بدأت تكتب الأشعار السياسية^{٥٠} دون إلزام من الخارج. وخرجت من القمم الحريم. وأحست ببنت الحياة خرجت إلى أمها الحياة. وتفكر عن عاطفة الحب^{٥١} السحرية التي أبعدها المجتمع العربي وأصاب له الانفصام الشخصية، فهذه العاطفة نفسها التي "قال بصددها محمد صلعم حين طلعت عليه زينب قبل زواجه منها"^{٥٢}. على الرغم من ذلك ان عالم الطفولة ومعاناتها لا تزال باقية في داخلها.

وهي تتطرق أيضا الحديث عن التطورات السياسية في فلسطين^{٥٣} وما يجاوره. بالنسبة للكاتبة وقعت مصادفة خروجها من حبس الحريم ووقعة الأمة العربية في الاستعمار الغربي الجديد سنة ١٩٤٨. وتغير نسيج المجتمع العربي سياسيا واجتماعيا وثقافيا. ولأول مرة انخرطت هي في

٤٨. المصدر السابق، ص ١٢٨-١٣٠.

٤٩. المصدر السابق، ص ١٣١-١٣٦.

٥٠. المصدر السابق، ص ١٣٧.

٥١. المصدر السابق، ص ١٣٩.

٥٢. المصدر السابق، ص ١٣٩ بتصرف.

٥٣. المصدر السابق، ص ١٤٢-١٤٧.

الجماعة التقدمية. وتتكلم عن حادثة حيث أبطت الدكتور عبد الرحمن شقير، أحد ناشطي الحزب في عمان في بيته مختبئاً.

منذ مطلع الخمسينات وقد توسعت دائرتها الصداقة مع أبرز المثقفين والكتاب والشعراء، ولكنها تعرفت نفسها عجزها عن الانضمام في روح الجماعة. وفي الوقت نفسه أنها شعرت بالارتياح بأن الشاعر يمكن أن يمارس بشعره فعالية وطنية دون الانضواء إلى تنظيمات سياسية معينة^{٥٤}.

وتحدث أيضا عن عالمها القراءة وأفكارها الفلسفية^{٥٥} التي لا تزال تلحها في مسيرة حياتها. وقد قرأت كل ما وقعت في يدها من مواضيع الأدبية والتاريخية والاجتماعية والفلسفية. ومن أعجبها من سلامى موسى والعقاد والمازني وأمثال هؤلاء. وفي الاربعينات عكف على قراءة الكتب السيكلوجية والرواية. مشكلة الخير والشر، قضية الموت والمرض، قضية العدل السماوي، الاختيار والقوى الوراثية وما إلى ذلك من أفكار فلسفية. حتى أنها "وجدت في الاسفار القديم صورا إنسانية لمسها الفن القصصي"^{٥٦}. كان شقيقها رحيمي ظل أبا حنوناً لها ولكن كان يتخاصمان في امر الشيوعيين أنهم قد قرروا الموافقة على قرار تقسيم فلسطين. وأنه كان من متعطفها وناشطها. وقد ألحت لها دائما الأفكار حول طبيعتها لحب العزلة وضرورة العلاقة الاجتماعية في حياة الانسان وما فيها من تعقيد. وتنهض في نفسها شعاعا من الفكرة لاختراق آفاق جديدة من العالم^{٥٧}.

وفي سنة ١٩٦٢^{٥٨} غادرت لإنكلترا دعوة من ابن عمها فاروق، وهو طالب في 'نيو كوليج' جامعة أوكسفورد في إنكلترا. فكانت أول رحلة لها بمفردها. وهي تصف أنها عرفت مذاق غسل الحياة

٥٤. المصدر السابق، ص ١٤٨-١٥٢ بتصرف

٥٥. المصدر السابق، ص ١٥٣-١٥٧

٥٦. المصدر السابق، ص ١٥٥.

٥٧. المصدر السابق، ص ١٦٠.

٥٨. المصدر السابق، ص ١٦٩.

وحلواها^{٥٩} لدى وصولها فيها. وأقامت مع فاروق عشرة أيام. وفي غضون هذه الأيام تعرفت بالمدينة العريقة ومباني الكلية وممراتها وأخبارها^{٦٠}.

ثم أقامت في إحدى البلدة فيها لدى عائلة السيد فيرنيش^{٦١} وزوجته بسبعة جنهات في كل أسبوع. وقامت بنزهات خارجية كل يومي السبت والأحد في الأسبوع. وقد تعرفت معالم سياحية وأماكن تاريخية كثيرة ومن أهمها الأمكنة التي فيها آثار شاعر الدراما الكبير شيكسبير، وتحلت ما فيها من تجارب عذبة. والتحققت بمدرسة في أوكسفورد لدورة تمتد إلى سنة كاملة. هذه الدورة أعطت لها تجارب عديدة واستفادت منها ومن أساليب حياة الناس فيها وطبائعهم. فهي تشاركنا تجاربها^{٦٢} فيما بالتفصيل، كما أنها تشارك ذكريات عن اللحظات^{٦٣} التي قضت في حضان الطبيعة المكتظة بالأشجار والطيور مع صديقها الحميم الوحيد في إنكلترا. فتستعيد ذكرياتها مع الطبيعة في نابلس، إنها كانت أشد شوقا إلى الطبيعة. فكتبت قصيدة بعد حزيران ١٩٦٧، باسم 'الطوفان والشجرة' حيث الطير والشجرة ترمز للحرية والانطلاق. وفي الفصل الأخير تتذكر عن أخيها 'نمر' حين تلقت برقية من بيته تحمل خبر مصرعه المؤلم. ثم قضت تسعة شهور في الدوحة مع شقيقتهما وأهلها.

وفي الصفحات الأخيرة للكتاب تحتوي على مفكرتها ما بين مدة ١٩٦٦-١٩٦٧ حيث أدرجت شذرات من الذكريات الماضية من اللحظات المحتملة في ذاكرتها.

المبحث الثالث: الاعتراف في 'رحلة جبلية رحلة صعبة'

وفي البداية، تعترف فدوى طوقان بأنها كانت دائما تواجه أسئلة حول حياتها إياها، وليس في مقدورها الاجابة عنها إلا ببعض من الانكماش والنفور، إذ تقول إن "سبب ذلك الانكماش

٥٩. المصدر السابق، ص ١٧٥

٦٠. المصدر السابق، ص ١٧٥-١٧٧

٦١. المصدر السابق، ص ١٧٨

٦٢. المصدر السابق، ص ١٨٢-٢٠٦

٦٣. المصدر السابق، ص ٢٠١-٢٠٦

والنفور من الاجابة عن الأسئلة، ذلك لم أني لم أكن يوما براضية عن حياتي أو سعيدة بها، فشجرة حياتي لم تثمر إلا القليل، وظلت روحي تتوق إلى انجازات أفضل وأفاق أرحب"^{٦٤}. وهذا الاعتراف انعكاس جلي لما في عقلها اللاوعي من مواد مكبوتة التي تكاد تتوق الخروج منها إلى أفاق النور الأرحب.

وهي ترى حياتها كفاح البذرة التي لا ترى النور دون ان تجتاز طريقا صعبا في الأرض. ومثل هذا "الكفاح من أجل تحقيق الذات يكفي لملء قلوبنا وإعطاء حياتنا معنى وقيمة"^{٦٥}. وفي نفس الوقت لا تريد كشف خزانة حياتها برمته، لأن "هناك أشياء عزيزة ونفيسة، نؤثر أن نبقيها كامنة في زاوية من أرواحنا بعيدة عن العيون المتطفلة"^{٦٦}. وعلى كل حال، أنها على كل ثقة بأن الكفاح لا يتم إلا بالإرادة والعمل الدائم.

أما سيرتها الذاتية فهي تجليات للمشاعر المؤلمة في أيام طفولتها التي كانت لا تزال تنتابها طيلة حياتها حيث أنها متأصلة في كيانها وليست من مقدورها استئصال جذورها، وإذ تقول عنها "إن المشاعر المؤلمة التي نكابدها في طفولتنا نظل نحس بمذاقها الحاد مهما بلغ بنا العمر"^{٦٧}. وهي تكرر هذه الحقيقة في مكان آخر "أن عقدنا الطفولية تتحكم بنا طوال حياتنا، يذهب الذين ولدوها فينا، وتكر الأيام والأعوام، وتبقي هي في داخلنا قابعة هناك تحكمننا وتوجه خطواتنا"^{٦٨}. ويتجلى من مثل هذه الكلمات عمق الجروح التي أصابت تجارب طفولتها وشخصيتها وتوجيهها لحياتها المستقبلية. إن ذاكرة الانسان خزانة التجارب والخبرات بما فيها من مشاعر مقرونة بها. كل تجارب تتشكل مما دخلت في ضميرها حوافز بيئية بواسطة أبواب المعلومات للإنسان فذلك حواسها الخمس. وتترتب عليها من عمليات عقلية تصفية مثل

٦٤ . المصدر السابق، ص ٩

٦٥ . المصدر السابق، ص ٩

٦٦ . المصدر السابق، ص ١٠

٦٧ . المصدر السابق، ص ٢١

٦٨ . المصدر السابق، ص ١٢٨

الحذف والتشويه والتعميم. وأما تعيين المواقف من الأحداث في الحياة لديه فتعتمد على تمثيلات عقلية متشكلة من هذه العمليات التصفية.

ولا غرو أنها تعترف ما عانت به من تجارب قاسية مرة من بيئتها العائلية التي تشكلت ذاتها. وهي تقول في حوار مع محمد رضا نصر الله لقناة فضائية 'العربية' جوابا لسؤاله عن تجاربها المركبة في حياتها إذ تقول إنه "لم يخفف عني إلا التعبير عن هذه التجارب... وأن الكتابة هي عملية التطهير ظاهر النفس والداخل من كل الرواسب الحسية"^{٦٩}. فالكتابة عندها هي عملية نبيلة التي وبها استطاعت التخلص من كل الرواسب السلبية والتطهر منها. فحياتها كانت رحلة صعبة قاسية اجتازتها شاقا المعوقات والتابوهات، فالاعتراف بها - بالنسبة لها - ليس شيئا صعبا إلى حد ما. ورغم كذلك أنها لم تجتز حدود الاعتراف ولم تمرد على المجتمع الذي تعيش فيه، بل قامت به دون كسر المطابقة المجتمعية. وهي كانت قائمة على الواقع المجتمعي. وعلى كل حال، كان سردها الذاتي رحلة داخل ذاتها النفسية حيث قامت بالتعبير عما في داخلها من جروح التي كانت تتطلب التهوية، وترسم هذه الحقيقة إذ تقول "أن الشيء الأكثر أهمية هو ما يحدث فينا لا ما يحدث لنا"^{٧٠}

ذكريات الطفولة

تدور رحلة فدوى طوقان الجبلية حول الطفولة المجروحة من بيئته الأسرية، التي هي ما زالت تطاردها طوال حياتها. فهذه الجروح نفسها غدت في داخلها حوافز قوية التي من خلالها تمكن لها فهم صراع الحياة الحقيقي، وبالتالي إدراك التفوق وتحقيق الذات. أما الطفولة فهي "عالم البراءة والصدق والحرية"^{٧١} حيث جميع الامكانيات للنمو والتطور متأصلة في فطرتها. فينبغي أن تُسمَح هذه الإمكانيات الفطرية والسمات الشخصية بالتطور في ظل وجود علاقات جيدة

٦٩. هذا هو: فدوى طوقان، فيلم وثائقي، قناة العربية، راجع على رابط يوتيوب: <https://www.youtube.com/watch?v=zPvEQQ-IlmU&t=320>

تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٣\١٢\٨

٧٠. فدوى طوقان، رحلة جبلية رحلة صعبة، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط٢، ١٩٨٥، ص ١٢٨.

٧١. المصدر السابق، ص ٢١٤

مع من ترتبط به الخيوط العاطفية. وتؤثر نوعية هذه العلاقات على جودة جميع المهارات اللغوية والحركية وقدرة على التعبير العاطفية لدى الفرد.

وهي تعترف أنه "إذا كانت الطفولة هي المرحلة الحاسمة التي ترسم الشخصية وتقررهما لما لها من أهمية في حياة الفرد. فإن طفولتي _ لسوء الحظ أو لحسن الحظ - لم تكن الطفولة السعيدة المدللة"^{٧٢}. كما أنها تعترف^{٧٣} أن الظروف الحياتية التي مرت بها طفولتها لم تقم بتلبية حاجاتها النفسية. كانت تتلهف دائما للحصول على دمية تغمض عينها وتفتحها، والقماش كالذي تلبسها ابنة عمها بدلا مما تخطه أمها دون إتقان في الصنعة. وأحست بالإعراض من قبل والديها حيث كان قد سمعت عما أرادت أمها إجهاضها بينما كانت في بطن أمها، وكذلك أن رعايتها كانت قد عهدت إلى خادمة في بيتها، وأغفلت هي نفسها من عن مراجعة طرائف ونوادير طفولة أخوتها وأخواتها من قبل أمها، إذ تقول "أحس بلا شيءي: أنني لا شيء وليس لي مكان في ذاكرتها"^{٧٤}.

وأما بنيتها النحيفة والنعوت الجارحة مثل يا صفراء! ويا خضراء! فقد كانت تجرح إحساسها^{٧٥} إلى درجة كبيرة. فجميع هذه الاحساسات قد أصابت في نفس الطفلة الصغيرة جروح عميقة التي لا يمكن إصلاحها. فشخصية الفرد تقوم ببنائها على أسس الطفولة، ولا تزال تجارب هذه المدة تبقى في النفس عدم فقدان المعنى. وهي تقول إن "عالم طفولتي فقط هو العالم الوحيد الذي لا يفقد معناه النفسي في داخلي، أنه العالم الوحيد الذي أعود إليه بقلب حار قديم، فما عدا ذلك، فكل شيء في نظري ينال منه قانون التطور"^{٧٦}

٧٢. المصدر السابق، ص ١٨

٧٣. المصدر السابق، ص ١٨

٧٤. المصدر السابق، ص ٢١

٧٥. المصدر السابق، ص ١٩

٧٦. المصدر السابق، ص ١٤١

كان البيت حيث نشأت فيه الذي وصفته كأنه 'الحريم' مدفونة فيه جماعة من الناس حيث تحجب جدرانها العالية عمن فيه من العالم الخارجي، وتقول إنه في ذلك البيت "انسحقت طفولتي وصباي وجزء غير قليل من شبابي"^{٧٧}. وهي تبين في عدة مواضع في الكتاب أنه كيف فقدت طفولتها وصباها. وذلك تتجلى في قولها عن التجارب الأنثوية في بيتها حيث اضطهدت تحت سيطرة الرجال إذ تقول "أما الجو العائلي فيسيطر عليه الرجل كما في كل البيت. وعلى المرأة أن تنسى وجود لفظة (لا) في اللغة إلا حين شهادة (لا إله إلا الله) في وضوئها وصلاتها. أما (نعم) فهي اللفظة الببغاوية التي تلقنها منذ الرضاع. لتصبح فيما بعد كلمة صمغية ملتصقة على شفثها مدى حياتها كلها"^{٧٨}. وكذلك هي تعترف أيضا أن هذه البرودة العاطفية والتربية السلبية جعلتها مبالية بما يقوله الآخرون^{٧٩}.

ولم تكن بينها وبين أبيه علاقة عاطفية حتى أنه لم يبلغ أي أمر من الأمور إذا أراد فعله إلا بصيغة الغائب حتى لو كانت حاضرة بين عينيه^{٨٠}، وكان يطلب من أمها لإبلاغه لها. وكانت الفجوة النفسية بينهما عميقا واتساعا^{٨١} حتى أحست باللاإكتراث وكأنها عدم وفراغ. وهي تتذكر أياما بعد موت أخيها إبراهيم وبعد رجوعها من القدس الفسيحة إلى نابلس، أنه تلكئذ شاسع البعد بينها وبين أبيها إذ تقول "ظل الصمت هو لغتنا المشتركة التي عمقت ذلك البعد لا سيما بعد تلك العاصفة الغاضبة التي أثارها في وجهي ساعة دخل الغرفة ذات يوم ووجدني متلبسة بجرم تدخين السجائر"^{٨٢}.

وهي تتذكر أيضا عن الدهشة التي مرت بها حين أدركت عن معرفة أبيها عن أولى قصيدة لها منشورة في المجلة. إذ تقول "فأبي لم يعلق بأية كلمة. وتنفست بارتياح عميق"^{٨٣}. وعلى الرغم

٧٧. المصدر السابق، ص ٤٠.

٧٨. المصدر السابق، ص ٤٠.

٧٩. المصدر السابق، ص ١١٤.

٨٠. المصدر السابق، ص ٥٦.

٨١. المصدر السابق، ص ٧١.

٨٢. المصدر السابق، ص ١٢٩.

٨٣. المصدر السابق، ص ٨٤.

من ذلك، كانت علاقتها الشعورية بأبيها أحيانا تشتد في نفسها التزاما به خصوصا في حالة مرضه أو سجنه. وهي تتذكر مرة بلغ إليها خبر سجن أبيها فيما يتعلق بالثورة ومرضه فيه، إذ تقول حالة نفسها عندئذ، "مرت صورة أبي في خاطري مطروحا، مريضا، مؤرقا بين جدران السجن الجليدية، واكتسحتني موجة من الحنو العميق. كان إحساسي القديم بالضغط والكبت بسبب حضوره في البيت قد تلاشى تماما ليترك مكانا للوحشة والحنان والشجن"^{٨٤}. ولم يكن لهذه العلاقة استقرار في نفسها، ولكنها تتأرجح بين الحيادية أيام السلام والعافية، والحنو الغامر أيام السجن والمرض^{٨٥}.

وأما سبب إحساسها باللاشيئية واللااكتراث في بيتها فهو نتج عن معاملة أمها معها أيضا. وفي الوقت نفسه أنها أحبت أمها في داخلها لما أن فيه من خيط من الربط العاطفي الطبيعي بينهما. وهي تقول "كنت شديدة الحساسية لمعاملة أمي التي كانت تبدو لي غظة وقاسية غير أنني كنت في نفس الوقت شديدة الالتصاق بها نفسيا، وأخاف أن تموت وتتركنا وحدنا، وفي ليالي القدر كنت أدعو الله أن يبقى ورقة حياتها خضراء عالقة على الشجرة التي في السماء"^{٨٦}. وهي تصرح أنها كانت قد اشتدت فيها المشاعر الأمومية وقت مرضها^{٨٧}. وقد استفاضت الحديث عن طبيعة أمها وجمالها ومزاياها^{٨٨}، إضافة إلى ذلك، كانت لديها من شقاء في حياتها. وكذلك كانت لدى فدوى طوقان إدراك تام عن مصدر شقاء أمها الذي كان قد انعكس في معاملاتها معها.

كانت قد تطورت في شخصيتها طبيعة متناقضة حيث ليس في مقدورها اتخاذ موقف محدد وقرار حاسم بشأن أي أمر من الأمور. وكانت هذه الطبيعة وما شابهها جلية في علاقتها مع أمها أيضا إذ تقول "كانت علاقتي بها وأنا طفلة تقوم على خليط من المشاعر المتناقضة، لقد كنت

٨٤. المصدر السابق، ص ١٠٩-١١٠

٨٥. المصدر السابق، ص ١٠٩

٨٦. المصدر السابق، ص

٨٧. المصدر السابق، ص ٢٣

٨٨. المصدر السابق، ص ٢٤-٢٦

أخافها وفي الوقت نفسه أخاف عليها من الموت"^{٨٩}. على كل حال، أنها كانت تتلهف دائماً^{٩٠} للحصول على حب والديها وكسب الاهتمام الخاص. لكن، لا تزال تبقى رغبتهما في ذلك لم تتحقق في نفسها المجروحة. وهي تلاحظ مرة^{٩١} أنه ينبغي للفرد أن يدفع ثمننا لنجاح قام بتحقيقه حتى بين أهله وعشيرته.

متعطشة الحرية

كل حياة سعى جاهد دائم لاستعادة ما فقدته في مسيرتها الدائبة من خلال مراحل متتالية، من أجل التفوق وتحقيق الذات. وبالنسبة لطوقان أنها أحست من بيئتها العائلية باللاشيئية وعدم الحرية والانطلاق لتعبير العواطف الطبيعي والحيوية. فالسرد عن حياتها في هذه السيرة يتمركز على نقطة وحيدة هي الحرية والانطلاق، إذ أن الحرية والانطلاق بعيد عن جو بيتها^{٩٢} حتى أنها فكرت في الانتحار^{٩٣} وسيلة وحيدة وممارسة الحرية المستلبة وانتقاماً من ظلم أهلها. مرة إنها تتذكر عن الممرات والطرق التي قد كانت تسير فيها في طفولته والطبيعة التي تجلب إلى ذكريات الماضية كلها قد تغيرت مما كانت عليه. وكان تقرأ في الطبيعة ببصيرتها مظاهر الحرية والانطلاق بجميع معانيها وبعثت في أعماق نفسها نشوة طازجة وهي تقول "لقد كنت أحب تلك الفوضى في نمو الأشجار إذا صح أن أسمي الحرية الفوضى"^{٩٤}. وهي تحاول أن تقترن جميع ما في الطبيعة بالحرية التي تحس بانعدامها في حياتها. فمثل هذه المراجعات عن الشغف لا يلين للحرية المطلقة مختفية في جميع السطور في 'رحلتها' الذاتية الجبلية الصعبة.

٨٩. المصدر السابق، ص ٢٣

٩٠. المصدر السابق، ص ٢٠

٩١. المصدر السابق، ص ١١٦

٩٢. المصدر السابق، ص ٤٥

٩٣. المصدر السابق، ص ٥٨

٩٤. المصدر السابق، ص ٤٦

الخضوع والتمرد

ومن الامر المثبت أنه إن لم يكن يتطور لدى الفرد نمط طبيعي في نشاطاته من بيئته في مراحل التطور قد يتولد فيه تناقض في المعاملات والعلاقات بين الأشخاص. وهي تدرك ما لها من تناقض في شخصيتها إذ تقول "كما يحدث في نطاق المجتمع حيث تكون الرقابة المستبدة والقمع والقهر سببا في خلق بنية تتركب من ثنائية والخضوع معا، كذلك يحدث ضمن نطاق الأفراد، فالفرد الذي ينمو في مناخ الشرطة السرية والسلطة العائلية المستبدة ينشأ بتركيب نفسي هو مزيج من تلك الثنائية: الخضوع والتمرد. فهناك دائما صفات مكتسبة تتكون نتيجة للقهر الاجتماعي والعائلي بصفة خاصة. وكانت الشیخة من ضمن العناصر التي عملت على خلق هذه البنية النفسية عندي ذات التركيب الثنائي. الخضوع من جهة والتمرد من جهة أخرى"^{٩٥}. أما قولها الشهيرة التي توضح كيف كان مدى تأثير الشیخة في تحطيم شخصيتها فهي ما يلي، "كانت من ضمن أولئك الذين لعبو دورهم في حياتي ثم أوغلو في طوايا الزمن"^{٩٦}

وقد كان اجتمع في شخصيتها هذان المظهران المتناقضان معا. ويمكن العثور من سيرتها على سبب اجتماعهما في شخصيتها في وقت واحد. وذلك أنه كانت هناك في حياتها تجارب قاسية قاهرة في بيئتها الأسرية التي لا تحقق حاجاتها النفسية في الطفولة، ومع ذلك كانت قد حصلت على تجارب إيجابية التي تشبع حاجاتها النفسية من أخيم إبراهيم ومعلماتها في المدرسة وغيرهم من الشخصيات خارج الأسرة. وهي تذكر أيامها في المدرسة إذ تقول "لا أذكر أن واحدة من معلماتي تركت في نفسي ذكرى جارحة أو أثرا لمعاملة سيئة على مدى السنوات القليلة التي أمضيتها في المدرسة، لقد أشبعت المدرسة الكثير من حاجاتي النفسية التي ظلت جائعة في

٩٥. المصدر السابق، ص ٣٢

٩٦. المصدر السابق، ص ٣٨

البيت"^{٩٧}. علاوة على ذلك أنها تعترف من تمكّنها من المدرسة من العثور على ما ضاع من أجزاء من نفسها.

وكذلك قد تشكلت فيها طبيعة حيث تطابق وتجاامل مع أبناء المجتمع الذين تقوم بالمعاملة معهم. وقد ابتعدت عن الحديث معهم عن الموضوعات لا تهتم بها. وهي تقول "في أكثر الحالات كان تواصلني مع الناس مجاملة دون أن أقرب منهم اقترابا قلبيا"^{٩٨}. وهي تضيف أيضا أنها فقدت قدرة في التمرد والجدال لأن الظروف لم تكن لاثقة للنمو لمثل الخصلات. ولجأت في مثل تلك الحالات إلى آليات الدفاع النفسية وهي تقول "كنت أحيانا أفكر بالهرب بحثا عن الخاص من العذاب والألم. غير أنه كان لدي رقة قلب بالغة تجاه شيخوخة أبي بالرغم من كل شيء. فما ملكت يوما القلب القاسي الذي لا يبالي بالأم الآخرين في سبيل نزعاته ومطامحه الكبيرة، وهكذا لم يكن أمامي إلا الانعزال الكامل في قلب العلاقات البشرية المتشابكة من حولي والهروب من زمي البائس إلى الزمن الروائي حيننا وأحلام اليقظة والشعر حيننا آخر"^{٩٩}. وعلى الرغم من أن في داخلها دافع طبيعي للتمرد، ليس في استطاعتها تعبيره صراحة، لكن بقيت دائما المجاملة والمطابقة مع الجميع في المجتمع، وصارت تشعر بالامتنان^{١٠٠} تجاه الذين يحاولون خنقها بالقسوة وسوء المعاملة. فجميع هذه المواقف تولدت فيها نظرة ديالكتيكية للحياة.

الانطوائية والنزعة للتجدد

وأما البيئة العائلية الباردة عاطفيا وإعراض والديها عن تلبية متطلباتها العاطفية والنفسية من الرعاية والحب فكانت قد أوصلتها إلى العالم الانطوائي. فهي تعترف أن هذه الانطوائية^{١٠١}

٩٧. المصدر السابق، ص ٥٣

٩٨. المصدر السابق، ص ١١٤

٩٩. المصدر السابق، ص ١٢٩

١٠٠. المصدر السابق، ص ١٠٠

١٠١. المصدر السابق، ص ٨٥

كانت حتمية في طابعها وجعلته مستغرقة دائما في الانكفاء على الذات وفشلت محاولته الخروج منها. ولكنها أحست أن في داخلها بذرة تأبي الاكتفاء بذاتها والاستقرار والثبوت وتتحرك كدينامو، وتقول "كنت أحس في الوقت نفسه بال قالب الفولاذي الذي اقبع داخله يعمل على خنق تلك البذرة لتصبح فيما بعد بركانا يمكن أن ينفجر في أية لحظة ليطيح بالقاعدة والأساس الذي قام عليه ذلك القالب اللعين"^{١٠٣}. وكانت حياتها صراعا داعبا بين الانطوائية التي تشجع الاكتفاء بذاتها والبذرة التي تعمل كدينامو لا تهدأ. فيمكن العثور على حياتها بين هذين التيارين الجياشين.

الصدفة وتحقيق الذات

يمكن لأي فرد أن يتبع دور الصدفة في تحديد مسار حياته. كان للصدفة دور حاسم في حياة فدوى طوقان، وهي تشير إليها أيضا^{١٠٣}. فيمكن أن تكون هذه المصادفة نفسها جعلتها متحيرة في عالمها الداخلي وأدت إلى أن تميل إلى أنماط غير طبيعية في تفكيرها وإحساساتها وسلوكها من جهة، وكذلك، هي نفسها وضعتها في قمة المجد والشهرة ليست في فلسطين فحسب، بل في العالم الأدبي برمته.

وهي تقول عن تحقيق الذات في الإنسان، "إذا التقى الميل الفطري بالحوافز الدافعة لتحقيق الذات أصبح الانسان مملوكا وأسيراً لمطامحه وتطلعاته، كما أن حياته تصبح كلها وقفا على العمل لتحقيق هذه المطامح والتطلعات، فلا تدور إلا على محورها متحدية كل المعوقات والمثبطات، ومن ثم تبدأ بالظهور نتائج لا تكاد تصدق"^{١٠٤}. ولعل مثل هذه المصادفات هي التي تعمل بقوة في الإنسان للبحث عن الذات الحقيقية وتحقيق الذات.

١٠٢. المصدر السابق، ص ٩٩.

١٠٣. المصدر السابق، ص ٦٧.

١٠٤. المصدر السابق، ص ٨٢-٨٣.

عاطفة الحب

إن الحياة بحث دائم للعثور على ما فات والسعي الدائب لتحقيقه. أما حياة فدوى طوقان فهي كانت مليئة بالبحث عن الحب والحرية. فالحب عندها شيء طبيعي تستجيب له "كما تستجيب الطيور بصورة غير إرادية لاتجاهات المجال المغناطيسي في تحديد اتجاه طيرانها"^{١٠٥}. كانت جائعة تماما للحصول عليه ممن أشد ارتباطا به عاطفيا خصوصا من أمها. فهي تعترف 'الحب' بجميع معانيه من وجهة فلسفية وصورة عملية في حياتها وموقف المجتمع العربي من هـ. فهي تقول "لقد ظل مجتمعنا العربي الشرقي يظلم عاطفة الحب مثلما ظلم المرأة باستمرار، وبقيت هذه العاطفة الإنسانية جميلة التي لمست بكفها السحرية حتى قلوب الأنبياء، والتي قال بصددها النبي الكريم محمد صلعم (سبحان الله! سبحان مصرف القلوب!) وذلك ساعة طلعت عليه زينب بنت جحش فجأة قبل زواجه منها، هذه العاطفة الإنسانية الجميلة في مجتمعنا العربي المصاب بانفصام الشخصية ظلت تحمل معنى محملا بالفضيحة والعار"^{١٠٦}.

كانت أولى صدفة التي أقعدتها أسيرة في بيتها هي من أجل الحب وحكمت عليها الإقامة الجبرية^{١٠٧}. وتتذكر لو لم تكن تلك الصدفة^{١٠٨} لكانت واصلت دراسته وما قعدت في بيتها أسيرة. وكذلك هي تشارك ذكريات عن اللحظات^{١٠٩} التي قضت في حضن الطبيعة مع صديقها الحميم حين كانت في إنكلترا. ولكنها لم تذكر عن رغبتها الأرضية فيما يتعلق بالدافع الجنسي في حياتها.

١٠٥. المصدر السابق، ص ١٣٩

١٠٦. المصدر السابق، ص ١٣٩

١٠٧. المصدر السابق، ص ٥٥٦-٥٤

١٠٨. المصدر السابق، ص ٦٧

١٠٩. المصدر السابق، ص ٢٠٦-٢٠١

المبحث الرابع: الاعتراف بموقفها من الحياة

إن مما يجعل هذا الكتاب في عداد الكتب السير الذاتية الحديثة التي تضاهي الكتب من هذا القبيل في الآداب الأخرى هو ما فيه من تعبيرات صريحة ومكاشفة جريئة في إبراز مواقفها من ظواهر الحياة المختلفة عن طريق تحليل نفسي صادق عن ذاتها. وهي يعترف بارتباكها العقلي في اتخاذ القرار وكونها أسيرة لمشاعرها وتساؤلات فلسفية نحو الحياة واحساسها بالتدين في حياتها اللاحقة.

التنافر المعرفي^{١١٠}

إن فدوى طوقان كانت تعاني من الصراع الدائم فيما يتعلق باتخاذ قرار أو فعل أي عمل أو عدمه. وهي كانت تتمنى أن تظل جزءا دائما للسياسة، وبه تستطيع الانضمام في ترقية الشعب والعمل في إطار الجماعة. ولكن حماسها كانت حماسة آنية، إذ تقول "اكتشفت الفرق بين إحساس الانسان وتفكيره وهو يعمل منفردا، واحساسه وتفكيره وهو يعمل مع الجماعة، وذقت حلاوة الشعور الجماعي المشترك، وأسعدني وأفعم نفسي خروجي من إطار نفسي وانطلاقي ضمن إطار الجماعة. وبقيت مشكلتي هي ذلك الحماس الآني الذي يهجم مع المناسبات الساخنة ويتراجع مع انتهائها"^{١١١}.

فالبينة الأسرية التي شكلت منها ذاتها وتجارها غير طبيعية فيما أدتها إلى الافتقار إلى الشعور بروح الجماعة. فهذه الحالة النفسية تصطلح في علم النفس الاجتماعي هو التنافر المعرفي. وكانت لديها إدراك عنها وهي تقول "ولكن تحقيق هذا التمني ظل فوق قدرتي، فالتعامل مع الناس في الخارج ليس في طبعي، وهكذا بقي عجزني التام عن الاندماج مصدر شعور بعدم

١١٠. التنافر المعرفي (cognitive dissonance) في علم النفس، هو حالة من التوتر أو الإجهاد العقلي أو عدم الراحة التي يعاني منها الفرد الذي يحمل اثنين أو أكثر من المعتقدات أو الأفكار أو القيم المتناقضة في نفس الوقت، أو يقوم بسلوك يتعارض مع معتقداته وأفكاره وقيمه، أو يواجه بمعلومات جديدة تتعارض مع المعتقدات والأفكار والقيم الموجودة لديه. راجع على موقع الانترنت: تنافر معرفي/ https://ar.wikipedia.org/wiki/تنافر_معرفي , تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٣/٠٨/٠٧

١١١. فدوى طوقان، رحلة جبلية رحلة صعبة، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط٢، ١٩٨٥، ص ١٥٠

الرضى، وبقيت حائرة بين هذه الحالات المتعارضة، موزعة النفس بفعل التعارض القائم بين قوة طبيعتي الأصلية المتحكمة وبين عدم اقتناعي بل كرهني لهذه الطبيعة، مما وُلد في ضميري ما يشبه عقدة الذنب^{١١٢}.

تساؤلات فلسفية

وفي البداية، إن الأفكار الفلسفية المعقدة والتساؤلات حولها ليست نمطا طبيعيا عندها، حتى موت أنسبائها وأقربائها لم يلحها إلا للتساؤلات البسيطة التي عسى أن تنبثق من الطفولة الصادقة، إذ تقول لما مات عمه الذي كانت لها علاقة وثيقة به "ظل عقلي البسيط البعيد يومئذ عن أي تفكير فلسفي معقد...لماذا ماتوا ورحلوا عني؟ وكان السؤال يطرح نفسه بكل بساطة الطفولة ووضوحها"^{١١٣}. ولكنها لم تدرك عندئذ أن مثل هذه الفضول كانت بداية تساؤلات فلسفية معقدة التي غيرت مجرى حياتها الجاهدة.

أسيرة المشاعر وإدراك الحقيقة

كانت لديها تحليل دقيق عن مشاعرها النفسية وما يترتب عليها من تفكير وأفعال. وقد أوقعها الفراغ في النفس من الحرمان المبكر من الذهاب إلى المدرسة، أسيرة لمشاعرها. فأصبحت دودة الكتب كما استرخت في الاستماع إلى الموسيقى والعزف والغناء ورأت فيه تنفيسا وجدانيا من المشاعر المكبوتة^{١١٤}. فهي تدرك "إن الطبيعة ضد الفراغ دائما، وهي ترفضه وتتعايش معه. لا بد للنفس من الامتلاء بشيء ما، بالحب والخير أو بالبغض والشر، بالنوازع البناءة أو النوازع التدميرية"^{١١٥}. وبعد الأربعين بدأت تطالع على كتب علم النفس والرواية^{١١٦} وكذلك أثبتت في إدراكها الحقيقة في الحياة لاحقا هي "كل انسان إنما هو انسان وحيد في شقائه وفي حزنه وفي

١١٢. المصدر السابق، ص ١٥١

١١٣. المصدر السابق، ص ٣٠-٣١

١١٤. المصدر السابق، ص ٣٨، ٦٧

١١٥. المصدر السابق، ص ٦٢

١١٦. المصدر السابق، ص ١٥٣

موته^{١١٧} كما أنها تدرك ليس الشعر تجلية للحالات العاطفية لعالم الفرد الذاتي فحسب^{١١٨}، بل له التزام وثيق بقضايا اجتماعية.

الاحساس بالتدين

وفي أحد فجر العيد تأثرت بانفعالات محزنة، فقالت في نفسها "لست أدري مصدر هذا الشعور، فلست متدينة، ولا أهتم بالطقوس. صلي بأمور الدين وكتبه ليست متينة الروابط. لي في الدين نظرة، لكني في مناسبات أتسائل، لماذا لا يكون إيماننا خالصا فنستريح، أو تكون شكوكنا خالصة فنستريح أيضا، أفكار تلاحقني لا سيما في المناسبات ذات الطابع الروحي"^{١١٩}. وتضيف قول يونج عن الإحساس الديني عند الانسان "إن هناك إحساسا دينيا يظل موجودا في داخل الناس مهما تغيرت أفكارهم وآراءهم الدينية"^{١٢٠}.

الخاتمة

إن المذكرات التي قامت بها فدوى طوقان في 'رحلة جبلية رحلة صعبة' - كما تشير اسمها - تكشف رحلة حياتها الصعبة التي مرت بها بيقظة حسية واعية حيث تجلت حقائق الحياة وما وراءها. وصقلت من خلالها أفكارها وعواطفها وحتى إبداعاتها. على كل حال أنها تعبير صادق بكل صراحة ما تتقدم به في سيرتها. وأما الذي يجعل السيرة تفردا من نوعها هو أنها تجلية صريحة للتجارب الأنثوية المتمردة الإيجابية ببالغ العذوبة والجمال. ويمكن أن تمتد موجاتها إلى تجارب الآخرين المماثلة. رغم أنها لم تكن سيرة ذاتية اعترافية محضة التي تقوم على المكاشفة والتجرد، بل هي أصدق وأخلص فيما تكشف من تعابير عاطفية سمّاء.

١١٧. المصدر السابق، ص ٢١٢

١١٨. المصدر السابق، ص ١٥٢

١١٩. المصدر السابق، ص ٢١٩

١٢٠. المصدر السابق، ص ٢٢

الباب الخامس

العناصر الاعترافية في السيرة الذاتية العربية: تحليل نقدي

الفصل الأول: العناصر المشتركة والاعتراف في النصوص في العصر ما قبل الحديث

المقدمة

المبحث الأول: العناصر المشتركة

المبحث الثاني: العناصر الاعترافية

الخاتمة

الفصل الثاني: العناصر المشتركة والاعتراف في النصوص في العصر الحديث

المقدمة

المبحث الأول: العناصر المشتركة

المبحث الثاني: العناصر الاعترافية

الخاتمة

الفصل الثالث: الاعتراف في السيرة الذاتية العربية: تحليل نقدي

المقدمة

المبحث الأول: تصوير الذات: تفوق الشعر على النثر

المبحث الثاني: الثورة والاستلام

المبحث الثالث: الاعتراف وعلم النفس الايجابي

المبحث الرابع: الاعتراف والتنقيس

الخاتمة

الفصل الأول

العناصر المشتركة والاعتراف في النماذج في العصر ما قبل الحديث

المقدمة

إن النماذج الثلاثة التي تم التحليل عنها في هذا الباب فهي من السياقات التاريخية المختلفة من العصر ما قبل الحديث. ولا تعد هذه النصوص سيرة ذاتية بمفهومها الفني الحديث. ولكنها تمثل تعبيراً ذاتياً حيث يسرد كاتبها ما حدث في حياتهم من حلقات وأحداث معينة. علاوة على ذلك أنها نصوص ظهرت قبل تأسيس السيرة الذاتية جنساً نوعاً مستقلاً في الأوساط الأدبية.

وأما النصوص الثلاثة فهي كل من 'المنقذ من الضلال' لأبي حامد الغزالي، و'التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً' لابن خلدون، و'التحدث بنعمة الله للإمام السيوطي، تعكس صورة صادقة للفترة التي تولدت فيها. فجميع هذه النصوص تضم عناصر مشتركة، بالرغم أنها تأتي من سياقات تاريخية مختلفة. ومن بينها ذكر عن أصل الأسرة والأنساب والدراسة والأساتذة، والإنجازات العلمية وتفوقهم فيها على الآخرين من معاصريهم، والرحلات العلمية التي قاموا بها، والاضطرابات السياسية، أو الصراعات الاجتماعية، أو تجارب دينية. ولكن كتاب 'المنقذ للغزالي' فهو منحصر على صراعاته العقلية والروحية لما أنه كتاب في 'الاعتراف الديني'. أما الاعتراف الصريح في هذه النصوص، فهي مفتقرة إليه لما أنه لم يكن من خصوصيات ذلك العصر. علاوة على ذلك أنه كان غير مقبولاً ثقافياً ودينياً أيضاً. أما الاختلاف في التعبيرات في هذه النصوص فهو الذي يجعل كل نص فريداً من نوعه.

المبحث الأول: العناصر المشتركة في النماذج

السياقات الثقافية والتاريخية

فالغزالي (١٠٥٨\٤٥٠ - ١١١١\٥٠٥) هو ينتمي إلى طوس في خراسان. فهو اليوم جزء من إيران. عاش في النصف الثاني من القرن الواحد عشر وأوائل القرن الثاني للميلادية. أما ابن خلدون

(١٣٣٢\٧٣٢ - ١٤٠٦\٨٠٨) فهو ولد ونشأ في تونس وعاش أكثر من عشر سنين من أواخر حياته في القاهرة. قضى معظم حياته في قرن الرابع عشر وبضع سنين من القرن الخامس عشر. في حين أن جلال الدين السيوطي (١٤٤٥\٨٤٩ - ١٥٠٥\٩١١) ولد ونشأ في القاهرة، مصر في القرن الخامس عشرة وبضع سنين من القرن السادس عشر. فهذه النصوص الثلاثة تنبثق من بين القرن الواحد عشر والقرن السادس عشر للميلادي.

تأثير الأوضاع السياسية - الاجتماعية

كل نص من النصوص نتاج لما يمثله صاحبه من الأوضاع السياسية-الاجتماعية لفترة زمنية معينة. عاش الغزالي^١ تحت سلطنة السلجوقية حيث كان معظم الناس في خراسان شافعية المذهب، ولكن بعض من خلفاء السلجوقيين حنفية، وآخرين منهم كانوا الشافعية التعصبية. وكذلك كان قد اشتدت فيها التيارات الفكرية مثل القدرية والمعتزلة والفلسفة اليونانية والاسماعيلية وما إلى ذلك. وكانت الأوضاع السياسية والاجتماعية فيها مضطربة بالتيارات الفكرية والفرق الدينية والايديولوجيات. أما 'كتاب المنقذ من الضلال' فهو نتاج لصراعات الغزالي الروحية والعقلية التي تولدت من هذه البيئة المضطربة بصفة عامة، وما كان له من خصلة شخصية وجراءة فكرية على وجه الخصوص.

كان ابن خلدون شخصية فريدة شكلتها عناصر وراثية قوية من السلطة السياسية والتقاليد العلمية. وقد كان انغرست في شخصيته القوى السحرية للحفاظ على تفوقه العلمية في ظل السلطة السياسية. وإن هذه القدرة تنبثق من شخصيته عملية لا واعية. ولهذا السبب تمكن له تحويل أي مواقف مضطربة قوية وانقلابات سياسية لصالحه إلى حد ما. أما حياته في سيرته الذاتية فهي كانت رحلة سياسية وعلمية وإن كانت جاهدة خارجياً، أنها في الحقيقة

١ . مصطفى جواد، عصر الغزالي، مجلة التراث العربي، العدد ٢٢، يناير ١٩٨٦، راجع موقع الانترنت على

<https://archive.alsharekh.org/contents/171/16111>

عفوية داخليا. فلا منازع أنها كانت نتاجا للأوضاع السياسية-الاجتماعية التي شكلت شخصيته.

أما عصر جلال الدين السيوطي فكان في لغة التاريخ الأدبي عصر الانحطاط والجمود فكريا وأدبيا نتج عن انهيار الخلافة العباسية والاضطرابات التي أحدثها هجوم التتار. وفي الوقت نفسه أنه كان عصرا زاهرا بالنسبة لعلوم الدين حيث كثر فيه العلماء النابغون الذين انغمسوا في الخصومات الدينية. يمكن أن تعتبر سيرته الذاتية عملاً فريداً نتجت عن القاعدة الفكرية القوية التي شكلت شخصيته والبيئة السياسية الاجتماعية المثيرة للإعجاب في المناقشات الدينية السطحية جوهريا. فمناظرات السيوطي وخلافه^٢ مع علماء عصره المذكورة في كتاب 'التحدث بنعمة الله' تشير إلى طبيعة البيئة الاجتماعية السائدة ذلك العصر.

التفاصيل الشخصية

يتمحور كل نص من النصوص السير الذاتية في العصر ما قبل الحديث حول التفاصيل الذاتية الخارجية لأصحابها مثل أصل الأسرة وأنسابهم وتعلمهم وأساتذتهم وانجازاتهم العلمية وتأليفاتهم ورحلاتهم العلمية ومناصبهم التي تولوها ومكانتهم من بين معاصريهم وما يماثله من التفاصيل خالية من مواد عاطفية التي تلتف بها. فالكتابتان هما 'التعريف بابن خلدون' و'التحدث بنعمة الله' كلاهما مماثلان في هذا المنطلق، ولكن 'المنقذ' للغزلي يختلف عن هذين الكتابين لما أنه يندرج تحت فئة 'الاعتراف الديني' حيث تم تركيز الكاتب على صراعاته الروحية والعقلية.

طبيعة الكتب وشموليتها

بالرغم أنه لم تكن هذه النصوص الثلاثة سيرة ذاتية فنية مفهوما حديثا، أنها تعبير عن أحداث خارجية أو داخلية لأصحابها. علاوة على ذلك، أنها لم يكن يتم تأسيس هذا النمط من

٢. جلال الدين السيوطي، التحدث بنعمة الله، تحقيق: إليزابيث ماري سارتين، المكتبة العربية الحديثة، مصر، ص ١٦٠-٢٠٢.

الكتابة نوعا خاصا أدبيا في تلك العصور. فكتاب 'المنقذ من الضلال' قد اقتصر محوره على الاعتراف الديني، لا غير. فلا توجد فيه أي شكل من أشكال التعبيرات الأخرى.

أما كتاب 'التعريف' فهو نتاج أدبي فريد من نوعه لما أنه يشمل جميع مراحل حياة الكاتب منذ الطفولة حتى فترة قبيل وفاته. ولكنه مفتقر إلى المواد الذاتية لما أنه يتمحور على رحلته العلمية والسياسية والمهنية وما يتعلق بها من صراعات خارجية. وعلى الرغم من أنه قد تم تأليف كتاب 'التحدث بنعمة الله' في أواخر سنوات حياة الكاتب، أنه أيضا مفتقر تماما إلى التعبير الذاتي الاعترافي للساد. بل أنه تمركز على البيان عن أصل أسرته ونشأته العلمية وأساتذته ورحلاته العلمية ومؤلفاته وما يتعلق بها من صراعات خارجية.

الميثاق الأتوبيوغرافي

إن السيرة الذاتية هي ميثاق بين السارد والمتلقي حيث يحدث فيه الأخذ والعطاء العاطفي والمعرفي بينهما. أما مصطلح 'الميثاق الأتوبيوغرافي' فقد تمت صياغته من قبل الأكاديمي الفرنسي فيليب لوجون^٣ صاحب كتاب 'السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي' في أواخر القرن الثامن عشر، وفي القرن نفسه كان ظهر مصطلح 'السيرة الذاتية'. وفقا لهذا الميثاق يصرح السارد باستخدام ضمير المتكلم بأن جميع ما ورد فيها من تعبير الأحداث والمواقف كلها حقيقية فعلا، ويستقبله القارئ كما هو. ومن هذا المنظور يمكن أن يقال أن هذه النصوص الثلاثة توجد فيها الميثاق الأتوبيوغرافي صريحا.

المبحث الثاني: العناصر الاعترافية

إن الاعتراف – كما تم البيان سابقا- عملية نبيلة الذي يقوم به الفرد في حياته الدائبة عملا لازما لاستعادة التوازن المفقودة بوجود الصراع. يمكن العثور على شعاع الاعتراف في جميع

٣. لوت ميسين، 'الميثاق الأتوبيوغرافي'، راجع على موقع الانترنت: <https://www.degruyterbrill.com/document/doi/10.1515/9783110279818-026/html?lang=en>

الخطابات البشرية. ظهر الاعتراف تيارا ملحوظا في أدب السيرة الذاتية في الآداب الغربية في القرن الثامن عشر. ولكنه كان موجودا في الثقافات السالفة في كتاباتهم الذاتية اعترافا دينيا، كما يوجد في اعترافات اوغسطينوس في القرن الخامس للميلادي في الأدب الغربي وفي 'منقذ من الضلال' للغزالي في التراث العربي. وأما 'التعريف' لابن خلدون و'التحدث' للسيوطي كلاهما خاليان من التعبير الاعترافي إلا بعض من مراجعات عن الإخفاق^٤ في سيرة ابن خلدون. وقد وردت تعبيرات اعترافية في الكتابات الذاتية لبعض الكتّاب في التراث العربي.

ذكريات الطفولة

إن ذكريات الطفولة هي من إحدى الخصوصيات المهمة للسيرة الذاتية الحديثة. وهي جزء لا يتجزأ لأن تطلق عليها سيرة ذاتية فنية شاملة. وسبب ذلك أنه يمكن أن ترجع جذور جميع الصراعات النفسية للساد إلى التجارب في مرحلة الطفولة. توجد في النصوص الثلاثة مراجعة عن الطفولة أو المراهقة، ولكنها مقتصرة على تشكيل الساردين العلمية أو الأحداث الخارجية الأخرى. فكتاب 'المنقذ' محتوي فقط على مراجعة عن أول أمره من الحياة حيث كان لديه التعطش^٥ للتحري إلى حقائق الأمور. وأما النصان الأخران فهما يحويان مراجعة عن الطفولة ولكنها انحصرت على ناحيتها العلمية فقط على مستواها الخارجية.

تحليل تكوين الشخصية

على الرغم من أن الفلاسفة قد عالجوا موضوع وجود الانسان وطبيعة العملية النفسية لديه تمشيا مع مستوى العلوم آنذاك، ولم يقيم تحليل النفس البشرية بعمق إلا بعد فرويد. ولذلك لم تكن في تلك العصور ممارسة متبعة في تحليل النفوس البشرية من حيث تكوين شخصيتهم في كتاباتهم الذاتية. ومن ثم لا يوجد في هذه النصوص تحليل استبطاني مركز على تجارب

٤ . عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي، رحلة ابن خلدون، تحقيق: محمد بن ناويت الطنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٤، ص ٧٣.

٢٠٨

٥ . أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال، تحقيق: د. محمد محمد أبو ليلة و د. نور شيف عبد الرحيم رفعت، جمعية البحث في القيم والفلسفة،

واشنطن، الولايات العربية المتحدة، ص ١٦١

الكتّاب الذاتية العاطفية. ولم يقدّم أصحاب هذه النصوص الثلاثة بتحليل شخصياتهم فيها، إلا أن الغزالي، فإنه قام بتحليل شخصيته من حيث تطوراتها نفسياً وعلمياً وعقلياً. رغم أن التحليل الروحي للشخصية كان شائعاً في كتابات الصوفيين، يتفرد تحليل الغزالي بأنه ليس من منطلق الكشف الصوفي ذاتياً محضاً، لكنه يقوم به من فرضية معرفية موجودة في عصره.

الصراعات النفسية

لا حياة إلا بالصراع بالنسبة للإنسان. إنما الصراع يجدد الحياة ويحفزها على الحركة بيقظة واعية. كما أنه هو نفسه أساس التقدم. وعلى أساس هذه الناحية، أن كل حركة تحمل في طيها صراعات تتوق إلى إيجاد الحلول لها.

أما محور كتاب 'المنقذ' فيدور حول صراعات الكاتب الروحية والفكرية التي مر بها في مرحلة معينة في حياته. وإنما هي انحصرت على الكشف عن هذه الناحية المعينة للذات. فحياة ابن خلدون كانت غاصة بالصراعات الدائبة بدءاً من هلاك والديه ومعظم أساتذته في الطاعون الجارف^٦، ثم تبعها حطام السفينة التي كان يركب فيه أهله من زوجة وأولاد حيث هلك جميعهم. وكذلك انقلابات سياسية التي كان فيها انضمام ابن خلدون بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. على كل حال، أنه لم يعبر عن ناحيتها العاطفية، بل تم بمراجعة هذه الأحداث فقط على مستواها السطحية الخارجية.

وبالنسبة لكتاب 'التحدث بنعمة الله' للسيوطي فهو أيضاً لم تكن حياته فيه خالية من الصراعات. ويمكن العثور على مثل هذه الصراعات في مراجعته عن خصوماته^٧ مع معاصريه من العلماء وفي مواضع أخرى حيث يحاول وضع شخصيته العلمية المهيمنة على الآخرين. ولكنه اقترب منها بشكل موضوعي تاركاً ناحيتها العاطفية غير المعبر عنها أمام القراء.

٦. عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي، رحلة ابن خلدون، تحقيق: محمد بن تاووت الطلنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٤، ص ٦٥

٧. جلال الدين السيوطي، التحدث بنعمة الله، تحقيق: إليزابيث ماري سارتين، المكتبة العربية الحديثة، مصر، ص ١٥٥، ص ١٦٠-٢٠٢

عاطفة الحب

ومن المتضح أن من خصوصية الكتابة عن الذات في العصر ما قبل الحديث، أن الكتاب العرب قد اهتموا بالاحتفاظ على الموضوعية بدلا من تركيزهم على الكشف عن الذات. أما النصوص الثلاثة في العصر ما قبل الحديث التي تم التحليل عنها فهي خالية من الذكر عن عاطفة الحب وما يتعلق به من علاقة رومانسية أو الرغبات الجنسية لأصحابها. وفي نفس الوقت وقد وردت مثل تلك المراجعات في بعض النصوص في تلك العصور التي تم الذكر عنها في الأبواب التقديمية في هذا البحث.

التعبير من خلال الأشعار

إن من خصوصية الأدب العربي في التراث القديم هو تفضيل الكتاب الشعر مطية لعواطفهم ووجدانهم. ويتجلى هذا الاتجاه عند الكتاب حتى في الفترات المبكرة في العصر الحديث. وأما كتاب 'التعريف' بابن خلدون^٨ و'التحدث بنعمة الله' للسيوطي^٩، فكلاهما يحتويان على أشعار من عند صاحبهما. ويمكن الملاحظة على أن الاحتياجات العاطفية القوية قد تموضعت مثل هذه الأشعار. ومنها الاستعطاف أو الاستجارة، وكسب ثقة السلاطين، وتعبير أواصر المحبة معهم، تعبیر عن الصراعات أو الفرح والبهجة وما إلى ذلك. وأما 'المنقذ من الضلال' للغزالي فهو خال من مثل هذه التعبيرات الشعرية. إن من الافتراض أنه باعتباره نوعا اعترافيا دينيا من النثر، لا يسع فيه للتعبيرات الشعرية على الاطلاق.

تعبير عن الدوافع

كل حياة تدور حول فكرة صراعية تتوق إلى إيجاد الحل أو غاية مهيمنة تحرص على نيلها في الحياة. وتوجد أن تكون وراء كل عمل أدبي غاية خفية لصاحبه. على الرغم من أن غاياتها

٨. عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي، رحلة ابن خلدون، تحقيق: محمد بن تاويت الطلنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٤، ص ٧٣.

٧٥-٧١

٩. يضم كتاب التحدث بنعمة الله كثيرا من الأشعار الآخرين ومن عند نفسه.

مختلفة عند كل كاتب عن آخر، أنه يمكن الافتراض أن عواقبها النهائية تكون غالبا تنفيذا وجدانيا لأنه يمكن العثور على صراع وراء كل دافع أو غاية. رغم أن هؤلاء الكتاب لم يقوموا بتصريح هذه الدوافع النفسية الداخلية التي حفزتهم إلى وضع مؤلفاتهم الذاتية، أنها يمكن للباحث استخلاصها منها. فإذا كانت الدافع المهيمن عند الغزالي تخفيف عن الأعباء الروحية التي لايزال يمر بها في الحياة، وذلك التبرير أو الدفاع عن النفس من كل اتهامات من معاصريه من العلماء عند السيوطي. وأما غاية ابن خلدون في وضع كتابه فهو أن يضع شخصيته بجميع جوانبها على قمة المجد من معاصريه من علماء وحكام.

الصدفة

إن الصدفة هي التي تعطي للحياة جمالا معنويا. لأن الإنسان عاجز عن نبوءة لما سيحدث في اللحظة القادمة في حياته. ولم يذكر الغزالي في 'المنقذ' عن صدفة مخصصة التي أعطت الحياة نقطة تحول مميزة. وكذلك السيوطي في 'التحدث' وابن خلدون في 'التعريف' لم يقوموا بالمراجعة عنها، ولكن جميع هذه النصوص تحتوي فقط على إشارات إلى مواقف عامة خارجية التي حدثت في حياتهم. فخلاصة القول هي أن مثل هذه الإشارات لا يمكن العثور عليها إلا في الكتابات الاستطرادية أو التحليلية نفسيا حول شخصية الفرد. ومثل ذلك النمط الذاتي لم يظهر إلا بعد أن شاعت نظريات فرويد (Freud) في الفترات اللاحقة في العصر الحديث.

الخاتمة

إن التعبير عن الذات - سواء في الأدب أو في الحياة الواقعية - هو عملية طبيعية. أما الكتابة عن الذات كنوع أدبي فطبيعة أنماطها تكون مختلفة حسب اختلافات الخصوصيات الثقافية والاجتماعية وغيرها من العوامل المؤثرة الأخرى. أما إخضاع الكاتب حياته العاطفية للتحليل بالبصيرة النفسية فهو اتجاه ظهر فقط، ما بعد فرويد. لذلك، فلا يمكن للباحث العثور على مثل هذا النمط من التعبير في كتابات فترة ما قبل الحديث، لا في اللغة العربية فحسب، بل في

أي ثقافة في العالم. فينبغي لأي باحث أن يتناول هذه النصوص من هذا المنطلق عند القيام بتحليلها. ومن المتضح، أن أعمال السيرة الذاتية في هذا العصر تتسم بطبيعتها الموضوعية حيث تتمركز معاورها على أحداث خارجية دون الانخراط في دخائل نفس أصحابها من مواد حميمة. فيمكن القول إن التعبيرات الذاتية أكثر عاطفية للكاتب تكون غائبة تقريبا في هذه النصوص، إلا مؤلفات المتصوفين مثل الغزالي حيث تهتم بالتعبير عن صراعاتهم العقلية والروحية.

الفصل الثاني

العناصر المشتركة والاعتراف في النماذج في العصر الحديث

المقدمة

هذا الفصل هو ملخص للعناصر العامة والاعترافية الواردة في نصوص السير الذاتية من العصر الحديث التي تم التحليل عنها مفصلاً في الباب الرابع. ففي كل من 'الأيام' لطله حسين و'حياتي' لأحمد أمين و'سبعون' لميخائيل نعيمة و'الخبز الحافي' لمحمد شكري و'رحلة جبلية رحلة صعبة' لعدوى طوقان. وقد كان تم فيها تحليل العناصر العامة لهذه النصوص بشكل عام، وجوانبها الاعترافية المعبرة فيها على وجه الخصوص.

وقد ظهر جميع هذه النصوص في القرن العشرين بعد أن ظهرت السيرة الذاتية نوعاً أدبياً مستقلاً في الآداب الغربية نتيجة عن البيئة الثقافية الاجتماعية الفريدة في القرن الثامن عشر. فالاعتراف - كما سبق تفصيله في الأبواب والفصول - يقوم على المكاشفة والتجرد حيث يسرد الكاتب جميع ما يتجلى في ذاكرته حتى من المواد الشخصية الحميمة للغاية لمتلقيها من القراء. وذلك يحدث بموجب 'ميثاق' بين السارد والمتلقي المسّى 'بالميثاق الأتوبيوغرافي'.

ويتضمن هذا الفصل العناصر العامة والمشاركة فيما يتعلق بهذه النصوص من منظور مقارن، منها السياقات التاريخية والثقافية التي تولدت فيها هذه النصوص، وميثاق السيرة الذاتية فيها، والأوضاع السياسية والاجتماعية الواردة فيها، وشمولية النصوص من حيث احتوائها على مراحل الحياة المختلفة لكتّابها، وكذلك عناصر أخرى التي يتفرد بها كل نص من النصوص. وكما يحتوي على العناصر الاعترافية المعبرة عنها في هذه النصوص فيما يتعلق بذكرات الطفولة، وتحليل تكوين شخصية الكاتب، والصراعات النفسية، والتعبير عن عاطفة الحب والإدمان والخيبة والمرض، ودوافع نفسية لأصحابها في وضع مؤلفاتهم وتعبير عن الصدفة التي غيرت مجرى حياتهم وما يماثلها من تعبيرات اعترافية أخرى.

المبحث الأول: العناصر المشتركة في النماذج

السياقات التاريخية والثقافية

تنبثق النماذج المذكورة من سياق عربي مختلف ففي كل من مصر ولبنان والمغرب وفلسطين. تأتي في مقدمة هذه النصوص وأقواها هو 'الأيام' لطله حسين. ظهر الجزءان الأولان منه في أواخر العشرين ومنتصف الثلاثين في القرن العشرين في مصر على التوالي. وذلك العام ١٩٢٩ و١٩٣٦ م بعد أن ظهر فصولا في مجلة 'الهلال' ما بين ١٩٢٦ و١٩٢٧. أما الجزء الأخير منه فنشر في سنة ١٩٧٢ قبيل وفاته. تعد هذه الفترة مرحلة مهمة بالنسبة للأدب العربي تاريخيا وفنيا. وهي فترة حيث بدأت تظهر إبداعات كتاب العرب متأثرين بالثقافة الغربية بجوانبها المختلفة، أكثر استقرارا مضاهيا لنظيرها الغربي بنية ومضمونا. فهذا الكتاب نتيجة عن صراعات طه حسين الثقافية والذاتية. أما ذات الكاتب فهي متكونة من البيئة الأسرية الدينية السلبية وبيئة الأزهر التقليدية التراجعية وما اكتسب لاحقا من ثقافة غربية وأفكارها الحديثة.

قد تم تأليف 'حياتي' لأحمد أمين على نمط شق طريقه طه حسين. وظهر الكتاب في الأوساط الأدبية في عام ١٩٥٠-١٩٥٢. كان أحمد أمين أيضا متحميا بالثقافة العربية والغربية حيث نشأ في أسرة متدينة شديدة تحت سلطة أبيه وتعلم في الأزهر وتثقف بثقافة غربية من خلال القراءة والاحتكاك بالمتقنين بثقافة الفرنسية والانجليزية. أما كتاب 'سبعون' لميخائيل نعيمة فنشر في سنة ١٩٥٩ في سنه السبعين. ولكنه ينبثق من أسرة مسيحية في لبنان. على الرغم من أن محمد شكري صاحب كتاب 'الخبز الحافي' ينتمي إلى أسرة مسلمة في المغرب، ولد ونشأ تحت قمع أب غير متدينة وشب في بيئة غير أخلاقية مختلطة الثقافات. وكان نشر سيرته في عام ١٩٥٢. وأما الكتاب الأخير 'رحلة جبلية رحلة صعبة' لهدوى طوقان الفلسطينية، فهو

تجلية لتجارب أنثوية من حرمان دراسة رسمية وإقامة جبرية في البيت. تم نشره في عام ١٩٨٥. كانت ولادته ونشأته في أسرة مسلمة في نابلس في فلسطين.

الأوضاع السياسية والاجتماعية

كل نص من النصوص الخمس تمثل الأوضاع السياسية والاجتماعية للبيئة التي كافح فيها أصحابها. يرسم طه حسين في سيرته صورة المجتمع الأعمى الذي عاش فيه كما يصور الانقلابات السياسية والثورة والحروب في مصر تحت الاحتلال والاستقلال. أما الجزء الأخير من كتاب 'الأيام' فقد وردت فيه مراجعات^١ عن الديناميكيات العاملة في السياسة الداخلية في مصر وصراعاتها وانقلاباتها.

وقد ذكر أحمد أمين في سيرته انضمامه في السياسة واشتراكه في المظاهرات ضد الحكم البريطاني في مصر حيث بدأ غضب الدواب والمحصولات جبرا من أهاليها. ولكنه لم يفرط في مثل هذه النشاطات لأنه كان دائما يفكر في عواقبها الوخيمة. كان ذلك وصية من أبيه بالتفكير في عواقب الأمور^٢. ويضيف أيضا أنه قد شاركت النساء مثل هذه المظاهرات. وفي المدة ما بين ١٩٣٠ - ١٩٣٢ سنحت له فرصة لزيارة البلدان الإسلامية. ويروي الأحداث السياسية في تلك البلاد أثناء سرد تجارب سفره. وكذلك تعكس 'حياتي' الحالة الاجتماعية في مصر من خلال قصة صاحبها. هكذا قد رسم أحمد أمين صورة حقيقية لحالة مصر الاجتماعية والسياسية في سيرته.

أما كتاب 'سبعون' فهو يعكس بدقة الظروف السياسية والاجتماعية للفترة التي عاش فيها صاحب السيرة. تمتاز تلك الفترة بالاحتلال، وعدم الاستقرار، والهجرة، والقمع والاضطهاد، والمجاعة في المجتمع وما إلى ذلك. تستهل سيرته بذكريات دعاء والدته لأبيه المهاجر إلى أمريكا،

١. طه حسين، الأيام (الجزء الثالث)، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٢، ص ٥١٠-٥٢٠.

٢. أحمد أمين، حياتي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ص ١٣٧.

وتلاه شقيقاه في الهجرة طلبا للعمل. رغم أن هجرة ميخائيل نعيمه إلى أمريكا طلبا للعلم، انخرط في عدة أعمال فيها بعد الدراسة وشارك في نشاطات الرابطة القلمية مع الأدباء الذين تم هجرتهم من البلدان العربية. تنعكس السيرة أيضا القمع والاضطهاد في بلاد لبنان وفلسطين تحت السلطة العثمانية والاحتلال الإنجليزي بعدها. وقد كان نعيمه نفسه أن يشارك في المعارك العسكرية^٣. وقد تحدث بالتفصيل عن الفقر والظروف الاجتماعية الأخرى في لبنان في فترات الحروب وما بعدها. وقد سجل ذلك من خلال مذكراته وعدة رسائل إلى أخيه نسيب. فيمكن القول إن الأفكار الفلسفية التي يتقدم بها الكاتب في هذا الكتاب هي انعكاس لمثل هذه الأوضاع السياسية والاجتماعية التي كانت سائدة في تلك الفترات.

ليس فقط الأوضاع الاجتماعية المغربية المشاعة بالفقر والجوع والفجور التي انعكست في 'الخبز الحافي'، بل الأوضاع السياسية المضطربة فيها أيضا. وقد تحدث عن الاشتباكات بين المغاربة والشرطة وإطلاق النار التي حدثت بمناسبة ذكرى يوم ٣٠ مارس المشؤوم ١٩١٢ حيث تمت معاهدة مع السلطان عبد الحفيظ للحماية الفرنسية على المغرب. وقد شهد الكاتب تلك الاضطرابات وهو كان جالسا مع صديقه الكبداني في مقهى التشاطو^٤. رغم أن بلاد المغرب تذوقت الاستقلال سنة ١٩٤٤م^٥، وقد كان استولى الفرنسيون على جميع قطاعات التوظيف في البلاد. فاستمرت الأوضاع السياسية والاجتماعية المؤسفة فيها حتى بعد استقلالها لعدة سنوات.

كانت ولادة فدوى طوقان في نفس عام ١٩١٧ الذي جاء وعد بلفور في رسالة لآرثر بلفور، وزير الشؤون الخارجية للمملكة المتحدة. وشهدت لعدة الانقلابات السياسية في فلسطين بما فيها من نكبة ١٩٤٨ وحرب ١٩٦٧. ولكن الجزء الأول من سيرتها يغطي فقط الفترة التي سبقت

٣. ميخائيل نعيمه، سبعون (المرحلة الثانية)، مؤسسة نوفل، بيروت، ط ١٢، ٢٠١١، ص ١٠٥

٤. محمد شكري: المرجع نفسه، ص ١١٧

٥. وثيقة الاستقلال المغربية، مقالة منشورة على ويكيبيديا الموسوعة الحرة، راجع على موقع الانترنت: #وثيقة_الاستقلال_المغربية،

https://ar.wikipedia.org/wiki/تاريخ_الاسترجاع:٢٠٢٤\٢١٨

عام ١٩٦٧. وهي تحدث في أوائل الصفحات الأحوال الاجتماعية في نابلس من خلال سرد قصتها بما فيها من قلة مستوى التعليم لأهاليه^٦. وكذلك تطرق الحديث عن الثورات والاضراب^٧ في فلسطين وتجاربه المؤلمة فيها، بما فيها من ثورة ١٩٣٦ ضد الاحتلال الإنجليزي حيث وقعت في المحاصرة في بيت أخيها أحمد في عمان، وانفجار القنبلة في سنة ١٩٣٩ في مبنى مصلحة الإذاعة الفلسطينية حين كان يعمل أخيها إبراهيم، والحالة المتدهورة والمتحيرة عقبه. كل حياة مشتبكة بالصراعات الداخلية والاحداث الخارجية مع أنه لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر. فلذلك، لا غرو أن جميع النصوص المعرضة للتحليل هنا تعبير عن الظروف الاجتماعية والسياسية التي تتعامل معها كتأها.

الميثاق الأتوبيوغرافي

أما 'الميثاق الأتوبيوغرافي' فهو صريح في جميع النصوص المختارة إلا في كتاب 'الأيام' لطفه حسين. فاستخدم الكاتب فيه ضمير الغائب 'هو' خلافا لممارسة متبعة في السيرة الذاتية. بالرغم من أن الميثاق الأتوبيوغرافي ضمني فيه، فهو أقوى وأشد تأثيرا بما يخلق في نفوس قرائه من تعاطف وجداني من خلال تعبير عاطفي للغاية.

الشمولية

كل نص من النصوص المعرضة للتحليل في العصر الحديث يمكن أن تندرج تحت فئة السيرة الذاتية الحديثة. بينما الاثنان منها هما 'الأيام' و'الخبز الحافي' سيرة ذاتية روائية، أن 'رحلة جبلية رحلة صعبة' لعدوى طوقان التي تم تأليفها على شكل المذكرات. أما بالنسبة للشمولية تلك النصوص، فهي متفاوتة من حيث محتواها على مراحل حياة أصحابها. وفي حين أن كتاب 'الأيام' لطفه حسين يضم قصة حياته حتى ثلاثين سنة من عمره،

٦. رحلة جبلية رحلة صعبة، ص ١١٤-١١٧

٧. المصدر السابق، ص ١٠١-١٠٩

وأما كتاب 'الخبز الحافي' لمحمد شكري فيحتوي فقط على أحداث في واحد وعشرين من عمره تقريبا. وفي حين أن فدوى طوقان أوردت في سيرتها 'رحلة جبلية رحلة صعبة' أحداثا مثيرة من حياتها حتى الخمسين من عمرها. ومن ناحية مراحل الحياة أن 'سبعون' لميخائيل نعيمة و'حياتي' لأحمد أمين هما كتابان في السيرة الذاتية على نحو شامل لأنهما يحتويان على قصة حياتهما منذ الطفولة حتى المرحلة الأخيرة من حياتهما. أما أحمد أمين عاش فقط أربعة سنوات بعد تأليف سيرته، ولكن كانت حياة ميخائيل نعيمة تطاولت عشرين سنة بعد القيام بتأليفه. يمكن القول إن كل نص من هذه النصوص يختلف عن غيرها من حيث الشمولية بما أنها تعتمد غالبا على القلق الفني الناشئ لدى كل كاتب الذي سيحفزهم على تحديد الفترة حيث يحتاج كل كاتب إلى التعبير عن الأحداث فيها.

المبحث الثاني: العناصر الاعترافية

إن الجدير بالملاحظة أنه لم يكن 'الاعتراف' تيارا ملحوظا في السير الذاتية العربية في أي عصر من العصور. ولكن النصوص السيرة الذاتية في العصر الحديث تتميز عما فيها من تعبيرات ذاتية غير مسبوقة. فجميع النصوص المعرضة للتحليل هنا تتجلى فيها عناصر اعترافية وفرة بمفهومه العريض. أما النصوص الأربعة فهي: 'الأيام' لطلح حسين و'حياتي' لأحمد أمين و'سبعون' لميخائيل نعيمة و'رحلة جبيلة رحلة صعبة' لفدوى طوقان، جميعها لم تقم على المكاشفة والتجرد على شكل تام، ولكن مؤلفها احتفظوا المحايدة في التعبير عن ذواتهم رغم أنهم منبثقون من سياقات ثقافية مختلفة وبيئة سيكولوجية متباينة.

وفي حين أن 'الخبز الحافي' لمحمد شكري هو سيرة روائية التي تقوم تماما على المكاشفة والتجرد والاعتراف الصريح. تتميز هذه السيرة الروائية بما فيها من تعبيرات صريحة لتجاربه الجنسية دون أقنعة. فيمكن الافتراض رغم أن كاتبها ينبثق من نفس السياق الثقافي، كانت

تجربته الفردية الأكثر قهرية أشدّ وأقوى من أي عناصر أخرى ربما يمكن أن تمنعه من مثل التعبيرات المنفتحة.

ذكريات الطفولة

كل نص من النصوص الخمس ثرية بذكريات الطفولة، فهي أيضا إحدى الخصوصيات للسير الذاتية في العصر الحديث. كل تجارب ذاتية التي تنبثق من صاحبها ليست بالضرورة موضوعيًا، بل ممكن أن تكون إلى حد ما. وفي الوقت نفسه أنه ربما يمكن له العثور أيضا على جذور الصراعات التي يعاني منها في تجاربه في الطفولة. لأن الطفولة -كما ذكرت سابقا- لها دور هام في تحديد مسار الحياة المستقبلية للفرد.

أما كتاب الأيام فقد وردت فيه ذكريات عن طفولته بوفرة. وهو يستفيض الحديث عن أحداث مثيرة من الطفولة في البيت والقرية والكتاب كما تتجلى في ذاكرته. فجميع هذه الاحداث كانت محملة بالعواطف الشديدة بما يتمكن لمتلقيها أن يتعاطفوا معها من خلال قراءته. وفي حين أن أحمد أمين أورد في سيرته أحداثا في طفولته رغم أنها تفتقر إلى عناصر عاطفية. واتخذ كاتب هذه السيرة أسلوبا تقريريا - كما سبق الذكر عنه-، فهو ليس بالضرورة أن تكون تعمدا من عنده، ولكن خصلته الشخصية غير مناسبة لمثل هذا النمط من التعبير. لأنه نشأ في بيئة حيث تم الحرمان للتعبيرات الفطرية تحت سطة أبيه.

رغم أن كتاب 'سبعون' وجدت فيها ذكريات الطفولة، وهي قليلة ذكرها بالمقارنة مع تعبيراته عن أحداث في مراحل حياته المتبقية في سيرته. وأن حياته دائما كانت تدور حول أفكار فلسفية حول الظواهر الكونية. علاوة على ذلك أن ذكرياته عن الطفولة كانت أكثر خارجية بدلا من استيعابها الداخلي. أما 'رحلة جبلية رحلة صعبة' لفدوى طوقان فهي غاصة بذكريات الطفولة. فتلك هي كلها محملة بعواطف الكاتبة بعفوية في تعبيرها. فيتمكن للقارئ أن يتمشى معها وأنها قوية بحيث أنها تؤثر صدى في نفوس القراء.

فالأمر الذي يجعل سيرة 'الخبز الحافي' الروائية لمحمد شكري يتفرد عن غيرها من النماذج هو ما فيها من اعتراف صريح. فهي تجلية واضحة لما تجرب من أحداث مؤلمة مضطهدة من بيئته بين الفقر والمجاعة وقهر والده واضطهاده لا مثيل له. وقد رسم الكاتب ذكريات طفولته بشيء من العفوية التي بحيث تثقب إلى انفعالات متلقمها.

تحليل تكوين الشخصية

أما السمة الرئيسية للسيرة الذاتية الحديثة فهي ما تظم من تحليل عن شخصية السارد من عند نفسه. وكان قد اشتدّ هذا الاتجاه في السيرة الذاتية أكثر فأكثر بعد أن سيطرت نظريات فرويد على الفن والأدب، خصوصا نظرية التحليل النفسي وما تتقدم به من افتراضيات.

فيمكن للباحث العثور على تحليل شخصية الكاتب في كل من السيرة 'حياتي' و'رحلة جبلية رحلة صعبة'. أما أحمد أمين^٨ وفدوى طوقان^٩ في سيرتهما فهما قاما بتحليل شخصيتهما بالتفصيل أخذا باعتبار الخصلات التي كانت لوالديهما. رغم أن طه حسين يستفيض الحديث عن الصراعات التي يعاني منها في شتى المواقف بفقد عينيه وما يترتب عليه من جروح عاطفية، أنه لا يقوم بتحليل في سيرته عن تكوين شخصيته ولا يتحدث عن تأثيرات التي تدفعه إلى التعامل معها في نمط مخصص. رغم أن ميخائيل نعيمة قد قام بتحليل عما في شخصيته من عوامل التي اكتسبها من أبويه، ولكنه لم يعرضها لتحليل شامل من مفهوم حديث. بينما أن محمد شكري لم يقم بتحليل تكوين شخصيته بشيء من بصيرة نفسية، ولكنه يكشف عما في حياته من تجارب مؤلمة كل من أسرته وبيئته التي عسى أن قد أثرت في تكوين شخصيته، مفصلا دون أقنعة ثقافية أو اجتماعية.

٨. وقد ذكر عنها في الفصل الثاني من الباب الرابع، ص ٢٣١

٩. وقد ورد الذكر عنها في الفصل الخامس من الباب الرابع، ص ٣٠٧-٣٠٩

الصراعات النفسية

أما محور كتاب 'الأيام' فهو الصراعات التي كان يعاني منها صاحبه طوال حياته حتى سنه الثلاثين. فجزور هذه الصراعات ترجع إلى إعاقته الجسدية هي العي والشعور بالعار والاستهزاء^{١٠} الذي تجرب به من أعضاء أسرته حين تناول الطعام في كليتي يديه. وكانت هذه الصراعات حوله تطارده طوال حياته متفاوتة درجتها. فشخصية أحمد أمين في 'حياتي' ملتفة بالصراعات الدائبة حيث يتخذ موقفاً متوسطاً محايداً بين أقصى طرفي في الأمور. ويقوم في كتابه بتحليل ملامح شخصيته توارثها من والديه تحليلاً نفسياً. وقد تم تفصيله في الباب الماضي. ويتعجب الكاتب في الصفحتين الأخيرتين لسيرته لما تم له التفوق في حياته العلمية والأدبية والمالية وحتى في حياته الأسرية ممن هو كان أذكى وأشجع من الأمور، ويحمد الله على امتنانه عليه. ويقول إنه من الصعب العثور على أسبابه من خلال التعليل العقلي والتحليل النفسي. يمكن للباحث أن يفترض أن جميع الإنجازات التي امتلكها كانت نتيجة عن الدوافع التي أثارها الصراعات النفسية لديه.

رغم أن شخصية ميخائيل نعيمة في كتاب 'سبعون' تدور حول فكرة رئيسية هي التوحيد الكلي للكون وما فيها، أنه لم يذكر عن صراعات معينة التي يمكن أن تدفعها إلى تفوقه في التفكير الفلسفي وما يتعلق به من موقف من الحياة. وفي حين أن كتاب 'رحلة جبلية رحلة صعبة' تدور حول التجارب النسوية التي مرت بها فدوى طوقان في أوائل أيامها في الحياة. وذلك نتجت عن البيئة الأسرية فأحست با 'اللاشيئية'. أما ذكرياتها كلها تتطور حول تلك الصراعات النفسية الأكثر عاطفية.

أما شخصية محمد شكري التي تتجلى في 'الخبز الحافي' فقد مرت بتجارب عنيفة خصوصاً في مرحلة طفولته وتلته في مراهقته، حتى دافعته إلى تفكير عبثي نحو الحياة والتجارب البشرية

١٠. د. طه حسين، الأيام (الجزء الأول)، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط ١، ١٩٩٢، ص ٢٦

فيها. وقد كانت الصراعات أشد وأقوى في أوائل أيامه في الحياة. ولكنها لم تتطور في نفسه كمعضلة أخلاقية، بل دفعته إلى العبثية. فالفكرة المهمة التي تتقدم بها هذه النصوص كلها هي أن الصراع هو الذي يدفع الإنسان إلى قمة المجد والتفوق. وأن طبيعة الانسان تحتاج دائما إلى الصراعات. لأنه – إذا اقتبس قول فدوى طوقان - لا بد من صراع لأن تتجدد الحياة.

عاطفة الحب والرغبة الجنسية

ومن الدوافع البيولوجية الأساسية في حياة الإنسان هي الحب والجنس. فالتعبير عنهما إحدى السمات للسيرة الذاتية الحديثة. أما طه حسين فلم يذكر في 'الأيام' عن تجربته في الحب أو رغبته الجنسية التي يمكن أن تكون في سن المراهقة عند الأشخاص. ولكنه يذكر بعضا من سكان الربع الذي قد سكن فيه حينما كان طالبا في الأزهر، كانوا يصفون عورات النساء واصطلاحات متعلقة بالجنس يستخدمها الأشخاص في كلامهم العادي. رغم أنه ذكر في سيرته عن فتاة فرنسية التي صارت شريكة له فيما بعد، وقد تم الذكر عن تلك العلاقة على أسلوب موضوعي دون الانخراط في الحديث عن علاقتهما العاطفية الرومانسية.

ولكن أحمد أمين كشف عن أوائل حبه^{١١} في أسلوب تقريرى كما يتم التعبيرات الأخرى في سيرته. وذلك أولا كان مع جار له وهو كان الخامسة عشر من عمره، وبعد ذلك أحب في نفسه مُدَرِّسَته الإنجليزية. ولكنها كانت فتاة متزوجة مخلصه مع زوجها. على الرغم من ذلك أنه كان يرغب في الحديث معها حين كانت تلقي الدروس. وكذلك يتحدث عن أفكاره في الزواج والمرأة كما انخرط في الحديث عن زواجه والاختلافات التي كانت بينهما في أيام زواجهما الأولى. وكان التعبير عنه أيضا خاليا من جوانب عاطفية رومانسية.

١١ . أحمد أمين، حياتي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة ص ١٢٦-١٢٨

أما ميخائيل نعيمة فقد استفاد الحديث عن رغبته الجنسية وحبه مع الفتيات^{١٢}. وقد تم التفصيل عنها في الفصل الثاني في الباب الرابع. ومن المدهش هو أنه تعرض أحيانا حتى لرغبته الأرضية على الرغم من أنه يتحدث باستمرار عن الحقائق ما وراء الحواس واللاعقلانية تجاه الأشياء المادية. وقد أورد تجاربه في الحب مع الفتيات في روسيا وأمريكا ورغبته الجنسية معهن بما لا يتجاوز حدود الأخلاقية. وهو يشارك تجربته الأولى في الرغبة الجنسية حينما كان طالبا. وكذلك يتحدث عن معاناته الكثيرة في السيطرة على عاطفته الجنسية في المواقف المختلفة في الحياة.

وفي حين أن 'الخبز الحافي' يكشف عالما إباحيا لكاتبه حيث يفتح في التعبير عن أنشطته الجنسية الإباحية دون أي أقنعة. يتنقل صاحب السيرة من بورديل إلى الآخر ويتمتع مع النساء والفتيات ويصرح بالكلمات الجنسية العارية التي يتحدث بها الأشخاص المنحرفون أخلاقيا في المجتمع. ولا يوجد في الكتاب تعبير عن عاطفة الحب العذري أو مظاهر الرومانسية في العلاقات بين الذكور والإناث.

أما حياة فدوى طوقان فهي كانت مليئة بالبحث عن الحب والحرية. فالحب عندها شيء طبيعي. كانت متعطشة تماما للحصول عليه ممن أشد ارتباطا به عاطفيا خصوصا من أمها. فهي تعترف 'الحب' بجميع معانيه من وجهة فلسفية. فالحب لديها ظاهرة مقدسة^{١٣}، وله مظاهر سحرية دون الفضاحة والعار كما يعتبره الشعب العربي. كانت أولى صدمة التي جعلتها تحت الإقامة الجبرية في البيت هي من أجل الحب. بالنسبة إلى علاقتها الرومانسية مع رجل آخر قد اقتصر الذكر عن صديقها الحميم الذي كانت قضت معه حينما كانت في إنكلترا. ولكنها لم يرد في سيرتها ذكر عن رغبته الأرضية فيما يتعلق بالدافع الجنسي في حياتها.

١٢. وقد جاء الذكر عن حبه في الفصل الثالث من الباب الرابع، ص ٢٦٠-٢٦١

١٣. فدوى طوقان، رحلة جبلية رحلة صعبة، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط٢، ١٩٨٥ ص ١٣٩

الدوافع النفسية

لا ظاهرة كونية إلا بالدافع أو العامل المحرك لها. أما الدوافع التي عسى أن تكون وراء كتابة عن الذات لهؤلاء أصحاب السيرة فلم يظهر أحد منهم صراحة عنها. وليس معنى ذلك أنهم قاموا بتلك العملية دون دافع يذكر، بل تتولد من الحاجة النفسية أو الشعور بالنقص. فهذا الشعور يخلق صراعا داخليا فهو يوجه السلوك لتقليله وبالتالي يسترجع النفس حالة مطمئنة التي ما كان عليه سابقا. أما طه حسين فهو يقول في مقدمة الكتاب "إنما أملهته لأتخلص بإملائه من بعض الهموم الثقيل والخواطر المحزنة التي كثيرا ما تعترني الناس بين حين وحين"^{١٤}. وأنه لم يحدد تلك الهموم الثقيل والخواطر المحزنة ، ولكن النقاد وصفها أنها كانت نتيجة للضجة التي أثارها نشر كتاب 'الشعر الجاهلي'.

بينما ذكر أحمد أمين أنه كان قد اعتاد أن يكتب أهم الأحداث التي حدثت في حياته منذ أن كان في أول عهد شبابه، فيضيف إلى أن تلك الممارسة هي التي كانت أدت إلى تأليفه، يقول ميخائيل نعيمة أن 'سبعون' هو استجابة لفضول القراء الذين يحرصون على أن يعرفوا التربة والأجواء التي نبتت فيها أفكاره. وكذلك لم تقم فدوى طوقان على مصارحة سبب تأليف سيرتها. رغم أنه كانت ولادة 'الخبز الحافي' بدافع الكاتب الأمريكي بول بولز^{١٥}، وكذلك ذكر عن بطل هو 'عبدون فروسو' الذي أيقظ مخيلته وأعانه على تحمل الحرمان والقهر، لكنه لم يذكر شكري عن الدافع الحقيقي وراء تأليفه. وإذا صرح الكتاب دافعهم الحقيقية في تأليف سيرتهم الذاتية أو لم يصرح به، ومما يفترض أنها تتولد من الحاجة أو النقص النفسي الذي قد يخلق في الكتاب قلقا فنيا، وبالتالي سيحفزهم على القيام بعملية الكتابة.

١٤. د. طه حسين، الأيام، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٧

١٥. عبد الكبير المناوي، تقرير عن إعادة إصدار كتاب الخبز الحافي، جريدة الشرق الأوسط، تاريخ النشر ٣ أغسطس ٢٠٢٠، تاريخ

الاسترجاع: ٢٠٢١\٠٨\١٧، رابط على موقع الانترنت: الخبز-الحافي- لمحمد-شكري-لا-تزال-حاضرة-سبقوة»

<https://aawsat.com/home/article/2427791/>

الصدفة

ومما يقال إن حياة الانسان تتأرجح بين الحتمية (Determinism) والاختيار (Choice) وتتفاعل معهما. وحتى الاختيار فهو أيضا يتشكل بالصدفة. وإنما الصدفة فهي التي تحدد غالبا مسار حياة الانسان. قد تكون هذه الصدفة حدثًا واحدًا أو جملة من سلسلة من الأحداث. وتوجد مفاجأة مؤثرة أو الصدفة التي عملت حافزا قويا في إدراك التفوق وبالتالي تحقيق الذات لدى طه حسين على شكل فقدان البصر وما ترتب عليه من الشعور بالعار في بيته^{١٦}، وفدوى طوقان في صورة الإقامة الجبرية^{١٧} في البيت. أما بالنسبة للثلاث الآخرين فلم يتم ذكر صدفة معينة التي حفزتهم إلى أصبحت منعطفة في حياتهم، بل أنها يمكن العثور على سلسلة من الأحداث في البيئة التي ولدوا ونشأوا فيها، وما ترتب عليها من صراعات نفسية، فهي نفسها التي حفزتهم إلى نيل قمة المجد والشهرة في الحياة.

الخاتمة

خلاصة القول، إن النصوص الخمسة المعرّضة للتحليل هنا غاصة بالتعبيرات الذاتية لسارديها. وأنها أقوى بأن تطلق عليها سيرة ذاتية فنية حديثة. فهي تضم العديد من العناصر الاعترافية الأكثر حميمة لسارديها. أما بالنسبة لها فنا قائما على المكاشفة المطلقة والتجرد فإنها بعيد عن ذلك المقياس الذي قام بتحديدده بعض من النقاد الغرب لأن تطلق عليها سيرة ذاتية فنية حديثة. توجد في هذه النصوص عديد من الاعترافات ضمينا أم صريحا. أما النماذج المعرّضة للتحليل في هذا البحث خالية من التعابير الاعترافية الصريحة بمفهومها الحديث إلا 'الخبز الحافي' لمحمد شكري، فهو يمثل اعترافا صريحا فاضحا.

١٦ . طه حسين، الأيام (الجزء الأول)، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٢، ص ٢٦

١٧ . فدوى طوقان، رحلة جبلية رحلة صعبة، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط٢، ١٩٨٥، ص ٥٤-٥٥٦

على أساس تحليل النصوص السابقة، يمكن القول إن الكتاب العرب حتى في العصر الحديث يحتفظون هويتهم المحافظة إلى حد ما. رغم أنها لم تتطور هذه النصوص إلى الانفتاح الكامل في الكشف عن الذات الداخلة دون رقابة أو أقنعة، لكنها غاصة بالتعابير الذاتية العاطفية إلى حد يذكر.

الفصل الثالث

الاعتراف في السيرة الذاتية العربية: تحليل نقدي

المقدمة

قد قام الباحث بتحليل النصوص السير الذاتية العربية من كلي العصر الحديث وما قبله من حيث العناصر الاعترافية المعبرة فيها في الأبواب والفصول السابقة. وكذلك قد تم البيان بالتفصيل عن كل ما يتعلق بظاهرة الاعتراف وحقيقته وتأثيره وضروريته في حياة الانسان وجذوره في الممارسات والطقوس الدينية بأجمعها. وقد تم التوضيح أيضا عن أهمية الصراع في حياة الانسان وما يتبعه من تعبير سردي إبداعي وغير إبداعي، وتوازن القلب الناتج عنه. ثم جاءت بعدها مواضيع السيرة الذاتية في العربية وما يتعلق بها من قضايا واشكاليات حولها بما فيها من ممارسة الحرية في التعبير عن الذات، وطبيعة تمثيل الذات عند كتّاب العرب في العصور المتتالية، والاعتراف الصريح الوارد في مؤلفات السير الذاتية قبل تأسيس السيرة الذاتية نوعا أدبيا مستقلا معترفا في الآداب العالمية وفيما بعده.

فهذا الفصل مخصص تماما لمعالجة بعض القضايا حول الاعتراف في السيرة الذاتية العربية نقديا على أساس النصوص السير الذاتية المعرضة للتحليل في هذا البحث. وقد كشف البحث أن الكتابة عن الذات كانت معروفة لدى الكتّاب العرب بعد القرن الثاني من الهجرة، وتمشت مع نبضات التاريخ حتى أصبحت نوعا متطورا حيث تضاهي بنظرائها من الآداب العالمية الأخرى.

وكما سبق الذكر أن أعمال السيرة الذاتية في العصر ما قبل الحديث تتسم بطبيعتها الموضوعية حيث تتمركز محاورها على أحداث خارجية دون الانخراط في دخائل نفس أصحابها من مواد حميمة. علاوة على ذلك، أن التعبيرات الذاتية أكثر عاطفية لكتّابها كانت غائبة تقريبا تماما، إلا مؤلفات المتصوفين مثل الغزالي حيث تهتم بالتعبير عن صراعاتهم العقلية والروحية. وأما النصوص الخمس المعرضة للتحليل من العصر الحديث في هذا البحث فهي غاصة

بالتعبيرات الذاتية لسارديها. وأنها أقوى بأن تطلق عليها سيرة ذاتية فنية حديثة. فهي تضم العديد من العناصر الاعترافية الأكثر حميمة لسارديها. رغم أنها لم تتطور إلى الانفتاح الكامل في الكشف عن الذات الداخلة والاعتراف الصريح، أنها غاصة بالتعابير الذاتية العاطفية إلى حد يذكر. علاوة على ذلك، أن الكتاب العرب حتى في العصر الحديث يحتفظون هويتهم المحافظة إلى حد ما في التعبير عن ذواتهم.

يتسم كل فترة من الزمن بتقنيات سردية مختلفة باختلاف الوعي بالذات لدى أبنائها، وتحولاتهم في أفكارهم وأساليب حياتهم. بالنسبة إلى المجتمع العربي، قد تحولت تجاربهم السردية في إبداعاتهم إلى حد يذكر في القرون الماضية الأخيرة. أما 'الاعتراف' في الأدب خصوصاً في السيرة الذاتية فهو واحد من الأساليب السردية من هذا القبيل.

يأتي 'الاعتراف' في باب أدب المقموع أو المسكوت عنه، لأنه يتعارض مع أعراف المجتمع ويتصارع دائماً مع تقاليده المحافظة، وكما أنه يعرّي بالذات ويكشف العديد مما يعتقد المجتمع أنه يجب إخفاؤه. ومما يعرف أن الثقافة العربية تحاول دوماً تقديس ساداتها وتفتخر قدوة أبطالها أمثال عنتر، أما من الناحية الدينية فأن الإفصاح ما ستره الله ما في نفوس عباده فهو أمر مذموم وغير مرغوب فيه.

وعلى أساس المناقشة العامة حول السيرة الذاتية والاعتراف في العربية، وتحليل ثمانية من أعمال السيرة الذاتية في كلي العصرين الحديث وما قبله، واستخراج العناصر العامة والمشاركة وكذلك العناصر الاعترافية الواردة في تلك النصوص التي احتوتها هذه الدراسة، يقوم الباحث بتسليط الضوء على بعض القضايا المهمة حولها، التي يمكن أن تساعد على الوصول إلى افتراضيات حول طبيعة تصوير الذات في السير الذاتية العربية على مر العصور، ومحافظةها بالموضوعية إلى حد ملحوظ، وافتقارها إلى الاعتراف الصريح. وقد تم تنظيم هذه القضايا تحت العناوين المهمة، فهي 'تصوير الذات: تفوق الشعر على النثر' و 'الثورة والاستلام' و 'الاعتراف وعلم النفس الإيجابي' و 'الاعتراف والتنفيس'. وفي الختام أدرج الباحث أهم النقاط التي وصل إليها من تحليل النصوص المختارة على وجه العموم.

المبحث الأول: تصوير الذات: تفوق الشعر على النثر

ومن الأمر المقبول بالأعم هو أن الشعر هو أقدم أنواع الأدب في جميع الثقافات في العالم لما أنه يقترب بالوجدان. ولا يزال مطية العواطف ووسيلة التعبير عن الذات. أما بالنسبة إلى الأدب العربي فهو أمر أصدق لأن الشعر كان قد تفوق في جميع التعبيرات الابداعية العاطفية على النثر حتى في العصر الحديث حيث تم الفصل بين الشعر والنثر على شكل صريح. و"كان الشعر ينقل الأفكار في خطاب معلوم منفصل عن النثر... وكان يستخدم للتعبير عن الانفعالات الشعورية العميقة: كالحب والحزن والوحدة والغضب والحنين، وكل هذه الموضوعات كان في الغالب يعبر عنها في الشعر أكثر من النثر".^١ إضافة إلى ذلك أن هذا النوع من الادب كان أكثر قبولاً في الثقافة العربية. "كان الشعر بمثابة رمز مقبول للتعبير عن الأشياء التي إذا تم التعبير عنها بلغة واضحة أو بالأفعال، فقد تكون غير مقبولة ثقافياً".^٢

أما النصوص السير الذاتية في العصر ما قبل الحديث التي أصبحت عرضة للتحليل في هذا البحث فهي تكشف أن الكتاب في تلك العصور قاموا بتفضيل الشعر على النثر في تعبيراتهم العاطفية، وفي حين أن النصوص النثرية تفتقر إلى مثل هذه التعبيرات بالأعم. فالدكتور عبد العزيز شرف يلاحظ أن الشعر في التراث العربي ليس ينعكس مجرد شخصيته التاريخية، بل تتضح فيه جميع تجاربه الذاتية والموضوعية معاً. فهو غني وافر ببذور السيرة الذاتية منطويًا في أعطافه. ولذلك فهو يفي وظيفة السيرة الذاتية، إذ يقول "لا نقصد أن الشعر العربي مجرد حديث عن الشخص أو سرد لتاريخ حياته، وإنما نقصد أنه قد أدى 'الوظيفة' التي تسعى إلى أدائها السيرة الذاتية"^٣

١. ترجمة النفس: سيرة ذاتية في الأدب العربي تحرير دوايت ف. رينولدز، ترجمة: سعيد الغانمي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، ٢٠٠٩، ط ١، ص ١٤٢

٢. المرجع السابق، ص ٢٧.

٣. عبد العزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، مؤسسة الاسراء للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٥١

٤. نفس المرجع، ص ٥١

فإن هذه الوجهة حول الشعر يصوبها الدكتور إيهاب النجدي، قائلاً إن "أدب الاعتراف قليل في السير العربية لكنه ليس معدوماً أو ممنوعاً فضلاً عن أن ديوان الشعر العربي زاخر بألوان من الاعتراف والبوح الصريح"^٥. وأما رينولدز فقد عد الشعر العربي وسيلة بديلة لسرد السيرة الذاتية أو التعبير عن الذات لما فيه من تعبيرات عاطفية ملحوظة. فيمكن الافتراض أن التراث العربي يفضّل التعبير الإبداعي للتجارب البشرية على المكاشفة الفاضحة في الأدب حيث يرفض الانفتاح الكامل في التعبيرات البشرية، بل يلجأ إلى تقنيات بديلة غير مباشرة. فالشعر هو من إحدى تلك التقنيات. ومن الملحوظ أصبح الشعر العربي، ولا يزال وسيلة مهمة لتصوير الذات العاطفية حتى في الخطابات النثرية في الأدب العربي الحديث.

المبحث الثاني: الثورة والاستلام

إن من الجدير بالاهتمام ملاحظة إحسان عباس بعد أن قام بنظرة عامة حول السيرة الذاتية، لاحظ أن الطبيعة الثورية ضعيف في السيرة الذاتية العربية في العصر القديم، بل هي تمتاز بطبيعة الاستسلام حيث يقول "إن تلك الطبيعة الثورية القلقة الجياشة ليست من المميزات الواضحة في السيرة الذاتية في الأدب العربي. فإن طبيعة الاستسلام أغلب على هذا اللون من الأدب حتى عند أصلب شخصياته، وأشدّها تمرساً بالمصائب"^٦. فيأتي مثلاً على ذلك بفاجعة التي حدثت في حياة ابن خلدون، إذ غرق أهله جميعاً في سفينة قادمة من تونس. لما سئل خلدون عن هذه الفاجعة كان جوابه أنه يريد زيارة مكة تعزية عن فقد أهله. وعلى أساس هذه الحادثة يلاحظ إحسان عباس "ومعنى ذلك، أن الاحساس بالصراع الذي يخلق الفن، ضعيف في تلك السيرة الذاتية، وأما الصراع نفسه فحاضر في كل مرحلة من مراحل الحياة"^٧.

٥. إيهاب النجدي، أدب الاعتراف مقارنة في النشأة والتطور، مجلة كلية دار العلوم، جامع القاهرة، ص ٤٩٩.

٦. إحسان عباس، فن السيرة، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ط ١، ١٩٩٦، ص ١١١

٧. المرجع السابق، ص ١١١.

أما تعرية النفس أمام القراء والكشف عن المكونات النفسية والتجرد في التعبير عن الذات فهي تعد من قبل النقاد الغرب الجرأة والثورة ضد النظم الاجتماعية من محظورات ومقيدات، في حين أن الاستسلام ما لدى الكتاب يعتبر جزءاً من الجبن واختفاء من الاستقرار.

فهذه الملاحظة تتطلب مزيداً من التحليل من ناحيتها الفلسفية والنفسية. فالباحث يفترض إمكانية معان فلسفية لهاتين الكلمتين. فهما أبعد عن العقول الواعية الجدلية. فإن كلمة 'الثورة' بمعنى تعرية النفس دون أقنعة أمام القراء هي لن تتمثل الإيقاع الطبيعي في الانسان من جهة، بل إنها يمكن أن تكون رد فعل عاطفي للحالة النفسية المضطهدة أو للبرودة العاطفية السلبية في البيئة الأسرية في الطفولة. وأما الاستسلام فله قيمة نفسية إيجابية أيضاً في معناه الفلسفي. فهو بهذا المعنى يمثل حالة مقتنعة حيث يسمح الفرد للتخلى عما يحدث في حياته ويتقبله كما هو. فيمكن أن تكون لها قيمة ايجابية عندما يتقبل بكل ما لها من جوانب، إيجابية كانت أو سلبية من وجهة نظر ذلك الفرد. ومن الممكن أن تنعكس هذه الوجة في قول النبي صلى الله عليه وسلم حيث يقول "عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له".^٨

أما طبيعة الاستسلام التي توجد عند ابن خلدون وغيره من كتّاب السير الذاتية في العصور القديمة والحديثة يمكن أن تكون متأثرة بتعاليم الإسلام حيث تحث التعرية الكاملة فقط أمام القوة الخارقة. وفي الوقت نفسه أنه من الممكن قد ينبثق الاستسلام من النفوس المخوفة المضطهدة في المراحل المبكرة في الحياة. وقد وجد هذا النوع من الاستسلام في كتب السير الذاتية أمثال طه حسين وأحمد أمين وفدوى طوقان في المواقف المختلفة في سيرتهم.

المبحث الثالث: الاعتراف وعلم النفس الإيجابي

الإمام جلال الدين السيوطي، عالم إسلامي مصري في القرن الخامس عشر الميلادي يذكر في مقدمة كتاب سيرته الذاتية 'التحدث بنعمة الله' عن مقاصده في وضع الكتاب حيث يقول "ما

زالت العلماء يكتبون لأنفسهم تراجم، ولهم في ذلك مقاصد حميدة، منها التحدث بنعمة الله شكرا، ومنها التعريف بأحوالهم ليقتدي بهم فيها وسيتفيدها من لا يعرفها، ويعتمد عليها من أراد ذكرهم في تاريخ أو طبقات.... وقد اقتديت بهم فوضعت هذا الكتاب تحدثا بنعمة الله وشكرا، لا رياء ولا سمعة ولا فخرا^٩. يقوم سعيد الغانمي بتحليل عن طبيعة التعبير عن الذات في الثقافتين العربية والغربية باستشهاد المراجعة المذكورة أعلاه للسيوطي. وذلك كان في مقدمة الترجمة العربية لكتاب بعنوان "ترجمة النفس: السيرة الذاتية في الأدب العربي الذي قام بتحريره دويت رينولدز في اللغة الإنجليزية. وهو يقول "أن الدافع الغربي في كتابة السيرة الذاتية يمكن في أن مؤلف السيرة الذاتية ينصح قراءه بتحاشي السقوط في أخطاء المؤلف. في حين أن الدافع لدى كاتب السيرة الذاتية العربية يمكن في دعوة القارئ إلى اقتداء بسيرته في تبيان نعم الله عليه"^{١٠}. وقد كانت تمت هذه الملاحظة بعد أن حلل طبيعة التعبير عن الذات في الثقافة الغربية والعربية الإسلامية.

ويبدو واضحا أن هناك موقفان متناقضان في كلتي الثقافتين الإسلامية والغربية فيما يتعلق بتعبير عن الذات في السير الذاتية، أن الأول منهما هو تصوير الذات الداخلي وبالعلاقة بالخارج متضمنا فقط الأعمال المحمودة التي حدثت في حياة الكاتب ليستفيد منها القراء وليقتدوا بها في حياتهم. في حين أن الأخير اتخذ نمطا مغايرا لما كانت عليه الثقافة العربية الإسلامية فهو الاعتراف حيث يتم تصوير الذات بكل صراحة دون أقنعة ما.

ويشير سعيد الغانمي أيضا إلى أن كلي الموقفين تتم فيهما -بالنسبة إلى المتلقين أو القراء -وظيفة مهمة هي إما الاقتداء بأفعال محمودة للساد أو الابتعاد عن الأفعال المذمومة التي ارتكب بها الكاتب، إذ يقول "يبرز هذان الدافعان في تقديم حياة المرء - أي كفعل من أفعال الشكر لله ودعوة الآخرين للاقتداء به - في تناقض جلي مع النمط الاعترافي في بعض السير الذاتية الأوروبية في العصور الوسطى وعصور ما قبل الحداثة التي تركز على الاقرار العام الصريح (الاعترافات)

٩. جلال الدين السيوطي، التحدث بنعمة الله، تحقيق: إليزابيث ماري سارتين، المكتبة العربية الحديثة، مصر، ص ٣-٤

١٠. ترجمة النفس: سيرة ذاتية في الأدب العربي/تحرير دوايت ف. رينولدز، ترجمة: سعيد الغانمي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، ٢٠٠٩، ط ١،

بأخطاء المرء وخطاياهم وتقصيراته كتابيا أمام الملأ. يبدو أحد التقليديين مؤطرا بإطلاق الحكم التالي: تلك هي الطرق التي تمتعت فيها بحياة أخلاقية وانتاجية - فقلدني بها، وفي حين أن الآخر يقول: تلك هي الطرق التي قصرت بها وكنت على خطأ- فاحذر من سقطاتها.^{١١}

كانت الفنون والآداب في الثقافة الغربية في العصور الوسطى من أجل نشر القيم الإنسانية التي تتقدم بها الديانة المسيحية. ولكن الأحوال قد تغيرت، بعد أن أصبحت الرومانتيكية^{١٢} حركة قوية في الفن والأدب. وذلك كانت اشتدت رد فعل ضد الثورة الصناعية. فهذه الحركة كانت تهتم بالذاتية أو الفردية وما لها من عاطفة وخيال. وكانت لهذه الحركة علاقة وثيقة بالليبرالية والراديكالية عندما بلغت ذروتها. واهتمت تركيزها على التلقائية والعفوية في التعبير الأدبي دون تقييد ونظام. كما ركزت على فصل الأدب عن الاخلاق والقيم. رغم أن الاعتراف الديني كان سائدا في كلتي الثقافتين الإسلامية والغربية، كما ورد في المنقذ للغزالي والاعترافات للأوغسطينوس على التوالي، في حين أن الاعتراف العلماني الذي يهتم بالمصارحة الفاضحة والمذمومة ظهر أولا في كتاب اعترافات روسو في القرن الثامن عشر. علاوة على ذلك أن هذا الكتاب كان قد اعتبر أول سيرة ذاتية بمفهومها الحديث. ومعنى ذلك أنها وليدة - كما ذكر سابقا - الحركة الرومانتيكية. تأسيسا على هذا الفهم أن ملاحظته عن الاعتراف بالأخطاء والزلات في الثقافة الغربية - وكنت على خطأ، فاحذر من سقطاتها- ليست معقولا تماما.

أما علم النفس الإيجابي^{١٣} فهو إحدى الموجات الحديثة. وهو الدراسة العلمية لما يجعل الحياة تستحق العيش، ويركز على نقاط القوة بدلاً من نقاط الضعف، ويبني الأشياء الجيدة في الحياة بدلاً من إصلاح الأشياء السيئة. فيتم تركيزه على الأحداث والمؤثرات الإيجابية ومنها التجارب الإيجابية مثل السعادة والفرح والالهام والحب، والحالات والصفات الإيجابية مثل الامتنان

١١. المرجع السابق، ص ٨

١٢ . رومانسية (فن)، ويكيبيديا الموسوعة الحرة، راجع على موقع الانترنت: رومانسية _ (فن) / <https://ar.wikipedia.org/wiki/>، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٢\٠٧\١٠، بتصرف

١٣ . ما هو علم النفس الإيجابي ولماذا هو مهم؟، مقال انجليزي على موقع الانترنت: <https://positivepsychology.com/what-is-positive-psychology/>، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٢\٨\٤، بتصرف

والمرونة والرحمة. تأسيساً على هذه النظرية من علم النفس يمكن الفهم أن للاقتناع والشكر والامتنان أهمية في تحديد مجرى حياة الانسان نحو الاتجاه الإيجابي.

وفي الإسلام تم الحث على ستر الذنوب والخطايا والعيوب على الناس كما تم تعزيز الشكر والامتنان. فهناك شتى المراجعات في الأدب الإسلامي في هذا الصدد. يدل كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبي صلعم على هذه الناحية. إذ يقول الله تعالى "وأما بنعمة ربك فحدث"^{١٤}، "لئن شكرتم لأزيدنكم"^{١٥}. وكذلك من أقوال^{١٦} النبي صلعم: "إن الله حييٌ سترٌ يحب الحياء والستر. رواه أبو داود"، "لا يستر عبد عبداً في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة. رواه مسلم"، "ومن ستر مسلماً، ستره الله يوم القيامة. رواه مسلم"، "ان النبي صلى الله عليه وسلم إذا بلغه ما يكرهه لم يقل: ما بال فلان يقول كذا، ولكن يقول: ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا، يُكنى عنه ولا يسمى فاعله) رواه أبو داود". وقال المنذري: "ستر المسلم هو تغطية عيوبه وإخفاء هئاته (زلاته وهفواته وقبائحه)"^{١٧}.

ويمكن تتجلى هذه الحقيقة من أبيات الامام الشافعي رحمه الله^{١٨}:

وإن كثرت العيوب في البرايا وسرك أن يكون لها غطاء

تستر بالرخاء فكل عيب يغطيه -كما قيل -السخاء

فيمكن العثور على مراجعات عدة في هذا القبيل في الآداب الإسلامية.

١٤ . القرآن الكريم، سورة الضحى: الآية ١١

١٥ . القرآن الكريم، سورة إبراهيم: الآية ٧

١٦ . من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، مقال على موقع اسلام ويب، راجع على موقع الانترنت: من-ستر-مسلم-ستره-الله-في-الدنيا-والآخرة/209137, <https://www.islamweb.net/ar/article/209137>, تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٢\٨\٥، بتصرف

١٧ . المرجع السابق، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٢\٨\٥، بتصرف

١٨ . محمد إدريس الشافعي: ديوان الشافعي، تحقيق: الدكتور محمد عبد المنعم الخفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٥، ص

الامتنان ورفاهية الفرد

وقد تم تركيز جميع الأديان تقريبًا وحتى علم النفس الحديث على قوة الامتنان في الحفاظ على حياة جيدة ذات معنى مع الرضا والرفاهية. و" في أبحاث علم النفس الإيجابي، يرتبط الامتنان بمزيد من السعادة بقوة وثبات. ويساعد الناس على الشعور بمشاعر أكثر إيجابية، والاستمتاع بالتجارب الجيدة، وتحسين صحتهم والتعامل مع الشدائد وبناء علاقات قوية"^{١٩} لقد تم إجراء الكثير من الأبحاث للعثور على العلاقة بين الامتنان والرفاهية. أما معظم الدراسات المنشورة حول هذا الموضوع فتدعم وجود ارتباط بين الامتنان ورفاهية الفرد^{٢٠}. أما السيوطي فهو أورد دوافعه الأربعة في وضع كتابه في السيرة الذاتية 'التحدث بنعمة الله' حيث يعد التحدث بنعمة الله وشكرا له هو إحدى الدوافع المهمة في وضع الكتاب. فيمكن الافتراض مما سبق من التفاصيل، أن التعبير عن الأفعال المحمودة التي وقعت في حياة الانسان يكون أكثر فائدة فيما يتعلق برفاهية الفرد والمجتمع مما يعبر عن الاعتراف بالأخطاء والعيوب. ولا بد من الافتراض أيضا أن مثل هذا العنصر يتفاعل عاملا قويا في إبداعات العرب.

المحور الرابع: الاعتراف والتنفيس

إن الاعتراف عملية نبيلة وهو الذي يرفع الانسان إلى قمة المجد والدرجة العليا فوق صعيد الملائكة. وله قيمة انتعاشيه وتطهيرية وتجديدية واصلاحية فيما يتعلق بذات الانسان. وهو يساعد الانسان على وجوده المتناغم حيث يخلق التوازن بين ذاته الحقيقية والمثالية وبين الحقيقة والخيال وبين القول والفعل. أما الارتكاب بالزلات والذنوب، والاحساس بالذنب الذي يليها، فالاعتراف بها وما يترتب عليها من التطهير والتنفيس، كل هذه العمليات مقترنة بفطرة الانسان منذ وجوده على ظهر الأرض. وإلى هذا لعل القرآن يشير في قصة آدم وحوى عليهما السلام "فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه"^{٢١} وعلى الرغم من أنه خلق على فطرة سليمة

١٩. تقديم الشكر يمكن أن يجعلك أكثر سعادة، مقال في الإنجليزية على موقع الانترنت: <https://www.health.harvard.edu/healthbeat/giving-thanks-can-make-you-happier>

٢٠. المرجع السابق، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٢/٨/١٦

٢١. القرآن الكريم، سورة البقرة: ٣٧

خالية من الذنوب والزلات، لديه نزعة فطرية حيث يميل إلى ارتكاب الذنوب والعمل الذي يتعارض على فطرته الطبيعية لما فيه حرية الاختيار.

فصفة الحرية هي التي ترفع الانسان إلى مرتبة عليا من الملائكة. لأن نزعة الخضوع لقوانين الله والعبادة له صفة قهرية لدى الملائكة، وليس في استطاعته أن يخلوا منها، على حين أن الانسان يخضع لقوانينه طوعا ويعبد الله بمحض إرادته إياه. فتكريمه تعالى لبني الانسان هو بسبب هذه الصفة الموهوبة هي الحرية، و"تنزل الإنسان عن حرته يعني تنزلاً عن صفة الإنسان فيه، وتنزلاً عن الحقوق الإنسانية، وعن واجباتها أيضاً"^{٢٢}. فعلى الانسان أن يعبر عما في نفسه - خلافاً عن الكائنات الحية الأخرى - طوعاً وبتدفق طبيعي للوصول إلى حالة متناغمة طبيعية. فصفة الحرية هي التي تساعد على انجازه إياه.

الغاية من الاعتراف

كل مولود يولد على فطرته السليمة التي ينطوي فيها جميع الصفات الايجابية المحمودة مثل الشجاعة والسعادة والحب والثقة بالنفس والصدق والاخلاص والانتباه والتركيز والكفاءة الذاتية وغيرها. فتتشكل موقفه من الحياة - ايجابية كانت أو سلبية - نتيجة عن العملية العقلية على أساس المعلومات التي تلقها من خلال حواسه الخمس. تمتاز الطفولة بشدة التقبلية والحرص على الملاحظة. وبه يتمكن له التقمص ما يثير حواسه الخمس من المحفزات من بيئته فيتعامل معها حتى استقر في نفسه موقفاً وتمثيلاً داخلياً منها. وإذا كانت الحادثة أكثر ملحا من الناحية العاطفية ومؤملاً له، فمن الطبيعي أن تلجأ إلى العقل اللاواعي وتصبح مواد مكبوتة، بحيث تحتاج إلى الاعتراف والتهوية.

أما الغاية من الاعتراف فهي التنفيس الوجداني. فهي التي تحدث حين يسرد الكاتب تجاربه للقراء. يقول إحسان عباس، إن "الغاية الأولى التي تحققها السيرة الذاتية هي الغاية المزدوجة التي يؤديها كل عمل فني صحيح، أعني تخفيف العبء على الكاتب بنقل التجربة إلى الآخرين،

٢٢. جان جاك روسو، العقد الاجتماعي، ترجمة: عادل زعيتر، مؤسسة الهداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٣، ص ٣٢

ودعوتهم الى المشاركة فيها، فهي متنفس طلق للفنان^{٢٣}. ومن المستقر أن إطلاق التنفيس العاطفي للمشاعر المكبوتة يساعد على تطوير التكيف الطبيعي الجيد للبيئة، وبالتالي يسمح باستعادة التوازن الجسدي والعقلي نتيجة لذلك يمكن للشخص أن يحكم على نفسه بطريقة أكثر واقعية.

طرق التنفيس في الأدب

كل حركة - واعيا أو غير واعيا - تنبثق من الانسان تعبير يساعده على تمثيل ذاته إياها ووجوده الفذ بين أبناء الأرض الأخرى. ولا حياة للإنسان بدون هذه الحركة. لأن كل حركة أو تعبير نوع من التنفيس لما فيه من مواد مكبوتة التي تحتاج إلى التهوية. فجميع المناسبات والتقاليد والتجليات الأدبية والفنية التي تترأى في الثقافات القديمة البدائية والحديثة المتطورة، تمثل مظهرا من مظاهر هذه الوجهة التنفسية. ويقوم الانسان بالتعبير عنها على شكل صريح الذي يكون مقبولا لدى المجتمع الذي يعيش فيه، أو على صورة ضمنية على أنها قد تكون محظورة ثقافيا. ويمكن تتجلى هاتان الصورتان في حياة الانسان وإبداعاته الأدبية والفنية. فالأدب - كما ذكر سابقا - نوع من التعبير البشري الذي يعمل أداة فعالة للتهوية والتنفيس الوجداني. وفي الأدب يقوم السارد بتأديتها مباشرة كما توجد في السير الذاتية التي يسرد فيها الكاتب تجاربه مصرحا من خلال صيغة المتكلم على أنها سرد حقيقي من حياته إياه. وعلى حين قد يؤديها غير مباشر من خلال أشكال أخرى من الأدب مثل الرواية والشعر. وذلك قد يكون عدم تجربته لديه مكاشفتها أو صراحتها بأسباب ثقافية اجتماعية أو إدراكه إياه عن أبعادها السلبية فيما يتعلق بمطابقة مجتمعية.

أما الأديب فهو يقوم بتأدية تجاربه الحميمة أدبيا في إحدى الصورتين. "فإنه من بعض صورته قسمة تختص بالأديب أو الفنان، لأن الأنا حاضرة لديه مقنعة أو مكشوفة، وهي تقتنع وراء شخصيات المسرحية والقصة، لأن صاحبها يجب أن يخلق المرايا المجلوة وينظر إلى نفسه فيها،

٢٣. إحسان عباس، فن السيرة، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ط ١، ١٩٩٦، ص ٩٩

وهي مكشوفة إذا كان يترجم لذاته، ويتحدث عن سيرة حياته^{٢٤}. فشخصية الكاتب في هذه السرديات إما أن تكون مكشوفة لمتلقيها أو مقنعة وراء الشخصيات في الإبداعات الأدبية دون المعرفة لدى القراء أن القصة المسرودة هي قصته الحقيقية.

وبالنسبة إلى الثقافة العربية الإسلامية تبدو معوقات للكشف عن كل ما يصادف في ضميره تلقائياً دون إخضاعها للتحليل تأثيره السلبي الذي قد يفسد النسيج الاجتماعي. و"في ظل هذه المعوّقات التي حالت دون ظهور اعترافات عربيّة مُقارنة بما كتب في الغرب هناك من ذهب إلى بديل يستطيع من خلاله أن يُمرّر الكاتب ما يؤدُّ قوله دون أن يصطدم مع السلطات الرادعة، والحل يتمثل في تقنية القناع على نحو ما ذهب محمد آيت ميهوب حيث اعتبر القناع 'سبيلاً إلى البوح' وهو ما يتوافق مع ما طرحته العسال من كون الاعترافات تمرّر عبر صيغتين الرواية والسيرة الذاتية"^{٢٥}

فيمكن الافتراض بأن الكتاب العرب حاولوا التغلب على هذه الازمة العاطفية التي نتجت عن الحقيقة الاجتماعية التي يعيش فيها والمصادقية الأيديولوجية التي بنيت عليها فلسفة حياته بطرق لا يضر فيها التفكير بالذنب والبوح به بالنسيج الاجتماعي على الإطلاق، إما كما فعل الدكتور طه حسين في كتابه 'الأيام' حيث يظهر البطل فيه بضمير الغائب أو كما يظهر في روايات السيرة الذاتية الغنية في الأدب العربي يمتزج فيها عناصر القصة والسيرة الذاتية معاً. ومن أمثلة هذا النوع من الأدب يوجد بكثرة في الأدب العربي الحديث "بدءاً من 'زينب' لهيكل، و'إبراهيم الكاتب' للمازني، وأديب لطف حسين و'عصفور من الشرق' و'يوميات نائب في الأرياف' للحكيم و'سارة' للعقاد، ولا ينتهي التجاور أو المزج عند رواية 'الحي اللاتيني' لسهيل إدريس، أو 'البحث عن وليد مسعود' لجبرا إبراهيم جبرا، أو 'تراجمها زعفران' لإدوارد الخراط، أو 'تلك الرائعة' لصنع الله إبراهيم، أو 'الخبز الحافي' لمحمد شكري، أو 'الحب في المنفى' لمياء طاهر، أو

٢٤. المرجع السابق، ص ٩١

٢٥. ممدوح فراج النابي، الاعتراف ممنوع حتى إشعار آخر، الجديد، ١-٣-٢٠١٩، راجع على موقع الانترنت: الاعتراف-ممنوع-حتى-إشعار-آخر،

https://aljadedmagazine.com, تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢٢/١٦/٢٥

'الخلسات الكرى' لجمال الغيطاني".^{٢٦} . فالجدير بالملاحظة بأن هذه النزعة لم تكن مقتصرة على الأدب العربي، بل يمكن رؤية هذه الاتجاهات بكثرة في جميع الآداب العالمية الأخرى.

فالكتابة عن الذات والتعبير عنها - مهما كانت أشكالها - هي عملية في الاكتشاف عن الذات، وهذا هو الغاية النهائية للحياة البشرية عند الأديان والمذاهب أيضا. "أما حين يكتب هو عن نفسه فإنه يفتح الأبواب جميعا على مصاريعها. بعبارة أخرى حين يكشف الإنسان عن ذاته فإنه يكشف عن هذا الذات"^{٢٧}

الاعتراف النبيل

الاعتراف كما سبق الذكر عنه تفصيلا هو عملية لازمة على الفرد أداءه في حياته لجعل تسوية إيقاع الحياة المتناغم. ومن خلال أدائه تتمكن استعادة التوازن من حالة الصراع والاضطرابات. فهناك طريقتان مهمتان للاعتراف. فالأولى منهما الاعتراف في الأدب، والآخر الاعتراف أمام القوة الخارقة. أما الحالة الأولى فالمعترف يقوم بالمصارحة ومشاركة تجارب حياته الواقعية مع القراء، حيث يحدث التعاطف الوجداني في السارد والقراء معا، -دون اعتبار الأضرار التي قد يمكن أن تصيب المجتمع برمتها من جانب ترقيته الأخلاقي- ولو كانت مباشرة من خلال السيرة الذاتية أم غير مباشر من خلال الأنواع الأدبية الأخرى مثل الرواية. وفي الحالة الأخيرة، الاعتراف الذي يقام به أمام القوة الإلهية التي يعتقد بأنها الوحيدة يتمكن الانطلاق من الحالة النفسية المعقدة والحل المناسب لها. إذا تناول التفكير في هذا المنحى يمكن القول رغم أنه سيحدث التنفيس في كلتي الحالتين، أن الأخير هو الاعتراف النبيل. لأن النمط الأول من الاعتراف يحقق التنفيس فيه بدوام مؤقت، وعلى حين أن النمط الأخير يفي بالتنفيس فيه بصورة أبدية.

جملة القول، يمكن الافتراض أن هناك عنصرين رئيسيين يؤثران على تعبير المجتمع العربي عن ذواتهم. أحدهما هو الذي يمكن أن يكون موروثا في ذلك المجتمع باعتباره أصل الديانات

٢٦. د. إيهاب النجدي، أدب الاعتراف: مقارنة في النشأة والتطور، مجلة كلية دار العلوم، جامع القاهرة، ص ٥٠٢.
٢٧. سميح القاسم في مقدمة رحلة جبلية رحلة صعبة لعدوى طوقان، دار الشروق للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٩٨٥، ص ٦

السامية. أما الثاني منهما فهو تأثير الأيديولوجية الإسلامية. فالتعريف والاعتراف الفاضح في الديانات السامية عامة والثقافة الإسلامية خاصة غير مرغوب فيه. وفي الوقت نفسه أن الاعتراف أمر ضروري للإنسان، وفي هذه الحالة يمكن الافتراض أن الكتاب العرب قد أوردوا مثل هذه التعبيرات بطريقتين، إحداهما بشكل غير مباشر من خلال الإبداعات الأدبية أخرى مثل الشعر أو الرواية أو ما يماثلها من أنواع أدبية السائدة في فترة معينة، أو من الممكن أن تكون مثل هذه التعبيرات العاطفية الأكثر حميمة موجهة إلى الله دون الكشف عنها أمام القراء.

الموضوعية والذاتية

كل كتابة إبداعية تصور حالات النفس الانسانية المتباينة باستخدام خيالات الكاتب الواسعة الموهوبة. فالفنون الأدبية الحديثة مثل الرواية والقصة والسيرة الذاتية ثرية بهذه التعبيرات البشرية في مناحيها المختلفة. وفي العصور السالفة كان قد اقتصر التعبير عن الذات الإبداعي على الأنواع الأدبية السائدة في تلك الفترات مثل الأشعار وبعض من القصص. حقيقة، أن هذه الإبداعات كلها ذاتية طبيعتها.

يمكن الملاحظة، أن كتاب السيرة الذاتية من العصر ما قبل الحديث التي تم اعراضها للتحليل في هذه الدراسة، يحتفظون بالموضوعية في كتاباتهم الذاتية تقريبا تماما، إلا كتاب المنقذ من الضلال للغزالي، بما أنه يمتاز بغيره نوعا من الاعتراف الديني. وفي حين رغم أن النصوص السير الذاتية الحديثة ثرية بتعابير عاطفية أكثر، فإنها أيضا لا تخلو من الموضوعية تماما.

الخاتمة

جملة القول، إن هذا البحث حول الاعتراف في السيرة الذاتية يلمح إلى إشارات إلى أن الكتابة عن الذات كانت قد مارسها العرب بعد أن شاعت الكتابة ممارسة مقبولة من خلال النصوص النثرية. وذلك بعد أن تم تأسيس فن السيرة والتاريخ نوعا من أنواع الأدب في التراث العربي في السنة الثانية للهجرة فصاعدا حسب مقتضيات السياق. واعتمد الكتاب قبل ذلك على الشعر وسيلة معتمدة التي من خلاله تم التصوير عن ذواتهم. ثم تطور هذا الفن تطورا تدريجيا

ملحوظا عبر العصور حتى صار فنا متطورا مضاهيا بنظيره في الآداب الغربية. وإنه يفترض قد بدأوا يكتبونها منذ القرن التاسع للميلادي إما ملحقة في تأليفاتهم أو نصوصا مستغنية بذاتها.

أما قبل نشر 'الأيام' سيرة ذاتية فنية بمفهومها الحديث، فكان الكتاب لا يزال يكتبون عن ذواتهم في أنماط مختلفة وفقا للتقاليد القائمة في تمثيل الذات الأدبي في كل عصر من العصور. ومما يتضح من تحليل النماذج السيرة الذاتية المختارة الذي قام به الباحث في الأبواب والفصول السابقة، أن الكتابة من هذا القبيل في العصور الماضية كانت أكثر احتفاظا على الموضوعية من اهتمامهم على الذاتية. وذلك يمكن لأسباب عدة من ثقافية ودينية وما إلى ذلك.

فهنا يفترض أنهم كانوا يعترفون ما فهم من مواد داخلية مكبوتة من خلال وسائل أخرى غير أدبية. وذلك يمكن أن تكون أمام الخالق أو من خلال تعبيرات فردية أخرى، لأن المواد المكبوتة لازم تهويتها وتنفيذها عبر أي وسيلة من الوسائل للحفاظ على التوازن. ويمكن أيضا الملاحظة وحتى أن السيرة الذاتية الموضوعية أو الذهنية في العصور القديمة متضمنة الأشعار للشعراء الآخرين وكذلك من عند أنفسهم. علاوة على ذلك يمكن العثور عليها أنها تنعكس عواطفهم وصراعاتهم.

وفي حين أن النصوص السيرة الذاتية الحديثة تمتاز بما فيها من تعبيرات عاطفية وعناصر اعترافية وفرة بغض النظر إلى نص عن الآخر. ولكن كل نص من النصوص يختلف عن غيره من تصوير الذات وتعبير عنها من حيث مستوى التجرد والمكاشفة. وذلك ما في شخصية صاحبها من فروق فردية التي هي نتيجة عن البيئة التي تشكلت منها شخصيته. فيمكن الملاحظة أيضا أن تأثير الثقافة حتى في السيرة الذاتية في العصر الحديث أكثر وأشد، بما أنها لا تجتاز الحدود الأخلاقية في التعبير عن ذواتهم.

خاتمة البحث

قد تمت بعون الله ونعمه هذه الأطروحة بعنوان 'العناصر الاعترافية في أعمال السيرة الذاتية في العربية: تحليل نقدي حول النصوص المختارة'. قد بذل الباحث جهودا قدر المستطاع للوصول إلى نتائج البحث المنشودة معتمدا على المصادر الأولية والثانوية المتاحة له. وهذا البحث عبارة عن خمسة أبواب وثمانية عشر فصلا الذي تم فيه تحليل ثمانية نماذج من مجموعة مؤلفات السيرة الذاتية العربية قديما وحديثا، كما ركز النقاش الذي جرى في عدة مباحث على فكرة رئيسية فيما يخص إشكالية البحث.

أما الباب الأول بعنوان 'السيرة الذاتية والاعتراف في التراث العربي' فهو يضم أربعة فصول. قد وضع الباحث هذا الباب مقدمة لموضوع البحث المقترح. وقد عالج الفصل الأول منه المعنون ب'السيرة الذاتية في الأدب العربي' ماهية السيرة الذاتية لغة واصطلاحا، وكذلك مفهومها ومقاييسها عند الغرب وممارستها في التراث العربي قبل أن تم تأسيسها جنسا مستقلا وبعده. ووصف الباحث أيضا بأنواعها وأصناف القريبة منها وقضايا المتعلقة بها. والفصل الثاني تحت عنوان 'الاعتراف والسيرة الذاتية' تناول مفهوم الاعتراف وجذوره في الديانات والأدب، والاعتراف في السيرة الذاتية، والاعتراف في العربية، وكذلك أهميته في حياة الانسان وفوائده النفسية وما إلى ذلك.

أما الفصل الثالث عنوانه 'الكتابة عن الذات والاعتراف في العربية عبر العصور' فهو وصف موجز لما أنه كيف قام العرب بالتعبير عن ذواتهم في العصور المختلفة شعرا ونثرا. وقد تم التفصيل عن طبيعة تمثيل الذات الذي تبناها كتّاب العرب في العصور المختلفة حسب مقتضيات السياقات الثقافية والأصول الأيديولوجية. وقد ضمّن فيه الباحث أيضا الأنماط النثرية المبكرة للسيرة الذاتية وحوافز الكتّاب في تأليفها وطبيعة السيرة الذاتية في العصر الحديث المبكر واللاحق وكذلك أهم المؤلفات من هذا القبيل في تلك العصور. وقد سلّط هذا الفصل أيضا الأضواء على ومضات الاعتراف الصريح في العربية في الكتابات ما قبل الحديث،

وطبيعته في السيرة الذاتية الحديثة. فالفصل الرابع الأخير، بعنوان 'قضايا في السيرة الذاتية والاعتراف' ناقش فيه الباحث قضايا مختلفة فيما يتعلق بهما في أربعة مباحث.

فالباب الثاني المسمى بـ 'الأدب والتعبير عن الذات والثقافة العربية' أيضا ألقى الضوء على ماهية مشكلة البحث المقصود. ينقسم هذا الباب إلى ثلاثة فصول. أما الفصل الأول منه بعنوان 'الحياة والتعبير عن الذات' فبين فيه الباحث عن أهمية التعبير عن الذات والسرد في الحياة ومناحيه المختلفة من أجل إقامة التوازن في الأفراد. والفصل الثاني المعنون 'بالأدب ووظيفته الاعترافية' اقترب الباحث من الأدب كوسيلة لتطهير النفس. كما ذكر بالتفصيل عن ماهية العاطفة وطبيعتها العالمية، وظاهرة 'الحرية المطلقة' وعواقبها الأخلاقية. وأما الفصل الأخير تحت عنوان 'الثقافة العربية وطبيعتها السردية' مخصص بطبيعة أنماط التعبير عن الذات والسرد عنها في العصر الجاهلي والإسلامي وما بعده من عصور، وكذلك العوامل المؤثرة في التعبير عن الذات.

وفي الباب الثالث الموسوم بـ 'تحليل النصوص في العصر ما قبل الحديث: منظور اعترافي' قام الباحث بتحليل نماذج السيرة الذاتية الثلاثة في العصر ما قبل الحديث في منظور اعترافي. فتناول الفصل الأول كتاب 'المنقذ من الضلال' للغزالي والفصل الثاني كتاب 'التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا' لابن خلدون، والفصل الثالث كتاب 'التحدث بنعمة الله' لجلال الدين السيوطي. وقد نوقشت فيه ملامح متفردة التي يتميز بها كل نص، بالإضافة إلى تصوير الذات والاعتراف المعبرة في تلك النصوص.

وأما الباب الرابع تحت عنوان 'تحليل النصوص في العصر الحديث: منظور اعترافي' فقد قام الباحث فيه بالدراسة التحليلية لخمسة نصوص في العصر الحديث من حيث منظور اعترافي في خمسة فصول. فهي 'الأيام' لطفة حسين، و'حياتي' لأحمد أمين، و'سبعون' لميخائيل نعيمة و'الخبز الحافي' لمحمد شكري، و'رحلة جبلية رحلة صعبة' لهدوى طوقان. وقد احتوت هذه الفصول تحليلا للنصوص المختارة من حيث قيمتها الأدبية والتاريخية وبيان موجز لما تم تصوير ذوات كتابها، والعناصر الاعترافية المنعكسة فيها على التوالي.

أما الباب الأخير تحت عنوان 'العناصر الاعترافية في السيرة الذاتية العربية: تحليل نقدي' فقد تم تنظيمه في ثلاثة فصول حيث احتوى على دراسة تحليلية النقدية بالعناصر الاعترافية في النصوص المختارة. فالفصل الأول المعنون ب'العناصر المشتركة والاعتراف في النصوص في العصر ما قبل الحديث' تناول العناصر المشتركة المعبرة والاعتراف في النصوص ما قبل الحديث التي تم التحليل عنها في الباب الثالث. وفي حين أن الفصل الثاني تحت عنوان 'العناصر المشتركة والاعتراف في النصوص في العصر الحديث' هو وصف موجز عن العناصر المشتركة والاعتراف في النصوص المختارة من العصر الحديث التي تم التحليل عنها في الباب الرابع. أما الفصل الأخير فهو بعنوان 'الاعتراف في السيرة الذاتية العربية: تحليل نقدي'، فقد ناقش فيه الباحث بعض الجوانب السيكولوجية والفلسفية والثقافية فيما يتعلق بغياب التعابير الجياشة الاعترافية إلى حد يذكر في السير الذاتية العربية في منظور نقدي.

فقد حاول الباحث إمكانياته العقلية والتحليلية قدر المستطاع معتمدا على النظريات العلمية المثبتة والمصادر المتاحة له للوصول إلى نتائج بحثية منصوطة في هذا البحث. أما الأخطاء والنقصان عسى أن تحدث في الآراء والافتراضيات فيها فهي فقط مغالطة منطقية غير مقصودة من عند الباحث نفسه، وفي حين أن الافتراضيات المرغوبة فيها فهي بفضل الله الخالق المنان.

أهم نتائج البحث

بناء على ما تم القيام بتحليل النصوص المختارة والمناقشة حولها يمكن تلخيص أهم نتائج البحث التي توصل إليها الباحث على النحو التالي:

- يكشف البحث على أن الكتابة عن الذات كانت ممارسة متبعة في التراث العربي على النمط السائد في تمثيل الذات الأدبي في تلك العصور قبل أن تم تأسيسها جنسا أدبيا على هذا الاسم المعين. واهتمت بالاحتفاظ على الموضوعية واعتبرت بالسيرة الذاتية

الذهنية أو الفكرية. أما بعد نشر كتاب 'الأيام' في القرن العشرين فقد أصبحت السيرة الذاتية جنسا أدبيا متطورا حيث أثري بالتعبير العاطفي عن الذات بوفرة.

■ يؤكد البحث على أن الاعتراف عملية ضرورية نبيلة على أنه صفة متأصلة في الفطرة البشرية لاستعادة التوازن الداخلي لدى الأفراد. وهو في الأدب كان موجودا في التراث العربي اعترافا دينيا، أما الاعتراف العلماني في السيرة الذاتية فهو حديث النشأة في الأدب الغربي الحديث، ولكن ومضاته كانت موجودة في بعض كتابات السير الذاتية في التراث العربي القديم مثل سيرة ابن سينا و' طوق الحمامة' لابن حزم.

■ يشير هذا البحث إلى أن الكتاب العرب من خلال الكتابة عن ذواتهم - إما هي موضوعية كانت أم ذاتية - يسعون دائما إلى تفوقهم الذاتي وبالتالي الوصول إلى تحقيق الذات. أما بالنسبة إلى القراء - في الحالة الأولى - فلا يستفاد إلا معرفة بعض الاحداث الخارجية عن الكاتب، لا غير. وفي حين أن في الحالة الأخيرة يحدث التعاطف الوجداني لدى القراء بالمرور بالتجارب العاطفية المعبرة الحميمة للساد.

■ يسلط هذا البحث على ضرورة التعبير عن الذات والسرد عنها في حياة الإنسان، فهو محتاج إلى أدائها على شكل طبيعي لتحقيق الاستقرار والتوازن جسديا ونفسيا وروحيا. كل الاحتياجات تخلق الصراعات، والصراعات تتطلب التعبير. فهو ضروري لأن تتجدد الحياة. كل حركة يقوم بها الفرد هو تعبير. والتعبير يتنوع ويتعدد شكلا وطبيعة. أما التعبير السردى فهو أحد الأشكال القوية وهو أيضا عملية مستمرة الذي يقوم به الفرد في حياته العادية في سنه المبكر عندما يبدأ فيه اكتساب الكفاءة اللغوية.

■ كل نص من النصوص المعرّضة للتحليل في هذه الدراسة فهو يتفرد عن غيره من حيث التعبير عن الذات وطبيعته. فهذا هو أوضح دليل على أن هناك العديد من العوامل المؤثرة في التعبير عن الذات. منها بيئة ثقافية -اجتماعية، والايديولوجيات والديانات، وبيئة سيكولوجية، والفروق الفردية، وطبيعة المجتمع الجماعية والفردية.

■ يؤكد البحث على أنه كلما يختلف مجرى ثقافة الأمة البشرية ومسيرتها، تختلف أنماط التعبير والسرد لديها. لذلك ومن المستحيل عزل المنتجات الأدبية عن سياقاتها

التاريخية، هذه الاختلافات جليّة في التعابير الذاتية في كلتي الثقافة الجاهلية والإسلامية.

■ إن السيرة الذاتية نوع أدبي غير قصصي، فهي نتاج ثقافي. كل ثقافة معقدة بما تحويه من عناصر ضمنية وصريحة. فهذا البحث يؤكد على أن السيرة الذاتية بمفهومها الحديث فهو خلق سياق مميّز حيث غلبت الرومانسية المهتمة بالفردية والعاطفة، على الأدب والحياة. فلذلك، من غير المعقول أن تطبق مقاييس الحديثة لجميع الكتابات من هذا النوع من السياقات الثقافية المختلفة المسبّقة. وفي الوقت نفسه يجب أن تكون لها جوانب ذاتية محمّلة بالعواطف لما أنما الحياة بالعواطف.

■ يكشف البحث على أن أعمال السيرة الذاتية العربية في العصر ما قبل الحديث متضمنة بالعناصر الذاتية بدرجات متفاوتة على حسب الاختلافات التاريخية والثقافية والفردية. فهي ثرية بمجموعة واسعة من المواضيع، فيما يتعلق بتفاصيل ذاتية أكثر خارجية، وتعبير عن علاقات شخصية، أو اضطرابات سياسية، أو صراعات اجتماعية، أو تجارب دينية، أو إنجازات علمية والرحلات أو النمو والتحول في الشخصية. ومن خلال مشاركة هذه التفاصيل الحميمة، يهدف السارد إلى خلق اتصال أعمق مع القارئ، مما يسمح له بفهم دوافع المؤلف وتحدياته وانتصاراته.

■ أما بالنسبة للاعتراف في نصوص السير الذاتية العربية في العصر ما قبل الحديث، أنها خالية من مثل تلك التعبيرات العاطفية الجياشة مع الأخذ في الاعتبار أن هذا النوع من التعبير لم يكن من خصوصيات تلك العصور. علاوة على ذلك أن الكتاب في التراث العربي الإسلامي كانوا يكتبون عن أنفسهم لمقاصد حميدة، وكان ذلك تحدثاً بنعمة الله وشكراً عليها.

■ أما النصوص السير الذاتية الحديثة المختارة في هذا البحث فهي تتضمن تفاصيل ذاتية خاصة جداً لسارديها التي يمكن ادراجها في عداد الاعتراف، بما في ذلك دوافع الحب والتجارب الجنسية، وإدمان للشيء، والمعاناة النفسية والمرض، أو مواد نفسية أخرى أكثر حميمة، صريحاً أو ضمناً حيث لا تجتر الحدود الأخلاقية.

- يرسم البحث صورة جلية بأنّ نماذج السيرة الذاتية الحديثة غنية بالتعبيرات العاطفية لساردتها، بما يضاها مع نظيرها في الآداب الغربية، وحتى الاعتراف وارد فيها في شكل إبداعي. ولكنها تبتعد عن الاعتراف الفاضح إلا 'الخبز الحافي' لمحمد شكري، فهو دلالة فقط على الاستثناء لا على التعميم. أما مؤلفات السير الذاتية ما قبل الحديث فهي تفتقر إلى تعبير العواطف الجياشة مباشرة، مع الافتراض أن أصحابها اتخذوا وسائل أخرى للتعبير عنها.
- لقد كان الشعر مطية للتعبير العاطفي في التراث العربي، وحتى بعد أن تمت التفرقة بين النثر والشعر في العصر الحديث. فالنصوص المختارة من العصر ما قبل الحديث تؤكد على انه قد تم التفضيل لدى كتابها للتعبير عن انفعالاتهم الشعورية العميقة في الغالب من خلال الأشعار، إلا 'المنقذ من الضلال' للغزالي، فإنه غني بالاعتراف الديني. أما التعبير العاطفي عن طريق النثر فلم يكن يتطور إلا في العصر الحديث.
- إن الاستلام والتمرد ليسا من الأنماط الطبيعية للتعبيرات البشرية، وأنه من الممكن أن تكون رد فعل للتجارب العاطفية السلبية في مرحلة مبكرة في الحياة. وفي الوقت نفسه، أن للاستلام جوانب فلسفية أيضا.
- يكشف هذا البحث تأثير الثقافة الإسلامية العربية في التعبير عن الذات في السيرة الذاتية حيث يُفضّل أصحابها تعبير ما حدث في حياتهم من تجارب محمودة إفصاحها بدلا من إفشاء الذنوب والخطايا التي ارتكبوها. يتجلى هذا الجانب صريحا في النصوص من الفترة ما قبل الحديث التي خضعت للتحليل في هذا البحث، كما ينعكس ضمنا في النصوص المعرضة للتحليل من العصر الحديث، إلا 'الخبز الحافي' لمحمد شكري، فهو يخرج عن هذه الدائرة على نحو كامل، وكتاب 'سبعون' لميخائيل نعيمة يخلو منه بشكل يذكر. أما الدراسات في علم النفس الإيجابي فتؤكد على أن للحديث عن النعم والشكر والامتنان عليها أهمية كبرى في تحديد مجرى حياة الانسان نحو الاتجاه الإيجابي.

- الاعتراف هو عملية نبيلة الذي يقوم به الفرد في حياته العادية وفي الأدب أيضا كشكل للتعبير السردي الإبداعي. وللإعتراف قيمة تطهيرية وتنقيسية. الغاية منه تخفيف عبء الشعور بالذنب، والتخلص من المواد النفسية المكبوتة التي يستعصي الكشف عنها حتى لأصدقائه. ومن خلاله يصل الفرد حالة فطرية خالصة. فالدعاء في الأديان هو أنبل أشكال الاعتراف وأقواها.
- إن الأدب بجميع فنونه إحدى الوسائل الإبداعية لتطهير أعباء النفس كالدعاء. فهو يفي وظيفة التنفيس كما يحقق بها الدعاء. بينما الاعتراف في الأدب ميثاق بين السارد والمتلقي، فهو في الدعاء بين المعترف والخالق، أما الحالة الأخيرة، فيمكن أن تفي وظيفة التطهير أقوى وأشد.
- ينبغي أن تسرد الأحداث في حياة الانسان أو الاعتراف بها، وخاصة الأحداث ذات المنحى العاطفية الشديدة، بأي شكل من الأشكال للحفاظ على توازن الحياة. أما افتقار أدب السيرة الذاتية إلى 'الاعتراف' في الثقافة العربية الإسلامية إلى حد ما، فلا يعني به أن الكتّاب العرب الذين هم أكثر ميلا إلى التدين أو متأثرين بمثل تلك البيئة الثقافية، لا يعترفون بدخائل ذواتهم الأكثر حميمة، بل يمكن أن يفترض أنهم يفعلون ذلك بطرق بديلة مباشرة أو غير مباشرة، إما من خلال الابداعات الأدبية الأخرى مثل الشعر أو الرواية على ألسنة شخصياتها أو ما يماثلها من الأنواع الأدبية السائدة في فترة زمنية معينة، أو من الممكن أن يتم ذلك موجّها إلى الله تعالى اعترافا نبيلاً دون الكشف عنها للقراء.

الاقتراحات والتوصيات

يريد الباحث أن يتقدم بالتوصيات التالية لمن يرغب في مبادرة البحث في الموضوع:

- وقد تناول الباحث في هذه الدراسة فقط العناصر الاعترافية في السيرة الذاتية العربية حتى نهاية القرن العشرين، خلال تلك الفترة وفي أوائل القرن الحادي والعشرين ظهر العديد من الأعمال في هذا القبيل، والباب مفتوح أمام الباحثين للقيام بدراسة مستفيضة من تعدد المنظورات في هذا الصدد.
- إن العصر الراهن يتميز بالمكاشفة في التعبير، حيث خيالات الفرد الذاتية غالباً تتغلب على الواقع الاجتماعي، ومن هذا المنطلق، إن الصدق الخالص في اعتراف النصوص الحديثة يمكن أن يكون معرضاً للتحليل.
- تتزايد مؤخراً مكاشفة النساء عن ذواتهن من خلال إبداعاتهن باللغة العربية. ويمكن أيضاً دراسة أمثال هذه المؤلفات من الطبقة المهمّشة في المجتمع بشكل خاص.
- ويمكن أيضاً التركيز على مزيد من الدراسة عن الكتاب الذين يعبرون عن أنفسهم مقنّعة ذواتهم من خلال الروايات أو مكشفة عنها في السير الذاتية الروائية، فهي موجودة بوفرة في الأدب العربي الحديث.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر والمراجع في العربية

١. إبراهيم أنيس، عبد الحلیم منتصر، عطية الصوالحي، محمد خلف الله أحمد، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط ٤، ٢٠٠٤
٢. إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، التعااضدية العمالية للطباعة والنشر، الجمهورية التونسية، ١٩٨٦
٣. ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت، لبنان، ط ٤، ١٩٨١
٤. أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال، تحقيق: محمد أبو ليلة ونور شيف عبد الرحيم رفعت، جمعية البحث في القيم والفلسفة، واشنطن، ٢٠٠١
٥. إحسان عباس، فن السيرة، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ط ١، ١٩٩٦
٦. أحلام واصف مسعد، مرايا الأب والسلطة، قراءة في سوسيو ثقافية في السيرة الذاتية العربية المعاصرة، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦
٧. أحمد أمين، حياتي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة
٨. أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، (المجلد الثاني)، عالم الكتب، ط ١، ٢٠٠٨
٩. إدوارد ج. موراي، الدافعية والانفعال، ترجمة: أحمد عبد العزيز سلامة، دار الشروق، القاهرة، ط ١، ١٩٩٨
١٠. أس. ج. هوفمان، العلاج المعرفي السلوك المعاصر، ترجمة: د مراد على عيسى، دار الفجر للنشر والتوزيع، ٢٠١٢

١١. أندريه مورو، فن التراجم والسير الذاتية، ترجمة: أحمد درويش، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٩
١٢. أنيس المقدسي، الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة، دار العلم للملايين، بيروت، ط٦، ٢٠٠٠
١٣. إيغوركون، البحث عن الذات دراسة في الشخصية ووعي الذات، ترجمة: الدكتور غسان نصر، دار معد للنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٩٢
١٤. إيهاب النجدي، أدب الاعتراف (مقاربات تحليلية من منظور سردي)، دار المعارف، مصر، ط١، ٢٠١٥
١٥. بنيامين ب. لاهي، علم النفس، مقدمة، جامعة شيكاغو، ط١١
١٦. تهاني عبد الفتاح شاكر، السيرة الذاتية في الأدب العربي: فدوى طوقان وجبرا إبراهيم جبرا واحسان عباس نموذجاً، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٢
١٧. توفيق الحكيم، فن الأدب، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٨٨
١٨. تيم إدواردز، النظرية الثقافية: وجهات نظر كلاسيكية ومعاصرة، ترجمة وتقديم: محمود أحمد عبد الله، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٢
١٩. جبران مسعود، معجم الرائد، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط٧، ١٩٩٢
٢٠. جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، لبنان، ط١، ١٩٧٩
٢١. جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
٢٢. جلال الدين السيوطي، التحدث بنعمة الله، تحقيق: اليزابث ماري سارتين، المكتبة العربية الحديثة، مصر

٢٣. جورج ماي، السيرة الذاتية، تعريب: أ.د. محمد القاضي و أ.د. عبد الله صولة، رؤية للنشر

والتوزيع، القاهرة، ط ١، ٢٠١٧

٢٤. جون ستوري، النظرية الثقافية والثقافة الشعبية، ترجمة: د. صالح خليل أبو أصبع و د. فاروق

منصور، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، كلمة، أبو ظبي، الطبعة الأولى، ٢٠١٤

٢٥. حميد لحمداني، بنية النص السردي، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت،

الطبعة الأولى، ١٩٩١

٢٦. حنا فاخوري، تاريخ الأدب العربي، المطبعة البولسية، لبنان، ط ٢، ١٩٥٣

٢٧. الخبز الحافي، محمد شكري، دار الساقى، بيروت، لبنان، ط ٦، ٢٠٠٠

٢٨. د. أحمد عزت راجح، أصول علم النفس، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة

السابعة، ١٩٦٨

٢٩. د. سامي الدروبي، علم النفس والأدب، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية.

٣٠. د. شاه عالم وآخرون، الأدب المقارن، مادة تعليمية للفصل الثالث للماجستير في الإنجليزية،

مديرية التعليم عن بعد، جامعة مولانا آزاد الأردية الوطنية، هيدر آباد، ط ١، ٢٠٢٤

٣١. د. محمد بن إبراهيم النعيم، الاعتراف بالذنب مطلب شرعي (كتاب إلكتروني)، قسم الكتب،

شبكة الألوكة

٣٢. دنيال مندليسون وآخرون، قضايا أدبية: نهاية الرواية وبداية السيرة الذاتية، ترجمة عربية حمد

العيسى، الدار العربية للعلوم ناشرون ش م ل، ط ١، ٢٠١١

٣٣. دوايت ف. رينولدز (تحرير)، ترجمة النفس: السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، ترجمة:

سعيد الغانمي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة)، أبو ظبي، ط ١، ٢٠٠٩

٣٤. رفاعة رافع الطهطاوي، تخلص الابريز في تلخيص باريز، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٠.
٣٥. رفيقة بوجنان، أحمد فارس الشدياق وجهوده المعجمية (أطروحة ماجستير)، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة أوبكر بلقايد، الجزائر
٣٦. زكريا إبراهيم، مشكلة الانسان، دار مصر للطباعة، القاهرة
٣٧. زيودين ساردار وبورين قانلون، الدراسات الثقافية ترجمة: وفاء عبد القادر، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٣.
٣٨. سايمون ديورنغ، الدراسات الثقافية: مقدمة نقدية، ترجمة: د. ممدوح يوسف عمران، عالم المعرفة، الكويت، ٢٠١٥.
٣٩. سفيتان تودوروف، مفهوم الأدب ودراسات أخرى، ترجمة: عبود كاسوحة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٢.
٤٠. سلامى موسى: تربية سلامى موسى، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر.
٤١. السيد عنورة، علي محمد: أثر البداوة في شعر خدّاش بن زهير العامري، مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية، العدد السابع والثلاثون، يونيو ٢٠٢٢.
٤٢. سيغموند فرويد، مدخل إلى التحليل النفسي، ترجمة: جورج طرابيش، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩٥.
٤٣. شكري مبخوت، سيرة الغائب سيرة الاتي: السيرة الذاتية في كتاب الأيام لطفه حسين
٤٤. شوقي ضيف، الادب العربي المعاصر في مصر، دار المعارف، القاهرة، ط ١٠.
٤٥. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي: العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ط ١١.
٤٦. الشيخ أحمد مغنية، تاريخ العرب القديم، دار الصفوة، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٩٤.

٤٧. طلعت منصور وآخرون، أسس علم النفس العام، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ٢٠٠٣.
٤٨. طه حسين، أديب، مؤسسة الهنداوي، المملكة المتحدة، ٢٠١٤.
٤٩. طه حسين، الأيام، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط ١، ١٩٩٢.
٥٠. طه حسين، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية تحليل ونقد، تعريب من الفرنسية: محمد عبد الله عنان، لجنة الترجمة والنشر، مصر، ١٩٢٥.
٥١. عباس محمود العقاد، الثقافة العربية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٣.
٥٢. عبد الرحمن بدوي، إلى طه حسين في عيد ميلاده السبعين (دراسات)، دار المعارف، مصر ١٩٦٢.
٥٣. عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي، رحلة ابن خلدون، تحقيق: محمد بن تاويت الطلنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٤.
٥٤. عبد الرحمن شكري، الاعتراف وهو قصة نفس، مؤسسة الهنداوي، المملكة المتحدة، ٢٠١٩.
٥٥. عبد العزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، مؤسسة الاسراء للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٢.
٥٦. عبد الله إبراهيم، السرد والاعتراف والهوية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ط ١، ٢٠١١.
٥٧. عبد الله إبراهيم، موسوعة السرد العربي، قنديل للطباعة والنشر والتوزيع، دبي، دولة الإمارات المتحدة، ط ١.
٥٨. عبد المحسن طه بدر، تطور الرواية العربية الحديثة في مصر (١٨٧٠-١٩٣٨)، دار المعارف، القاهرة، ط ٣، ١٩٧٢.
٥٩. عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه: دراسة ونقد، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠١٣.
٦٠. عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي (الجزء الأول)، ط ٤، ١٩٨١.

٦١. عوض علي الغباري، السيرة الذاتية للإمام الحافظ جلال الدين السيوطي في كتاب التحدث

بنعمة الله

٦٢. غسان عبد الخالق، النماذج التراثية والنزعة الوجودية في سيرة (فدوى طوقان) الذاتية، جامعة

فيلاديلفيا، الأردن، ١٩٩٨

٦٣. فاضل ثامر، المقموع والمسكوت عنه في السرد العربي، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق،

الطبعة الأولى، ٢٠٠٤

٦٤. فاضل ثامر، المقموع والمسكوت عنه في السرد العربي، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق،

الطبعة الأولى، ٢٠٠٤

٦٥. فدوى طوقان، رحلة جبلية رحلة صعبة، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط٢،

١٩٨٥

٦٦. فدوى مالطي دوغلاس، العبي والسيرة الذاتية، ترجمة: الدكتورة لمياء محمد صالح باعشن،

دراسة في كتاب الأيام لطفه حسين، مؤسسة الإمامة الصحفية، الرياض، ٢٠٠١

٦٧. فيليب لوجون، السيرة الذاتية، الميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمة عمر حلي، المركز الثقافي العربي،

بيروت، ط ١، ١٩٩٤

٦٨. القاموس الموحد لمصطلح الآداب الحديثة (الانجليزية - الفرنسية - العربية)، المنظمة العربية

للتربية والثقافة والعلوم، ٢٠١٥

٦٩. القرآن الكريم

٧٠. كامل محمد محمد عويضة، علم النفس الشخصية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى،

١٩٩٦

٧١. مجدي وهبة وكامل مهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت،

ط٢، ١٩٨٤

٧٢. محمد سرور بن نايف زين العابدين، دراسات في السيرة النبوية، دار الأرقم للنشر والتوزيع،

برمنجهام، المملكة المتحدة، الطبعة الثانية، ١٩٨٨

٧٣. محمد عبد الله عنان، بن خلدون حياته وتراثه الفكري، مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية،

القاهرة، ط٢، ١٩٥٣

٧٤. محمد قطب، دراسات في النفس الإنسانية، دار الشروق، القاهرة، الطبعة العاشرة، ١٩٩٣

٧٥. محمد متولي الشعراوي، هذا ديننا، دار الروضة للنشر والتوزيع، القاهرة

٧٦. محمد مندور، الأدب وفنونه، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٦

٧٧. مرتضى مطهري، ترجمة: عرفان محمود، التوحيد، دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع،

بيروت، ٢٠٠٣

٧٨. مصطفى مسلم والدكتور فتحي محمد الزعبي، لثقافة الاسلامية تعريفها مصادرها مجالاتها

تحدياتها، إثراء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط١، ٢٠٠٧

٧٩. ميخائيل نعيمة، سبعون، مؤسسة نوفل، بيروت، ط١٢، ٢٠١١

٨٠. ناصيف نصار، الفكر الواقعي عند ابن خلدون، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط١،

١٩٨١

٨١. ندى محمود مصطفى الشيب، فن السيرة الذاتية في الأدب الفلسطيني (رسالة ماجستير)،

جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ٢٠٠٦

٨٢. ويملا ويراكوان (محرر النص)، الشخصية: نظريات وتقييم (مادة دراسية لماجستير في علم

النفس)، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة إنديراغاندي الوطنية المفتوحة، نيودلهي، ٢٠١٩.

٨٣. يان مانفريد، علم السرد: مدخل إلى نظرية السرد، ترجمة: أماني أبو رحمة، دار نينوى للدراسات

والنشر والتوزيع، سوريا، ط ١، ٢٠١١

٨٤. يحيى عبد الدايم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، دار الاحياء والتراث العربي،

بيروت، ١٩٧٤

المجلات والدوريات

١. مجلة التجديد، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، المجلد ٢٤، العدد ٤٧، ٢٠٢٠ م

٢. أحمد حسين الطماوي، أدب الاعتراف بين الرفض والقبول، مجلة الهلال، يونيو ٢٠٠٤

٣. علي أدهم، الاعتراف والمعتفون، الهلال، مايو، ١٩٤٣

٤. الرومانسية في الشعر العربي، مجلة الرائد، ندوة العلماء، لکناؤه، الهند، ١٣ أبريل ٢٠٢١

٥. د. إيهاب النجدي، أدب الاعتراف: مقارنة في النشأة والتطور، مجلة كلية دار العلوم، جامع

القاهرة، العدد ٦٠، ٢٠١١

٦. عامر عبد زيد الوائلي، أدب الاعتراف ومسوغات الغياب، مجلة الجديد، العدد ٤٩، فبراير ٢٠١٩

٧. إيمان عبد الرازق، تأثير أسلوب حياة الانسان البدائي على السمات الفنية لرسومه التعبيرية،

مجلة كلية التربية، جامعة بورسعيد. العدد التاسع، الجزء الأول، يناير ٢٠١١

٨. هنادي عيسى مهنا، مجالات الفطرة: دراسة تحليلية في ضوء القرآن الكريم، مجلة العلوم

الإنسانية والاجتماعية، العدد ٦، المجلد ٣، يونيو ٢٠١٩ م

٩. مجلة الرسالة، العدد ٤٤٧

١٠. د. معيض بن عطية القرني، أ. د. عبد الحميد بن سيف الحسامي، المكاشفة في السيرة الذاتية

العربية-دائرة تداولية-، مجلة آفاق للعلوم، المجلد ٦، العدد ١، ٢٠٢١

١١. د. حفيظة سوامية، المكاشفة وكتابة الاعتراف في الرواية العربية المعاصرة، مجلة النص، المجلد

٦، العدد ٢، ٢٠٢٠

المصادر والمراجع في الانجليزية

1. Pascal, R. (1960). Design and Truth in Autobiography (1st ed.). Routledge
2. DWIGHT F. REYNOLDS (ed.): Interpreting the self: autobiography in the Arabic literary tradition. ix, 336 pp. Berkeley, Los Angeles and London: University of California Press, 2001
3. Rooke, T. (1997). In My Childhood: A Study of Arabic Autobiography (PhD dissertation, Almqvist & Wiksell International). Retrieved from <https://urn.kb.se/resolve?urn=urn:nbn:se:su:diva-61733>
4. Dr. Abhijeet Kumar Mishra, "Autobiography": Nature and History, International Journal of Scientific Research in Science, Engineering and Technology (IJSRSET), Print ISSN: 2395-1990, Online ISSN: 2394-4099, Volume 3, Issue 6, pp.1124-1127, September-October-2017
5. Joseph T. Shipley (ed.), Dictionary of world literature: criticism – forms – technique, The philosophical library, New York.
6. Al Ghazali: Deliverance from Error and Mystical Union with Almighty, (Critical edition, translation and introduction by Dr. (Professor) Muhammad Abu Laylah), The Council for Research in Values and Philosophy, Washington, USA, 2021

المواقع الالكترونية

1. <https://islamonline.net/archive>
2. <https://alsard.wordpress.com/2011/11/05/>
3. <https://al-ain.com/article/unique-book-imam-biography>
4. <https://www.aljazeera.net/opinions/2009/12/24>
5. https://ar.wikipedia.org/wiki/طه_حسين
6. <https://www.britannica.com/art/confession-literature>
7. <https://doi.org/10.4324/9781315674605>
8. <https://www.britannica.com/art/autobiography-literature>
9. <https://middle-east-online.com/تاريخ-السيرة-الذاتية-واشكالية-الحديث-عن-الذات/>
10. <https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/اعتراف/>
11. <https://www.britannica.com/topic/confession-religion>
12. <https://alraid.in/april-2021-13/>
13. [https://ar.wikipedia.org/wiki/زينب_\(رواية\)](https://ar.wikipedia.org/wiki/زينب_(رواية))
14. www.aljadeedmagazine.com
15. <https://search.mandumah.com/Record/148112>
16. <https://repository.najah.edu/items/bcb318ba-8811-48c8-a477-4a10ab48891e>
17. <https://www.goodtherapy.org/blog/psychpedia/catharsis>
18. <https://dictionary.apa.org/catharsis>
19. <https://www.verywellmind.com/what-is-catharsis-2794968>
20. [https://ar.wikipedia.org/wiki/تطهير_\(أرسطو\)](https://ar.wikipedia.org/wiki/تطهير_(أرسطو))
21. <https://quangduc.com/a57733/chapter-6>
22. https://en.wikipedia.org/wiki/Sacrament_of_Penance
23. <https://www.alriyadh.com/1955351>

CERTIFICATE

This is to certify that this thesis titled “**Confessional Elements in Arabic Autobiographical Writings: A Critical Analysis of Selected Texts**” submitted to the University of Calicut, in partial fulfilment of the requirements for the award of Doctor of Philosophy in Arabic Language and Literature, is a bonafide record of research work carried out by **USMAN M.K.** under my supervision and no part of the thesis has formed for the award of any degree earlier.

Place: Farook College

Date: 30. 09. 2024



Dr. Saidalavi C.

Research Guide,
P.G. & Research Department of Arabic,
Farook College, Kozhikode
Former Principal,
Unity Women's College, Manjeri

DECLARATION

I, **USMAN. M.K**, hereby declare that the work presented in the thesis entitled **“Confessional Elements in Arabic Autobiographical Writings: A Critical Analysis of Selected Texts”** is based on the original work done by me under the guidance of **Dr. Saidalavi C.**, and has not been included in any other thesis submitted previously for the award of any degree. The contents of the thesis are undergone plagiarism check using **iThenticate** software at C.H.M.K. Library, University of Calicut, and the similarity index found within the permissible limit. I also declare that the thesis is free from AI generated contents.



Usman M.K.

(Research Scholar)



Dr. Saidalavi C.

Research Guide,
P.G. & Research Department of Arabic,
Farook College, Kozhikode
Former Principal,
Unity Women's College, Manjeri

Place: Farook College

Date:30.09.2024



DECLARATION

CERTIFICATE

This is to certify that the thesis entitled “**Confessional Elements in Arabic Autobiographical Writings: A Critical Analysis of Selected Texts**” submitted by **USMAN. M.K.** for the award of the degree of Doctor of Philosophy in the faculty of language and Literature, University of Calicut doesn't require any modification as no adjudicator has recommended for the same. However, the typographical errors and other linguistic missing have been rectified to the maximum and the contents in the thesis and the soft copy are one and the same.

Place: Farook College

Date: 09.04.2025



Dr. Saidalavi C.

Research Guide,
P.G. & Research Department of Arabic,
Farook College, Kozhikode
Former Principal,
Unity Women's College, Manjeri



Confessional Elements in Arabic Autobiographical Writings: A Critical Analysis of Selected Texts

*Thesis Submitted to the University of Calicut
in partial fulfilment of the requirements for the Award of the*

DEGREE OF DOCTOR OF PHILOSOPHY

in Arabic Language and Literature

By

USMAN. M.K.

Under the supervision of

Dr. SAIDALAVI C.

Research Guide, P.G. & Research Department of Arabic
Farook College (Autonomous), Kozhikode.
Former Principal, K.A.H.M. Unity Women's College,
Manjeri, Malappuram, Kerala.



UNIVERSITY OF CALICUT

KERALA, INDIA

2024